

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
قسم الدراسات العليا العربية
فرع البلاغة



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٣٦٠٥

المقابلة في آيات الجزاء

دراسة وتحليل وموازنة

دراسة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة

إعداد

الطالبة : رباب صالح جمال

إشراف

أ.د/ محمد محمد أبو موسى



٣٦٠٥

الجزء الأول

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فهذا البحث يتضمن دراسة وتحليل آيات المقابلة في الجزاء ويوازن بينها مبيناً نقاط الاختلاف والاتفاق . وقد اقتضت طبيعة الموضوع التمهيد للدراسة بتتبع المقابلة في كتب البلاغيين وتبيين تصورهم لها وطريقة تحليلهم لصورها . ثم تم إعداد مدخل للدراسة تناول بيان احتفاء المفسرين بالمقابلة في الجزاء وتبيينهم لابتناء عادة القرآن في الجزاء عليها . وقد انقسمت فيه الآيات قسمين : قسم للأعمال القلبية وجزائها ويدخل ضمن هذا القسم جزء الإيمان مقابلاً للكفر وجزء نوازع النفس ، وقسم للأعمال القلبية مقترنة بغيرها .

وقد جاءت آيات هذا القسم الأخير في ثلاث صور : تارة يذكر الإيمان مع لفظ العمل الصالح مقابلاً للكفر وسيء الأعمال كالصدق عن سبيله وما شابهه ، وتارة يذكر الإيمان مع نوع العمل الصالح من صلاة وجهاد ونفقة في سبيل الله مقابلاً للكفر وسيء الأعمال ، ويأتي ثالثاً في صورة ما يدل على اقتران الإيمان بالعمل الصالح مقابلاً للكفر وسيء الأعمال نحو الموازين وإيتاء الكتب وما شابه ذلك .

ولاختلاف وتميز القابلات القرآنية - مثل سائر الأساليب البلاغية - عن غيرها من الفنون الأدبية ، فقد اهتم البحث بدراسة بنائها البلاغية ، فدرست هذه الخصائص من عدة أوجه: من حيث نسق المعاني، ومن حيث تركيب جمل المقابلة وروابطها، ومن حيث ضروب البيان التي صيغت المقابلة بها أو جاءت عقبها، ومن حيث ضروب المقابلات وخصائصها في القرآن، وختم البحث بخاتمة رُصدت فيها نتائج البحث .

وقد تم تحليل الآيات في ضوء أقوال المفسرين والعلماء دون أن يسير غور القرآن الكريم ، فله الفضل والمنة على ما أعان ويسر، وله الحمد في الأولى والآخرة ، ونسأله التوفيق والعصمة من الزلل ونستغفره من كل تقصير وخلل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

عميد كلية اللغة العربية

المشرف

الباحثة

د . صالح جمال بدوي

د . محمد محمد أبو موسى

رباب صالح جمال

١١/١٣

محمد محمد أبو موسى

رباب صالح جمال

مقدمة البحث

الحمد لله القائل { والله ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى } ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث للعالمين بالهدى والرحمة والبشرى وعلى آله وصحبه ومن والاه . ونستغفره تعالى ونتوب إليه ونسأله العصمة من الزلل والتوفيق لما يحبه ويرضاه .

لقد خلق الله تعالى السموات والأرض بالحق فقال { وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون } وفي ضمن هذا الحق — كما نبه إليه المفسرون — الذي لا يصلح التدبير إلا به إيجاد الثواب والعقاب إقراراً للحق وتمييزاً للمحسن من المسيء .

ولهذا الجزاء باعتباره من مقتضيات الحكمة دوره في تدبير الأمور على مقتضاياتها بمقابلة الإحسان من العبد بالإحسان من الله وزيادة ، ومقابلة الإساءة منه بمثلها ، وله أهميته في الدعوة إلى الإيمان والحث عليه وعلى الطاعات والنهي عن الكفر والآثام . فالجزاء عدل ورحمة ، عدل لأنه يحق الحق ويضع الأمور في مواضعها اللائقة بها ، ورحمة لأنه يكافيء المحسن بإحسانه ويردع المسيء عن إساءته فتتحقق منفعته . وحين لا يستقر الإيمان بتحقيق الجزاء في القلب تضل السبل وتزل الأقدام وتغشى النفوس كآبة اليأس والقنوط .

والأعمال التي تستوجب الجزاء نوعان أحدهما يبدو واضحاً جلياً ، والآخر مكنوناً مستورا في القلب ، وذلك هو نوازع النفوس ومقاصدها إلى الأعمال . ولمعرفة جزاء هذا النوع من الأعمال أهمية كبرى في صلاح النفوس وتزكيتها سواء كان المنزع النفسي متجهاً وقاصداً إلى الأعمال الخيرة أو خلافاً ، أو موجهاً من العبد تجاه نعم الله عليه بالشكر أو الكفران وابتلاءاته بالصبر والرضا أو الجزع والسخط .

وقد قامت عادة القرآن على ذكر جزاء الأعمال مع ما يقابلها سواء كان ضداً لها أو خلافاً لما لذلك من أهمية في إبراز التباين بين المتقابلين بما يدعو إلى اتباع أحدهما و

اجتناب الآخر . وعلى أهمية هذا الأمر لم يحتفل به البلاغيون احتفال المفسرين ودرسوا المقابلة ضمن فنون البديع المحفوفة بكثير من الحذر في تناولها . ولأهمية هذا الموضوع في حياة و ميزان المسلم، وعمق تأثيره حين وروده في أسلوب المقابلة ، ولأنه لم يفرد تحليل آياته بلاغياً بالدراسة مع كثرة الدراسات القرآنية فقد وقع اختياري بعد خيرة الله لي على موضوع (المقابلة في آيات الجزاء) . و اعتمدت في تناول هذه الآيات بالدرس و التحليل أولاً على كتب التفسير ، ثم على كتب البلاغة و استعنت ببعض كتب العلماء و الباحثين التي عرضت لدراسة الآيات القرآنية - مجال البحث - بالدرس و التحليل .

وربتُ الآيات حسب ترتيب النزول لما تعين عليه معرفة مناسبة الآيات والمخاطبين بها من إدارك مقاصدها . فبدأت بالملكي ثم المدني في كل موطن من مواطن الدراسة إلا في مواطن المقارنات بين الآيات التي تقتضي جمع المشابهات .

و الصعوبة الكبرى كانت هي تلك الرهبة التي تعترى المرء وهو يقف أمام جلال النص القرآني ، ورفعة كلام المفسرين والعلماء ليخط بين سطور هذه القمم خطأ ويضيف ملحظاً . فالقول في معاني كتاب الله العزيز الذي { لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه } ، قول محفوف بالمخاطر وقد تهوي الكلمة الخاطئة فيه بصاحبها في النار سبعين خريفاً ، وشرح أقوال المفسرين الذين فقهوا اللسان العربي وبلغوا من علوم الشريعة مبلغاً كبيراً وفهم مقاصدهم أمر يتطلب حذراً وأمانة حتى لا توجه مقاصدهم توجيهاً غير صحيح أو غير مرضٍ . و مع هذا فلا بد للباحث أن يجتهد ليستنبط من كلامهم ما يضيء السبل و إلا أغلق باب درس كتاب الله وبلاغته وهو من البحوث الشريفة ، و خدمة كتاب الله الكريم شرف تطمح إليه كل نفس مؤمنة ، و أفق لا يبلغه أحد و إنما هي جهود يفتح الله بها على من يشاء ، لينير الدروب، ويوضح معالم الطريق ، و يبقى الكتاب الكريم كترلاً لا ينفد و معيناً لا ينضب لكل من رام الارتواء منه إلى قيام الساعة .

و حين بدأت أجمع الآيات الخاصة بالبحث وجدتها تنقسم قسمين قسم يتحدث عن الإيمان و الكفر منفردين ، باعتبارهما أعمالاً قلبية يتبعها العمل بدرجاته المتفاوتة ، و يدخل

فيه نوازع النفس ، و قسم يذكر الإيمان و الكفر مقترنين بالأعمال . و وجدت هذا القسم يتفاوت في عرض هذا الأمر فبعضه يقتصر على لفظ عمل الصالحات ، و بعضه يحدد نوع العمل من صلاة و نفقة و نحوها ، و قسم ثالث يتحدث عن أمور تدل على اجتماع الإيمان و العمل مقابل الكفر و سبب الأعمال ولم يكن سبب الأعمال يذكر دائماً ، لما سيتضح من خلال البحث من أن الإيمان ينفع العبد معه العمل الصالح أما الكفر فيكفي وحده في حصول العذاب حتى لو لم يصحبه عمل سيئ .

و بعد أن عرضت لهذين القسمين الرئيسين ، القسم الذي يذكر جزاء الكفر مقابلاً للإيمان غير مقترنين بالعمل ، و القسم الذي يذكرهما مقترنين بالعمل ، و تعرضت لما يتفرع عنهما كجزء نوازع النفس خصصت الباب الأخير لرصد ما اتضح من خصائص وميزات انفردت بها آيات المقابلة في الجزاء فبدأت بدراسة المعاني في الآيات و ارتباط بعضها ببعض ثم أنواع التراكيب وخصائصها ثم ما جاء في الآيات من علم البيان من تمثيلات و تشبيهات ثم ضروب المقابلات التي وردت وخصائصها . و ختمت البحث بخلاصة لما ورد فيه من ملحوظات . و على هذا فقد جاء ترتيب البحث كالآتي :

التمهيد : و عرضت فيه مفهوم المقابلة باعتبارها فناً بلاغياً ، في كتب الدرس البلاغي مدخل : و عرضت فيه لما سماه بعض المفسرين السنة الإلهية في القرآن ، أو عاداته سبحانه ، أو عادة القرآن . وهو قيام أغلب آيات الجزاء على إعقاب ذكر الثواب بالعقاب والعكس ، تحقيقاً لمبدأ الترغيب والترهيب .

الباب الأول :- المقابلة في وصف جزاء الأعمال القلبية

الفصل الأول : المقابلة في وصف جزاء الإيمان و الكفر وفيه تذكر آيات وصف جزاء المتقين والمؤمنين ومتبعي الهدى مقابلين بالظالمين والطاغين والمجرمين ونحو ذلك .

الفصل الثاني : المقابلة في وصف جزاء نوازع النفس وفيه تذكر آيات وصف جزاء إرادة الدنيا مقابل إرادة الآخرة ، وجزاء الشكر مقابل الكفران ، وجزاء التوبة مقابل النكث ونحو ذلك .

الباب الثاني :- المقابلة في وصف جزاء الإيمان والكفر مقترنين بالعمل وفيه ثلاثة فصول .

الفصل الأول : المقابلة في وصف جزاء الإيمان مقترناً بالعمل الصالح والكفر مع سيئ الأعمال وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الجزاء المفصل . وهو ما جاء فيه جزاء الإيمان والعمل الصالح الجنات مفصلاً في نعيمها مع اختلاف درجات هذا التفصيل .

المبحث الثاني : الجزاء المجمل . وهو ما جاء فيه جزاء الإيمان والعمل الصالح ما يشير إلى الجنات ضمناً نحو الرزق الكريم والأجر الكريم أو الحسن ، أو استلزماً نحو المغفرة .

الفصل الثاني : المقابلة في وصف جزاء الإيمان مقترناً بنوع العمل نحو الصلاة أو النفقة والكفر مع سيئ الأعمال وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الجزاء المفصل .

المبحث الثاني : الجزاء المجمل .

الفصل الثالث : المقابلة في وصف جزاء ما يدل على اقتران الإيمان بالعمل والكفر مع سيئ الأعمال نحو الموازين وإيتاء الكتب لأن الذي يوضع في الميزان إيمان المرء مع عمله ، وصحائف الكتب يسجل فيها إيمان المرء أو كفره مع عمله وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الجزاء المفصل .

المبحث الثاني : الجزاء المجمل .

الباب الثالث : البناء البلاغي لآيات المقابلة في الجزاء وفيه أربعة مباحث :

الفصل الأول : التركيب البلاغي لآيات المقابلة وفيه مبحثان

المبحث الأول : نسق المعاني ويدرس فيه ارتباط المعاني في آيات الجزاء وترتب بعضها على بعض وإفضاء بعضها إلى بعض وتناميها وتكاملها .

المبحث الثاني : وتدرس فيه خصائص التراكيب وبناء الجمل و أنواعها ، وأنواع الروابط بينها .

الفصل الثاني : وفيه مبحثان .

المبحث الأول : وتدرس فيه التراكيب البيانية تلك التي جاءت

لتوكيد المقابلات في آيات الجزاء ، والتي صيغت المقابلة بها

المبحث الثاني : وتدرس فيه ضروب المقابلة التي وردت في

البحث وخصائصها

خاتمة البحث : وفيها إجمال لما نتج عن البحث من نتائج . وبعد :

فالحمد لله عدد ما خلق في السموات والأرض وما بينهما ، والحمد لله ملء ما في

السموات والأرض وما بينهما ، والحمد لله عدد ما أحصاه كتابه والحمد لله ملء ما أحصله

كتابه والحمد لله عدد كل شيء والحمد لله ملء كل شيء .

الحمد لله على ما أعان عليه في القيام بهذا البحث وما يسر من تمامه واسأله جل

جلاله - وأنا أضع هذا البحث بين يدي من يطلع عليه - أن يغفر لي تقصيري وخطئي

ويجعله - على ما فيه من جهد بشري غير معصوم وما عليه كاتبته من التقصير في حقه تعللي

- في ميزان المقبول من الأعمال إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

التمهيد

من خصائص الكلام البليغ وجود روابط وعلاقات تؤلف بين أجزائه وتختلف أنواع الروابط بين أجزاء الكلام ، فقد يكون الرابط المناسبة نحو ارتباط السبب بالمسبب والنظير بنظيره ، وقد يكون التضاد^١ .

والمقابلة من الفنون البلاغية التي يقع فيها الربط بالتناسب كما سيتضح فيما بعد ، والربط بالتضاد .

ويعد قدامة بن جعفر ت ٣٣٧ هـ من أوائل من تحدثوا عن المقابلة بوصفها فناً بلاغياً مستقلاً عن المطابقة في كتاب نقد الشعر وقد حدها بقوله : (وهو أن يصنع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض والمخالفة فيأتي في الموافق بما يوافق وفي المخالف بما يخالف على الصحة ، أو يشترط شروطاً ويعدد أحوالاً في أحد المعنيين ، فيجب أن يأتي في ما يوافقه بمثل الذي شرطه وعدده ، وفي ما يخالف بضد ذلك)^٢ . فالمقابلة عند قدامة تكون بذكر ما يوافق المذكور بإزائه إذا أريد الموافقة بينهما ، وبذكر ضده إذا أريد المخالفة ، ولكن الأمثلة التي ذكرها من قبيل التضاد فقط وقد أشار إلى مفهوم الموافقة مرة أخرى بعد ذكرها في التعريف ، عند تعليقه على قول الشاعر الذي ذكره في فساد المقابلات :

يا ابن خير الأخيـارِ من عبدِ شمسٍ أنت زينُ الدُّنيا وغيثُ الجنودِ

حيث قال : (فليس قوله : وغيث الجنود موافقاً لقوله زين الدنيا ولا مضاداً)^٣ .

ويلحظ فيما ورد لديه من أمثلة المقابلة أنه يفضل التناسب والتوازن بين طرفي المقابلة .

نلمح هذا في تعليقه على قول الشاعر :

١ - ذكر أنواع العلاقات السيوطي في فصل المشاكلة والمقاربة ، انظر جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ت ٩١١ هـ ، الإتقان في علوم القرآن دار الندوة الجديدة ج ٢ ص ١٠٨ وما بعدها .

٢ - أبو الفرج قدامة بن جعفر ت ٣٣٧ هـ نقد الشعر تحقيق محمد بن عبد المنعم خفاجي دار الكتب العلمية ص ١٤١ . في الكتاب المعين والصواب المعنيين .

٣ - قدامة، نقد الشعر ص ١٩٤ ، وانظر أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ت ٣٩٥ هـ كتاب الصنائع الكتابة والشعر تحقيق د . مفيد قميحة دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ص ٣٧٤ ، وأبو محمد عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي ت ٤٦٦ هـ ، سر الفصاحة ، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي مكتبة ومطبعة علي صبيح وأولاده ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ص ٢٥٩ ، أبو الحسن حازم القرطاجني ت ٦٨٤ هـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة دار الغرب الإسلامي لبنان الطبعة الثالثة ١٩٨٦ م ص ٥٥ .

تشق في حيث لم تُبَعِد مصعداً ولم تصوّب إلى أدنى مهاويها

حيث يقول : (ولو جعل بإزاء الإبعاد في الصعود الهوي من غير أن يقول أدنى المهاوي لكنت المقابلة ناقصة)^١ ، فهو يعجب بالشاعر لأنه قابل الإبعاد في الصعود بأدنى الهوي وليس (الهوي) فقط ، أما ترتيب المقابلة نفسه فلم يشترطه في التعريف ، وفي الأمثلة بدليل استشهاده بقول الشاعر :

أسرناهم وأنعمنا عليهم وأسقيناً دماءهم الترابا
فما صبروا لبأسٍ عند حربٍ ولا أدوا لحسنٍ يدٍ ثواباً

فقد جاء ذكر الصبر على البأس في بداية البيت الثاني والمذكور في بداية البيت الأول الإنعام ، وذكر مقابل الإنعام في عجز البيت الثاني ، مما جعل ابن رشيق ت ٤٥٦ هـ يلومه قلئلاً : (لكن قدامة لم يبالٍ بالتقدم والتأخير في هذا الباب)^٢ . وقد ذكر هذا الشاهد العسكري^٣ وابن سنان الخفاجي^٤ ، وعدّه من صحيح المقابلة . وقد وفق قدامة في عدم اشتراطه للترتيب الشكلي ، لأن الضرب العالي من المقابلة هو ما خضعت فيه عناصرها لمقتضيات المقام - كما سنرى في ثنايا البحث - وليس الترتيب الشكلي . فقد يكون في البدء بذكر الإنعام والختم بنكرانه إبراز لشدة التباين بين حال الفريقين المحسن والمسيء ، والتشنيع على المسيء لأن أول الكلام وآخره مما يثبت في الذهن ويرسخ في النفس ، فيكون على هذا إحسان المحسنين مقابل إساءة المسيئين ثابتاً في الذهن .

ولا يقف الأمر في هذين البيتين على اختلاف ترتيب المقابلة وإنما لحظ بعض البلاغيين خفاء وجهها . يقول ابن أبي الإصبع : (فإن ظاهر لفظ البيتين يؤذن بأن الشاعر أخل بمقابل قوله : " وأسقيناً دماءهم الترابا " لأنه قابل البأس بسلب الصبر والإنعام بنفي الثواب ، وليس الأمر

^١ - قدامة ، نقد الشعر ص ١٤١ .

^٢ - أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ت ٤٥٦ هـ ، العملة في محاسن الشعر وآدابه ونقده بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل لبنان الطبعة الخامسة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م - ج ٢ ص ١٥ .

^٣ - انظر العسكري ، كتاب الصناعتين ص ٣٧٣ .

^٤ - انظر ابن سنان ، سر الفصاحة ص ٢٥١ .

كذلك ، لأن القتل والأسر داخلان في بأس الحرب ، فهما شيء واحد وإن تعدد مقابلهما معاً بالصبر ، لأنه يكون عليهما ^١ .

وفي إطار وضع قواعد استحسان الفنون البلاغية ذكر قدامة من عيوب المعاني فساد المقابلات (وهو أن يضع الشاعر معنى يريد أن يقابله بآخر إما على جهة الموافقة أو المخالفة فيكون أحد المعنيين لا يخالف الآخر أو يوافقه) ^٢ . وحين تحدث عن التناقض في المعاني ذكر الجهات التي تتقابل عليها الأشياء وهي طريق الإضافة مثل الضعف إلى نصفه ، وطريق التضاد مثل الشرير والخير ، وطريق العدم والقنية مثل الأعمى والبصير ، وطريق النفي والإثبات مثل : زيد جالس وزيد ليس يجالس . ومنع أن يجتمع متقابلان من جهة واحدة ، وأجاز أن يجتمعا من جهتين نحو كون العشرة مثلاً ضعف الخمسة ونصف العشرين ^٣ .

أما أبو هلال العسكري ت ٣٩٥ هـ فقد جعل المقابلة بين المتوافقات والمتخالفات فقال : (المقابلة إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة) ^٤ ولم ينص على التضاد وإن أدخل أمثله ضمنها ، بل فضله على غيره كما يفهم من تعليقه على قول الشاعر :

وإذا حديثٌ ساءني لم أكتبُ وإذا حديثٌ سرّني لم آشر

بقوله : (وهذا في غاية التقابل) ^٥ . والمقابلة في الشاهد من قبيل التضاد لأن الاكتئاب ضد الأشر . وقد اتسع معنى المقابلة عنده حتى ذكر من شواهدنا نحو قول الشاعر :

ورثناهنَّ عن آباءٍ صدقٍ ونورثها إذا مِتْنَا بِنِينَا

فالمقابلة هنا أقرب إلى مراعاة النظير .

^١ - ابن أبي الإصبع المصري ت ٦٥٤ هـ ، تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، تحقيق د . حفي محمد شرف ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م ص ١٨٤ . في الكتاب اليأس والصواب بالباء الموحدة .

^٢ - قدامة ، نقد الشعر ص ١٩٣ .

^٣ - انظر قدامة ، نقد الشعر ص ١٩٥ و ابن سنان سر الفصاحة ص ٢٣٠ ، أبو طاهر محمد بن حيدر البغدادي ت ٥١٧ هـ ، قانون البلاغة في نقد النثر والشعر تحقيق د . محسن غياض عجيل ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ص ٤٠ .

^٤ - أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ص ٣٧١ .

^٥ - المصدر السابق ٣٧٣ .

ومما سبق إليه وتفرد به عدّه الجزاء مقابلة في المعنى ، فقد ذكر عدة آيات في الجزاء وعدها من مقابلة الفعل بالفعل نحو قوله تعالى : " فتلك بيوتهم حاوية بما ظلموا " ^١ ، وقوله تعالى : " ومكروا مكراً ومكرنا مكراً " ^٢ وقوله تعالى " نسوا الله فَنسيهم " ^٣ وقد سُمى بنجم الدين بن الأثير ت ٧٣٧هـ أمثال هذه الشواهد (مقابلة الشيء بمثله) ^٤ وقد يُستطاع القول إن إشارة أبي هلال كانت الأساس الذي بُني عليه فيما بعد تقسيم المقابلة إلى وفاقية وخلافية وضدية .

وجاء ابن رشيّق ت ٤٥٦ هـ ليُجعل الطباق بين الأضداد ، ويدخل في المقابلة ما يقرب من المضاد وهي المخالفة . يتضح ذلك من تعليقه على ما عابه الجرجاني في بيت كعب بن سعد الغنوي :

لقد كان أمّا حلمه فمروّحٌ علينا وأما جهله فعزيبُ

لقد عاب الجرجاني إدخال هذا البيت في أمثلة الطباق فردّ ابن رشيّق بقوله : (معنى قوله فيما أنكر أن البيت إنما حقه أن يكون في باب المقابلة ، لمقابلة الشاعر فيه كلمتين بكلمتين تقربان من مضادتهما وليستا بضدين على الحقيقة ولو كانتا ضدين لم يكن مازاد على لفظتين متضادتين أو مختلفتين إلا مقابلة) ^٥ فالحلم ضده الطيش وليس الجهل والجهل ضده العلم ، ومن هنا أنكروا الجرجاني على من يجعلهما من الطباق ورأى أن الأولى جعلهما من المقابلة لجواز أن تأتي المقابلة بين القريب من الأضداد وهو المسمى المخالف . ويرى ابن رشيّق بناءً على ورود أمثال هذا الطباق وهو المخالف لدى أئمة الصنعة كأبي تمام التسامح في إطلاق المصطلح وهذا دليل على مرونته في تحديد المصطلحات واعتماده على الذوق في التقاط دلالات التعبيرات البلاغية . يقول : (والناس متفقون على أن جميع المخلوقات مخالفة وموافق ومضاد فمتى وقع الخلاف في باب المطابقة فإنما هو على معنى المسامحة وطرح الكلفة والمشقة) ^٦ وفي النصّ إلماح إلى أنواع

١ - النمل ٥٢ .

٢ - النمل ٥٠ .

٣ - التوبة ٦٧ .

٤ - نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبي ت ٧٣٧ هـ ، جوهر الكنز تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي

البراعة تحقيق د . محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف بالاسكندرية ص ٨٨ .

٥ - ابن رشيّق العمدة ج ٢ ص ١٠ .

٦ - المصدر السابق .

المقابلة الخلافية والوفاقية والضدية . كما أشار إلى نوع آخر هو المقابلة في الوزن و يسمى بالموازنة نحو قول أبي الطيب :

نصيبك في حياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيال

فهناك موازنة بين قوله (في حياتك) وقوله (في منامك) وليس بضده ولا موافقه ، وكذلك بين قوله (من حبيب) و (من خيال) وليس ضده ولا موافقه وإنما تقطيعه في العروض واحد ^١ .

وفي تعريفه للمقابلة نصّ على وجوب ترتيب المتقابلين فقال : (وأصلها ترتيب الكلام على ما يجب فيعطى أول الكلام ما يليق به أولاً وآخره ما يليق به آخراً ويأتي في الموافق بما يوافقه وفي المخالف بما يخالفه) ^٢ . ومن انتصاره لوجوب الترتيب لومه قدامه الذي ذكر سابقاً على عدم مراعاة الترتيب في بيت الطرماح :

أسرناهم وأنعمنا عليهم ...

وقد كان ابن رشيق في أول ذكر المقابلة قد نص على أنها بين التقسيم والطباق ^٣ وهذا ما حداه إلى إدخال أشياء من التقسيم كان يجب أن لا تدخل مثل قول الشاعر :

حمارٌ في الكتابة يدعيها كدعوى آل حرب في زياد ^٤

ومن خلال تتبع ابن سنان الخفاجي ت ٤٦٦ هـ لعلاقات المعاني ذكر أن التضاد نوع من أنواع التناسب بين المعاني يقول : (فأما تناسب الألفاظ من طريق المعنى فإنها تتناسب على وجهين أحدهما أن يكون معنى اللفظتين متقارباً والثاني : أن يكون أحد المعنيين مضاداً للآخر أو قريباً من المضاد) ^٥ وهذا الاهتمام بالعلاقات بين المعاني و مشاربها إلى العقول والقلوب يشير إلى تقدير البلاغيين والنقاد العرب للقيم التعبيرية في الأنواع البلاغية وعدم اقتصرهم على توضيح القواعد الشكلية والعلاقات التقليدية .

^١ - انظر ابن رشيق العمدة ج ٢ ص ١٩ - ٢٠ ، وانظر ضياء الدين ابن الأثير ت ٦٣٧ هـ ، كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكتاب تحقيق د . نوري حمودي القيس . د . حاتم الضامن الاستاذ هلال ناجي طبع جامعة الموصل إيداع ١٩٨٢ م ص ١٤٦ - ١٤٧ .

^٢ - ابن رشيق ، العمدة ج ٢ ص ١٥ .

^٣ - انظر المصدر السابق .

^٤ - انظر المصدر السابق ج ٢ ص ١٨ .

^٥ - ابن سنان الخفاجي ، سر الفصاحة ص ١٩١ .

ثم ذكر ابن سنان أنواعاً من التضاد عند أصحاب صناعة الشعر كالطباق والسلب والايجاب ورأى - بعد أن صرح بعدم مخالفتهم في التسمية - أن الأفضل تسمية الجميع مطابقة لما يحمل معناها من عموم وشمول^١.

أما ابن أبي الإصبع المصري ت ٦٥٤ هـ فقد يبدو مفضلاً الترتيب في عناصر المقابلة، يلمح إلى ذلك استحسانه لبيت المتنبي :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأثنى وبياض الصبح يُعري بي

حيث يقول : (فإنه جمع بين عشر مقابلات قابل أزور بأثنى وسواداً ببياض والليل بالصبح ويشفع بيغري ولفظة لي بلفظة بي على الترتيب ولا أعلم في باب التقابل أفضل من هذا البيت لجمعه من المقابلات ما لم يجمعه بيت لشاعر قبله ولا بعده إلى يومنا هذا)^٢ . فهو يستحسن جمع هذه المقابلات العشر في البيت ، ولكن ذكره للترتيب يفهم أنه داخل في استحسانه . بل إنه نصّ على وجوب الترتيب في تعريفه للمقابلة حين قال : (صحة المقابلات عبارة عن توخي المتكلم ترتيب الكلام على ما ينبغي ، فإذا أتى بأشياء في صدر كلامه أتى بأضدادها في عجزه على الترتيب ، بحيث يقابل الأول بالأول ، والثاني بالثاني لا يخزم من ذلك شيئاً في المخالف والموافق ، ومتى أخل بالترتيب كان الكلام فاسد المقابلة)^٣ . ولا يعني هذا أن يكون الترتيب قاصراً على الناحية الشكلية ، بل قد يكون مضمناً في المعنى وهو ما سماه القوة الباطنة حين قال : (على أن الإخلال بصحة التقسيم في ظاهر اللفظ لا يفسد صحة المقابلة فرب كلام وقع في ظاهر لفظه إخلال ببعض أقسامه لكون ذلك القسم لم يذكر فيه بالفعل ، وكان مذكوراً فيه بالقوة في باطنه ، فجاء ظاهر لفظه يُوهم الإخلال وهو بريء منه ، كما جاء في قوله تعلى : " الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً " فقدّم في صدر الكلام أمران الوعد بالفقر ، والأمر بالفحشاء ، ثم قابل الشئيين في الظاهر بشيء واحد وهو الوعد ، فأوهم أنه أخلّ بذكر الأمر ، وليس كذلك وإنما لما كان الفضل مقابلاً للفقر ، والمغفرة مقابلة للأمر بالفحشاء لأن الفحشاء توجب العقوبة ، والمغفرة تقابل العقوبة ، استغنى بذكر

^١ - انظر ابن سنان ، سر الفصاحة ص ١٩٢ .

^٢ - ابن أبي الإصبع ، تحرير التحبير ص ١٨١ ، ١٨٢ .

^٣ - المصدر السابق ص ١٧٩ .

المقابل عن ذكر مقابله لأن ذكر أحدهما ملزوم ذكر الآخر^١ . فظاهر اللفظ أن هناك وعداً وأمرًا مقابلان لوعده فقط . ولكن الموعود به في الثاني شيان هما : المغفرة والفضل فتقابل المغفرة مع الأمر بالفحشاء ، والفضل بالوعد بالفقر . غير أن هذه المقابلة لم تأت مترتبة في الشكل لأن الفقر ذكر أولاً ثم الفحشاء مقابل ذكر المغفرة ثم الفضل ، مما يشير إلى أن قصد المصنف الترتيب في المعنى .

وقد نصّ على أن المقابلة تكون بالأضداد وبغيرها وجعل هذا فرقاً بينها وبين الطباق ، وأضاف فرقاً آخر متمثلاً في كون المطابقة بين ضدين فقط في حين أن المقابلة بين أربعة فأكثر^٢ .

وقد صرح بتفضيل المقابلة بالأضداد على غيرها قائلاً : (والمقابلة بالأضداد أفضل مراعاة للاشتقاق لأن التقابل التضاد والتناقض)^٣ ولكن القول بأن أصل المقابلة تضاد ، لا يشهد له الاستخدام العربي ، لأنهم قد يفسرون المناظرة بالمقابلة ، والمناظرة تكون بين الأشباه جاء في اللسان : (فلان نظيرك أي مثلك ... وهم يقولون دور آل فلان تنظر إلى دور آل فلان أي هي بازائها ومقابلة لها)^٤ . ويقول الزمخشري : (هو نظيره بمعنى مناظره أي مقابله و مماثله)^٥ بل إن إشارة العسكري وغيره إلى أن قوله تعالى " نسوا الله فسيهم " الذي يشير إلى أن الجزاء من جنس العمل ، من قبيل المقابلة وهو ليس بين ضدين مؤيدة تضمن معنى المقابلة للأضداد ولغيرها .

ثم جاء أبو الحسن حازم القرطاجني ت ٦٨٤ هـ فذكر متأثراً كما يبدو بابن سنان أن التضاد نوع من تناسب المعاني ثم تحدث عن مسميات مصطلح الطباق عند العلماء وقسم المطابقة إلى محضة وغير محضة^٦ ، مدخلاً فيها بعض أمثلة المقابلة^٧ ، وكل هذا كان قد جاء

^١ - ابن أبي الإصبع ، تحرير التحبير ص ١٨٣ .

^٢ - انظر المصدر السابق ص ١٧٩ .

^٣ - المصدر السابق ص ١٨٢ .

^٤ - أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور ، لسان العرب دار صادر بيروت ج ٥ ص ٢١٥ .

^٥ - جار الله أبو القاسم محمود الزمخشري ، أساس البلاغة دار صادر بيروت ص ٦٤١ .

^٦ - انظر القرطاجني ، منهاج البلغاء ص ٤٨ .

^٧ - انظر المصدر السابق ص ٤٨ وما بعدها .

عند ابن سنان ^١ .

ومما يحسب لحازم إشارته إلى القيمة البلاغية للمقابلة من جهة المتلقي قائلاً : (مَثُولُ الحَسَنِ إِزَاءُ القَبِيحِ أَوْ القَبِيحِ إِزَاءُ الحَسَنِ مِمَّا يَزِيدُ غِبْطَةَ البِوَاحِدِ وَتَحْلِيَا عَنِ الآخِرِ لِتَبِينِ حَالِ الضَّدِّ بِالمَثُولِ إِزَاءُ ضَدِّهِ فَلِذَلِكَ كَانَ مَوْجِعَ المَعَانِي المَتَقَابِلَاتِ مِنَ النَفْسِ عَجِيبًا) ^٢ فوجود الضد أمام ضده مما تعجب له النفوس ، ويزيدها إعجابا البعد بين الطرفين وهذا ما أشار إليه حين قال : (وكلما كانت التماثلات أو المتشابهات أو المتخالفات قليلاً وجودها وأمكن استيعابها مع ذلك أو استيعاب أشرفها وأشدّها تقدماً في الغرض الذي ذُكرت من أجله كانت النفوس بذلك أشد إعجاباً وأكثر له تحركاً) ^٣ . وقد ذكر أن الطباق يشمل الضد والمخالف وهو ما يقرب من الضد نحو قول الشاعر :

بِأَنَّا نوردُ الرِّايَاتِ بِيضاً وَنُصدِرُهُنَّ حُمْراً قَد رُوينا ^٤

فالبياض مقابل للحمرة من حيث أن الأول كناية عن بداية المعركة والثاني كناية عن نهايتها ، ثم أضاف فيما بعد ما ينزل منزلة الضد نحو قول الشاعر :

أبكي وَييسمِ والدجى ما بيننا حتى أضاءَ بثغره ودُموعي

حيث قال : (فتنزل التبسم منزلة الضحك في المطابقة) ^٥ ، وفي تعريفه للمقابلة أشار إلى عنصري الاختلاف والتقارب في العلاقة بين المتقابلين فقال : (وإنما تكون المقابلة في الكلام بالتوفيق بين المعاني التي يطابق بعضها بعضاً والجمع بين المعنيين اللذين تكون بينهما نسبة تقتضي لأحدهما أن يذكر مع الآخر من جهة ما بينهما من تباين أو تقارب على صفة من الوضع تلائم بها عبارة أحد المعنيين عبارة الآخر كما لاءم كلا المعنيين في ذلك صاحبه) ^٦ ، فالمقابلات تكون بالموافقة وبالمخالفة والتضاد وقد ذكر أن أوضح المقابلات مقابلة التضاد والتخالف كما فضّل الترتيب في المقابلات وإن لم يشترطه وذلك حين يقول : (وليس يشترط

^١ - انظر ابن سنان ، سر الفصاحة ص ١٩٣ وما بعدها .

^٢ - القرطاجني ، منهاج البلغاء ص ٤٥ .

^٣ - المصدر السابق ص ٤٦ .

^٤ - انظر المصدر السابق ص ٤٩ .

^٥ - المصدر السابق .

^٦ - المصدر السابق ص ٥٢ .

تحاذي عبارتي المعنيين المتقابلين في طرفي الكلام في الرتبة وإذا أمكن تقابلهما فهو أحسن^١ وضمن الأمثلة التي ذكرها أتى بما يدخل في نطاق التوافق نحو قول الشاعر الذي ذكره العسكري قبله في الصناعتين :

أهز بها في ندوة الحي عطفه كما هزّ عطفي بالهجان الأوارك

وهذا مما تفترق به المقابلة عن الطباق ، الذي لا يكون إلا بين الأضداد .

وجاء القزويني ت ٧٣٩ هـ فأدخل المقابلة في الطباق وحدّها بقوله : (وهو أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب والمراد بالتوافق خلاف التقابل وقد تتركب المقابلة من طباق وملحق به)^٢ فقد نصّ على الترتيب، وأشار إلى دخول المخالقات مع التضاد في مفهوم المقابلة دون الموافقة بقوله : (وقد تتركب المقابلة من طباق وملحق به) وشرح هذا الأمر من خلال توضيح المقابلة بين الاستغناء والتقوى في قوله تعالى : " فأما من أعطى واتقى... وأما من بخل واستغنى " وقد اعترض على من عدّ (لي ، بي) مقابلة في بيت المتنبي

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

وقال في آخر حديثه عن المقابلة : (وقال السكاكي : المقابلة أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وضديهما ثم إذا شرطت هنا شرطاً شرطت هناك ضده كقوله تعالى : " فأما من أعطى... ")^٣ .

وقد درج الشراح على إضافة جملة (وزاد السكاكي قيداً آخر) مما جعلهم يعدونه قيداً لا تتقرر حقيقة المقابلة إلا به كما ذهب ابن يعقوب المغربي ت ١١١٠ هـ . وكما تتابعوا على ما قاله القزويني مثل بهاء الدين السبكي ٧٧٣ هـ و سعد الدين التفتازاني ت ٧٩٢ هـ و العلامة العصام المتوفى منتصف القرن العاشر الهجري وابن يعقوب المغربي وغيرهم من أصحاب الحواشي والشروح . فقد عد هؤلاء العلماء المقابلة ضمن الطباق وليست نوعاً برأسه كما

^١ - القرطاجني ، منهاج البلغاء ص ٥٢ .

^٢ - تلخيص المفتاح للقزويني بهامش شروح التلخيص وهي مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ، ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي ، وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي وبهامشه حاشية الدسوقي على شرح السعد ، دار السرور بيروت لبنان ج ٤ ص ٢٩٧ .

^٣ - المصدر السابق ص ٣٠٠ .

كما ذهب السكاكي ، وعللوا لدخولها في الطباق دون مراعاة النظرير مع أن بعضها من مراعاة النظرير بأن المقابلة - كما ذكر العصام صاحب الأطول والدسوقي ت ١٢٣٠هـ - صاحب الحاشية الموضوعة على شرح سعد الدين - لم يشترط فيها التناسب المشترط في مراعاة النظرير ومع هذا لم يشترط عدمه مما يسمح لنا بإدخال المقابلات النظريرية أو الوفاقية ضمن نطاق المقابلة . قال الدسوقي في حاشيته : (قال في الأطول وهذا المراد وإن رجح دخول المقابلة في الطباق لكن لا ينبغي كون بعضها من مراعاة النظرير لأنه كما لا يشترط في المقابلة التناسب لم يشترط عدمه)^١ وقد حاول البعض أن يجيب عن هذا - كما ذكره العصام والمرشدي ت ١٠٣٧هـ - شارح عقود الجمان بأن يقصر المطابقة على الضدين غير مفصولين والمقابلة على الأضداد منفصلة عن بعضها بغيرها ولكن العصام والمرشدي رداه بتمثيل القوم للطباق بقوله تعالى : " فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً " حيث فصل بين الأضداد^٢ .

وقد نبه ابن يعقوب المغربي و العلامة الدسوقي على أن معنى الشرط الذي ذكره السكاكي ليس هو الشرط المعروف وإنما هو الاجتماع في أمر .

ومما أضافه العلامة العصام - وتابعه المرشدي شارح عقود الجمان - الرد على ما نسب للسكاكي على أنه قيد بأنه أمر يزيد به كمال المقابلة ولا يعيها عدمه كما صرح بوجود عدم اشتراط الترتيب قائلاً : (واعلم أنه لا وجه لجعل الجمع بين المتناسبين وضديهما على الترتيب مقابلة دون الجمع لا على الترتيب لأن الجمع لا على الترتيب أيضاً من المحسنات ونشر لا على ترتيب اللف وكأنه لذلك حذف السكاكي قيد الترتيب عن تعريفه)^٣ .

وبالتأمل في كل ما سبق من تعريفات وشواهد نجد أن المقابلة وإن كان أغلبها وأفضلها ما كان بالأضداد إلا أنها لا تمتنع على غيرها فتأتي بالمتخالفات أحياناً وبالمتوافقات أحياناً أخرى . ويؤيده النظر في معناها ومعنى الطباق اللغوي فهي تحمل محوري الموافقة والمخالفة .

^١ - حاشية الدسوقي بامش شروح التلخيص ج ٤ ص ٢٩٧ وانظر شرح الأطول للعلامة العصام على التلخيص ج ٢ ص ١٨٦ .

^٢ - انظر شرح الأطول ج ٢ ص ١٨٦ ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ت ٩١١ هـ عقود الجمان في المعاني والبيان ، شرح العلامة عبد الرحمن العمري المعروف بالمرشدي ت ١٠٣٧ هـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده الطبعة الثانية ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م ج ٢ ص ٨٤ .

^٣ - شرح الأطول ج ٢ ص ١٨٧ .

والذي يخضع له وجود أحدهما هو مقتضيات الحال والمقام فقد يقتضي المقام مقابلة الشيء بخلافه لأنه موضع الاهتمام نحو مقابلة الحسن بالشر - كما سيأتي - في قوله " إن للمتقين لحسن مآب ... وإن للطاغين لشر مآب " ٤٩ - ٥٥ ص ونحو مقابلة التقوى بالاستغناء - كما سيأتي في موضعه - في قوله " فأما من أعطى واتقى ... وأما من بخل واستغنى " ٥ - ٨ الليل فقد توقف عند أمثال هذه الآيات المفسرون و البلاغيون ونهبوا إلى أن العبرة بالغرض المقصود .

وقد كان أبو هلال العسكري من أوائل من نبه إلى وجود تقابل بين المتوافقات بالأمثلة والشواهد ، بعد إشارة قدامة إليها في التعريف دون توضيح مقصوده منها . وقد صرح بدخول المخالفة والموافقة مع الضدية في العلاقة بين المتقابلين بنجم الدين ابن الأثير حيث قال : (والمقابلة تنقسم إلى ثلاثة أقسام : مقابلة الشيء بضده أو بغيره أو بمثله)^١ وذكر أسماءها الزركشي حين قال : (وهي ثلاثة نظيري ونقيضي وخلافي)^٢ وكذلك السيوطي حين قال : (وقسم آخر المقابلة إلى ثلاثة أنواع : نظيري ونقيضي وخلافي)^٣ . ويقصدان بالنظيري الوفاقي من قولهم هو نظيره . بمعنى مماثله^٤ .

ولعل الغريب بعدما اتضح من وجود هذه الأقسام الثلاثة في مفهومها وتصريح من صرح بها أن يقول ابن معصوم المدني صاحب كتاب أنوار الربيع بعد أن ذكر تقسيماتها الثلاثة (وهذا تقسيم غريب قل من ذكره ولعل قائله تفرد به)^٥ .



٣٨٤

^١ - نجم الدين ابن الأثير ، جوهرة الكثر ص ٨٧ .

^٢ - بدر الدين محمد الزركشي ت ٧٩٤ ، البرهان في علوم القرآن تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان الطبعة الثانية ١٣١٩ هـ - ١٩٧٢ م ج ٣ ص ٤٥٨ .

^٣ - السيوطي ، الإتيقان ج ٢ ص ٩٥ .

^٤ - انظر ابن منظور ، لسان العرب ج ٢ ص ٢١٥ .

^٥ - السيد علي صدر الدين ابن معصوم المدني ت ١١٢٠ هـ أنوار الربيع في أنواع البديع تحقيق شاکر هادي شاکر - النجف الأشرف - مطبعة النعمان - الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ج ١ ص ٣٠٠ .

الباب الأول

المقابلة في وصف الأعمال القلبية وجزائها

مدخل :-

عرض القرآن الكريم ذو البلاغة العالية المعجزة قضاياه العقديّة والفكرية والتشريعية والاجتماعية وغيرها بما يلائم كلاً منها .

ومن ذلك قضية الجزاء ومعناه (قيام الشيء مقام غيره ومكافأته إياه)^١ ويستعمل في الثواب والعقاب^٢ . وقد جرت عادة القرآن فيها أن يذكر جزاء الغرض المذكور وضده فيثبت تأثيره في النفس بطريقتين ، مرةً بإيجابه لمن أتى به ومرةً بإثبات ضده لمن لم يأت به سواءً كان المذكور إحساناً أو إساءة .

هذا ما أشار إليه المفسرون في ثنايا تفسيرهم لكتاب الله الكريم يقول الرازي : (اعلم أن عادة الله إذا ذكر وعداً أو وعيداً عقبه بما يضاده ليكون الكلام تاماً فههنا لما ذكر حكم الكفرة من أهل الكتاب وما حلّ بهم من العقوبة أخبر بما للمؤمنين من الأجر العظيم والثواب الكريم ، دالاً على أنه سبحانه وتعالى يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته)^٣ ويقول أبو السعود في تفسير قوله تعالى : " وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... الآية " البقرة ٢٥ ، إنه (عطف قصة المؤمنين بالقرآن ووصف ثوابهم على قصة الكافرين به وكيفية عقابهم جرياً على السنة الإلهية من شفع الترغيب بالترهيب والوعد بالوعيد)^٤ . ويقول الطاهر في تفسير قوله تعالى : " والذين آمنوا وعملوا الصالحات ... الآية " الأعراف ٤٢ ، (أعقب الإنذار والوعيد للمكذبين بالبشارة والوعد للمؤمنين المصدقين على عادة القرآن في تعقيب أحد

١ - أبو الحسن أحمد بن فارس ت ٣٩٥ هـ ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الكتب العلمية ، اسماعيليان نجفي - إيران - ج ١ ص ٤٥٥ .

٢ - انظر ابن منظور ج ١٤ ص ١٤٣ .

٣ - الإمام الفخر الرازي ، التفسير الكبير ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية . ج ٣ ص ١٠٤ ، البقرة آية ٦٢ .

٤ - محمد بن محمد أبو السعود ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الثانية ، ١٤١١ هـ ، ١٩٩٠ م ج ١ ص ٦٨ ، وانظر شهاب الدين السيد محمد الألويسي ت ١٢٧٠ هـ ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هـ ج ١ ص ٢٠٠ .

الغرضين بالآخر) ^١ فقد أشار هؤلاء المفسرون وغيرهم في هذه المواضع وأمثالها إلى أن ذكر الجزء الحسن وضده أو العكس أمرٌ من الأمور التي بُني عليها نظم القرآن الكريم في أسلوب دعوته .

كما أشار المفسرون إلى هذه الخصيصة في تفسيرهم لمعنى تسمية القرآن مثاني فذهب الرازي في تفسير آية الزمر " الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ... الآية " الزمر ٢٣ ، إلى أن أكثر الأشياء المذكورة فيه (وقعت زوجين زوجين مثل الأمر والنهي والعام والخاص والجمل والمفصل وأحوال السموات والأرض والجنة والنار والظلمة والضوء واللوح والقلم والملائكة والشياطين والعرش والكرسي والوعد والوعيد والرجاء والخوف) ^٢ . ويقول ابن كثير في تفسير نفس الآية (إن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد فهذا ^٣ من المتشابه وتارة تكون بذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين وكصفة الجنة ثم صفة النار وما أشبه هذا فهذا من المثاني) ^٤ فابن كثير هنا رأى في معنى لفظ مثاني جانباً من جانبي التعبير القرآني وهو جانب التعبير بالأضداد ، وهناك جانب التعبير بالمتشابهات ، يأتي السياق بهذا أحياناً وبذلك أحياناً أخرى . أما الرازي ومن تبعه في النص السابق على هذا فقد رأوا قيام أغلب صور التعبير القرآني على عنصر المضادة بأن يُذكر الأمر والنهي والجنة والنار والعام والخاص والوعد والوعيد . فالفرق بين الرؤيتين أن الأولى تقوم على توزيع جانب التعبير بالأضداد ، وجانب التعبير بالمتشابهات توزيعاً متوازياً في القرآن ، في حين أن الثانية ترى جلب التعبير بالأضداد هو الأغلب .

^١ - الإمام محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير الدار التونسية للنشر ١٩٨٤ م - ج ٨ ص ١٢٩ .

^٢ - الرازي ج ٢٦ ص ٢٧٢ ، وانظر برهان الدين أبو الحسن البقاعي ت ٨٨٥ هـ ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، دار الكتاب الإسلامي القاهرة الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ ج ١٦ ص ٤٨٨ - ٤٨٩ ، أبو السعود ج ٧ ص ٢٥١ آية الزمر ، أبو عبد الله محمد الأنصاري القرطبي ت ٦٧١ هـ ، الجامع لأحكام القرآن ، دار الكتاب العربي - الطبعة الثانية ١٣٧٢ هـ ، ١٩٥٢ م ج ١٠ ص ٥٥ آية الحجر ٧٨ .

^٣ - في الكتاب " فهذان " ولعله خطأ مطبعي لأنه لا يستقيم به الكلام .

^٤ - الإمام عماد الدين إسماعيل بن كثير ت ٧٧٤ هـ ، تفسير القرآن العظيم ، دار الأندلس - بيروت الطبعة الأولى ١٣٨٥ هـ ١٩٦٦ م ، ج ٦ ص ٨٨ وانظر ابن كثير ج ١ ص ١٠٩ في تفسير آية البقرة (٢٥٠) وج ٦ ص ٢٦٠ في تفسير آية الدخان (٥١) .

ولم يكتفِ هؤلاء المهتمون بخدمة كتاب الله تعالى برصد وجود هذا الأمر وإنما راحوا يبحثون عن الحكمة من وجوده فذهب الزمخشري إلى ملح عنصر الحث على الإتيان بما يترتب عليه الجزاء الحسن ، والصد عن اقتراف ما يترتب عليه الجزاء السيء فقال : (من عادته عز وجل في كتابه أن يذكر الترغيب مع الترهيب ، ويشفع البشارة بالإنذار ، إرادة التنشيط لاكتساب ما يزلف ، والتثييط عن اقتراف ما يتلف)^١ ونظر الرازي إلى الحكمة من المقابلة بين الوعد والوعيد من زاوية أخرى غير الزاوية التي ذكرها الزمخشري فقال : (اعلم أنه سبحانه وتعالى ما ذكر في القرآن آية في الوعيد إلا وذكر بجانبها آية في الوعد وذلك لفوائد : أحدها : ليظهر بذلك عدله سبحانه لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرين على الكفر وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرين على الإيمان وثانيها : أن المؤمن لا بد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه على ما قال عليه الصلاة والسلام " لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا " وذلك الاعتدال لا يحصل إلا بهذا الطريق ، وثالثها : أنه يظهر بوعد كمال رحمته وبوعيده كمال حكمته فيصير ذلك سبباً للعرفان)^٢ فقد رأى في إرداف آية الوعيد بآية الوعد إظهاراً لعدل الله تعالى في مجازاة كل صاحب عمل بما يستحق ، المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته كما رأى فيها اتزان حال المؤمن باعتدال خوفه من العقاب ورجائه في الثواب . وبظهور كمال رحمة الله تعالى بالوعد وكمال حكمته بالوعيد تتحقق معرفة العبد لربه ومن ثم عرفانه لفضله .

ومن زاوية تأثير الوعد والوعيد في نفوس البشر يقول أبو حيان عند تفسير آية البقرة : (لما ذكر ما تضمن ذكر الكفار وما تؤول إليه حالهم في الآخرة وكان ذلك من أبلغ التخويف والإنذار ، أعقب ما تضمن ذكر مقابليهم وأحوالهم وما أعد الله لهم في الآخرة من النعيم السرمدى ، وهكذا جرت العادة في القرآن غالباً متى جرى ذكر الكفار وما لهم ، أعقب بالمؤمنين وما لهم ، وبالعكس لتكون الموعظة جامعة بين الوعيد والوعد واللفظ والنعف لأن من

^١ - أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري ت ٥٣٨ هـ ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه

التأويل ، دار الفكر ج ١ ص ٢٥٢ آية البقرة (٢٥) وانظر السيوطي ، الإتيان ج ٢ ص ١٠٩ .

^٢ - الرازي ج ٣ ص ١٦٢ البقرة (٨٢) .

الناس من لا يجذبه التخويف ويجذبه اللطف ، ومنهم من هو بالعكس)^١ فهناك نفوس تهتز للوعيد أكثر من الوعد فتأتي الطاعات وتجتنب المحرمات خوفاً من العقاب ، وهناك نفوس يغلب الرجاء عليها فتقبل على الطاعات وتجتنب المحرمات رغبة في الثواب والقرآن جمع بين الاثنين ليحصل التأثير المطلوب بتحقيق الإحسان وانتفاء الإساءة من كل من يقرؤه . واكتفى البقاعي في أغلب سياقات المقابلة من تلك الحكم الواردة لدى غيره من المفسرين ، بالإشارة إلى الترغيب والتنفير^٢ .

^١ - محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ت ٧٤٥ هـ ، تفسير البحر المحيط دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل عبد الموجود ، الشيخ علي معوض ، شارك في تحقيقه د . زكريا النوتي أحمد الجمل ، دار الكتب العلمية لبنان الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م ج ١ ص ٢٥٢ آية البقرة (٢٥) .

^٢ - انظر على سبيل المثال البقاعي ج ١٢ ص ١٤٩ آية الكهف (١٠٧) .

عند تأمل مجموع آيات الجزاء في القرآن الكريم ، يلحظ أن أكثرها قد ورد في السور
المكية ، ولا يعني هذا - كما ذكر أحد الباحثين^١ - ندرة وقوعها في السور المدنية ، لأن
الحديث عن الجزاء مرتبط بكل مقصد من مقاصد القرآن الكريم .

وقد اختلفت مقتضيات الجزاء في الآيات فذكر في بعضها جزاء الإيمان والكفر غير
مقترنين بالأعمال وذكر في بعضها الآخر جزاء الإيمان والكفر مقترنين بها ، وهذا أغلب ما جاء
في القرآن الكريم . وورد قليلاً ذكر العمل وحده في صورة جملة نحو ما جاء في قوله : " من
عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد فصلت ٤٦ مكية ، وقوله : " من
عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون " الجاثية ١٥ مكية . فقد بينت
الآيتان أن نفع العمل الصالح إنما يعود إلى المرء نفسه ووبال الإساءة إنما يقع عليه . وقريب منه
ما جاء في قوله : " فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره " الزلزلة
٧ - ٨ مدنية ، فقد بينت الآيات لقاء الإنسان لجزاء أعماله الخيرة و السيئة يوم القيامة ما
صغر منها وما كبر . ودلت على حساب الكبير بذكر الحساب على الصغير لأن الله تعالى إذا
حاسبه على مثقال ذرة فمحاسبته على ما هو أكبر من باب أولى . واقتضى ذكر بعض الأعمال
في سياقات خاصة ذكر جزائها في نحو قوله : " يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق
صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ،
إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة
وأجر عظيم " الحجرات ٢ - ٣ مدنية ، الذي جاء فيه زوال وفناء ثواب الأعمال الصالحة لمن
جهر بصوته فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم مقابل غفران الله تعالى ذنوب من يغضون
أصواتهم عند رسول الله وإكرامه لهم بأجر عظيم .

ومن ذلك قوله : " واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن
الله كان تواباً رحيماً " النساء ١٦ مدنية ، فقد جاءت الآية في بيان عقوبة مرتكي الفاحشة
بالإيذاء مقابل عدم التعرض لمن تاب وعمل الصالحات .

^١ - انظر أحمد أبو زيد ، التناسب البياني دراسة في النظم المعنوي والصوتي - المملكة المغربية جامعة محمد الخامس -
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط - سلسلة رسائل و اطروحات رقم (١٩) الطبعة الأولى ، ١٩٩٢ م
ص ١٥٥ .

وأول ما يلحظ في طبيعة آيات الجزاء أن هناك فرقاً بين آيات جزاء الإيمان والكفر منفردين ، وآيات جزاء الإيمان والكفر مقترنين بالأعمال . وهو أن الجنة حين يأتي ذكرها في جزاء الإيمان غير مقترن بالعمل الصالح لا توصف غالباً بأكثر من كونها " جنات وعيون " الدخان (٥٢) مكية ، (وجنات ونعيم) في نحو قوله : " إن المتقين في جنات ونعيم " الطور (١٧) مكية ، وجاء قوله : " جنات النعيم " في الواقعة (١٢) والصفات (٤٣) . كما وردت مرة واحدة (جنات عدن) في قوله : " جنات عدن مفتحة لهم الأبواب " ص (٥٠) مكية ، (وجنة الخلد) في قوله : " قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاءً ومصيراً " الفرقان (١٥) مكية ، وهذا بخلاف آيات الإيمان المقترن بالعمل فقد كثر فيها ورود لفظ (جنات عدن)^١ (وهي منازل أرفع من منازل جنات ونعيم بدليل امتياز جنات عدن بصفات زائدة على صفات جنات ونعيم . يدرك هذا من يتدبر آيات القرآن المتعلقة بكل منهما)^٢ ومثله لفظ (جنات الفردوس) في قوله : " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كلنت لهم جنات الفردوس نزلاً " الكهف (١٠٧) مكية ، و (جنات المأوى) في قوله : " أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون " السجدة (١٩) مكية ، كما كثر فيها ذكر صنوف النعيم التي في الجنات مثل : التحلي بالأساور واللباس في نحو قوله : " إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حزير " الحج (٢٣) مدنية ، أو الإشارة إلى صنوف النعيم نحو أن تكون جنة الفردوس على علو قدرها نزلاً للذين آمنوا وعملوا الصالحات كما جاء في آية الكهف السابقة فإن النزول ما يُعدُّ للضيف أول قدومه ثم يعقبه ما هو أفخم قدرًا وأعلى منزلة من الإحسان والتكريم . ولا يعني هذا أنه لا يوجد تفصيل مطلقاً في ذكر جزاء الإيمان ، فإن مراتب الإيمان متفاوتة وهذا يجعل نصيب كل امرئ من الجزاء حسب مرتبته من الإيمان ولكن التفصيل أظهر في آيات الإيمان مع العمل .

^١ - التوبة آية (٧٢) ، الرعد آية (٢٣) النحل آية (٣١) ، الكهف آية (٣١) ، مريم آية (٦١) ، طه آية (٧٦) ، فاطر آية (٣٣) ، غافر آية (٨) ، الصف آية (١٢) ، البينة آية (٨) .

^٢ - الشيخ عبد الرحمن حسن الميداني ، روائع من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم - دار القلم - دمشق - الطبعة السادسة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م ، ص ٣٠٨ عند مقارنته بين آية الرعد (٢٣) التي ورد فيها لفظ (جنات عدن) وآية الطور (١٧) التي ورد فيها لفظ (جنات ونعيم) مع آية غافر (٨) .

وسيكون الفصل الأول من الباب الأول في دراسة المقابلة في وصف جزاء الإيمان والكفر باعتبارهما من الأعمال القلبية التي خُصص لها هذا الفصل ويخصص الفصل الثاني لدراسة المقابلة في وصف جزاء نوازع النفس إتماماً لوصف المقابلة في جزاء الأعمال القلبية . ثم يدرس الباب الثاني المقابلة في وصف جزاء الإيمان مع العمل سواءً ما اقتصر على ذكر العمل الصالح ، أو ذكر نوع العمل الصالح ، أو ذكر ما يدل على اقتران الإيمان بالعمل .

الفصل الأول : المقابلة في وصف جزاء الإيمان والكفر

جاء التعبير عن الإيمان باتباع الهدى ، و الوصف بالتذكر ، كما جاء بلفظ التقوى المفيدة تقوى الشرك - كما سيأتي - و صريح لفظ الإيمان وصحبة الجنة في مقابل التعبير عن الكفر بصريح لفظه و بوصف الطغيان والإجرام وغيرهما .
 و اتباع الهدى هو الخطوة الأولى في سبيل الوصول إلى الجنة التي خرج منها آدم عليه السلام^١ فقد جاء مذكوراً في أول عهد من الله تعالى لعباده - آدم وأبنائه - حيث قال في سورة البقرة :

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

٣٨ - ٣٩ مدنية .

فاتباع الهدى (أدنى اتباع يعتد به)^٢ ينجي من العقاب ، ويجرز الثواب وهذا ما دل عليه قوله " لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " على أكد وجه وأبلغه كما قال البيضاوي^٣ وعلل الشهاب ذلك قائلاً (لأن نفي الخوف كناية عن نفي العقاب ، ونفي الحزن كناية عن إثبات الثواب ، وهي أبلغ من الصريح وأكد لأنها إثبات الشيء بينة)^٤ فالبيئة التي يقصدها الشهاب ، هي دلالة انتفاء الخوف على عدم وقوع ما يخشى منه وهو العقوبة وهذا كناية عن عدم وقوعه ، وانتفاء الحزن دليل على أنه لا يفوقهم ما يحزنون عليه ، وهو كناية عن حصول الثواب وهما من الكنايات الخفية .

^١ - انظر البقاعي ج ١ ص ٢٩٦ .

^٢ - البقاعي ج ١ ص ٢٩٨ .

^٣ - انظر البيضاوي ت ٦٨٥ هـ بهامش حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي ، المكتبة الإسلامية ، ديار بكر تركيا ج ٢ ص ١٤٢ .

^٤ - الشهاب الخفاجي ، حاشية الشهاب ج ٢ ص ١٤٢ .

ولعل الحكمة من تقديم الخوف في قوله " فلا خوفٌ عليهم " أنه يكون من توقع فعل ضار^١ وهذا عادة أكثر من الحزن على ما فات وأشدّ وصُدّر بالنعرة التي هي أدخل في النفسي لتأكيد عمومته^٢ . أما الحزن المأخوذ (من الحزن وهو ما غلظ من الأرض فكأنه ما غلظ من الهم)^٣ ففي تسليط النفسي على المسند إليه المقدم على الخبر الفعلي في قوله ولاهم يحزنون ، إشارة إلى اختصاصهم بعدم الحزن ، و (أن غيرهم يحزن)^٤ وقد روعي في صياغة الجملة ما عليه واقع الحال ، من حيث أن الخوف من توقع فعل ضار ، والحزن (توجع القلب لأجل نازح قد كان في الوصلة به روح والقرب منه راحة)^٥ .

والخوف عليهم قد يصدر من غيرهم^٦ ، في حين أن الحزن لا يكون إلا منهم ، لذا لم يسند الخوف إليهم فلم يقل فلا يخافون ، في حين أسند إليهم الحزن لأنه صادر عنهم^٧ . و المشهور في الخوف والحزن المنفيين ، الخوف من العقوبة المستقبلية ، والحزن على ما فات في الماضي ، ولكن هذا لا يمنع من اعتبار غير ذلك ، كعدم الخوف من المكاره والأهوال يوم القيامة ، وعدم الحزن على فوات ثواب^٨ . والظاهر عموم نفي الخوف والحزن^٩ ، أي نفي الخوف عن كل ما يأتي من الأسواء والمكاره ، ونفي الحزن عن كل ما فات من الروح والراحة وقد تنبه الإمام الطاهر بن عاشور إلى دقيقة في مجيء الشرط بأن الدالة على عدم الجزم بوقوع الشرط في قوله " فإما يأتينكم مني هدى " ، وهي أنها (إيدان ببقية من عتاب على عدم امتثال الهدى الأول وتعريض بأن محاولة هديكم في المستقبل لاجدوى لها كما يقول السيد لعبده إذا لم يعمل بما أوصاه به ، فغضب عليه ثم اعتذر له ، فرضي عنه : إن أوصيتك يوماً آخر

١- نقل هذا البقاعي عن الحرالي ، انظر البقاعي ج ١ ص ٢٩٩ .

٢- انظر أبو حيان ج ١ ص ٣٢٣ .

٣- الشهاب ج ٢ ص ١٤٢ .

٤- المصدر السابق .

٥- نقله البقاعي عن الحرالي ، البقاعي ج ١ ص ٢٩٩ .

٦- ذكر البقاعي أن الخوف (بادٍ عليهم من غيرهم) البقاعي ج ١ ص ٣٠٠ ولا يكون هذا دائماً ولذلك قلتُ : قد يصدر أي أنه أحياناً يصدر من غيرهم .

٧- انظر البقاعي ج ١ ص ٣٠٠ .

٨- انظر الأقوال في ذلك : أبو حيان ج ١ ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ الألويسي ج ١ ص ٢٣٩-٢٤٠ .

٩- انظر أبو حيان ج ١ ص ٢٤٠ الشهاب ج ٢ ص ١٤٢ .

بشيء فلا تعد لمثل فعلتك . يعرض له بأن تعلق الغرض بوصيته في المستقبل ، أمر مشكوك فيه إذ لعله قليل الجدوى . وهذا وجه بليغ^١ فعدم الجزم بمجيء هدى غير الأول الذي لم يتبع يحمل عتاباً على عدم اتباع الأول ، وحثاً على الجد والجزم في اتباع الهدى الثاني ، ومن ثم التلويح بالعقاب إذا تكررت المخالفة مرة أخرى .

وبعد ذكر بشارة المؤمنين قابلها بنذارة الكافرين ليتم أمر الترغيب والترهيب^٢ ، وأشار بقوله "والذين كفروا وكذبوا" إلى جمعهم بين الكفر بآيات الله الدالة على وجوده ، والتكذيب برسالة الداعين إليه ، مما جعلهم يستحقون وقوع العذاب ، وهو ما أكده مجيء اسم الإشارة " أولئك " الذي يدل على استحقاقهم لما بعده بسبب ما جاء قبله ، مع ما دلت عليه البعد فيه من أنهم بلغوا فيما اقترفوا مبلغاً عظيماً^٣ ، مما جعل صحبتهم للنار ، وخلودهم فيها في قوله : " أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " أمراً لاثقاً بهم وفيه إثبات لتسلط الخوف الدائم مما سيأتي من عذابها ، والحزن الدائم لفوات الجنة^٤ . مع ما في الظرفية (فيها) من تمكن العذاب منهم وبلاغه إلى أنفسهم ، مما حدا بالبقاعي أن يستلهم كونهم (فيها في الوقت الحاضر من حيث لا يشعرون ... كما أن المهتدين في جنة الدنيا لم يشهدوا عيانها فكل خالد فيما هو فيه في الدنيا غيباً وفي الآخرة عياناً والقرع عرضاً)^٥ فأهل العذاب معذبون في الدنيا ، سواء بأنواع الهموم والغموم ، أو الاستدراج بالنعم ، فهو في حقيقة أمره عذاب بالنظر إلى عاقبته وأهل الثواب منعمون فيها ببشراهم وطاعتهم لربهم ، واسترواحهم إلى هذه الطاعة وتلك البشرية .

ولعل تلمس المفسرين لوجوه المقابلة في آيات الجزاء ، هو الذي حدا ببعضهم إلى الإشارة إلى وجود احتباك في قوله : " فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم " يقول البقاعي : (فالآية من الاحتباك ، انتفاء الخوف والحزن من الأول دال على وجودهما في الثاني ووجود النار في الثاني دال على انتفائها ، ووجود

١ - الطاهر بن عاشور ج ١ ص ٤٤٣ .

٢ - انظر الرازي ج ١٣ ص ١٩٠ تفسير آية الأنعام ١٢٨ .

٣ - انظر شروح التلخيص ج ١ ص ٣١٩ .

٤ - انظر البقاعي ج ١ ص ٣٠١ - ٣٠٢ .

٥ - البقاعي ج ١ ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

الجنة في الأول) ^١ فنفي وجود الخوف والحزن في ثواب أهل الإيمان ، دليل على إثبات وجودهما في عذاب أهل الكفر ، أي أن المتقين لا خوف عليهم ولا هم يجزنون والكافرين يخافون ويخاف عليهم ويجزنون ، كما أن كون الكافرين في النار يدل على أن متبعي الهدى في الجنة .

كما أن وجود الشرط في جزاء أهل الإيمان ، دليل على وجود معناه في جزاء أهل الكفر يقول الطاهر(فحصل معنى الشرط من مفهوم قوله فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ، فإنه بشارة يؤذن مفهومها بنذارة من لم يتبعه ، فهو خائف حزين ، فيترقب السامع ما يبين هذا الخوف والحزن ، فيحصل ذلك بقوله والذين كفروا وكذبوا) ^٢ فوجود معنى الشرط بدلالة الاسم الموصول في جملة " والذين كفروا وكذبوا " ، من حيث إيمانه إلى وجه بناء الخبر ^٣ هو الذي سوّغ عطفها على جملة الشرط " فمن تبع هداي ... " . وأسلوب الشرط من الأساليب القوية في القطع بحصول جواب الشرط إذا تحقق فعله .

وقد ألمح بعض المفسرين إلى وجود فرق بين دلالة الفعل (تبع) هنا و (اتبع) في قوله تعالى في الآية المشابهة " فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى " طه ١٢٣ مكية ، فصيغة الافتعال (اتبع) تعني الجهد في تحصيل الهدى ، وتحري تحقيق أصوله وفروعه ، في حين أن صيغة فعل (تبع) تفيد تحقق الفعل طواعية دون تكلف وهذا لاختلاف سياق الفعلين فالأول جاء في سياق يذكر قصة خلافة آدم عليه السلام وتكريم الله له ثم هبوطه بسبب إزالة الشيطان له عنها ، والثاني في سياق ذكر أهوال القيامة وتصريف الوعيد في القرآن ثم ترك آدم عليه السلام لأوامر ربه ، ولعل هذا ما ناسبه أن يكون (المدعو إليه في تلك / أي البقرة / مطلق العبادة والمقام في هذه للخشية والبعث على الجهد بالعداوة... وللإقبال على الذكر... والتحفظ من المخالفة ولو بالنسيان) ^٤ فلم يذكر قبل فعل (تبع) كيفية عصيان آدم فجاء الفعل على أصله ، وذكر في الثاني كيفية العصيان فناسب أن يأتي الفعل الدال على تمييز الحق بمعالجة وتعمل .

^١ - البقاعي ج ١ ص ٣٠٢ ، وانظر أبو حيان ج ١ ص ٣٢٤ .

^٢ - الطاهر بن عاشور ج ١ ص ٤٤٤ وانظر حاشية الشهاب ج ٢ ص ١٤٢ المتن والهامش .

^٣ - انظر شروح التلخيص ج ١ ص ٣٠٧ .

^٤ - البقاعي ج ١٢ ص ٣٦١ .

وهذا ما أشار إليه ابن الزبير في الفرق بين دلالة الفعل (تبع) و (اتبع) حين قال :
 (لما تقدم آية البقرة قوله تعالى : " وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً
 حيث شئتما ، إلى قوله " فمن تبع هداي " ولم يرد فيها مما كان من إبليس سوى ما أخبر تعالى
 عنه من قوله " فأزلهما الشيطان عنها " من غير تعرض لكيفية تناوله ما فعل ولا إبداء علة ولا
 كبير معالجة ناسب هذا (تبع) ولما ورد في آية طه ذكر الكيفية في إغوائه... فأفهمت الآية
 قوة كيد اللعين واستحكام حيلته حتى احتنك الكثير من الذرية وحملهم على عبادة الطواغيت
 وتلقت النفوس المتعامية ذلك منه بقبول فصار تمييز الحق لا يحصل إلا بمعالجة وتعمل فناسبه)^١
 والوعد بالأمن من العقوبة لمن اتبع الهدى والوعيد بالعذاب لمن تولى جاء على لسان
 موسى وأخيه هارون عليه السلام في قوله تعالى " والسلام على من اتبع الهدى ، إنا قد أوحى
 إلينا أن العذاب على من كذب وتولى " طه ٤٧ - ٤٨ مكية ، فقد صيغت جملة البشارة
 والندارة بأسلوب خبري ، يحمل عناصر بقاءه واستمراره إلى الأبد ، عن طريق الجملة الاسمية
 التي تحمل طابع الثبات والدوام . وأول ما يلقانا في الجملتين لفظا الثواب والعقاب (السلام ،
 العذاب) معرفان بأداة التعريف (أل) ولنا أن نستخرج منها معنى الكمال فيكون السلام
 الكامل الشامل ، المستوعب لكل دقائقه لمن اتبع الهدى فآمن ، والعذاب الكامل الشامل
 المستوعب لكل صنوفه وضروبه لمن كذب وتولى .^٢

ونستفيد من معنى الاستعلاء في حرف (على) معنى التمكّن والاستيلاء في العقاب ،
 فيكون العذاب ثابتاً على المكذّبين مستولياً عليهم ، كما لحظ الطاهر بن عاشور ذلك التمكّن
 في ثواب المؤمنين حين قال: (وعلى للتمكّن أي سلامة من اتبع الهدى ثابتة لهم دون ريب)^٣
 كما لحظ أيضاً أن (إطلاق السلام والعذاب دون تقييد بالدنيا أو بالآخرة تعميم للبشارة
 والندارة)^٤ فيشمل السلام المذكور هنا سلامة الدارين من كل مكروه وآفة ، كما يشمل

١ - أحمد بن الزبير الغرناطي ت ٧٠٨ هـ ، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ من أي التنزيل . تحقيق محمود كامل أحمد دار النهضة العربية ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ج ١ ص ٤٨ ، ٤٩ .

٢ - انظر حول معنى الكمال في (أل) التعريف عبد القاهر الجرجاني ت ٤٧١ هـ ، دلائل الإعجاز تحقيق محمود شاكر مطبعة المدني بمصر دار المدني بجدة الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م ص ١٩٦ وما بعدها .

٣ - الطاهر بن عاشور ج ١٦ ص ٢٣٠ .

٤ - المصدر السابق ص ٢٣١ .

العذاب عذاب الدارين أيضا وهكذا نجد جملة البشارة و النذارة محملة بعناصر بقائها من اسمية الجملة ، و (أل) الجنسية الدالة على معنى الكمال ، وعموم الوعد والوعيد في الدارين . وقد جاءت جملة العذاب في قوله " أن العذاب على من كذب " مؤكدة في حين لم تؤكد جملة الثواب ولعل في ذلك تهديداً مناسباً لكونه في أول الدعوة (لأن التهديد في أول الأمر أهم وأنجع)^١ .

و حين ذكر تعالى في سورة الأنعام حال من وفقه للإسلام وحال من سلبه ذلك التوفيق ، عقب ببيان أحوال الفريقين في الآخرة ، فقال :

وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَذَكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ
وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا
يَمَعَّشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ
الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا
قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾
وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

الأنعام ١٢٦ - ١٢٩ مكية

إذا كان متبعو الهدى والذكر ، لهم السلامة من كل حزن وخوف وآفة ، فالمتفكرون في آيات الله المنزلة لهم دار السلام ، وهي الجنة على اختلاف المفسرين في معنى الإضافة في لفظ السلام في قوله " دار السلام " ^٢ .

وقد لحظ الإمام الرازي في هذه الآية عدة علامات لتشريف هؤلاء القوم ، فهذه الدار لهم - لا غيرهم - ^٣ والاختصاص بدار من ملكوت الله تشريف وتكريم . وهذه الدار عند ربهم

^١ - تفسير البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ج ٦ ص ٢٠٥ .

^٢ - انظر الرازي ج ١٣ ص ١٨٨

^٣ - انظر المصدر السابق .

فهم قرييون منه تعالى قرب علو ورتبة^١ وعلى هذا فمرتبتهم رفيعة ومكانتهم عالية ، يزيدهم شرفاً ورفعة أن وليهم فيها هو الله تعالى : " وهو وليهم " فالولاية من الله لهم أمر عظيم وشريف^٢ . ويقابل فريق المتذكرين الذين استخدموا عقولهم للتفكر والتدبر ، فاتبعوا الصراط المستقيم ، فريق الكفرة من الجن والإنس ، الذين عطلوا عقولهم ، فاتبع بعضهم بعضاً بالغواية وكان جزاؤهم الخلود في النار . فبينما أكرم الأولون بملكية دار السلام التي آمنوا فيها من كل عذاب ومكروه وقلق ، (لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم المقتضي أثر الأنبياء وطريقتهم)^٣ ، أهين الآخرون بالتبكيك والتويخ^٤ في قوله " يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس " وعذبوا بحسرة خصومتهم التي لا تجدي نفعاً ، فوجبت عليهم النار داراً ومأوى في قوله " النار مثواكم خالدين فيها " . ويقترّب المؤمنون من ربهم اقتراب رتبة ومنزلة ، في حين يطرد أولئك إلى مثوى العذاب . ولما بين تعالى أنه ولي المؤمنين بالحفظ والحراسة والمعونة والنصرة ، بين أن أولياء الكافرين من يشبههم في الظلم والحزى والنكال^٥ فالمؤمنون ينعمون بولاية ربهم لهم كما تولوا صراطه في الدنيا ، والكافرون يشقون بولاية بعضهم البعض في العذاب ، كما (كانوا في الدنيا)^٦ أولياء في الضلال .

أما الباء المتعلقة بثواب المؤمنين في قوله تعالى " بما كانوا يعملون " ، والمتعلقة بعقاب الكافرين في قوله " بما كانوا يكسبون " ، فهي تعليل لحكم كل فريق كما ذهب عدد من المفسرين^٧ ، أي أنها مع مدخولها السبب في نوع الجزاء . ومع أن صياغة الجملتين بفعل الكون ماضياً وخبره مضارعاً ، تشير إلى أن ما أتى من الفريقين كان أمراً ثابتاً لهم في جبالهم متكرراً منهم مرة بعد مرة^٨ ، إلا أنه ثمة فرق يلمح بين ذكر العمل في جانب المؤمنين والكسب في

^١ - انظر الرازي جـ ١٣ ص ١٨٩ .

^٢ - انظر المصدر السابق ص ١٨٨ .

^٣ - ابن كثير جـ ٣ ص ١٠٠ .

^٤ - انظر الرازي جـ ١٣ ص ١٩١ ، البقاعي جـ ٧ ص ٢٦٧ .

^٥ - انظر الرازي جـ ١٣ ص ١٩٣ .

^٦ - البيضاوي بهامش حاشية الشهاب جـ ٤ ص ١٢٦ .

^٧ - انظر الرازي جـ ١٣ ص ١٩٠ وما بعدها ، الشهاب جـ ٤ ص ١٢٤ وما بعدها ، الطاهر بن عاشور جـ ٨

القسم الأول ص ٦٤ و ص ٧٤ .

^٨ - انظر الرازي جـ ٢٩ ص ١٧١ في تفسير آية الواقعة ٤٦ .

جانب الكافرين ، لما في دلالة فعل الكسب من (ابتغاء وطلب وإصابة)^١ ، وما يشير إليه من معنى الجمع^٢ . فكأن هؤلاء الكفار قد حرصوا على كسب الذنوب وأتوها بإرادتهم .
ولما كان الإيمان بذاته لا يوجب دخول الجنة ، وإنما الدخول بفضل الله تعالى كما قال عليه السلام (لا يُدخِلُ أحداً الجنة عمل قالوا ولا أنت يا رسول الله . قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة)^٣ وكان الكفر يوجب دخول النار اقتضى الأمر مزيداً من البيان .
معنى الباء :-

قال الإمام الرازي في تفسيره لآية الواقعة " جزاء بما كانوا يعملون " ٢٤ (قد ذكرنا فائدته في سورة الطور^٤ وهي أنه تعالى قال في حق المؤمنين " جزاء بما كانوا يعملون " وفي حق الكافرين " إنما تجزون ما كنتم تعملون " إشارة إلى أن العذاب عين جزاء ما فعلوا فلا زيادة عليهم والثواب " جزاء بما كانوا يعملون " فلا يعطيهم الله عين عملهم بل يعطيهم بسبب عملهم ما يعطيهم . والكافر يعطيه عين ما فعل)^٥ ، فالسببية المرادة هنا هي ما خلقه الله من الأسباب ، ليسوق الأقدار إلى مواقيتها ، وليس ما يوجب حدوث المسبب ، لأن وجود السبب لا يوجد حتماً حصول المسبب ، بل لا بد من قضاء الله بهذا^٦ . والطائع حين يكرمه الله تعالى ، ويتفضل عليه بدخول الجنة ، تكون طاعته علامة لكونه من أهلها .

ويشير الطاهر بن عاشور إلى نفس ما أشار إليه الرازي في تفسيره لآية الطور " إنما تجزون ما كنتم تعملون " ١٦ حين يجعل عدم ذكر الباء لنفي الظلم عنه سبحانه وتعالى ، بدلالته على مكافأة العمل بالمثل ، وذكرها للإيدان بالكرامة والتفضل يقول (وعدى تجزون إلى ما كنتم تعملون بدون الباء خلافاً لقوله بعده " كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون " ليشمل

^١ - ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ج ٥ ص ١٧٩ .

^٢ - انظر ابن منظور لسان العرب ج ١ ص ٧١٦ .

^٣ - صحيح البخاري كتاب الرقاق حديث رقم ٥٩٨٦ مسند أحمد ، باقي مسند المكثرين حديث رقم ٦٩٠٥ ، موسوعة الحديث الشريف .

^٤ - آية ١٩ .

^٥ - الرازي ج ٢٩ ص ١٥٦ ، وانظر ج ٢٥ ص ١٦١-١٦٢ تفسير آية سبأ ٣٣ ، ٣٧ ، ج ٢٨ ص ٢٤٩ تفسير آية الطور ١٩ .

^٦ - انظر أحمد بن تيمية مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد النجدي الحنبلي ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م المجلد الثامن ص ٧٠ .

القصر مفعول الفعل المقصور أي تجزون مثل عملكم لا أكثر منه فينتفي الظلم عن مقدار الجزاء كما انتفى الظلم عن أصله ... وما موصولة والباء سببية أي بسبب العمل الذي كنتم تعملونه وهو العمل الصالح الذي يومئ إليه قوله "المتقين" و في هذا القول زيادة كرامة لهم ، بإظهار ما أوتوه من الكرامة عوضاً عن أعمالهم كما آذنت به باء السببية ^١ ويستدل على ذلك في تفسيره لآية " هل يجزون إلا ما كانوا يعملون " الأعراف ١٤٧ مكية بدلالة فعل المجازاة يقول : (" وما كانوا يعملون " مقدر فيه مضاف والتقدير مكافئ ما كانوا يعملون بقرينة قوله " يجزون " لأن الجزاء لا يكون نفس الجزى عليه فإن فعل جزى يتعدى إلى العوض المفعول جزاء بنفسه ويتعدى إلى العمل الجزى عليه بالباء ، كما قال تعالى " وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ") ^٢ ففعل المجازاة يتعدى إلى الأمر الجزى به بنفسه ، وهو " ما كنتم تعملون " وإلى العمل المستحق للثواب بالباء وهو " بما صبروا " ، وهذا دليل على أن العمل عنوان الثواب ، وليس سبباً مستقلاً بذاته . ومع هذا فالأسباب بيد الله ، ولا بد لحصول المسببات عنها من مشيئة الله ، ويرجع الإمام ابن تيمية ذلك إلى أن (السبب المعين لا يستقل بالمطلوب بل لا بد معه من أسباب أخر ومع هذا فلها موانع ، فإن لم يكمل الله الأسباب ويدفع الموانع لم يحصل المقصود وهو - سبحانه - ما شاء كان - وإن لم يشأ الناس - وما شاء الناس لا يكون إلا أن يشاء الله) ^٣ . ويؤكد الإمام ابن تيمية على كون العمل عنواناً للسعادة حين يذهب إلى أنه (ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة بل هي سبب ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم " إنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل " . وقد قال : " ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون " فهذه باء السبب أي بسبب أعمالكم و الذي نفاه النبي صلى الله عليه وسلم باء المقابلة كما يقال اشترت هذا بهذا أي ليس العمل عوضاً و ثمناً كافياً في دخول الجنة ، بل لا بد من عفو الله وفضله ورحمته فبعفوه يمحو السيئات ، وبرحمته يأتي بالخيرات ، وفضله يضاعف البركات) ^٤ .

^١ - الطاهر بن عاشور ج ٢٧ ص ٤٥-٤٧ ، وانظر ج ٢٢ ص ٢١٠-٢١١ آية سبأ ٣٣ و ص ٢١٧-٢١٨ آية سبأ ٣٧ ، ج ٢٩ ص ٤٤٤ آية المرسلات ٤٣ .

^٢ - الطاهر بن عاشور ج ٩ ص ١٠٨ .

^٣ - ابن تيمية المجلد الأول ص ١٣٧ .

^٤ - ابن تيمية المجلد الثامن ص ٧٠-٧١ .

أما النحويون فيمتنع بعضهم عن تسمية باء الثواب سببية - كما ذهب ابن هشام - ويجعلونها للمقابلة ويطلقون السببية على المتصلة بالعقاب . فقد ذكر ابن هشام من معاني حرف الجر الباء السببية واستشهد لها بقوله تعالى " إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل " وقوله " فكلاً أخذنا بذنبه " ^١ ثم ذكر من معانيه المقابلة (وهي الداخلة على الأعواض نحو اشتريته بألف وكافأت إحسانه بضعف وقولهم هذا بذاك ومنه " ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون " وإنما لم نقدرها بباء السببية كما قالت المعتزلة وكما قال الجميع في " لن يدخل أحدكم الجنة بعمله " لأن المعطي بعوض قد يعطي مجاناً وأما المسبب فلا يوجد بدون السبب) ^٢ وعلى هذا نستطيع القول إنها حين تدخل على آيات العذاب نحو قوله تعالى " ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون " الأعراف ٩ وقوله تعالى " هذه جهنم التي كنتم توعدون اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون " يس ٦٣-٦٤ ، وقوله " والذين كذبوا بآياتنا بما هم العذاب بما كانوا يفسقون " الأنعام ٤٩ ، وقوله " ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون " الأعراف ٩٦ ^٣ ، فإنها تعني السببية التي تفيد عدم حصول المسبب إلا بعد وجود السبب (لأن الله لا يدخل النار أحداً إلا بذنبه كما قال تعالى " لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين " فأقسم أنه يملؤها من إبليس وأتباعه . ومن اتبع إبليس فقد عصى الله تعالى ، ولا يعاقب الله العبد على ما علم أنه يعمل حتى يعمله) ^٤ .

وحيث تخلو السياقات المفيدة نفس المعنى من باء السببية ، تصاغ في أساليب قد تشير إلى ما تشير إليه الباء نحو القصر في قوله تعالى " ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون " النمل ٩٠ . فالقصر دل في الآية وشبهاتها على ألا ظلم عليهم

^١ - انظر جمال الدين بن هشام الأنصاري ت ٧٦١هـ ، مغني اللبيب عن كتب الأعراب تحقيق د. مازن المبارك - محمد علي حمد الله . مراجعة سعيد الأفغاني ، دار الفكر الطبعة الخامسة ١٩٧٩م ص ١٣٩ .

^٢ - المصدر السابق ص ١٤١ ، وانظر جمال الدين بن هشام الأنصاري ، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك تأليف محمد محيي الدين عبد الحميد دار الندوة الجديدة الطبعة الأولى ١٩٨٠م ج ٢ ص ١٣٦ ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ت ٩١١هـ معترك الأقران في إعجاز القرآن تحقيق علي الجاوي دار الفكر العربي ج ١ ص ٦٣٥-٦٣٦ .

^٣ - انظر يونس ٦٩-٧٠ ، فصلت ٢٧-٢٨ ، الشورى ٤٨ ، الكهف ١٠٦ ، السجدة ١٤ ، الروم ٣٦ ، البقرة ٦١ ، آل عمران ١٠٦ ، النساء ١٢٣ ، الحج ٩-١٠ ، التوبة ٨٢ .

^٤ - ابن تيمية المجلد الثامن ص ٦٩ .

^٥ - انظر الأنعام ١٦٠ ، الطور ١٦ ، التحريم ٧ .

وأهم يجزون جزاءً مماثلاً لأعمالهم (حتى كأنه نفسها كقوله تعالى "جزاءً وفاقاً")^١ ولعل أسلوب القصر قد ألمح إلى قيد آخر في معنى المماثلة ، هو المماثلة في النوع فهناك تشابه بين أنواع عذاب الكافرين وسيئاتهم التي أتوها ولعل تتبعها يخرج بالباحث إلى التكلف ويكفي الإشارة إلى ما لحظه الطاهر في تفسير آية " وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون " سبأ ٣٣ . من المماثلة في النوع لأن (وضع الأغلال في الأعناق منع من حرية التصرف في أنفسهم فناسب نوعه أن يكون جزاء على ما عبدوا به أنفسهم لأصنامهم)^٢ وستأتي الإشارة إلى مثل ذلك حين دراسة الآيات .

ومما قد يشير إلى ما تشير إليه الباء التصريح بلفظ المماثلة نحو قوله تعالى " وجزاء سيئةً سيئةً مثلها " الشورى ٤٠ الذي يشير إلى أن الجزاء يجب أن يكون مماثلاً للعمل وهو السيئة هنا ، ومثله قوله " جزاءاً وفاقاً " النبأ ٢٦ الدال على أن عذابهم موافق لكفرهم . وقريب منه إيقاع لفظ الذوق على الكسب والعمل في نحو قوله تعالى " وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون " الزمر ٢٤ ، وقوله تعالى : " يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون " العنكبوت ٥٥ ، ففعل الذوق قد تعدى في الآيتين إلى الكسب والعمل ، وهم في الواقع يذوقون الجزاء ولا يذوقون العمل ، فلما وضع العمل مكان الجزاء أفاد أن الجزاء عين العمل .

أما حين تقترن الباء بالثواب يكون معناها المقابلة نحو قوله تعالى " كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون " المرسلات ٤٣ مكية ، وقوله " جزاءاً بما كانوا يعملون " الواقعة ٢٤ ، وقوله " لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون " الأنعام ١٢٧ التي نحن بصدد دراستها^٣ فالمعنى أن هذه الجزاءات مقابلة أو معاوضة لأعمالهم الحسنة ويدخل فيها المضاعفة ، إما من أصل صيغتها لصحة قول : جزيته بالضعف - كما سبق أن ذكرت عن ابن هشام^٤ - وإما بالتصريح بلفظ الضعف وما شابهه نحو قوله تعالى " أولئك لهم جزاء الضعف " سبأ ٣٧ ،

^١ - الطاهر بن عاشور ج ٢٢ ص ٢١١ .

^٢ - المصدر السابق .

^٣ - انظر سبأ ٣٧ ، الزخرف ٧٢ ، النحل ٣٢ ، ٩٦ ، ٩٧ ، المؤمنون ١١١ ، السجدة ١٧-١٩ ، الطور ١٩ ، الحاقة

٢٤ ، الأحزاب ٢٤ ، الرعد ٢٤ ، الإنسان ١٢ ، المائدة ٨٥ .

^٤ - انظر ابن هشام، معنى اللبيب ص ١٤١ .

وما يشاءون والمزيد في قوله " لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد " ق ٣٥ ، وما يشتهونه في قوله " ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون " فصلت ٣١ ومن قال بالسببية من علماء أهل السنة قيدها بكونها (تقتضي سببية ما دخلت عليه لغيره وإن لم يكن مستقلاً بحصوله)^١ أي أن حدوث المسبب ليس ضرورة عند وجود السبب ، وإنما يقترب بالسبب في حدوث المسبب أمر آخر هو تفضل الله ورحمته سبحانه خروجا عن مذهب المعتزلة الذين يوجبون الثواب على الله ويجعل الإمام الرازي الباء في قوله " كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون " المرسلات ٤٣ (للإضافة ولما جعل الله ذلك العمل لهذا الثواب كان الإتيان بذلك العمل كالآلة الموصلة إلى تحصيل ذلك الثواب)^٢ . ولعله يقصد بالإضافة معنى أن هذا ثواب عملكم .

كما أجاب على من أوجب الجزاء على الله في قوله تعالى "تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون " ٤٣ الأعراف بقوله (وجوابنا أنه علة للجزاء لكن بسبب أن الشرع جعله علة له لا لأجل أنه لذاته موجب لذلك الجزاء والدليل عليه أن نعم الله على العبد لا نهاية لها فإذا أتى العبد بشيء من الطاعات وقعت هذه في مقابلة تلك النعم السالفة ، فيمتنع أن تصير موجبة للثواب المتأخر ... إن العمل لا يوجب دخول الجنة لذاته ، وإنما يوجبه لأجل أن الله تعالى بفضله جعله علامة عليه ومعرفة له ، وأيضاً لما كان الموفى للعمل الصالح هو الله تعالى كان دخول الجنة في الحقيقة ليس إلا بفضل الله تعالى)^٣ . فالعمل علة لدخول الجنة بسبب أن الشرع جعله علة وعلامة ، لا لأجل أنه لذاته موجب دخول الجنة وفي هذا يكمن معنى التفضل لأن النعم أكبر من أن يوفىها العمل جزاءها و الأعمال مهما عظمت من العبد فهي قاصرة عن الوفاء بحق الشكر فكيف توجب الجزاء ؟ .

^١ - الإمام شمس الدين محمد بن قيم الجوزية ت ٧٥١هـ ، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح المكتبة الأموية عمان الأردن مكتبة الثقافة مكة المكرمة الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ص ٧٣ .

^٢ - الرازي ج ٣٠ ص ٢٨٣ .

^٣ - الرازي ج ١٤ ص ٨٢ .

وأما الإمام ابن تيمية فقد ربط السببية بإرادة الله ومع أن للأشياء أسباباً تكون بها فقد يبطل بعضها الله سبحانه وتعالى ، وقد ييسر للآخر الإتمام^١ ، فهو يجمع بين السببية الظاهرية للعمل والسببية الحقيقية وهي تيسير الله ومثله في ذلك البقاعي^٢ .

وفسر السببية الإمام الطاهر بن عاشور في آية الأعراف التي أجاب عنها الرازي بكونها (ثناء عليهم بأن الله شكر أعمالهم فأعطاهم هذا النعيم الخالد لأجل أعمالهم وأنهم لما عملوا ما عملوه من العمل ما كانوا ينوون بعملهم إلا السلامة من غضب ربه وتطلب مرضاته شكراً له على نعمائه ، وما كانوا يمتنون بأن توصلهم أعمالهم إلى ما نالوه وذلك لا ينافي الطمع في ثوابه ، والنجاة من عقابه . وقد دل على ذلك الجمع بين (أورثتموها) وبين بقاء السببية . فالإيراث دل على أنها عطية بدون قصد تعاوض ولا تعاقد ، وأنها فضل محض من الله تعالى لأن إيمان العبد بربه وطاعته إياه لا يوجب عقلاً ولا عدلاً إلا نجاته من العقاب الذي من شأنه أن يترتب على الكفران والعصيان وإلا حصول رضا ربه عنه ولا يوجب جزاءً ولا عطاءً ، لأن شكر المنعم واجب فهذا الجزاء وعظمته مجرد فضل من الرب على عبده شكراً لإيمانه به وطاعته ولكن لما كان سبب هذا الشكر عند الرب الشاكر هو عمل عبده بما أمره به وقد تفضل الله به فوعده به من قبل حصوله فمن العجب قول المعتزلة بوجوب الثواب عقلاً ولعلمهم أوقعهم فيه اشتباه حصول الثواب بالسلامة من العقاب ، مع أن الواسطة بين الحالين بينة لأولي الأبصار وهذا أحسن مما يطيل به أصحابنا معهم في الجواب)^٣ فالطاهر جعل السببية هنا عنواناً يثني عليهم به لأجل أعمالهم الصالحة وأكد ذلك بمعنى الإرث في الآية فهو يدل على أن دخول الجنة فضل وهبة من الله تعالى كما يحصل الوارث الإرث دون كسب أو مشقة . والباء دلت على أن هذا الفضل لا يكون إلا برضا الله عن عبده الذي تحققه الطاعة . وإنجازاً لوعده الذي وعده إياه لسبق علمه بطاعته .

ولا يفهم من قول الطاهر هنا (إيمان العبد بربه وطاعته إياه لا يوجب عقلاً ولا عدلاً إلا نجاته من العقاب) ، ولا من قول البقاعي في تفسير آية المرسلات " كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون " ٤٣ : (فأوجب دخولها كما أوجب تكذيب المجرمين بالنار دخولهم إياها

^١ - انظر ابن تيمية المجلد الثامن ص ٦٨-٧٠ .

^٢ - انظر البقاعي ج ٧ ص ٤٠٣-٤٠٤ .

^٣ - الطاهر بن عاشور ج ٨ القسم الثاني ص ١٣٤-١٣٥ .

وعذابهم بها وتكذيبهم بالجنة طردهم عنها وحرمانهم نعيمها^١ أنهما يقولان بالوجوب على الله ، وإنما مقصدهما مما أورده إيثبات العدل له سبحانه وأنه " ليس بظلام للعبيد " الحج ١٠ مكية . وكأن الطاهر قد شعر بعدم وضوح الأمر مع ما ذكره من حسن جوابه فعاد إلى تقرير معنى الاستعارة للباء مما يعود بها إلى معنى التفضل فقال : (وباء السببية اقتضت الذي أعطاهم منازل الجنة أراد به شكر أعمالهم وثوابها من غير قصد تعاوض ولا تقابل فجعلها كالشيء الذي استحقه العامل عوضاً عن عمله فاستعار لها باء السببية)^٢ ، فقد أخرج باء السببية الحقيقية عن المقصود هنا لأنها تقتضي عدم تخلف المسبب عن السبب ، والمذكورة هنا تفيد التفضل والزيادة لأن الجزاء بها حصل من غير تعاوض ولا تقابل .

وحين تخلو آيات الثواب من ذكر الباء فإنها قد تستعمل أسالياً قد تسد مسد بـاء المقابلة في الإشارة إلى معنى التفضل مثل قوله تعالى " هل جزاء الإحسان إلا الإحسان " الرحمن ٦٠ فذكر الإحسان فيه إشارة إلى أن الثواب عنوان الطاعة السابقة ، وهى الإحسان ولفظ الإحسان ذاته يتضمن الزيادة ، ومن الله تعالى أكثر ، ليليق بجلال وإكرام المحسن سبحانه وتعالى . وقد تنص الآية على الزيادة نحو " ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله " النور ٣٨ ، وقوله " فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله " النساء ١٧٣ .

ومن هنا نقف على اختلاف مدلول البائين ، وبعبارة أدق اختلاف مدلول السببية في بائي الثواب والعقاب في سورة الأنعام التي نحن بصدد دراستها ، وهما قوله " وهو وليهم بما كانوا يعملون " ، وقوله " وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون " ومثله اختلاف بائي قوله تعالى " ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى " النجم ٣١ ، وقوله تعالى " أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم " يونس ٩ ، ٨ ، فالباء في جانب الحسنات هي باء السببية ، الموضوع علامة على ثواب الحسنات ومعناها الحقيقي المقابلة وتسمى سببية على التسامح . والباء التي في جانب السيئات هي باء السببية التي تشير إلى عدل الله تعالى بحصول المسبب ، (وهو دخول النار) بعد حدوث السبب (وهو

^١ البقاعي جـ ٢١ ص ١٨٣ - ١٨٤ .

^٢ - الطاهر بن عاشور جـ ٨ القسم الثاني ص ١٣٥ آية الأعراف ٤٣ .

الكفر والمعاصي) ، لأن الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً من عباده بل العباد يظلمون أنفسهم بعضيانه تعالى .

ولا يقدح في هذا جعل ابن قيم الجوزية دلالة البائين عكس ما ذكرت ، حيث سمي الباء التي في قوله تعالى " جزاءً بما كنتم تعملون " بـاء السببية ، وهي دالة على الفضل والزيادة - كما سبق أن اتضح - والباء التي في قول الرسول صلى الله عليه وسلم (لن يدخل أحدكم الجنة بعمله) وهي التي نفت الدخول للجنة بالعمل وفيها معنى السببية ، بـاء المعاوضة فقال (الباء التي نفت الدخول هي بـاء المعاوضة التي يكون فيها أحد العوضين مقابلاً للآخر والباء التي أثبتت الدخول هي بـاء السببية التي تقتضي سببية ما دخلت عليه لغيره وإن لم يكن مستقلاً بحصوله)^١ ، فهو وإن عكس مسمى البائين ، فإن مقصوده نفس ما ذهب إليه أئمة المفسرين والعلماء ، من أن السببية التي يحملها حرف الباء في جانب الحسنات ليست مستقلة بذاتها ، ولا تعارض معنى المقابلة التي تفيد الزيادة في نحو كافآت إحسانه بالضعف - التي سبق ذكرها عن ابن هشام والسيوطي - وهي ضد المعاوضة التي تعني مقابلة المسبب للسبب فتقابل الجزاء بالعمل .

و سبق الإمام ابن قيم الجوزية - فيما ذهب إليه - الإمام ابن تيمية الذي جعل الباء للسببية في جانب الحسنات وللمقابلة في جانب السيئات^٢ .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الجزاءات في القرآن الكريم غالباً ما تعلق ، وذلك يكسب الحكم قوة ، لأن التعليل دليل وبرهان على صحة الحكم . وتختلف أساليب التعليل فتارة يكون بذكر الباء وأخرى بأسلوب القصر وأخرى بوصف القوم الذين استحقوا الجزاء ثواباً كان أو عقاباً نحو قوله " إنا كذلك نجزي المحسنين " المرسلات ٤٤ مكية وقوله " وذلك جزاء من تزكى " طه ٧٦ مكية وقوله " وكذلك نجزي المجرمين " الأعراف ٤٠ مكية أو ببناء الخبر على ما ينبه إلى وجه بنائه مثل وصفهم بالاسم الموصول في نحو " إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً ... " النساء ٥٦ وقوله " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً " الكهف ١٠٧ . وسيتم بإذن الله تعالى دراسة الآية السابقة في سياقاتها من البحث .

^١ - ابن قيم الجوزية، حادي الأرواح ص ٧٣ .

^٢ - انظر ابن تيمية المجلد الثامن ص ٧٠ .

أما الاستثناء المذكور من الخلود في العذاب في آية الأنعام التي نحن بصدد دراستها وهو قوله " النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله " فقد استقصيت ما قيل في هذا الاستثناء، فوجدت بعض الآراء يوشك أن يجمع عليها ، في حين ضُغِّف الآخر ، وخولف في غيره وحتى لا يخرج بنا الحديث عن موضوع البحث ، فقد رأيت أن أوجز خلاصة ما رأيت أنه الأرجح والله أعلم .

يرجع الاستثناء إلى معنى المشيئة وهي إرادة الله سبحانه وتعالى . وللمفسرين في معنى المشيئة توجيهان ، أحدهما : مشيئة الله تعالى باحتمال عدم التعذيب وهذا مروى عن ابن عباس^١ ورد هذا الرأي ابن عطية^٢ والطاهر بن عاشور ، بأنه لا يصح عن ابن عباس . وقد ذهب الأخير إلى القول بسبق هذا الحكم من ابن عباس - إن صح - لإجماع الأمة على خلود الكفار في النار^٣ ، في حين قصر القرطبي احتمال عدم التعذيب على من لم يمت^٤ . الثاني : المشيئة بمعنى تمام القدرة والتمكن من تنفيذ إرادته سبحانه وتعالى دون أن يوجب عليه شيء أصلاً لأنه (لا تمام لملك من يجب عليه شيء ويلزمه بحيث لا يقدر على الانفكاك عنه)^٥ فهؤلاء مخلدون لأن الله تعالى شاء ذلك ، وليس لأنه واجب عليه وإن لم يشأ فلا يكون^٦ . فهذا (الاستثناء من تأكيد الشيء بما يشبه ضده)^٧ وهو ما عليه كثير من المفسرين (ولعل هذا هو الحق الذي لا محيص عنه)^٨ لأنه مما يناسب مقام عظمة ملك الله تعالى وقدرته وتتمام تصرفه وقهره .

^١ - انظر ابن جرير ج ٨ ص ٢٦ ، أبو حيان ج ٤ ص ٢٢٤

^٢ - انظر القاضي أبو محمد عبد الحق غالب بن عطية الأندلسي ت ٥٤٦ هـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ،

تحقيق المجلس العلمي بفاس ، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦ م ج ٦ ص ١٥١ .

^٣ - انظر الطاهر بن عاشور ج ٨ القسم الأول ص ٧١، ٧٢ .

^٤ - انظر القرطبي ج ٧ ص ٨٤ .

^٥ - البقاعي ج ٧ ص ٢٦٩ .

^٦ - انظر ناصر الدين أحمد بن المنير ، الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بما مش الكشاف ج ٢ ص ٥٠ ،

البقاعي ج ٧ ص ٢٦٩ ، الطاهر ج ٨ القسم الأول ص ٧٢ .

^٧ - الطاهر بن عاشور ج ٨ القسم الأول ص ٧٢ .

^٨ - الألوسي ج ٨ ص ٢٧ .

القرآنية - (على إطلاق مشيئته في أفعاله مما يخفى معه وجه الحكمة على خلقه فكان تقديم ما يدل على وصفه بغاية الإحكام دعوة للعقل إلى تفويض الأمر لمن خلق فيما يتقاصر عن إدراكه وتغيب عنه حكمته ففيما أدركه دليل على ما فاته)^١ فتقديم وصف الحكمة تذكير للنفوس البشرية القاصرة بأن صاحب الحكم حكيم في تدبير الأمور وتنزيلها منازلها . ثم يشير في آية الأنعام هنا إلى تحكم إرادة الله المطلقة في جزاء الضالين فتخلد من تشاء في النار وتقطع التخليد عن تشاء^٢ . ويشير في تعقيب الحكمة بالعلم إلى حكمة أخرى فيقول (إن العلم حين يأتي عقب الحكمة هنا يعيد إلى العقل رشده لتطمئن قلوب العباد إلى أن حكمته في أفعاله وراءها علم بما خفي ودق من أحوال خلقه فهو الحكيم لأنه عليم)^٣ .

والإيمان والبر والتقوى أعمال قلبية . قال ابن تيمية : - (الإيمان إذا أطلق في القرآن والسنة يراد به ما يراد بلفظ البر ولفظ التقوى)^٤ ، والحقيقة التي لا تقبل الجدل أنه ما من كلمة في القرآن إلا وهي مقصودة بذاتها ، لا ثقة بموضعها ، ولكن الإنسان القاصر قد تخفى عليه الحكمة منها ، وكل ما يستطيعه أن يذكر من الاحتمالات ما لا يعارض الشرع ، وقد يخطئ وقد يصيب ، والله من وراء القصد . وإن أول ما يلحظ في هذا الصدد أن وصف أهل الإيمان بالمتقين في التقابل مع أضدادهم في الجزاء جاء في السور المدنية في حوالي ثمانية مواضع^٥ - عدا ما جاء خارج نطاق التقابل^٦ - في حين جاء أكثر في السور المكية في حوالي بضعة وثلاثين موضعاً^٧ ولعل السبب في ذلك أن الدعوة في مكة كانت تؤصل لعقيدة التوحيد

^١ - د . محمد الأمين الخضري ، من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م ص ٤٧ .

^٢ - انظر المرجع السابق .

^٣ - المرجع السابق ص ٤٨ .

^٤ - ابن تيمية المجلد السابع ص ١٧٩ .

^٥ - البقرة ٢ ، آل عمران ٧٦ ، ١٣٣ ، ١٩٨ ، النساء ٧٧ ، الرعد ٣٥ ، محمد ١٥ ، الطلاق ١٠ .

^٦ - جاء ذكر التقوى خارج نطاق التقابل في باب الجزاء في بضعة مواضع في السور المكية : الأعراف ٦٣ ، الأنعام ٣٢ ، يوسف ٥٧ ، ٩٠ ، ١٠٩ ، النحل ١٢٨ ، وفي حوالي خمسة عشر موضعاً في السور المدنية ، البقرة ١٠٣ ، ٢١٢ ، آل عمران ١٥ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٧٢ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، النساء ١٢٨ ، ١٢٩ ، المائدة ٩٣ ، النور ٥٢ ، محمد ٣٦ ، الحجرات ١٣ ، الطلاق ٢ ، ٤ ، ٥ .

^٧ - الأعراف ٣٥ ، ٩٦ ، ١٥٦ ، يونس ٦٣ ، الحجر ٤٥ ، النحل ٣٠ ، مريم ٧٢ ، ٨٥ ، ٩٧ ، الفرقان ١٥ ، الشعراء ٩٠ ، النمل ٥٣ ، ص ٢٨ ، ٤٩ ، الزمر ٢٠ ، ٢٤ ، ٣٣ ، ٦١ ، ٧٣ ، فصلت ١٨ ، الزخرف ٣٥ ، ٦٧ ،

بالدعوة إلى التوقي من الشرك ، و تحاربه وتقتلع جذوره من القلوب ، فناسب أن يمدح المؤمنين بالمتقين في حين أن السور المدنية كانت تتحدث إلى فئة قد آمنت فوقيت الشرك وهي الآن مطالبة بتوقي غيره من الذنوب و الآثام لتحقيق كمال التقوى .

واقتران الإيمان بالتقوى في السور المدنية في بضعة عشر موضعاً^١ ، يؤيد أن المراد بها تحقيق أمر أكثر من مجرد الإيمان الذي هو ضد الشرك وهو توقي فعل ما يؤثم - كما سيأتي - ولا ينافي هذا القول اقتران التقوى بالإيمان في السور المكية ، لأنها لا تتجاوز عدة مواضع^٢ .

ومما يوضح هذا الأمر أكثر مقابلة المتقين بالكافرين في كثير من السور المكية ، منها سورة المرسلات يقول تعالى :

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ أَنْظَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٩﴾
 أَنْظَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ ﴿٣١﴾
 إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
 لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ
 ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمٌ أَلْفَصَلَّ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَىٰ
 ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

(٢٨ - ٤٠) مكية

الدخان ٥١ ، الجاثية ١٩ ، ق ٣١ ، الذاريات ١٥ ، الطور ١٧ ، القمر ٥٤ ، القلم ٣٤ ، المرسلات ٤١ ، النبأ ٣١ ، الليل ٥ ، ١٧ .

^١ - البقرة ١٠٣ ، آل عمران ١٧٩ ، المائدة ٣٥ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٩٣ ، ١١٢ ، الأنفال ٢٩ ، التوبة ١١٩ ، الأحزاب ٧٠ ، الحديد ٢٨ ، الحشر ١٨ ، الممتحنة ١١ ، الطلاق ١٠ .

^٢ - الأعراف ٩٦ ، يونس ٦٣ ، يوسف ٥٧ ، النمل ٣٥ ، الزمر ١٠ ، فصلت ١٨ .

فقد ذكر الإمام الرازي أن المتقين في قوله تعالى " إن المتقين في ظلال وعيون " المرسلات هم الذين يتقون الإشراك بالله حيث قال (هذا القول عندي هو الصحيح الذي لا معدل عنه ويدل عليه وجوه أحدها : أن المتقي عن الشرك يصدق عليه أنه متقٍ ، لأن المتقي عن الشرك ماهية مركبة من قيدتين أحدهما : أنه متقٍ والثانية : خصوص كونه عن الشرك ومتى وجد المركب فقد وجد كل واحد من مفرداته لا محالة ، فثبت أن كل من صدق عليه أنه متقٍ عن الشرك فقد صدق عليه أنه متقٍ ... وثانيها : أن هذه السورة من أولها إلى آخرها مرتبة في تفرغ الكفار على كفرهم ، وتخويفهم عليه ، فهذه الآية يجب أن تكون مذكورة لهذا الغرض وإلا لتفككت السورة في نظمها وترتيبها . والنظم إنما يبقى لو كان هذا الوعد حاصلاً للمؤمنين بسبب إيمانهم لأنه لما تقدم وعيد الكافر بسبب كفره ، وجب أن يقرن ذلك بوعد المؤمن بسبب إيمانه ، حتى يصير ذلك سبباً في الزجر عن الكفر فأما أن يقرن به وعد المؤمن بسبب طاعته فذلك غير لائق بهذا النظم والترتيب ، فثبت بما ذكرنا أن المراد من قوله: " إن المتقين " كل من كان متقياً عن الشرك والكفر ، وثالثها : أن حمل اللفظ على المسمى الكامل أولى . وأكمل أنواع التقوى هو التقوى عن الكفر والشرك ، فكان حمل اللفظ عليه أولى ^١ ، فقد أشار الرازي في هذا النص إلى عدة أمور منها ما يتعلق بحقيقة التقوى ، وأما تعني التقوى عن الشرك ، وعلى هذا فهي أمر مركب وطبيعة الأمر المركب - إن وجد - تحقق معنى كل من مفرداته وعلى هذا يصدق على كل متقٍ من الشرك لفظ (متقي) . هذا أول أمر أيد به الرازي قوله . أما الأمر الثاني فهو تحقيق صحة المقابلة أو حسن المقابلة - وإن لم يصرح بهذه التسمية - فإن من صحتها و استقامتها أن يقابل الشيء بضده ونقيضه ومادامت السورة تتحدث من أولها عن الكفار وعن جزائهم على هذا الكفر ، فإن من المناسب لنظمها أن يقابلوا بضدهم وهم المؤمنون متقو الشرك وبذكر جزائهم . وقد ذهب إلى القول الثاني كل من البيضاوي وشارحيه الشهاب ومحيي الدين زادة ^٢ ، والألوسي ^٣ ، ويفهم ضمناً من كلام غيرهم مثل الطبري الذي ذكر أن المتقين (في ظلال ظليلة وكن كنين لا يصيبهم أذى حر ولا قر إذ الكافرون بالله في ظل ذي

^١ - الرازي ج ٣٠ ص ٢٨٢ .

^٢ - انظر حاشية الشهاب ج ٨ ص ٢٩٩ المتن والهامش وحاشية محيي الدين زادة على تفسير البيضاوي دار إحياء

التراث العربي ، بيروت - لبنان - ج ٤ ص ٦٠١ ، ٦٠٢ .

^٣ - انظر الألوسي ج ٢٩ ص ١٧٧ .

ثلاث شعب) ^١ ، والقرطبي ^٢ ، و النيسابوري ^٣ ، وأبو السعود ^٤ ، والطاهر بن عاشور ^٥ حين ذهبوا جميعاً عند تفسير الآيات إلى اعتبار وضع الفريقين مقابل بعضهما البعض ، مقارنة حال كل منهما بالآخر . ثم إن صفة الكمال في التقوى - كما يوضحها في الوجه الثالث - أن تكون من الشرك ، و الانصراف إلى معنى الكمال حين إطلاق اللفظ دون قيود أولى .

على أن هذا لا ينفي ما ذهب إليه البيضاوي في تفسير معنى التقوى حيث يقول (و الوقاية فرط الصيانة وهو في عرف الشرع اسم لمن يقي نفسه عما يضره في الآخرة وله ثلاث مراتب الأولى : التوقي عن العذاب المخلد بالتبري عن الشرك ، وعليه قوله تعالى " وألزمهم كلمة التقوى " ، والثانية : التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أوترك حتى الصغائر عند قوم ، وهو المتعارف باسم التقوى في الشرع ، والمعني بقوله " ولو أن أهل القرى آمنوا و اتقوا " والثالثة : أن يتنزّه عما يشغل سره عن الحق ويتبتل إليه بشراشه ، وهو التقوى الحقيقي المطلوب بقوله تعالى " اتقوا الله حق تقاته " ^٦ ، لأن البيضاوي يجعل التقوى من الشرك أولى مراتبه ، و الرازي يجعلها أكمل مراتبه بقوله (وأكمل أنواع التقوى هو التقوى عن الكفر) ، فإن التقوى من الشرك من جهة ، هي أكمل معاني التقوى ، لأن الشرك هو العقبة الأم في طريق الوصول إلى الجنة فمن اجتازها فقد نجا من التخليد في النار ، وهي من جهة أخرى أول أسباب الوصول إلى الجنة ، وأول مراتب يمكن تحقيقها في درج الجنة . وهناك أسباب أعلى لمراتب أعلى في الجنة .

وعلى هذا نستطيع القول بأن الكفر بالله أشنع أنواع الظلم لقوله " إن الشرك لظلم عظيم " لقمان ١٣ ، وتحتة تدرج كل صورته وتقوى الشرك أعظم أنواع الطاعات ، ويدخل تحتها تقوى المعاصي . و يؤنس إلى هذا ما ذكره ابن عطية عن المتقين في تفسير آية الفرقان حيث قال (والمتقون في هذه الآية من اتقى الشرك فإنه داخل في الوعد ثم تختلف المنازل في

^١ - ابن جرير جـ ٢٩ ص ١٤٩ .

^٢ - انظر القرطبي جـ ١٩ ص ١٧٥ .

^٣ - انظر النيسابوري جـ ٢٩ ص ١٤٨ .

^٤ - انظر أبو السعود جـ ٩ ص ٨٢ .

^٥ - انظر الطاهر بن عاشور جـ ٢٩ ص ٤٤٣ .

^٦ - البيضاوي بهامش حاشية الشهاب جـ ١ ص ١٩٧ - ١٩٨ .

الوعد بحسب تقوى المعاصي) ^١ وهذا ما يفهم من شرح ابن العيني لقول عمر رضي الله عنه (لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر) حين قال (وحقيقة التقوى أن يقي نفسه تعاطي ما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك وتأتي في القرآن على معان الإيمان نحو قوله تعالى : " وألزمهم كلمة التقوى " أي التوحيد ، والتوبة نحو قوله تعالى : " ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا " أي تابوا ، والطاعة نحو " أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون " ، وترك المعصية نحو قوله تعالى : " وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله " أي لا تعصوه ، والإخلاص نحو قوله تعالى " فإنها من تقوى القلوب " أي من إخلاص القلوب فإن قلت ما أصله قلت أصله من الوقاية وهو فرط الصيانة ومنه المتقي اسم فاعل من وقاه الله فاتقى ... وقال الكرمانى حقيقة التقوى أي الإيمان لأن المراد من التقوى وقاية النفس عن الشرك) ^٢ . فالتقوى تأتي لعدة معان منها ما يعود إلى أصل وضعها وهو الخوف من الله ومنها ما يعود إلى ما تؤدي إليه شدة الخوف من الله من تجنب المعاصي والآثام والإقبال على الطاعات وقد أشار إلى المعنيين ابن المنير حين ذكر أن التقوى قد تأتي بمعنى العمل وقد تأتي على أصلها بمعنى الخوف من الله ^٣ .

ونعود بعد هذا البيان الضروري إلى تحليل المقابلة في آيات الجزاء في سورة

المرسلات:-

قال تعالى " ويلٌ يومئذ للمكذبين " وقد جاء البدء بذكر المكذبين في السورة لأن (التحذير في السورة أعظم) ^٤ وجاء البدء بالوعيد بعد أن اتضحت علامات الساعة (بما يدل على الغضب) ^٥ فأمرُوا بالانطلاق إلى النار أمر تسخير وإهانة ، لأن ملائكة العذاب هي التي تنطلق بهم إلى ذلك الظل ^٦ ، والتصريحُ بذنبهم الذي استحقوا العقوبة عليه في قوله " ما كنتم

^١ - ابن عطية ج ١٢ ص ١٢ . الفرقان (١٥)

^٢ - بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني ت ٨٠٠هـ ، عمدة القاري ، شرح صحيح البخاري ، دار إحياء التراث العربي لبنان ج ١ ص ١١٦ .

^٣ - انظر ابن المنير ج ١ ص ٦٢٩ في تفسير سورة المائدة آية ٦٥ .

^٤ - البقاعي ج ٢١ ص ١٨٢ .

^٥ - المصدر السابق ص ١٧٦ .

^٦ - انظر الطاهر بن عاشور ج ٢٩ ص ٤٣٥ .

به تكذبون " ، تحسير لهم وتبكييت ^١ . أما الظل فإن في استعارته لما يعلوهم من دخان النار
تهكماً بهم ، حيث يتوهمون في الظل الراحة والبرودة فيفجؤهم بلهيبه وعذابه ^٢ .

ومن إشارات الزمخشري عادة في مواطن نفي صيغ المبالغة إلى معنى المبالغة في النفي
نستطيع القول بأن في الآية هنا دلالة على التحسير فمن ذلك تعليقه على نفي صيغة المبالغة
ظلام في قوله " وأن الله ليس بظلام للعييد " الأنفال ٥١ مدنية ، وقوله " وما أنا بظلام للعييد "
ق ٢٩ مكية ، حيث قال عن نفي صيغة المبالغة في الآية الأولى (لأن العذاب من العظم بحيث
لولا الاستحقاق لكان المعذب بمثله ظلاماً بليغ الظلم متفاقمه) ^٣ ، وقال في الثانية (يراد لو
عذبت من لا يستحق العذاب لكنت ظلاماً مفرط الظلم فنفي ذلك) ^٤ وإذا كانت المبالغة في
الظلم في الآيتين السابقتين تتحقق إن وقع العذاب العظيم على من لا يستحقه ، فإن المبالغة في
وصف الظل بالظليل تتحقق في آية المرسلات لو لم يكفروا ويكذبوا ومن هنا كانت زيادة في
التحسير لأنه إطماع فيما لا رجاء لتحقيقه .

ثم إن هذا الظل المفرد يوحي بوجودهم جميعاً تحته متراصين متضايقين ^٥ ، في حين
توحي الشعب الثلاث بعظم اشتعال النار ، لأنها في هذا الحال تبعث الدخان من أكثر من
موضع منها ^٦ . ويتواصل ترويعهم وتخويفهم بالإشارة لهم إلى النار التي يرونها ولا يكذبون
أعينهم في حقيقة وجودها ، ويخبرون بما سترمي به من شرر عظيم كالبناء العالي في العظم
، وكالجمال الصفر في السرعة والتتابع ، (ومن عظمة شرارها تعرف عظمة جمرها) ^٧ وتسجل
الآيات عجزهم المطلق ملتفتة عنهم ، احتقاراً لشأنهم في قوله " هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن
لهم فيعتذرون " . وفي بناء الفعل (يؤذن) للمفعول (دلالة على عدم ناصر لهم أو فرج

^١ - انظر الطاهر بن عاشور ج ٢٩ ص ٤٣٥ .

^٢ - انظر حاشية الشهاب ج ٨ ص ٢٩٨ .

^٣ - الزمخشري ج ٢ ص ١٦٤ .

^٤ - الزمخشري ج ٤ ص ٩ .

^٥ - انظر الطاهر بن عاشور ج ٢٩ ص ٤٣٥ .

^٦ - انظر المصدر السابق ، ابن كثير ج ٧ ص ١٩١ .

^٧ - البقاعي ج ٢١ ص ١٧٨ .

يأتيهم)¹. واختلف في وجه إعراب " فيعتذرون " فذهب بعضهم إلى القول بجواز رفعه ونصبه²، فالرفع على أنه معطوف على يؤذن ، أي لا يكون لهم إذن ولا عذر، والنصب على غرار قوله تعالى " لا يقضى عليهم فيموتوا " . وذهب الأكثرون³ إلى أن المعنى مستقيم مع الرفع ، لأن النصب سيجعل عدم الاعتذار مسبباً عن عدم الإذن ، ولو أذن لهم لاعتذروا . وهذا مخالف لمقصود الآية ، لأنها تصور عجزهم - كما مر آنفاً - وعدم جدوى الاعتذار لسبق الرسل بالإندار إليهم بهذا اليوم⁴ . وعدم النطق في قوله " لا ينطقون " لا يعارضه نطقهم في مواطن أخرى مثل خصومة التابعين مع المتبوعين⁵ ، وخطاب الكفرة للمؤمنين⁶ ، ولمالك خازن النار⁷ ، ولرهم سبحانه وتعالى⁸ ، لأن المراد في هذه الآية إما عدم النطق بما ينفعهم وينجيهم من النار⁹ ، وإما أنهم لا ينطقون (بشيء من فرط الدهشة والحيرة)¹⁰ ، ومثله الاعتذار فقد ورد في آيات عديدة اعتذارهم بدليل نهيهم عنه في قوله " لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون " التحريم ٧ مدنية وعلى هذا فالاعتذار منفي في بعض المواطن والمواقيت دون بعض¹¹ . ثم يلتفت الخطاب إليهم مرة أخرى في قوله " هذا يوم الفصل " ، فبعد أن طردوا إلى الظل شيعوا بهذا التويخ ، وهو إقرار وقوع يوم الفصل الذي يجمعون فيه ومن سبقهم من الأمم إلى التكذيب ونتج عن هذا الجمع - بما أفادته فاء السببية¹² - أن

¹ - البقاعي ج ٢١ ص ١٨٠ .

² - انظر ابن جرير ج ٢٩ ص ١٤٩ ، ابن عطية ج ١٦ ص ٢٠٣ ، القرطبي ج ٢٩ ص ١٦٤ .

³ - انظر الزمخشري ج ٤ ص ٢٠٥ ، الرازي ج ٣٠ ص ٢٨٠ ، النيسابوري ج ٢٩ ص ١٤٦ - ١٤٧ أبو حيان

ج ٨ ص ٣٩٩ ، ، البقاعي ج ٢١ ص ١٨٠ ، حاشية الشهاب ج ٨ ص ٢٩٩ الألويسي ج ٢٩ ص ١٧٧ ،

الطاهر بن عاشور ج ٢٩ ص ٤٤٠ .

⁴ - انظر النيسابوري ج ٢٩ ص ١٤٧ .

⁵ - في قولهم " أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار " ص ٦٠ مكية .

⁶ - في قولهم " أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله " الأعراف ٥٠ مكية .

⁷ - في قولهم " يا مالك ليقض علينا ربك " الزخرف ٧٧ مكية .

⁸ - في قولهم " قالوا ربنا أخرجنا منها " المؤمنون ١٠٧ مكية .

⁹ - انظر حاشية الشهاب ج ٨ ص ٢٩٩ المتن والهامش .

¹⁰ - البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ج ٨ ص ٢٩٩ .

¹¹ - انظر الألويسي ج ٢٩ ص ١٧٧ .

¹² - انظر البقاعي ج ٢١ ص ١٨١ .

أمروا بالإتيان بكيدهم الذي كانوا يكيدونه لدين الله والمؤمنين به تقريراً وتعجيزاً لهم^١ ،
 لعلمهم اليقيني أنه ليس إلى ذلك من سبيل ، ولذا أعقبه بقوله " ويل يومئذ للمكذبين"^٢ .
 ولمزيد من تحسيرهم وغمهم^٣ ، ذكر وعد مقابلهم وهم المؤمنون فقال تعالى :

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَقَوَائِكَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا
 وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

﴿٤٤﴾

المرسلات ٤١ - ٤٤ مكية .

فهؤلاء المتقون لهم ثلاثة أنواع من النعمة مقابل شعب الدخان الثلاثة التي كانت للكافرين^٤ ،
 فقد وقوا أولاً - لأنهم اتقوا الشرك - لفتح النار ، واستقروا في ظلال ظليلة لا يدرك كنهها^٥ ،
 في مقابل انطلاق المكذبين مشيعين بالزجر والتعنيف إلى ظل منكر أسود^٦ ، يلفحهم بعذابه
 ويغشاهم بسواده . وتقر أعين المؤمنين برؤية الظلال والعيون والالتذاذ ببردهما لأن (العيون
 تبرد الباطن وتنبت الأشجار المظلة)^٧ ، ويرعب الكافرون برؤية شرر النار العظيم ، يتطاير في
 الفضاء ويعذبهم اللهب الذي (يجرّ الظاهر والباطن ، ويهلك ما قرب منه من شجر وغيره فلا
 يبقى ولا يذر)^٨ . وللمؤمنين ثانياً مطاعم كثيرة متنوعة يتناولونها على سبيل التفكه والتلذذ^٩ ،
 لا من حاجة جوع أو نحوه ، يتخذون منها (برسم شهواتهم بخلاف ما هي الدنيا عليه)^{١٠} ، بل

^١ - انظر الزمخشري ج ٤ ص ٢٠٥ .

^٢ - انظر الرازي ج ٣٠ ص ٢٨١ .

^٣ - انظر المصدر السابق ص ٢٨٢ .

^٤ - انظر المصدر السابق .

^٥ - انظر حاشية محيي الدين زادة ج ٤ ص ٦٠٢ ، البقاعي ج ٢١ ص ١٨٢ .

^٦ - انظر القرطبي ج ١٩ ص ١٦١ ، البيضاوي بامش حاشية الشهاب ج ٨ ص ٢٩٨ ، ابن كثير ج ٧ ص ١٩٣

البقاعي ج ٢١ ص ١٧٧ .

^٧ - البقاعي ج ٢١ ص ١٨٢ .

^٨ - المصدر السابق .

^٩ - انظر البقاعي ج ٢١ ص ١٨٣ .

^{١٠} - ابن عطية ج ١٦ ص ٢٠٤ .

لعلها بعضاً مما يتمنونه ويشتهونه^١ ، في حين أن الكفرة يحترقون بالحر والعطش دون طعام وشراب . ويُخاطَب المؤمنون ثالثاً خطاب رضا وتكريم بقوله " كلوا وشربوا ... " أي أن طعامكم وشرابكم لا يشوبه تنغيص ولا سقم^٢ ، في حين يُخاطَب المكذبون خطاب إهانة وتقرّيع بقوله " انطلقوا ... " ، فالدعوة لهم إلى أشد عذاب وأسوأ مآب . وإتمام تصوير هذه المقابلة بما يرغب في جزاء المتقين وينفر من جزاء الكافرين ، عُلِّل جزاء المتقين بتقواهم وإحسانهم في قوله " جزاء بما كنتم تعملون " وقوله " إنا كذلك نجزي المحسنين " ، وعُلِّل جزاء الكافرين بتكذيبهم وإجرامهم في قوله " ويل يومئذ للمكذبين " وقوله " إنكم مجرمون " .

وسواء التفتت الآيات عند قوله تعالى " كلوا وتمتعوا قليلاً " إلى خطاب المكذبين الموجودين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم - كما ذهب بعض المفسرين^٣ - أو استمرت على ذكر ما يجري يوم القيامة^٤ ، فإن ثمة مقابلة تكمل أثر الترغيب والترهيب ، يشير إليها كون أكل المتقين هنيئاً في الجنة وأكل المجرمين تمتعاً في الدنيا ، فإن وصف الأكل بالهنيء لم يأت في القرآن إلا في وصف الطيبات من اللذات^٥ في حين جاء التمتع (في الدلالة القرآنية كأنه خاص بالعقاب والتهديد)^٦ ، كما أنه يدل على نوع خاص من المتعة هو التمتع (بمثل الجيفة فإن المتاع من أسمائها)^٧ . فأمر المؤمنين أمر رضا وكرامة^٨ وأمر الكافرين أمر تهديد وإهانة^٩ .

^١ - انظر الطاهر بن عاشور جـ ٢٩ ص ٤٤٣ ، في معنى التبعض لحرف الجر (من) .

^٢ - انظر ابن جرير جـ ٢٩ ص ١٤٩ ، الرازي جـ ٣٠ ص ٢٨٢ ، ابن كثير جـ ٧ ص ١٩٣ ، البقاعي جـ ٢١ ص ١٨٣ .

^٣ - انظر ابن جرير جـ ٢٩ ص ١٤٩ ، ابن عطية جـ ١٦ ص ٢٠٤ ، الرازي جـ ٣٠ ص ٢٨٣ ، البقاعي جـ ٢١ ص ١٨٥ ، الطاهر بن عاشور جـ ٢٩ ص ٤٤٥ .

^٤ - انظر الزمخشري جـ ٤ ص ٢٠٥ ، القرطبي جـ ١٩ ص ١٦٦ ، النيسابوري جـ ٢٩ ص ١٤٩ ، البيضاوي جـ ٨ ص ٢٩٩ ، الألويسي جـ ٢٩ ص ١٧٨ .

^٥ - انظر النساء ٤ ، الطور ١٩ ، الحاقة ٢٤ ، الرسائل ٤٣ .

^٦ - د. صباح عبيد دراز ، الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ، مطبعة الأمانة - الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦ م ص ٣٨ .

^٧ - البقاعي جـ ٢١ ص ١٨٥ ، وانظر جـ ٨ ص ٢٩٢ .

^٨ - انظر د. صباح دارز ، الأساليب الإنشائية ص ٣٦ ، ٣٧ .

^٩ - انظر المرجع السابق ص ٣٧ ، ابن كثير جـ ٧ ص ١٩٣ .

وبتأمل سياق الآيات نجدها قد أطنبت في جزاء الكافرين ، وأوجزت في جزاء المتقين مما حدا ببعض المفسرين إلى إرجاع السبب لطبيعة السورتين المتجاورتين في ترتيب المصحف ، الإنسان ، والمرسلات ، يقول أبو حيان (لما كان في سورة الإنسان ذكر نزرأ من أحوال الكفار في الآخرة ، وأطنب في وصف أحوال المؤمنين ، ناسب أن يطنب في أحوال الكفار ، ويوجز في أحوال المؤمنين هنا ليقع الاعتدال بين السورتين)^١.

وتتفق آيات الجزاء في سورة القمر مع سورة المرسلات ، في الابتداء بذكر جزاء الكافرين ولعل هذا يرجع - كما سيأتي^٢ - إلى أن المقام مقام ذكر للحساب والجزاء ، فيكون البدء بذكر أهل العقاب يقول تعالى :

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرِ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى
 وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا
 أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ
 مُدِّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ
 مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾

٤٧ - ٥٣ مكية .

فالكفار الذين وصفوا بالمجرمين غارقون في الضياع والعذاب^٣ ، فهم في (" ضلال " أي عمى عن القصد بتكذيبهم بالبعث محيط بهم مانع من الخلاص من دواهي الساعة وغيرها ، ومن

١ - أبو حيان ج ٨ ص ٣٩٩ .

٢ - عند الحديث عن آية الزمر " وسيق الذين كفروا " .

٣ - ذهب ابن جرير ج ٢٧ ص ٦٤ ، وابن كثير ج ٦ ص ٤٧٩ إلى أنه أريد به ضياع الهداية وعذابه وحرقته . وذهب ابن عطية ج ١٥ ص ٣١٥ ، الرازي ج ٢٩ ص ٧١ ، القرطبي ج ١٧ ص ١٤٧ ، أبو حيان ج ٨ ص ١٨١ ، الألوسي ج ٢٧ ص ٩٣ ، الطاهر بن عاشور ج ٢٧ ص ٢١٦ إلى أن المقصود في ضلال وجنون في الدنيا في حين ذهب الزمخشري ج ٤ ص ٤١ ، الرازي ج ٢٩ ص ٧١ ، أبو السعود ج ٨ ص ١٧٤ ، الألوسي ج ٢٧ ص ٩٣ ، الطاهر بن عاشور ج ٢٧ ص ٢١٥ إلى إمكان أن يراد به ضياع هداية الطريق وعذاب النار في الآخرة وذهب البيضاوي ج ٨ ص ١٢٨ إلى الفصل بين الضياع والسعر فجعل الضياع للهداية أو بمعنى الجنون في الدنيا وعذاب النار في

الوصول إلى شيء من مقاصدهم التي هم عليها الآن معتمدون ، " وسعر " أي نيران تضطرم وتتقد غاية الاتقاد)^١ . ويتجدد عليهم العذاب ويستمر بسحبهم على وجوههم في النار ، لأن السحب (أشد من ملازمة المكان ، لأن به يتجدد مماسة نار أخرى ، فهو أشد تعذيباً)^٢ وصيغة المضارع تدل على تكرار حدوثه مرة بعد أخرى وهذا أشد . ويجتمع لهم مع هوان السحب هوان لتقريع والتوبيخ^٣ في القول لهم (من أي قائل اتفق ذوقوا ، أي لأنهم لا منعة ولا حمية عندهم بوجه)^٤ لأن المواجهة بالعقاب تعني - كما سيأتي^٥ - عدم الاعتداد بالمخاطب وفي ذوق العذاب وهو من (مجاز الكلام كما يقال كيف وجدت طعم الضرب)^٦ ، إشارة إلى شدة إدراكهم لهذا العذاب لأن الذوق (إدراك لمسي أتم من غيره في الملموسات ... فيجتمع في العذاب شدته وإيلامه)^٧ ويعاضده أو يزيد عليه في إيضاح شدة العذاب ، لفظ المس في قوله : " مس سقر " سواء أريد به أول ما يناله من العذاب^٨ ، أو المس بمعنى الألم مجازاً مرسلأ^٩ ، أو أن (النار إذا أصابتهم بجرها ولفحتهم بإيلامها ، فكأنها تمسهم مساً بذلك كما يمس الحيوان و يباشر مما يؤذي ويؤلم)^{١٠} . فإن القول الأول يبين شدة العذاب ، من حيث أنه إذا كان أول ما يناله من العذاب هو عذاب سقر ، وهو مشتق من سقرته النار إذا (لوحتّه وآلمت دماغه بجرها)^{١١} ، فما يأتي بعد ذلك أشد . وقريب منه في تأكيد المعنى القول الثاني

الآخرة . وذكر ذلك الرأي الزمخشري وابن عطية والنيسابوري وأبو حيان والألوسي و الطاهر بن عاشور في المصادر السابقة .

١- البقاعي جـ ١٩ ص ١٣٢ .

٢ - الطاهر بن عاشور جـ ٢٧ ص ٢١٥ .

٣ - انظر ابن كثير جـ ٦ ص ٤٧٩ .

٤ - البقاعي جـ ١٩ ص ١٣٢ .

٥ - في آية النبأ " فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً " ، وآية الصافات " إنكم لذائقو العذاب الأليم "

٦ - ابن جرير جـ ٢٧ ص ٦٥ .

٧ - الرازي جـ ٢٩ ص ٧١ .

٨ - انظر ابن جرير جـ ٢٧ ص ٧١ .

٩ - انظر البيضاوي بمأش حاشية الشهاب جـ ٨ ص ١٢٨ ، الألوسي جـ ٢٧ ص ٩٣ ، الطاهر بن عاشور جـ

٢٧ ص ٢١٦ .

١٠ - الزمخشري جـ ٤ ص ٤١ .

١١ - ابن منظور جـ ٤ ص ٣٧٢ . ولوحتّه غيرتّه . انظر ابن منظور جـ ٢ ص ٥٨٥ .

الذي يجعله مجازاً مرسلًا علاقته السببية من حيث أن السبب (كل شيء يتوصل به إلى غيره)^١ . فإذا صحَّ ما ذهب إليه ابن فارس من أن أصله قد (يدل على طول وامتداد)^٢ ، فيكون دليلاً على أنه عذابٌ سيشتد ويمتد مداه . أما القول الثالث فيوضح ذلك باستعارة السبع للنار ، والسبع لا يمسه إلا ليؤذي ويفتك بما تناله يده .

وقبل أن ينتقل الكلام إلى ذكر الفريق الآخر يبين تعالى حكمته في خلق كل شيء من مخلوقاته ، ومنها النار لأجل الجزاء والحساب يقول الطاهر موضحاً هذا الأمر (مما يشملها عموم كل شيء خلق جهنم للعذاب وقد أشار إلى أن الجزاء من مقتضى الحكمة قوله تعالى : " أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون " وقوله : " وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق... " وقوله : " وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين... " فترى هذه الآيات وأشباهاها تعقب ذكر كون الخلق كله لحكمة بذكر الساعة ويوم الجزاء ، فهذا وجه تعقيب آيات الإنذار والعقاب المذكورة في هذه السورة بالتذليل بقوله : " إنا كل شيء خلقناه بقدر ")^٣ وقد ذكرت النص بطوله هنا ، لأنه يوضح أهمية الجزاء الأخروي وأنه من مقتضيات الحكمة . وقد أتم قوله تعالى : " وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر " التنبيه والتحذير من التماذي في الكفر ، لأن أمر الله إذا جاء بغتة فلن ينفعهم رجوع ولا استعتاب . ويرتقي التحذير إلى التهديد تلويحاً لهم بالعذاب حين يُخبرون بإهلاك أمثالهم من المشركين من الأمم السابقة ، ثم يُؤكّد لهم وقوعه حين يعلمون أن كل ما فعلوه مسطر مكتوب في صحائف أعمالهم ، أو في أم الكتاب^٤ ، لا تفوت منه فائتة (فالكتابة في الزبر وقعت هنا كناية عن لازمها وهو المحاسبة به فيما بعد وعن لازم لازمها وهو العقاب بعد المحاسبة)^٥ . وقبل أن يتبادر إلى أذهانهم إمكان فوات صغائر ذنوبهم و آثامهم ، يأتي إثبات سعة علمه تعالى بأعمالهم جميعها ، وعظيم قدرته التي تشمل محاسبتهم عليها ، فالمستطر في قوله تعالى : " وكل صغير وكبير مستطر " (كناية عن علم الله به وذلك كناية عن الجزاء عليه فكان ذلك جامعاً للتبشير

^١ - ابن منظور جـ ١ ص ٤٥٨ .

^٢ - ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة جـ ٣ ص ٦٤ .

^٣ - الطاهر بن عاشور جـ ٢٧ ص ٢١٧ .

^٤ - انظر ابن جرير جـ ٢٧ ص ٦٦ .

^٥ - الطاهر بن عاشور جـ ٢٧ ص ٢٢٣ في الكتاب فالكناية والصواب ما أثبت .

والإنذار) ^١ . و أمثال هذه الآيات التي تطوي ذكر البشارة والندارة ، هي ما يصلح أن يسمى المقابلة الخفية وسيأتي ذكرها في بابها بإذن الله .

وبعد أن بلغت قلوبهم حناجرهم خوفاً ورعباً للتهديد السابق ، وبعد أن ألمحت الآيات السابقات إلى عموم المجازاة ، علم أن هناك فريقاً مقابلاً لهذا الفريق (كانت نفس السامع بحيث تتشوف إلى مقابل ذلك من جزاء المتقين ، وجرياً على عادة القرآن من تعقيب الندارة بالبشارة والعكس) ^٢ ، فذكر جزاءهم تحسيراً لأضدادهم على سوء اختيارهم ، وإسعاداً لمن يسلك سبيلهم . فهم متقون للهب جهنم التي يعذب فيها المشركون ^٣ ، منعمين باستقرارهم في جنات عظيمة الشأن كثيرة الأشجار وارفة الظلال ، تجري من بينهم أنهارٌ كثيرة عذبة المياه طيبة الطعم ، جيء بلفظها على الأفراد للجنسية ^٤ أو مراعاة للفاصلة ^٥ ، أو لدلالة الكلام حيث أن المفهوم من قوله في نهر أي خلال أنهار ^٦ ، ولعل أحسن ما يمكن أن يقال (لكثرة الأنهار وعظمتها حتى أنها لقرب بعضها من بعض واتصال منابعها وتهيء جميع الأرض لجري الأنهار منها كأنها شيء واحد) ^٧ وأبعد في الاحتمال أن يكون الأفراد حقيقة وأن يكون (في الجنة نهر وهو أعظم الأنهر و أحسنها) ^٨ وقد يُراد به السعة والضيء من النهار ^٩ أو يُراد به

^١ - الطاهر بن عاشور جـ ٢٧ ص ٢٢٤ وجاءت كلمة (فكان) في الكتاب (مكان) ولعله خطأ مطبعي لأن الأنسب في المعنى ما ذكرت .

^٢ - الطاهر بن عاشور جـ ٢٧ ص ٢٢٤ .

^٣ - انظر ابن كثير جـ ٦ ص ٤٨٢ .

^٤ - انظر ابن جرير جـ ٢٧ ص ٦٦ ، الزمخشري جـ ٤ ص ٤٢ ، ابن عطية جـ ١٥ ص ٣١٧ ، الرازي جـ ٢٩ ص

٧٨ - ٧٩ ، القرطبي جـ ١٧ ص ١٤٩ ، البيضاوي جـ ٨ ص ١٢٩ ، أبو حيان جـ ٨ ص ١٨٢ ، البقاعي جـ

١٩ ص ١٣٦ ، أبو السعود جـ ٨ ص ١٧٥ ، الألوسي جـ ٢٧ ص ٩٥ ، الطاهر بن عاشور جـ ٢٧ ص ٢٢٥ .

^٥ - انظر الرازي جـ ٢٩ ص ٧٩ ، القرطبي جـ ١٧ ص ١٤٩ ، البقاعي جـ ١٩ ص ١٣٦ ، أبو السعود جـ ٨ ص

١٧٥ ، حاشية الشهاب جـ ٨ ص ١٢٩ ، الألوسي جـ ٢٧ ص ٩٥ .

^٦ - انظر الرازي جـ ٢٩ ص ٧٨ ، النيسابوري جـ ٢٧ ص ٧٨ ، البقاعي جـ ١٩ ص ١٣٩ .

^٧ - البقاعي جـ ١٩ ص ١٣٦ في الكتاب تهيء والصواب تهيؤ .

^٨ - الرازي جـ ٢٩ ص ٧٩ .

^٩ - انظر ابن جرير جـ ٢٧ ص ٦٧ ، الزمخشري جـ ٤ ص ٤٢ ، القرطبي جـ ١٧ ص ١٤٩ ، البيضاوي جـ ٨ ص

١٢٩ ، النيسابوري جـ ٢٧ ص ٧٨ ، البقاعي جـ ١٩ ص ١٣٦ ، الألوسي جـ ٢٧ ص ٩٥ .

(سعة في الأرزاق والمنازل)^١ وعلى كل الاحتمالات فإن المقصود أنهم ينعمون بصد ما أولئك فيه من حيرة وضياع واحتراق ونصب . ولدفع توهم أن تكون الجنات في الآخرة مثل جنات الدنيا لا تسكن^٢ جاء قوله في مقعد صدق ليبين الفرق وهو أن جنات الآخرة مكان للعودة (العودة جلوس فيه مكث)^٣ وهو مكان مرضٍ لهم^٤ لا كذب فيه ولا لغو^٥ (والإضافة في مقعد صدق كهي في قولك رجل صدق أي رجل صادق في الرجولية كامل فيها)^٦ وعليه يكون المقصود الدلالة على توفر معاني الراحة والاستقرار ونحوها في المقعد سواء كان من قبيل المجاز المرسل أو من قبيل الاستعارة إذا شبهت حالهم في المقعد بالصدق ، الذي هو كون الشيء على غاية ما يكون عليه . كما يصح وصفه بالصدق لإخبار الصادق به^٧ ، أو أن يناله من صدق به^٨ . ومن معنى الكمال نرى تقابلاً بين مقعد الصدق الكامل في صفات الراحة والنعيم ، والنار (الكاملة في النارية)^٩ التي يحترقون فيها . ثم إن هذا المقعد قريب من مولاهم (الملك) سبحانه وتعالى قرب شرف وترضية لهم لأنه (مقتدر لا يقرب أحداً إلا بفضله)^{١٠} .

و السورتان تتقابل فيهما المعاني تقابلاً رائعاً ، فالحرف (في) يفيد كما هو معلوم تمكن الشيء من موضعه تمكن المظروف في الظرف ، فكلا الفريقين مستغرق في جزائه . وعتمة

^١ - ابن عطية جـ ١٥ ص ٣١٧ وانظر البيضاوي جـ ٨ ص ١٢٩ ، أبو حيان جـ ٨ ص ١٨٢ .

^٢ - انظر البقاعي جـ ١٩ ص ١٣٦ .

^٣ - الرازي جـ ٢٩ ص ٨٠ .

^٤ - انظر الزمخشري جـ ٤ ص ٤٢ ، أبو السعود جـ ٨ ص ١٧٥ ، الألوسي جـ ٢٧ ص ٩٦ ، الطاهر بن عاشور جـ ٢٧ ص ٢٢٥ .

^٥ - انظر ابن جرير جـ ٢٧ ص ٦٧ ، البقاعي جـ ١٩ ص ١٣٦ .

^٦ - النيسابوري بهامش جامع البيان جـ ٢٧ ص ٧٨ ، ٧٩ و انظر ابن عطية جـ ١٥ ص ٣١٨ ، الرازي جـ ٢٩ ص ٨٠ ، القرطبي جـ ١٧ ص ١٥٠ ، أبو حيان جـ ٨ ص ١٨٢ ، البقاعي جـ ١٩ ص ١٣٦ ، حاشية الشهاب

جـ ٨ ص ١٢٩ المتن والهامش ، الألوسي جـ ٢٧ ص ٩٦ ، الطاهر بن عاشور جـ ٢٧ ص ٢٢٥ .

^٧ - انظر المصادر السابقة .

^٨ - انظر المصادر السابقة .

^٩ - البقاعي جـ ١٩ ص ١٣٢ .

^{١٠} - الرازي جـ ٢٩ ص ٨١ .

الضلال تقابل نور الجنات ، واعتدال ضوئها حيث لا ليل في الجنة ^١ ، كما أن الضيق والاحتراق بشدة الحيرة في الدنيا ، أو السعير في الآخرة ، يقابل التنعم ببرودة الظلال والرّي من أثمار الجنة ، وسعة أرزاقها ومنازلها . والسحب في النار على الوجوه فيه هوان وذل يزداد بمشاهدة الكفار بالوعيد بقوله : " ذوقوا ... " ، ويقابله استقرار المتقين في مرتبة عالية قرب ملك الملوك المقندر ، كما أن الصدق الذي يعني كون الشيء (على ما يناسب كمال أحوال جسسه ... مرضي للمستقر فيه فلا يكون فيه استفزاز و لا زوال)^٢ يقابل الضلال في عدم استقرار صاحبه وشدة عنائه وتعبه فيه .

وقد توقف د . صباح دراز عند دلالة الوصف (مقتدر) فقال (أما الوصف " مقتدر " لله سبحانه فقد جاء في مقامات عنيفة جاء في سورة القمر وهي سورة عنيفة الموسيقى قوية الألفاظ طاغية الانفعالات بالغة القهر و الإشعاع في معرض الحديث المخطوم عن قوم فرعون " كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر " ، أو الغضب الجبار أخذ بأعناق الأساليب " ومقتدر " تصور عظمة السلطان وسيطرة المنتقم تركيزاً في جزاء أخذ في مواطن أخرى مساحات مديدة ، في نهاية السورة " إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر " لأن الملك العظيم حين يمنح ويعطي إنما عن اقتدار وسلطان ولعل هذا النعيم المقتضب الوحيد في السورة مقصود لتم المقابلة مع التلاؤم في الشدة والقوة)^٣ فمجيء الوصف الدال على كمال القدرة هنا يشير إلى صفتي الجلال والإكرام فهو تعالى مقتدر يأخذ الظالم بظلمه ، وهو تعالى مقتدر يُقرب الطائعين ويؤتهم مقاعد للنعيم والإكرام . يفعل ذلك عن حكمة واقتدار ، وصفة الاقتدار في الثواب قد تشير إلى مزيد رضى واطمئنان للمتقين لأنه قد مكنهم من هذا الثواب ذو القوة والجبروت .

وجاء ذكر المتقين في سورة (ص) في قوله تعالى :

^١ - انظر ابن عطية ج ١٥ ص ٣١٨ ، الرازي ج ٢٩ ص ٧٩ .

^٢ - الطاهر بن عاشور ج ٢٧ ص ٢٢٥ .

^٣ - د . صباح عبيد دراز ، من الإعجاز البلاغي للقرآن ، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر ص ٢٣ .

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَحَاتٍ
لَهُمْ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَيْكِهِةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ
﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أُنْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ
لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾

٤٩ - ٥٤ مكية .

فقد مدح تعالى المصطفين من الأنبياء ومن هذا حذوهم بالتقوى، تنويهاً بشأنهم، وحثاً لغيرهم على اتباع نهجهم^١ فإن تقواهم جعلت لهم مآباً حسناً لا يدرك وصفه - بما أفاده التنكير - في مقابل ما سيكون للطاغين من مرجع شرٍ وسوء لا يدرك وصفه أيضاً، ثم فُسر هذا المآب بقوله: "جنات عدن" وهي بساتين إقامة دائمة، لأن (العدن في اللغة الإقامة ... وقال عبد الله بن عمر: إن في الجنة قصراً يقال له عدن حوله البروج والمروج فيه خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حبرة لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد)^٢. وأبواب هذه الجنات مفتحة لهم لا لغيرهم^٣. إما بأمرهم لها^٤، أو بفتح الملائكة لها^٥، أو بسعتها حتى تسافر فيها العيون^٦. وهم فيها لا كلفة عليهم ولا عمل، بل هم في راحة تامة بما دل عليه لفظ متكئين^٧، ويكتمل سؤددهم بأن لهم خدماً^٨ يخدمونهم بأنواع كثيرة من الطعام على سبيل التفكه والتلذذ^٩ - كما سبق أن ذكر^{١٠} - ومثله من الشراب الكثير الأنواع

^١ - انظر البقاعي جـ ١٦ ص ٤٠١، أبو السعود جـ ٧ ص ٢٣١ .

^٢ - القرطبي جـ ١٥ ص ٢١٩، ورواه ابن كثير جـ ٦ ص ٧٠ عن ابن أبي حاتم عن عبدالله بن عمر يرفعه.

^٣ - انظر البقاعي جـ ١٦ ص ٤٠١ .

^٤ - انظر ابن جرير جـ ٢٣ ص ١١٢، الرازي جـ ٢٦ ص ٢١٩، القرطبي جـ ١٥ ص ٢١٩ .

^٥ - انظر الرازي جـ ٢٦ ص ٢١٩ .

^٦ - انظر المصدر السابق .

^٧ - انظر البقاعي جـ ١٦ ص ٤٠٢ .

^٨ - انظر أبو حيان جـ ٧ ص ٣٨٧، البقاعي جـ ١٦ ص ٤٠٢ .

^٩ - انظر البقاعي جـ ١٦ ص ٤٠٢ أبو السعود جـ ٧ ص ٢٣١، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٣١٦ المتن والهامش،

الألوسي جـ ٢٣ ص ٢١٣ .

^{١٠} - في سورة المرسلات .

والطعوم ، وحذف لفظ كثير من وصفه لدلالة لفظ الشراب عليه ^١ . وقد قيل لأنه واحد هو الخمر ^٢ . ولكن الاقتصار على ذكر الخمر يقلل من شأن النعيم فيما لو ذُكرت كل المشروبات من خمر ولبن وماء وعسل .

ومع اكتمال لذة المطعم والمشرب ، أضيفت لذة أخرى على ما كان يحدث في مجالس الخمر في الدنيا - كما سيأتي ذكره في الصفات - وهي الأُنس بقاصرات الطرف الطاهرات العفيفات ، اللاتي يقصرن طرفهن على أزواجهن لا يردن غيرهم ^٣ ، الجميلات اللاتي يقصرن أطراف أزواجهن عن النظر لغيرهن ^٤ ، المتساويات في كل صفاتهن من عفة وحسن وجمال وشباب فلا يتباغضن ولا يتعادين ولا يتحاسدن ، لأن الميل إليهن يكون بالسوية ^٥ . وقيل (لأن التحاب بين الأقران أثبت) ^٦ .

ومن تمام هذا النعيم وكماله أنه لا يزول ولا ينقضي (عكس ما يأتي لأهل النار) ^٧ من أنواع العذاب وصنوفه يقول تعالى :

هَذَا وَإِنَّ لِلطَّغْيِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا
فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَعَاخِرُ
مِنْ شَكْلِهِمْ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾

ص ٥٥ - ٥٨ مكية .

^١ - انظر القرطبي ج ١٥ ص ٢١٩ .

^٢ - أنظر أبو حيان ج ٧ ص ٣٨٧ .

^٣ - انظر ابن جرير ج ٢٣ ص ١١٢ ، ابن عطية ج ١٤ ص ٤٣ . ابن كثير ج ٦ ص ٧١ .

^٤ - انظر البقاعي ج ١٦ ص ٤٠٣ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ٣١٦ المتن والهامش ، الألوسي ج ٢٣ ص ٢١٣

، الطاهر بن عاشور ج ٢٣ ص ٢٨٣ ، ابن قيم الجوزية حادي الأرواح ص ٨٣ .

^٥ - انظر الرازي ج ٢٦ ص ٢١٩ .

^٦ - الزمخشري ج ٣ ص ٣٧٩ ، وانظر أبو السعود ج ٧ ص ٢١٣ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ٣١٦ المتن

والهامش ، الألوسي ج ٢٣ ص ٢١٣ ، الطاهر بن عاشور ج ٢٣ ص ٢٨٣ .

^٧ - البقاعي ج ١٦ ص ٤٠٤ .

فجملة " إن للطاغين ... " (في مقابلة قوله : " وإن للمتقين لحسن مآب " فبين تعالى أن حال الطاغين مضاد لحال المتقين)^١ وأكثر المفسرين على أن المراد بهم الكفار^٢ ولعله الأقرب للصواب لأنه (اسم ذم والاسم المطلق محمول على الكامل والكامل في الطغيان هو الكافر)^٣ ، ولكون السورة مكية و (لم يكن في مكة غير المسلمين الصالحين وغير المشركين ، فوصف أهل النار يومئذ لا يتحقق إلا في المشركين دون عصاة المسلمين)^٤ . وذهب المعتزلة إلى أنه محمول على أصحاب الكبائر^٥ و الأول أولى . وفي تفسير المرجع الوبيل على الكفار ، بين تعالى أنه جهنم شديدة الاضطرام ، التي تلقى داخلها (بغاية العبوسة والتجهم)^٦ و في مقابل ما يلقي أولئك من نعيم وتكريم في الجنة ، يتوسط هؤلاء النار فيشتتون داخلها^٧ . وينتج عن اختصاص المتقين بجنات كثيرة مفتحة أبوابها انتقاهم فيها حيث شاءوا ، في حين ينتج عن صلي الكفار النار بمعنى إحاطتها بهم من كل جانب ثباتهم في أسوأ مكان ، مما يزيد في كربهم . ومن هنا حسن موقع فاء التسبب في قوله : (فبئس المهاد) . ويزيد في كربهم هذا ، تجدد أنواع العذاب عليهم ، بما يفهمه لفظ المهاد المستعار من الفراش ، لأن المضطجع على الفراش يباشر جميع جسده - كما سيأتي في سورة آل عمران - فكلما ذابت لحومهم وأجسادهم عادت كما كانت لتذاب من جديد وهذا (عكس ما لأهل الجنة من التنعيم والتلذذ بإعادة كل ما قطعوا من فاكهتها وأكلوا من طيرها)^٨ . وفي مقابل ما يطعمه المتقون من حلو الفواكه ويشربونه من لذيذ الشراب ، يعذب هؤلاء الطاغون بالحميم وهو سائل متناه في الحرارة يقطع

^١ - الرازي ج ٢٦ ص ٢٢٠ ، وانظر ابن كثير ج ٦ ص ٧١ .

^٢ - انظر ابن جرير ج ٢٣ ص ١١٣ ، ابن عطية ج ١٤ ص ٤٣ ، الرازي ج ٢٦ ص ٢٢٠ ، القرطبي ج ١٥ ص ٢٢٠ ، النيسابوري ج ٢٣ ص ١١٣ ، أبو حيان ج ٧ ص ٣٨٨ ، البقاعي ج ١٦ ص ٤٠٤ ، الألوسي ج ٢٣ ص ٢١٤ ، الطاهر بن عاشور ج ٢٣ ص ٢٨٥ .

^٣ - الرازي ج ٢٦ ص ٢٢٠ وانظر ابن كثير ج ٦ ص ٧١ .

^٤ - الطاهر بن عاشور ج ٢٣ ص ٢٩٤ .

^٥ - ذكر ذلك عنهم الرازي ج ٢٦ ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ، أبو حيان ج ٧ ص ٣٨٨ ، والألوسي ج ٢٣ ص ٢١٤ .

^٦ - البقاعي ج ١٦ ص ٤٠٥ .

^٧ - ذكر البيضاوي ج ٧ ص ٣١٨ أن معنى " صالوا النار " داخلوها وذلك لما ذكر الزمخشري ج ٤ ص ٢٤٦ من أن (المصلي عند العرب أن يحفروا حفيراً فيجمعوا فيه حجراً كثيراً ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسطه فأما ما يشوى فوق

الجمر أو على المقلبي أو التنور فلا يسمى مصلياً) ، وانظر ابن كثير ج ٦ ص ٧١ .

^٨ - البقاعي ج ١٦ ص ٤٠٥ .

جلودهم وأمعاءهم^١ و الغساق وهو آخر متناهٍ في البرودة أسود مظلم منتن^٢ ، قيل عنه إنه ما يسيل من فروج الزناة وجلود الكفار ، وقيل إنه عصارة أهل النار ، وقيل إنه عين في جهنم يسيل إليها سم كل ذي حُمة^٣ . ولهم من هذا العذاب (إذاقة بعد إذاقة)^٤ ، أفادها حرف الفاء في قوله " فليذوقوه " لأن التقدير حينئذ : ليذوقوا هذا فليذوقوه مع ما في الفاء التعقيبية (من الإيحاء بسرعة إلقائهم في العذاب وعدم إمهالهم)^٥ . وبينما يسعد المتقون بأزواج من قاصرات الطرف ، يشقى الكافرون بأزواج من صنوف العذاب ودرجاته أفادها قوله : " وآخر من شكله أزواج " فأزواج المتقين للأنس بمن وأزواج العذاب لمزيد من الكرب . ثم يـُزاد في شقائهم بليقاهم بأتباعهم من الكفار يقول تعالى : "

هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ

إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ

لَنَا فَبِئْسَ الْفِرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا

فِي النَّارِ ﴿٦١﴾

ص ٥٩- ٦١ مكية .

فهم يضيقون بورود أتباعهم معهم إلى النار (جرياً على خلق جاهليتهم من الكبرياء واحتقار الضعفاء)^٦ ، فيتلقونهم بدعوة السوء " لا مرحباً بهم " ، (أي لا كان بهم سعة أصلاً ولا

^١ - انظر ابن جرير جـ ٢٣ ص ١١٣ ، الزمخشري جـ ٣ ص ٣٩٧ ، ابن عطية جـ ١٤ ص ٤٤ ، الرازي جـ ٢٦ ص ٢٢١ ، القرطبي جـ ١٥ ص ٢٢١ ، ابن كثير جـ ٦ ص ٧١ ، البقاعي جـ ١٦ ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، أبو السعود جـ ٧ ص ٢٣٢ ، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٣١٧ المتن والهامش ، الألوسي جـ ٢٣ ص ٣١٥ ، الطاهر بن عاشور جـ ٢٣ ص ٢٨٦ .

^٢ - انظر المصادر السابقة .

^٣ - انظر المصادر السابقة .

^٤ - حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٣١٧ .

^٥ - محمد الأمين الخضري من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم مكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م ص ١٢٦ .

^٦ - الطاهر بن عاشور جـ ٢٣ ص ٢٨٩ .

اتسعت بهم هذه الأماكن ، و لا هذه الأزمان ، و لا حصلت لهم و لا بهم راحة)^١ فالرحب المنفي هنا هو الرحب أو السعة المعنوية - إن صح التعبير - لأن المكان مكان عذاب وضيق ونكد ، وإلا فجهنم لا تكتفي من أهلها بعدد ومن هنا تبدأ المقابلة والخصومة التي تكون عادة (بين الذين دبروا أمراً فعاد عليهم بالوبال في أن كلاً منهم يحيل ما وقع به العكس على صاحبه وذلك أشد لعذابهم)^٢ ، فيرد الأتباع على رؤسائهم دعوة السوء التي واجهوهم بها بمعنى أن ما دعوتهم به علينا أنتم أحق به ، لأنكم " أنتم قدمتموه لنا " أي (العذاب أو الصلي)^٣ ففي جملة قدمتموه مجازان عقليان بإسناد التقديم للرؤساء والتقديم الحقيقي للإغواء . و إيقاعه على العذاب والمقدم الحقيقي هو عمل السوء ومع كل هذه الخصومة والمقابلة التي يذهب كل فريق فيها إلى إثبات الذنب على الآخر ، تأتي النتيجة النهائية لفعل الفريقين ، وهي القرار في دار جهنم . فهذا القرار بما فيه من معنى التمكن الذي يُشير إلى الخلود في جهنم ، يُقابل ما للمتقين من جنات الإقامة الدائمة التي أفهمها لفظ عدن ، وما في القرار من معنى انتهاء الغاية والثبات ، لأنه مشتق من (القرار في المكان)^٤ ، يُقابل الامتداد اللانهائي في نعيم الجنة في قوله تعالى : "إن هذا لرزقنا ماله من نفاد " .

ويتوجه الأتباع دون يأس أو كلال من الخصومة إلى ربهم ، ليضعف عذاب رؤسائهم بسبب إغوائهم إياهم^٥ . وهنا تنتهي حسرة خصومة الرؤساء مع أتباعهم ، لتنشأ حسرة أخرى ، حين لا يجدون فريقاً من الناس كانوا يهزؤون بهم وهم ضعاف المسلمين فيقولون :

^١ - البقاعي ج ١٦ ص ٤٠٨ .

^٢ - المصدر السابق ص ٤٠٧ .

^٣ - البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ج ٧ ص ٣١٨ وانظر بن جرير ج ٢٣ ص ١١٥ الزمخشري ج ٣ ص ٣٧٩ ، البقاعي ج ١٦ ص ٤٠٩ ، أبو السعود ج ٧ ص ٢٣٣ ، الألويسي ج ٢٣ ص ٢١٧ ، الطاهر بن عاشور ج ٢٣ ص ٢٩٠ .

^٤ - ابن منظور لسان العرب ج ٥ ض ٨٤ .

^٥ - الضعف هنا بمعنى ذو ضعف أي مضاعف القوة والمقدار كما ذهب الطاهر ج ٢٣ ص ٢٩١ ، ٢٩٢ وهذا لجعل الضعف بمعنى الزيادة المطلقة كما ذهب الألويسي ج ٢٣ ص ٢١٧ وهو أرجح من القول بأن الضعف هو زيادة المثل الذي ذهب إليه الزمخشري ومن تبعه انظر الزمخشري ج ٣ ص ٣٨٠ ، لأن القول بالمضاعفة المطلقة أولى بسياق نعمتهم على رؤسائهم وإمكان التعبير عن مضاعفة المثل بنحو ضعف عذابنا . ولكن لما وصف العذاب بالضعف أفهم ذلك أن المراد زيادة أكثر من مرة على مقدار عذابهم مع ما يفيد التأكيد من تحويل أمر هذا العذاب ومن ثم مضاعفته .

وَقَالُوا مَا لَنَا لَنَرِي رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿١٢﴾ اتَّخَذْتَهُمْ
 سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ

١٤

ص ٦٢ - ٦٤ مكية.

فعدم رؤيتهم تعني أنهم ليسوا في النار ، ولكن مكابرتهم تجعلهم يتهمون أعينهم بالخطأ فيقولون " أم زاغت ... " ، فهم في هذا الموقف شبيهون بحالهم في الدنيا متكبرون معاندون ، يأنفون أن تقع أعينهم على أولئك المستضعفين فيسندون الزيغ للأبصار ، وكأنها (بنفسها تمجّهم لقبح منظرهم)^١ . هذا وقد ذكر الشهاب ما قيل من أن (ظاهر المقابلة لما مر يقتضي أن يقال لقبح مآب هنا أوفي ما مضى لخير مآب ، لكن مثله لا يلتفت إليه إذا تقابلت المعاني لأنه من تكلف الصنعة البديعية كما صرح به المرزوقي في شرح الحماسة)^٢ فالشهاب نبه إلى جوهر حسن الأوجه البلاغية ، ومنها المقابلة وهو الإيفاء بالغرض المطلوب من المعنى الذي جاءت لأجله دون العبث به جرياً وراء الشكليات ولو أنه توقف عند هذا لأحسن أيما إحسان ، ولكنه عاد يعتذر لمطالبي التقابل اللفظي بأن في الآية احتباكاً حين قال (وقيل إنه من الاحتباك وأصله إن للمتقين لخير مآب وحسن مآب وإن للطاغين لقبح مآب وشر مآب وهو كلام حسن)^٣ أو قول الألويسي بأن في هذا (نوع بُعد)^٤ ، أقرب إلى الصواب لأن لب الأمر وجوهره التقابل في المعاني ، وعلى هذا وأمثاله يكون المعول في حسن بلاغة التنزيل وغيره من ضروب القول البليغ .

ولما كان ما حكاه تعالى عن الكفار فيما سبق ، واقعاً لا محالة ، فقد ختم تعالى قصة الفريقين بقوله : " إن ذلك لحق تخاصم أهل النار " .

^١ - الألويسي جـ ٢٣ ص ٢١٨ .

^٢ - حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٣١٦ .

^٣ - المصدر السابق .

^٤ - الألويسي جـ ٢٣ ص ٢١٤ .

وتأتي آيات سورة الفرقان في سياق تعديد أعاجيب المشركين في رفض الدعوة وإنكار الرسالة لتذكر أعجب ما فعلوه وهو إنكار البعث والحساب يقول تعالى :

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا
﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا
أَلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرِنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا
الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَاَدْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ
أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا
﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾

الفرقان (١١-١٦) مكية .

فالمشركون أنكروا وحدانية الله سبحانه وتعالى ، وأنكروا كون القرآن منزلاً من عند الله ، وقالوا إن هو إلا أساطير الأولين أمليت عليه، كما أنكروا أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول من ربه إليهم ، محتجين بأكله الطعام ومشيه في الأسواق ، ثم تبادوا في عنادهم فطالبوا لتصديقه - وما هم بمصدقين - أن ينزل إليه ملك أو يلقي إليه كنز أو تكون له جنة . وجاء رد القرآن عليهم صادحاً بأنه لو شاء تعالى لجعل له خيراً مما اقترحوه ولكن لحكمة ما لم يشأ . ثم تنتقل الآيات إلى عجيبة أخرى مُضْرِبَةٌ عن سابقاتها وهي تكذيبهم بالساعة ، لأنها أعجب ، وعنهما تسبب كفرهم بالله الواحد الأحد ^٢ ، متخلصة إلى ما تسبب عن هذا الكفر من العذاب في النار .

وقد اختص من بين علامات كفرهم وجحودهم إنكارهم للساعة ، لأنها محل الثواب

^١ - انظر الزمخشري جـ ٣ ص ٨٣ ، النيسابوري بهامش جامع البيان جـ ١٨ ص ١٢٧ ، أبو السعود جـ ٦ ص ٢٠٥ ، حاشية الشهاب جـ ٦ ص ٤٠٩ المتن والهامش ، الألوسي جـ ١٨ ص ٢٤١ .

^٢ - انظر ابن جرير جـ ١٨ ص ١٤٠ ، الزمخشري جـ ٣ ص ٨٣ ، ابن عطية جـ ١٢ ص ٩ ، الرازي جـ ٢٤ ص ٥٤ ، النيسابوري بهامش جامع البيان جـ ١٨ ص ١٢٧ ، أبو حيان جـ ٦ ص ٤٤٤ ، البقاعي جـ ١٣ ص ٣٥١ ، الطاهر بن عاشور جـ ١٨ ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .

والعقاب وتكذيبهم بها هو الذي جرّهم إلى عدم تصديق الرسول وعدم العمل لهذا اليوم . وقد يكون اختصاص اليوم من بين أسمائه بلفظ (الساعة) ، للإشارة إلى أهمية الزمن للعمل لها ، وأنها ساعة هامة ليست كغيرها من الساعات فيستعد لها السامعون خاصة وأن أصل لفظ الساعة (يدل على استمرار الشيء ومضيه)^١ فكأن الآيات تنبهه إلى أن ساعات عمر الإنسان تمضي ولن تعود إلى أن تأتي ساعة الحساب . وإعادة الموصول وصلته في الآية نفسها "وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً" (للمبالغة في التشنيع)^٢ عليهم ، وذكر ذنبهم الذي استحقوا العقوبة من أجله .

وبعد هذه المواجهة المرعبة لهم بتكلف إعداد سعي منكر فظيع — بدلالة التنكير في صيغة المبالغة (فعيّل) - جزاء ما (أعظموا الحريق في قلوب من كذبوهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم رضي الله عنهم)^٣ ، أخذت الآيات تزيد في تهديدهم بتحويل شأن هذه النار ثم بيان سوء عاقبة من يدخلها . فهذه النار - أعادنا الله منها - تصدر حين تراهم صوتاً مخيفاً دالاً على شدة الغضب ، يربح سمع الكفرة قبل أن يذوقوا عذابها . وقد اختلف العلماء حول رؤية النار للكفرة وتغيظها عليهم هل هو حقيقة أو مجاز ، وقد ذهب ابن جرير^٤ إلى أن الرؤية حقيقية واستدل بما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم " من يقول عليّ ما لم أقل فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً قالوا يا رسول الله وهل لها من عين قال ألم تسمعوها إلى قول الله إذا رأيتم من مـكان بعيد الآية " . وتابعه الرازي^٥ ، والقرطبي^٦ ، والنيسابوري^٧ ، والخازن^٨ ،

^١ - ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ج ٣ ص ١١٦ .

^٢ - أبو السعود ج ٦ ص ٢٠٥ .

^٣ - البقاعي ج ١٣ ص ٣٥٣ .

^٤ - انظر ابن جرير ج ١٨ ص ١٤٠ . عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن محمد بن خديش ورواه ابن كثير ج ٥ ص ١٣٧ عن ابن أبي حاتم بدون سؤال الصحابة والآية .

^٥ - انظر الرازي ج ٢٤ ص ٥٥ .

^٦ - انظر القرطبي ج ١٣ ص ٧ .

^٧ - انظر النيسابوري بـامش جامع البيان ج ١٨ ص ١٢٧ .

^٨ - انظر علاء الدين علي البغدادي المعروف بالخازن ت ٧٤١ هـ في (لباب التأويل في معاني التنزيل) دار المعرفة

- بيروت ، ج ٣ ص ٣٤٤ .

الألوسي^١ . وذهب الزمخشري^٢ إلى أن الرؤية مجاز من قولهم دورهم تترأى وتتناظر ، أو على حذف مضاف والمراد زبانيتهما .

وذهب البقاعي إلى تأويل الآية بما يدل على المجاز فقال : (إذا رأيتم أي إذا كانت بحيث يمكن أن يروها وتراهم لو كانت مبصرة ... تغيظاً أي صوتاً في غليانها وفورانها كصوت المتغيظ في تحرقه ونكارتة إذا غلا صدره من الغضب وزفيراً أي صوتاً يدل على تناهي الغضب وأصله صوت يسمع من الجوف)^٣ وصرح بلفظ المجاز أبو السعود^٤ . أما ابن عطية^٥ فقد أجاز كلا الاحتمالين ، أما على الحقيقة فبمقتضى الحديث المروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأما على المجاز فبمعنى صارت منهم على قدر ما يرى الرائي من البعد . وتابعه أبو حيان^٦ والطاهر بن عاشور^٧ . واختلف موقف البيضاوي و شارحيه الشهاب و محيي الدين زادة من الرؤية والتغيظ . فذهب البيضاوي والشهاب إلى ترجيح القول بالمجاز في الرؤية والحقيقة في التغيظ والزفير^٨ ، وذهب الأخير إلى القول بالحقيقة في كل منهما^٩ .

وسواء كان هذا الصوت صوت تغيظ حقيقي ، أو هو صوت احتدامات النار على المجاز ، وكانت النار تراهم على الحقيقة أو على المجاز ، فإن في الإشارة إلى سماع ذلك الصوت وتلك الرؤية من مكان بعيد (مزيد تهويل لأمرها)^{١٠} ، ومن ثم زيادة عذابهم بها لأن وجود زمن فاصل بين رؤية الأهوال والوقوع فيها أشد عذاباً من الوقوع فيها مباشرة . ويقترّب هؤلاء من النار بقلوب فزعة وعقول مضطربة من شدة الهول ، حتى إذا ما أتوها قُذفوا فيها بإهانة واحتقار ، يصوِّره الفعل المبني للمجهول^{١١} " ألقوا " في قوله تعالى : " ألقوا منها

^١ انظر الألوسي ج ١٨ ص ٢٤٢ .

^٢ - انظر الزمخشري ج ٣ ص ٨٣ .

^٣ - البقاعي ج ١٣ ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

^٤ - انظر أبو السعود ج ٦ ص ٢٠٦ .

^٥ - انظر ابن عطية ج ١٢ ص ٩ ، ١٠ .

^٦ - انظر أبو حيان ج ٦ ص ٤٤٥ .

^٧ - انظر الطاهر بن عاشور ج ١٨ ص ٣٣٢ .

^٨ - انظر حاشية الشهاب ج ٦ ص ٤٠٩ ، ٤١٠ المتن والهامش .

^٩ - انظر حاشية محيي الدين زادة ج ٣ ص ٤٤٥ .

^{١٠} - أبو السعود ج ٦ ص ٢٠٦ .

^{١١} - انظر البقاعي ج ١٣ ص ٣٥٤ والطاهر بن عاشور ج ١٨ ص ٣٣٤ .

مكاناً ضيقاً مقرنين " وهنا يبدأ اتقاد النار بهم بعد أن كانت تتقد غيظاً وحنقاً عليهم ، وتشدت معاناتهم بالتعذيب حين ينضم إليه كرب التزاحم والتراص في مكان ضيق ، وقد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال^١ . وقيل قرنوا إلى شياطينهم^٢ ، أو بعضهم إلى بعض^٣ . وقد روي في وصف هذا الضيق عدة آثار منها ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم : " إنهم ليكرهون في النار كما يكره الوتد في الحائط " ^٤ ، ومنها ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه (تضيق عليهم كما يضيق الزجاج على الرمح) ^٥ . ثم تتأمل ما فيه الكفرة من العذاب لنرى كيف يشدت حتى يبلغ بهم الحد الذي يدعون فيه بالهلاك على أنفسهم ، قائلين واثبوراها وما أشبه ذلك من العبارات المنادية بالندم على انصرافهم عن طاعة الله ، وتحسرهم على ما فرطوا في جنب الله . وهنا يقال لهم إن دعاءهم بهلاك واحد وندم واحد غير كاف ، لأن عذابهم سوف يدوم ولن ينقطع ، وإنما تتجدد عليهم أنواعه وصنوفه^٦ ، و عليهم بدعاء كثير دائم " لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً " وهذه الدعوة الدائمة منهم للهلاك أو الندم والحزن دليل على أن العذاب دائم أبدي لا خلاص منه ، مع ما في الأمر بها من تويخ لهم^٧ .

وبعد أن تمتلئ نفس السامع رعباً من هذه النار ، ويوقن بأنها شر ما ينتظره ، إن استحب الكفر على الإيمان ، يأتي الاستفهام الداعي لمزيد من التأمل والتدبر والمقارنة بين حال الكفار المكذبين ، وحال الفريق الآخر الذي اتقى هذا الكفر والتكذيب ليعلم أن الخير في الجنة

^١ - انظر ابن جرير ج ١٨ ص ١٤٠ ، الزمخشري ج ٣ ص ٨٤ ، الرازي ج ٢٤ ص ٥٦ ، القرطبي ج ١٣ ص ٨ ، البيضاوي بامش حاشية الشهاب ج ٦ ص ٤١٠ ، الخازن ج ٣ ص ٣٤٤ ، أبو حيان ج ٦ ص ٤٤٥ ، البقاعي ج ١٣ ص ٣٥٤ ، أبو السعود ج ٦ ص ٢٠٦ الألوسي ج ١٨ ص ٢٤٤ .

^٢ - انظر الزمخشري ج ٣ ص ٨٤ ، الرازي ج ٢٤ ص ٥٦ ، القرطبي ج ١٣ ص ٨ ، الخازن ج ٣ ص ٣٤٤ ، أبو حيان ج ٦ ص ٤٤٥ ، البقاعي ج ١٣ ص ٣٥٤ ، أبو السعود ج ٦ ص ٢٠٦ ، الألوسي ج ١٨ ص ٢٤٤ .

^٣ - انظر ابن عطية ج ١٢ ص ١٠ ، الطاهر بن عاشور ج ١٨ ص ٣٣٤ .

^٤ - انظر ابن عطية ج ١٢ ص ١٠ . ولم يذكر راويه ، ابن كثير ج ٥ ص ١٣٨ ، الألوسي ج ١٨ ص ٢٤٤ عن يحيى بن أبي أسيد ، بلفظ (يستكروهن)

^٥ - رواه ابن عطية عن ابن عباس المصدر السابق ، وابن كثير ج ٥ ص ١٣٨ عن قتادة عن عبد الله بن عمر و .

^٦ - انظر ابن جرير ج ١٨ ص ١٤٠ ، الزمخشري ج ٣ ص ٨٤ ، الرازي ج ٢٤ ص ٥٧ ، القرطبي ج ١٣ ص ٩ ، أبو حيان ج ٦ ص ٤٤٥ ، البقاعي ج ١٣ ص ٣٥٥ ، أبو السعود ج ٦ ص ٢٠٦ ، حاشية الشهاب ج ٦ ص ٤١٠ المتن والمأمش ، الألوسي ج ١٨ ص ٢٤٤ ، الطاهر بن عاشور ج ١٨ ص ٣٣٤ .

^٧ - انظر ابن عطية ج ١٢ ص ١١ .

لا في غيرها " قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاءً ومصيراً " والاستفهام هنا ليس على حقيقته ، بل هو استفهام تقريرى يحمل المخاطب على الإقرار بفضل الجنة دون مقابلها والتفضيل هنا ليس على معناه المتعارف من كون أحد الأمرين أفضل من الآخر ، لأنه لا تفاضل بين الجنة والنار وإنما هو على عادة العرب في بيان فضل الشيء دون غيره ، بإتيانهم بصيغة التفضيل (تنبيهاً على أن سلب الخير عن مقابله لا يخفى على أحد)^١ . وفي هذا تهكم بهم^٢ ، وتوبيخ^٣ ، وتحسير على ما فاتهم^٤ من نعيم الجنة .

واختلف في تخصيص الجنة بالخلود فقيل لتمييزها عن جنات الدنيا^٥ بأنها لا تبنى ولا تبيد ، ولا ينقطع نعيمها ولا يزول أو لبيان صفة الكمال فيها^٦ ، وقيل للتوضيح^٧ .

أما قوله تعالى : " كانت لهم جزاءً ومصيراً " ، فقد ذهب الزمخشري إلى أنه مدح للثواب ومكانه فقال : (فإن قلت ما معنى قوله : " كانت لهم جزاءً ومصيراً " ؟ قلت : هو كقوله : " نعم الثواب وحسنت مرتفقاً " - فمدح الثواب ومكانه كما قال - " بئس الشراب وساءت مرتفقاً " - فذم العقاب ومكانه لأن النعيم لا يتم للمتنعّم إلا بطيب المكان وسعته وموافقته للمراد والشهوة وأن لا تنغص وكذلك العقاب يتضاعف بغثائة الموضع وضيقة وظلمته وجمعه لأسباب الاجتواء والكراهة فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء)^٨ وتخصيصها بهم في قوله تعالى : " كانت لهم " إنما هو بمقتضى الوعد وفيه تنويه بشأنهم .

وقد نبه البيضاوي إلى دقيقة في اختصاص كون الجنة بهم فقال (ولا يمنع كونها جزاءً

^١ - البقاعي جـ ١٣ ص ٣٥٥ ، وأنظر أبو حيان جـ ٦ ص ٤٤٥ .

^٢ - انظر البقاعي جـ ١٣ ص ٣٥٦ ، أبو السعود جـ ٦ ص ٢٠٧ ، حاشية الشهاب جـ ٦ ص ٤١٠ المتن والهامش ، الألويسي جـ ١٨ ص ٢٤٥ ، الطاهر بن عاشور جـ ١٨ ص ٣٣٥ .

^٣ - انظر ابن عطية جـ ١٢ ص ١١ ، الرازي جـ ٢٤ ص ٥٧ ، النيسابوري بامش جامع البيان جـ ١٨ ص ١٢٨ ، أبو حيان جـ ٦ ص ٤٤٩ ، أبو السعود جـ ٦ ص ٢٠٧ ، حاشية الشهاب جـ ٦ ص ٤١٠ المتن والهامش ، الألويسي جـ ١٨ ص ٢٤٥ .

^٤ - انظر الرازي جـ ٢٤ ص ٥٧ ، أبو السعود جـ ٦ ص ٢٠٧ ، الألويسي جـ ١٨ ص ٢٤٥ .

^٥ - انظر الرازي جـ ٢٤ ص ٥٨ .

^٦ - انظر المصدر السابق .

^٧ - انظر النيسابوري جـ ١٨ ص ١٢٩ .

^٨ - الزمخشري جـ ٣ ص ٨٤ ، وانظر البقاعي جـ ١٣ ص ٣٥٦ ، الألويسي جـ ١٨ ص ٢٤٦ .

لهم أن يتفضل بها على غيرهم برضاهم ، مع جواز أن يراد بالمتقين من يتقي الكفر والتكذيب لأنهم في مقابلتهم)^١ ، فاختصاص الجنة بهم إنما هو بمقتضى الوعد دون الوجوب على الله ، وله أن يدخل من يشاء الجنة دون تقييد برضاهم - كما سيأتي في رد الشهاب - وقد يكون اختصاص الجنة بالمؤمن الذي هو ضد الكافر ، ابتداءً من غير سبق تعذيب وهذا ما وضحه الشهاب حين قال : (قوله ولا يمنع الخ جواب عن استدلال المعتزلة بهذه الآية على مذهبهم من وجوب الثواب لمن اتقى والعذاب لغيره لما فيها من لام الاختصاص وتقديم الجار والمجرور وجعل ذلك لمن اتصف بالتقوى فرده بأنه على تسليم ما ذكر فالمختص بهم كونه جزاءً لهم بمقتضى وعده فلا ينافي كونه لغيرهم بفضله أو المراد بالمتقي المؤمن لاتقائه النار بإيمانه كما مرّ في مراتب التقوى ويدل عليه مقابله بالكافر في النظم أو المختص بهم دخولهم ابتداءً دون سبق عذاب وكلامه واضح إلا قوله برضاهم فإنه اعترض عليه بأنه مخالف للمذهب فإنه تعالى يتصرف كيف يشاء من غير اشتراط رضا أحد)^٢ فالتقدم هنا إما للاهتمام أو للتخصيص بالمؤمنين ضد الكافرين . وفي جعل الجنة جزاءً حث على الاجتهاد في الطاعة . أما الإرداف بكونها مصيراً فلعدم استلزام الجزاء للمصير والمنقلب فأشير بذلك إلى استقرار نعيمهم فيها دون تحول أو رحيل^٣ . ثم إن لهم في هذه الجنة دون غيرها^٤ خلوداً فيما تشتهي أنفسهم من أنواع المطاعم والمشارب وجميع المتع الجسمية والروحية بما أفاده حذف مفعول المشيئة . ولا يلزم منه اشتهاؤهم مراتب أعلى من مراتبهم ، ولا تخليص أهل النار منها ، لأن كلاً منهم مشغول بما حباه الله من درجات النعيم^٥ .

وقد استحقوا الجنة بوعد الله الكريم ، وجدّهم في تحصيل هذا الوعد ، سواء بسؤالهم أو

١ - البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ج ٦ ص ٤١٠ ، ٤١١ .

٢ - الشهاب ج ٦ ص ٤١٠ ، ٤١١ .

٣ - انظر الألوسي ج ١٨ ص ٢٤٦ .

٤ - انظر الرازي ج ٢٤ ص ٥٩ ، الخازن ج ٣ ص ٣٤٤ ، البقاعي ج ١٣ ص ٣٥٦ .

٥ - انظر الرازي ج ٢٤ ص ٥٩ ، أبو السعود ج ٦ ص ٢٠٧ ، حاشية الشهاب ج ٦ ص ٤١١ المتن والهوامش ،

الألوسي ج ١٨ ص ٢٤٦ .

سؤال الملائكة إياه لهم^١ ، أو العمل للوصول إليه^٢ وقد ألمح تنكير لفظ الوعد إلى عظم شأنه وضرورة الجدل في سؤاله^٣ .

وهكذا تتقابل عناصر الصورتين ، لتنفّر من سوء منقلب الكفرة والمكذّبين ، وتُسعد بحسن مصير المتقين ، فالكفار يجمع لهم بين العذاب بنار شديدة الاستعارة وكرب ضيق مكان هذا العذاب ، في حين يجمع للمتقين بين حسن الثواب وطيب وسعة مكانه^٤ . وقد ساعد التنكير في نحو (تغيظاً ، وزفيراً ، مكاناً ضيقاً...) في سياق العذاب ، في قذف الرعب في قلوب الكفرة وقارئ الذكر ، في حين جعل الثواب في نحو (جزاء ومصيراً...) وعداً مسؤولاً) لا يقادر قدره ، مما أفاد التنويه بشأنه وبث الأمن في نفوس المؤمنين . ويقابل شدة عذاب النار الممثلة في تحقق إعداد النار وغضبها عليهم وإلقاءهم فيها في قوله : (أعتدنا... إذا رأيتم... وإذا ألقوا...) سهولة دخول الجنة على من عمل لها في تحقيق وعد الله بها في نحو (وعد... كانت...) ، كان على ربك وعداً مسؤولاً) . وإذا كان الكفار يدعون بالهلاك ولا يحصلون عليه ، فإن المتقين يحصلون على كل ما يشاؤون في الجنة ، وكما يبقى أولئك في عذاب أبدي لا ينتهي في النار ، ينعم هؤلاء بنعيم خالد في الجنة .

وتنفرد آيات العقاب - على عادة السور المكية - بذكر المواجهة بين العبد وأهنتهم وبعد أن يجمعهم تعالى يستشهد الآلهة على العبد (وهذا أصل في أداء الشهادة على عين المشهود عليه لدى القاضي)^٥ ،

فيقول الله تعالى :

^١ - انظر ابن جرير ج ١٨ ص ١٤١ ، الرازي ج ٢٤ ص ٦٠ ، القرطبي ج ١٣ ص ٩ ، ١٠ ، أبو حيان ج ٦ ص ٤٤٦ ، البقاعي ج ١٣ ص ٣٥٦ ، أبو السعود ج ٦ ص ٢٠٧ ، حاشية الشهاب ج ٦ ص ٤١١ المتن والهامش ، الألوسي ج ١٨ ص ٢٤٧ .

^٢ - انظر الرازي ج ٢٤ ص ٦٠ ، النيسابوري ج ١٨ ص ١٣١ .

^٣ - انظر أبو السعود ج ٦ ص ٢٠٧ ، حاشية الشهاب ج ٦ ص ٤١١ المتن والهامش ، الألوسي ج ١٨ ص ٢٤٧ .

^٤ - انظر الزمخشري ج ٣ ص ٨٤ ، الألوسي ج ١٨ ص ٢٤٦ .

^٥ - الطاهر بن عاشور ج ١٨ ص ٣٣٨ .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِّنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

الفرقان ١٧ - ١٩ مكية .

فإن الاستفهام الموجه للآلهة الشاملة للأصنام والمسيح و عزير والملائكة ، بشهود العبدية عن حقيقة ضلالهم عن طريق الحق والرشاد - مع إحاطة علمه تعالى بكل شيء - أكد في إثبات الحقائق فهو يوقف هؤلاء أمام افتراءاتهم وكذبهم ، ففيه توبيخهم و تحسيرهم بما تكشف لهم من الحق ، واغتياب المؤمنين بنجاتهم من مثل هذا الموقف ^١ ، بل إن الاستفهام ذاته يوحى بالجواب فقوله (أم هم ضلوا السبيل) جاء فيه فعل الضلال غير متعدٍ إلى مفعوله بحرف جر وحذفه يوهم بأنه ليس هناك سبيل أصلاً ^٢ ، وقيل للمبالغة في البعد عن الصواب ^٣ .
وقبل أن نعرف الجواب الذي أجابته به المعبودات ، يجدر بنا أن نقف وقفة مع كلام الخطابي عن جمع أسلوب القرآن بين الفخامة والعذوبة ^٤ . ويتجلى هذا الجمع في السؤال عن الكفرة بلفظ (عباد) مضافاً إلى ضمير المتكلم الدال على العظمة . في قوله سبحانه :
” أنتم أضللتهم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ” فقد ذكر الشهاب أنه (للترحم أو لتعظيم جرمهم لعبادة غير خالقهم) ^٥ . واكتفى الطاهر بذكر الوجه الثاني ^٦ ، ولعل الأليق

^١ - انظر الزمخشري ج ٣ ص ٨٥ ، البقاعي ج ١٣ ص ٣٦٢ .

^٢ - انظر الألوسي ج ١٨ ص ٢٤٨

^٣ - انظر المرجع السابق ، الرازي ج ٢٤ ص ٦٢ ، حاشية الشهاب ج ٦ ص ٤١٢ .

^٤ - انظر أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي ، بيان إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق محمد خلف الله أحمد و د . محمد زغلول سلام ، دار المعارف الطبعة الرابعة ص ٢٦ .

^٥ - الشهاب ج ٦ ص ٤١٢ ، وانظر الألوسي ج ١٨ ص ٢٤٨ .

^٦ - انظر الطاهر بن عاشور ج ١٨ ص ٣٣٨ .

بالمقام أن يكون للسبيين المذكورين ، فلفظ العباد يدل في الاستعمال القرآني - كما سيأتي - على أهل الطاعة ولكن سمي به هنا أهل المعصية فاللفظ يوحي من جهة بالرحمة من الله في تسميتهم بالعباد مع كفرهم لأنه خالقهم ورازقهم ، ومن جهة أخرى بالشدة في التعريض بهم وتوبيخهم لعبادتهم غيره . وقد رأى د. الخضري أن استعمال اللفظ هنا مناسب لكونه يوم القيامة الذي يسلم فيه هؤلاء العبداء بأنهم عباد الله فيقول : (تجد عند التأمل وراء وصفهم بالعباد سرّاً من أسرار الإعجاز فهذا الحوار الدائر بين الله وخالقه من المعبودين وعابديهم إنما هو في يوم المحشر وقد تقطعت فيه الأسباب بين المخلوقين وخلصت فيه العبودية لله وحده فهو يخاطبهم بما سلم الجميع من أنه المالك للرقاب والقاهر فوق العباد)^١ .

وعودة إلى الآيات لنرى المعبودات وقد أجابت بتنزيه الله سبحانه عن أن تتخذ من دونه أولياء ، فكيف لها أن تأمر غيرها بأن يعبدها ؟ وتتخلص بحرف الاستدراك " لكن متعتهم وآبأهم ... " إلى السبب الحقيقي ، وهو تسبب النعمة في بطرهم ونسيانهم ذكر المنعم بها وهذا دليل خبث نفوسهم^٢ ، وفي الإشارة إلى تمتيع آباءهم مزيد من تسجيل الجحود عليهم ، حيث كانت النعمة متأثلة فيهم ، ومع ذلك فقد أورثهم آباؤهم الكفران^٣ .

وبعد ذكر المعبودات سبب ضلال الكفرة تقريراً لهم - لأن الله تعالى يعلم هذا - يلتفت إليهم الحق سبحانه وتعالى موبخاً لهم بقوله : " فقد كذبوكم بما تقولون " والفاء هنا هي التي تسمى الفصيحة^٤ ، لما لها من صفة البلاغة العالية في الكلام . وسر تسميتها الفصيحة ما تفصح عنه من كلام محذوف مقدر ، أما سر بلاغتها فهو ترتب ما بعدها على ما قبلها ترتب الجواب على الشرط ، بمعنى إن زعمتم أنهم آلهتكم فقد كذبوكم^٥ وفي هذا إلزام بالحجة لهؤلاء الكفرة ، يعقبه ويترتب عليه عدم استطاعة الآلهة المعبودة من دون الله دفع العذاب عنهم ، ولا نصرهم بأي سبيل .

١ - محمد الأمين الخضري ، الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ ، مطبعة الحسين الإسلامية ، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ -

١٩٩٣ م ، ص ١٧٧

٢ - انظر الطاهر بن عاشور ج ١٨ ص ٣٤٠ .

٣ - انظر المصدر السابق .

٤ - انظر حاشية الشهاب ج ٦ ص ٤١٣ ، الألوسي ج ١٨ ص ٢٥٢ ، الطاهر بن عاشور ج ١٨ ص ٣٤١ ،

ومحمد الخضري من أسرار حروف العطف ص ٨٨ ، ٨٩ .

٥ - انظر النيسابوري ج ١٨ ص ١٣٩ .

وتلتقي سورة الملك مع سورة الفرقان في ذكر تغيط النار ، وتفترق عنها في طريقة الصياغة .
وذلك لاختلاف الحالين ففي سورة الفرقان تبدأ الآيات بذكر إعداد النار للكافرين ، وتصف
استقبالها لهم ، في حين أنها في سورة الملك تذكر وقوعهم فيها ، وتعذيبهم بصنوفها يقول تعالى

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسَّ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا
فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا
أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ
جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي
ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ
السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

٦ - ١١ مكية .

فالتغيط في آية الفرقان يسمع من بعيد ، ولكنه هنا في قوله : " إذا ألقوا فيها سمعوا لها
شهيقاً وهي تفور " يسمع من داخلها وهو يحدث بهم . وقد أشار الرماني حين ذكر الآيتين في
باب الاستعارة إلى اختلاف طريقيهما حين جعل استقبال النار في آية الفرقان (استقبال مغتاض
يزفر غيظاً عليهم)^١ وعلق على لفظ شهيق في الآية الثانية بقوله : (شهيقاً حقيقته صوتاً فظيعاً
كشهيق الباكي ، و الاستعارة أبلغ منه وأوجز والمعنى الجامع بينهما قبح الصوت " تميز من
الغيظ " حقيقته من شدة الغليان بالاتقاد ، والاستعارة أبلغ منه لأن مقدار شدة الغيظ على
النفس محسوس مدرك مدى ما يدعو إليه من شدة الانتقام فقد اجتمع شدة في النفس تدعو إلى
شدة انتقام في الفعل ، وفي ذلك أعظم الزجر وأكبر الوعظ وأدل دليل على سعة القدرة
وموقع الحكمة)^٢ فسماع صوت الغيظ من بعيد ، دليل على عدم الوقوع تحت طائلة المغتاض ،
في حين أن الغليان بالغيظ يلمح إلى تفاعل بين طرفين ، مما يقتضي شدة الانتقام الناتج عنه .

^١ - الرماني ، النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٨٧

^٢ - المصدر السابق.

وقد نبه د/ محمد أبو موسى إلى إدراك الرماني للفرق بين الصورتين فقال (وكان الزفير الذي هو إخراج النفس وإرساله أشبه بحال الاستقبال ، والشهيق الذي هو ردهً وابتلاعه أشبه بحال إلقائهم في جوفها وابتلاعها لهم وتلحظ فرقا آخر لم ينبه إليه الرماني ذلك هو أنهم حين رأهم سمعوا لها تغيظاً ، ولم تكذ تميز من الغيظ إلا حين ألقوا فيها ، وحينئذ كادت تنشق أي أنها اتقدت بهم انقاداً هائجاً معتاضاً حتى كأنها من شدة ما تجد في جوفها من لهيب وسعار تكاد تنفجر)^١ ، فالفرق الأول الذي ذكره د/ أبو موسى يؤيده ما روي عن اللغويين في معنى الشهيق والزفير ، فقد جمع عدة فروق منها القرطبي حين قال : (قال الزجاج : الزفير من شدة الأنين والشهيق من الأنين المرتفع جداً ... وقال الضحاک ومقاتل الزفير مثل أول نهيق الحمار والشهيق مثل آخره حين فرغ من صوته ... وقيل الزفير إخراج النفس وهو أن يمتلئ الجوف غمًا فيخرج بالنفس والشهيق رد النفس ، وقيل الزفير ترديد النفس من شدة الحزن ... والشهيق النفس الطويل الممتد)^٢ فإن كل ما قيل عن الشهيق يحمل معنى امتداده وامتلاء الصدر به ، وهذا يناسب سعة جهنم لاستيعابها أصحابها ويؤيد الفرق الثاني الذي ذكره الدكتور سياق الآيات فهي تبدأ بذكر جهنم التي تلقاهم بالتجهم والعبوس^٣ ، ثم سماع الصوت المنكر الفظيع لحسيسها و اشتعالها^٤ ، ثم (تفور بهم كما يفور الماء الكثير بالحب القليل)^٥ ، وفي هذا تصوير لإحاطة العذاب بهم وترددهم فيه لأن الحب إذا غلى به الماء يظل صاعداً هابطاً لا يقر له قرار^٦ . ويعقبه إسناد التميز من الغيظ عليهم للمبالغة في وصف شدة إضرارها بهم ، تمثيلاً له بغيظ المغتاض المبالغ في الإضرار بعدوه . وهنا ينتهي ما عقب به الدكتور أبو موسى على الآيات ، ولكن ضروب العذاب على الكافرين لا تنتهي ، بل تمتد شوطاً آخر بإضافة عذاب التخجيل والتوبيخ^٧ بسؤال الملائكة لهم " ألم يأتكم رسل منكم " ، ثم عذاب التندم

^١ - د/ محمد محمد أبو موسى ، الإعجاز البلاغي مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤٠٥ - ١٩٨٤ ص ١٢٤ .

^٢ - القرطبي ج ٩ ص ٩٨ - ٩٩ في تفسير آية هود (١٠٦) .

^٣ - انظر البقاعي ج ٢٠ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

^٤ - انظر الزمخشري ج ٤ ص ١٣٦ .

^٥ - الرازي ج ٣٠ ص ٦٣ .

^٦ - انظر البقاعي ج ٢٠ ص ٢٣٤ .

^٧ - انظر الزمخشري ج ٤ ص ١٣٦ .

والتحسر^١ باعتبار فهمهم بمحيي الرسل إليهم ، وتكذيبهم لهم ، ثم عذاب إبعادهم عن رحمة الله بقوله " فسحقاً لأصحاب السعير " ، وبهذا يجتمع مقت الملائكة لهم مع مقتهم أنفسهم مع مقت الله لهم^٢ . ونستطيع أن نلمس تطور المعنى في سياق الآيات من حيث أن النار حين لقيتهم لقيتهم بالعبوسة والتجهم ، وحين اشتد غضبها انقادت بهم ، مع أن كل عبارة تحمل صنوفاً من الأذى لا يُبلغ مداها ، فهي تعد أكثر تفصيلاً من آية الفرقان التي أوجزت كل أنواع العذاب بقوله تعالى: " دعوا هنالك ثبوراً ، لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً " فهم لا يدعون على أنفسهم بالهلاك إلا في شدة الحال .

وقد ناسب في الفرقان ذكر خصومة التابعين والمتبوعين لما أفهمته الآيات من عبادتهم غيره مع خلقه لهم في قوله : " واتخذوا من دونه ءالهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً " ، وتواصيهم على الكفر في نحو : " وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً " ، في حين ورد هنا تذكيرهم - توبيخاً - ببعثة الرسل ، لأن في الآيات السابقة ذكراً لملك الله العظيم في قوله : " تبارك الذي بيده الملك " ولحكمة خلق الموت والحياة في قوله : " ليلوكم أيكم أحسن عملاً " . وإذا اختتمت الآيات هناك في قوله تعالى : " ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً " بالإندار بالعذاب المعد لمن لم يؤمن بيوم الحساب عن طريق جملة الشرط التي تفيد وقوع الجواب حين وجود الشرط ، فقد ختمت هنا في قوله : " فسحقاً لأصحاب السعير " بتحقيق إبعاد الكفرة المقرين على أنفسهم بالكفر عن رحمة الله . وإذا كان بين السياقين تشابه من حيث الإطناب في العقاب والإيجاز في الثواب فإن ثمة اختلافاً في جملي الثواب . فهي في الفرقان للمتقين لتناسب ذكر التكذيب فيقابلوا بالمكذبين ، لأنهم اتقوا كفرهم وتكذيبهم ، ووعدوا بجنة الخلد المقابلة للعذاب الذي لا ينتهي بما أفهمه قوله تعالى " وادعوا ثبوراً كثيراً " ، وهي هنا للذين يخشون ربهم بالغيب لتقابل كفر أولئك بهذا الغيب . فهؤلاء تفكروا و أولئك غطوا عقولهم باتباع أهوائهم فاستحق الخاشون ما يطمئن قلوبهم ، وهو مغفرة عظيمة ، تخليهم من السيئات ، وأجر كبير يحليهم بعظيم الهبات^٣ .

١ - انظر محيي الدين زادة ج ٤ ص ٥٢٠ .

٢ - انظر البقاعي ج ٢٠ ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

٣ - انظر الألوسي ج ٢٩ ص ١٣ ، الطاهر بن عاشور ج ٢٩ ص ٢٩ .

وفي سورة مريم يرد لفظ المتقين بمعنى المؤمنين مقابلاً بأضدادهم وهم الكفرة^١ بصورة موجزة في موضعين من السورة هما قوله تعالى :

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي

الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ﴿٧٢﴾

مريم ٧١ - ٧٢ مكية .

وقوله :

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ

إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا ﴿٨٦﴾

مريم ٨٥ - ٨٦ مكية .

أما الموضع الأول فأياً ما كان معنى الورد^٢ ، فإن رؤية المؤمنين النار ونجاتهم منها ، فيه إسعاد لهم وزيادة تحسير لمقابلتهم ، حين يرون افتراقهم عنهم - بعد أن كانوا معهم - إلى نعمة وجنان ورب غير غضبان . ونقف لتأمل المقابلة بين جزاء الفريقين . يقول الشهاب في حاشيته (والتركيب يدل على إنحاء المتقين من الورطة التي يبقى الظالمون فيها للتقابل بينهما)^٣ فهو يقصد أن تركيب فعل النجاة يعني خلاص الإنسان من أمر ما ، يتضمن خطراً قد يلحق الغير وهم في هذا السياق الكفرة . ولما كان بين ورود النار والخروج منها تفاوت بعيد وكان

^١ - انظر ابن جرير ج ١٦ ص ٨٧ ، ابن عطية ج ١١ ص ٥٠ ، الرازي ج ٢١ ص ٢٤٥ ، الخازن ج ٣ ص ٢٢٨ ، أبو حيان ج ٦ ص ١٩٨ ، ابن كثير ج ٤ ص ٤٧٩ ، حاشية الشهاب ج ٦ ص ١٧٦ المتن والهامش ، حاشية محيي الدين زادة ج ٣ ص ٢٩٩ ، الألوسي ج ١٦ ص ١٢٣ ، الطاهر بن عاشور ج ١٦ ص ١٥٠ .

^٢ - انظر ابن جرير ج ١٦ ص ١٨٠ وما بعدها ، ابن عطية ج ١١ ص ٨٤ وما بعدها ، الرازي ج ٢١ ص ٢٤٢ وما بعدها ، القرطبي ج ١١ ص ١٣٥ وما بعدها ، الخازن ج ٣ ص ٢٢٧ وما بعدها ، أبو حيان ج ٦ ص ١٩٧ ، ابن كثير ج ٤ ص ٤٧٦ وما بعدها ، البقاعي ج ١٢ ص ٢٣٦ ، أبو السعود ج ٥ ص ٢٧٦ ، حاشية الشهاب ج ٦ ص ١٧٥ وما بعدها المتن والهامش ، الألوسي ج ١٦ ص ١٢١ وما بعدها ، الطاهر بن عاشور ج ١٦ ص ١٤٩ وما بعدها .

^٣ - حاشية الشهاب ج ٦ ص ١٧٦ .

الخلاص مستبعداً من شدة الأهوال عُطفت النجاة على الورود بـ " ثم ننجي الذين اتقوا " وقد أشار البقاعي إلى الاستبعاد في الحرف (ثم) حين قال (ولما كان الخلاص منها بعد ذلك مستبعداً قال مشيراً إليه بأداة البعد)^١ ، في حين ذكر الألوسي ما قاله الطيبي من أنه للتفاوت الرتي بين فعل الخلق وهو ورود النار ، وفعل الحق^٢ وهو النجاة والدمار . وفي مقابل إكرام المتقين بالنجاة ، يترك الظالمون احتقاراً في النار على شر جلسة ، وهي الجُثوث الذي قال عنه ابن زيد - فيما نقله عنه ابن جرير - (شر الجلوس لا يجلس الرجل جاثياً إلا عند كرب ينزل به)^٣ . ولأن السياق سياق تهديد بما يحدث يوم القيامة نحو " فوبرك لنحشرهم والشياطين ثم لنحضرهم حول جهنم جثياً ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً " مريم ٦٨ - ٧٠ ، فقد جاءت صياغة الآيات توحى بإمكان التوبة والرجوع ، يقول الألوسي (وخولف بين قوله تعالى (اتقوا) وقوله سبحانه (الظالمين) ليؤذن بترجيح جانب الرحمة وأن التوحيد هو المنجي والإشراك هو المُردي ، فكأنه قيل ثم ننجي من وجد منه تقوى ما وهو الاحتراز من الشرك ، وهلك من اتصف بالظلم أي بالشرك وثبت عليه . وفي إيقاع نذر مقابلاً لننجي إشعار بتلك اللطيفة أيضاً)^٤ فقد أفادت الفعلية في فعل التقوى تحقق أدنى قدر منه ، في حين أفادت الاسمية في الظالمين اتصافهم بثبات الظلم وهو الكفر ، ومع ذلك فالحق سبحانه وتعالى لا يوقع العقوبة إلا على من أصرّ على الكفر واستمر على الظلم فتركه يصلى نار جهنم وأبجى من تحقق منه أقل قدر من تقوى الشرك . فالمقابلية وإن بدت تامة بين جزاء الفريقين فإن الرحمة تغلب غضب الرحمن .

أما الموضوع الثاني من السورة التي ذكر فيه جزاء المتقين و أضدادهم فهو قوله :

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفِدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى

جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾

مريم ٨٥ - ٨٦ مكية .

^١ - البقاعي ج ١٢ ص ٢٣٦ .

^٢ - انظر الألوسي ج ١٦ ص ١٢٣ .

^٣ - ابن جرير ج ١٦ ص ٨٧ .

^٤ - الألوسي ج ١٦ ص ١٢٣ .

وهذا الخبر يتعرض لوصف الفريقين حين انقضاء الحساب ، ونهوض كل فريق إلى دار جزائه ، فالمتقون يحشرون إلى دار كرامتهم على هيئة الوفود راكبين على نوقٍ لم ير الخلائق مثلها ، عليها رحال الذهب وأزمتها الزبرجد فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة^١ ، والمجرمون يُساقون كالأنعام بالزجر والضرب إلى جهنم عطاشاً حفاةً مشاةً أفراداً^٢ ، وإذا كان المعنى الذي من أجله أوفد المتقون هو التبجيل والإكرام لأن الوفود عادة يكونون من سراة الناس و ساداتهم^٣ ، فإن المراد من سوق الكفرة عطاشاً إلى جهنم هو التهكم والاستخفاف بهم و الاحتقار لهم^٤ . وإذا كان الحشر من الرحمن للمتقين إلى الجنة ، فإن السوق للمجرمين بسطوة المنتقم إلى جهنم وهذا ما دل عليه البقاعي بالاحتباك ، حين قال (فالآية من الاحتباك ذكر الرحمن أولاً دليلاً على المنتقم ثانياً ، وجهنم ثانياً دليلاً على حذف الجنة أولاً)^٥ . وقد أجمل الطيبي - فيما نقله عنه الشهاب - المقابلة بين الفريقين قائلاً : (وفي التقابل بين الوفد والرحمن وبين الورد وجهنم إعلام بتبجيل الوافد وظفره بجلائل النعم . وأعظم بوافد على رب رحمن كريم ، وإشعار بإهانة الوارد وتهكم ، كما في عتابه السيف وكفى بعطش يكون ورده أعظم النيران)^٦ . فعظيم جزاء المتقين جاء من كونهم وفداً وكان وفودهم إلى الذي يشملهم برحمته و رأفته ، في حين اتضح هوان الكفرة وسوء جزائهم من سوقهم سوق الأنعام ، ومن كون غاية هذا السوق إلى جهنم والعياذ بالله .

وقد دل على شمول جزاء المتقين لكل خير وجزاء الكافرين لكل شر حذف الفعل الناصب للظرف ، وفي ذلك يقول أبو حيان (يوم نحشر " ونسوق " نفعل بالفريقين ما لا يحيط

^١ - انظر ابن جرير ج ١٦ ص ٩٦ ، أبو حيان ج ٦ ص ٢٠٣ ، عن علي رضي الله عنه ، ورواه غيرهم عنه مرفوعاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، انظر الرازي ج ٢١ ص ٢٥٢ ، القرطبي ج ١١ ص ١٥١ - ١٥٢ ، ابن كثير ج ٤ ص ٤٨٥ - ٤٨٧ ، الألويسي ج ١٦ ص ١٣٥ .

^٢ - انظر القرطبي ج ١١ ص ١٥٣ .

^٣ - انظر ابن عطية ج ١١ ص ٥٦ ، أبو حيان ج ٦ ص ٢٠٣ .

^٤ - انظر الكشاف ج ٢ ص ٥٢٠ ، ابن عطية ج ١١ ص ٥٦ ، حاشية الشهاب ج ٦ ص ١٨٣ ، الألويسي ج ١٦ ص ١٣٦ .

^٥ - البقاعي ج ١٢ ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

^٦ - حاشية الشهاب ج ٦ ص ١٨٣ .

به الوصف)^١ ولم يوضح وجه الدلالة ، في حين وضحها أبو السعود حين قال : (" يوم نحشر المتقين " منصوب على الظرفية بفعل مؤخر قد حذف للإشعار بضيق العبارة عن حصره وشرحه لكمال فظاعة ما يقع فيه من الطامة التامة والدواهي العامة كأنه قيل " يوم نحشر المتقين " أي نجتمعهم " إلى الرحمن "... وفدا ... " ونسوق المجرمين " كما تساق البهائم " إلى جهنم وردا " ... نفعل بالفريقين من الأفعال مالا يفى بيانه نطاق المقال)^٢ ، فحذف الفعل الدال على ما يحدث في ذلك اليوم ، لتعظيم حال الوافدين على الرحمن ، وتحويل وتفطيع حال المساقين إلى جهنم .

وفي السورة موضع ثالث أكثر إيجازاً من هذين الموضعين هو قوله تعالى :

لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾

مریم ٩٧ مكية .

فلاية قابلت بين البشارة للمتقين و النذارة للقوم الألداء وهم مشركو قريش . ومعلوم أن البشارة تكون بحسن الثواب ، والإنذار بسوء العقاب ، فهذا إجمال لكل ما وعد به الفريقان في القرآن الكريم . والإيجاز هنا في هذه السورة لاشك أنه مقصود لذاته . وبالتأمل والبحث رأيت عدداً من المفسرين يتنبهون ويُنبهون إلى كثرة ترداد اسم الرحمن في هذه السورة^٣ ، وهذا يعني أن اهتمام السورة بأمر الرحمة أكثر من العذاب ، ولعل هذا لا يناسبه التفصيل في الجزاءات لا سيما ما يختص بالعقوبة ، وقد يكون السبب في إيجاز آيات الجزاء ثواباً كانت أو عقاباً هو اشتغال السورة بذكر آيات قدرة الله في خلق عيسى عليه السلام ، وفي ولادة يحيى ، والتنويه بالقرآن و بالأنبياء و المرسلين ، وحكاية إنكار المشركين البعث هو الذي صرف الآيات عن التفصيل في ذكر الثواب والعقاب ، فكان مجيؤها عرضاً .

أما في قوله تعالى :

^١ - أبو حيان ج ٦ ص ٢٠٣ .

^٢ - أبو السعود ج ٥ ص ٢٨١ .

^٣ - انظر البقاعي ج ١٢ ص ١٥٦ - ٢٤٧ ، حاشية الشهاب ج ٦ ص ١٨٣ المتن والهامش ، الظاهر ج ١٦ ص ٥٩ - ٦٠ حيث ذكر أن صفة الرحمن ذكرت ست عشرة مرة وذكر اسم الرحمة أربع مرات .

وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾
 وَقِيلَ لَهُمْ أَيُّنَا مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ
 أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَبَّكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ
 إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالَ اللَّهُ إِنْ كُنَّا
 لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نَسَوَيْكُمْ يَرْبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا
 إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾

فَلَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾

الشعراء ٩٠ - ١٠٢ مكية .

فقد جاءت آيات الجزاء في سياق دعوة الرسل موجزةً في ذكر ثواب المتقين ، مفصلة في ذكر عقاب الكافرين ، بذكر الخصومة بينهم وبين رؤسائهم .

وقد ذكر من أسباب ذلك الطاهر أن (الخروج إلى تصوير هذه الأحوال ، شيء اقتضاه مقام الدعوة إلى الإيمان بالرغبة والرغبة ... ولما كان قومه (اي ابراهيم) مستمرين على الشرك ، ولم يكن يومئذ أحد مؤمناً غيره وغير زوجه وغير لوط ابن أخيه كان المقام بذكر الترهيب أجدر ، فلذلك أطنب في وصف حال الضالين يوم البعث ^١ . ومن الممكن القول بأن السبب في إطناب وصف العقاب هو اتصال الموضوع في قصة إبراهيم عليه السلام بجذاله مع قومه ، وتكرار قصة الأتباع مع المتبوعين في قصة فرعون وموسى عليه السلام ، وقصة نوح عليه السلام وقصة صالح عليه السلام ، وهكذا تبرز الخصومة في النار في السياقات التي تشير إلى وجود أتباع ومتبوعين . والحكمة من إزلاف الجنة وإظهار النار في قوله تعالى " وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين " ما ذكره المفسرون من أنه لتحقيق السرور في نفوس المتقين ، وإحلال الهم والغم في نفوس أضدادهم وهم الكفرة ^٢ ، مع ما في التقريب من عدم

^١ - الطاهر بن عاشور جـ ١٩ ص ١٥٠ - ١٥١ .

^٢ - انظر الزمخشري جـ ٣ ص ١١٨ ، الرازي جـ ٢٤ ص ١٥٢ ، أبو حيان جـ ٧ ص ٢٥ ، البقاعي جـ ١٤ ص ٥٧ ، أبو السعود جـ ٦ ص ٢٥١ ، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٢٠ المتن والهامش ، الألوسي جـ ١٩ ص ١٠١

تجشمهم عناء السوق إليها^١ ، مقابل سوق أضدادهم إلى مكان النار الذي رأوه عن بعد ، بما يوحي به لفظ (برزت) . كما رأوا في اختلاف صيغتي الإزلاف و الإبراز تغليباً بجانب الرحمة ، يقول الشهاب (التعبير بالإزلاف وهو غاية التقريب يشير إلى قرب الدخول وتحققه ، ولذا قدم لسبق رحمته بخلاف الإبراز فإنه الإراءة ولو من بعد ، فإنه مطمع في النجاة كما قيل من العمود إلى العمود فرج)^٢ ، فالتقريب رحمة لدلالته على قرب تحقق الدخول ، والإبراز من بعيد رحمة لأن النظر إليها من بعيد يطمع في النجاة منها .

وبعد أن يقف الكافرون أمام النار يرونها رأي العين يُسألوا سؤال توبيخ وتقريع^٣ " أين ما كنتم تعبدون ، هل ينصرونكم أو ينتصرون " ، ولأن الاستفهام لا يحتاج إلى جواب يعقبه الكب في النار " فككبوا فيها هم والعاون " بسرعة خاطفة بدلالة الفاء وقد تشير إلى السببية أيضاً وكأن ككبتهم في النار تسببت عن عدم نصره آلهتهم لهم ، وقد استأنست بما ذكره الخضري ، في دلالة مجيء حرف الفاء ، في أمثال هذه المواضع ، على السرعة والسببية^٤ . وبعد أن يكبوا في النار على وجوههم ، يبدأ التخاصم بينهم وبين آلهتهم ، ويظهرون الندم على ما فرط منهم في تسويتهم لهم برب العالمين " قالوا وهم فيها يختصمون ، تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا إلا الجرمون " الشعراء ٩٦ - ٩٩ . وتزداد حسرتهم ، لأنه ليس لديهم كما للمسلمين شفعاء أو أصدقاء أو ليس لهم شفعاء أو أصدقاء من آلهتهم^٥ . وقد نستطيع القول استثناساً بما ذكره د. الخضري إن دخول الفاء على جملة " فمالنا من شافعين " بعد قوله : " تالله إن كنا لفي ضلال مبين ... الآية "

^١ - انظر الطاهر بن عاشور جـ ١٩ ص ١٥١ .

^٢ - حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٢٠ .

^٣ - انظر الزمخشري جـ ٣ ص ١١٩ ، ابن عطية جـ ١٢ ص ٦٨ ، أبو حيان جـ ٧ ص ٢٥ ، ابن كثير جـ ٥ ص ١٩١ ، البقاعي جـ ١٤ ص ٥٧ ، أبو السعود جـ ٦ ص ٢٥١ ، الألويسي جـ ١٤ ص ١٠٢ ، الطاهر بن عاشور جـ ١٩ ص ١٥١ .

^٤ - انظر محمد الخضري من أسرار حروف العطف ص ٥٦ وما بعدها .

^٥ - انظر الزمخشري جـ ٣ ص ١١٩ ، ابن عطية جـ ١٢ ص ٦٩ ، الرازي جـ ٢٤ ص ١٥٢ ، الخازن جـ ٣ ص ٣٦٥ ، أبو حيان جـ ٧ ص ٢٥ ، ٢٦٤ ، أبو السعود جـ ٦ ص ٢٥٣ ، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٢٠ المتن والهامش ، الألويسي جـ ١٩ ص ١٠٥ ، الطاهر بن عاشور جـ ١٩ ص ١٥٥ .

يشير إلى تسبب عدم نفع الشفعاء والأصدقاء عن ضلالهم^١ بتسويتهم هؤلاء الآلهة بـرب العالمين ، ويعقبه ويترتب عليه بقولهم : " فلو أن لناكرة ... " تمنيهم الرجوع إلى الدنيا^٢ ليكونوا من المؤمنين ولكن هيهات .

وفي سياق حديث القرآن عن ابتداء الخلق للتدليل على الإعادة و الإحياء^٣ في سورة الحجر جاء ذكر توعده إبليس بإغواء بني آدم مستثنياً المخلصين منهم ولعل هذا من مسوغات ورود الجزء في هذا الموضوع قال الله تعالى :

قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾
 إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾
 إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾

أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ * نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

الحجر ٣٩ - ٥٠ مكية .

وقد جاء الرد الإلهي على توعده الشيطان بالغواية مفتتحاً بتعظيم شأن هذا الصراط المستقيم - بدلالة التنكير - المتضمن لإخلاص العبودية ، وإرجاع أمره إلى الله إما على معنى التهديد بأن الكل صائر إليه تعالى يجازي كلاً بعمله^٤ ، أو على معنى أنه راجع إلى كرامته

^١ - انظر محمد الخضري من أسرار حروف العطف ص ٥٦ وما بعدها .

^٢ - انظر المرجع السابق .

^٣ - انظر البقاعي ج ١١ ص ٤٢ .

^٤ - انظر ابن جرير ج ١٤ ص ٢٣ ، ابن عطية ج ١٠ ص ١٣١ ، القرطبي ج ١٠ ص ٢٨ ، الخازن ج ٣ ص

٩٦ ، أبو حيان ج ٥ ص ٤٤١ ، ابن كثير ج ٤ ص ١٦٢ ، البقاعي ج ١١ ص ٦٠ .

ورضوانه^١. ثم فسّر تعالى ما جاء في الإشارة (هذا) من معنى الإخلاص ، وهو أن عباد الله المخلصين لن يكون له عليهم سلطان ، لكن سيكون سلطانه على من يستحسن طاعته ويتبع غوايته . يقول ابن عطية (ثم ابتداء الإخبار عن سلامة عباده المتقين من إبليس ، وخاطبه بأنه لا حجة له عليهم)^٢. وفي إضافة العباد لله في (عبادي) على هذا المعنى ، تشريف وتكريم لمن اتصف بالإخلاص في عبادة الله تعالى^٣ ، ولا يعارضه ثبوت زلات للأنبياء والصالحين لأن سلطانه لم يصل إلى قلوبهم^٤.

أما إن أريد بلفظ عبادي عموم الخلق^٥ فيكون المقصود من الاستثناء في قوله " إلا من اتبعك ... " نفي ما يوهم أن له سلطاناً على أي من عباد الله وإنما غاية ماله التزيين والتدليس^٦ ، مع ما يحمله لفظ (عبادي) من توبيخ لمن يعبد غير من ملكه ، ويسجد لغير من خلقه ، وما تفرضه طبيعة الاستثناء من وجوب استثناء الأقل من الأكثر ، من تحقير شأن أولئك الغواة بادعاء أنهم فئة لا يُعتد بها مع كثرة عددها يقول ابن عطية (وإن أخذنا العباد عامّاً في عباد الناس ، إذ لم يقرر الله لإبليس سلطاناً على أحد فإننا نقدّر الاستثناء في الأقل في القدر من حيث لا قدر للكفار)^٧ فكأنهم خارجون عن أن يكونوا عباداً لله .

وتبدأ الآيات بعد أن وصفتهم الوصف اللائق بهم وهو الغواية المستمرة عن طريق الحق في ذكر عذابهم ، مبتدئة بأول مراحل العذاب وهو التقاؤهم جميعاً في جهنم . وجاء لفظ (موعدهم) يحمل قدراً من التهكم بهم يقول الشهاب (وفي جعل جهنم موعدا لهم ، تهكم

^١ - انظر الرازي جـ ١٩ ص ١٨٩ ، القرطبي جـ ١٠ ص ٢٨ ، الخازن جـ ٣ ص ٩٦ ، أبو حيان جـ ٥ ص ٤٤٢ ، ابن كثير جـ ٤ ص ١٦٢ .

^٢ - ابن عطية جـ ١٠ ص ١٣١ ، و انظر الرازي جـ ١٩ ص ١٩٠ ، القرطبي جـ ١٠ ص ٢٨ ، أبو حيان جـ ٥ ص ٤٤٢ ، ابن كثير جـ ٤ ص ١٦٢ ، البقاعي جـ ١١ ص ٦٠ ، أبو السعود جـ ٥ ص ٧٩ ، حاشية الشهاب جـ ٥ ص ٢٩٥ المتن والهامش ، الألووسي جـ ١٤ ص ٥١ .

^٣ - انظر أبو حيان جـ ٥ ص ٤٤٢ ، الشهاب جـ ٥ ص ٢٩٥ .

^٤ - انظر القرطبي جـ ١٠ ص ٢٩ .

^٥ - انظر الرازي جـ ١٩ ص ١٨٩ ، الخازن جـ ٣ ص ٩٦ ، أبو حيان جـ ٥ ص ٤٤٢ ، البقاعي جـ ١١ ص ٦٠ ، حاشية الشهاب جـ ٥ ص ٢٩٥ المتن والهامش ، الطاهر بن عاشور جـ ١٤ ص ٥٣ .

^٦ - انظر حاشية الشهاب جـ ٥ ص ٢٩٥ المتن والهامش .

^٧ - ابن عطية جـ ١٠ ص ١٣١ ، و انظر حاشية الشهاب جـ ٥ ص ٢٩٥ .

واستعارة فكأنهم كانوا على ميعاد) ^١ ، والتركيب دالٌّ على شدة غضبه تعالى عليهم ، لما تبادوا فيه من العصيان ، وذلك بابتداء الجملة بـ (إن) واللام المزحلقة الداخلة على خبرها ، ولفظ أجمعين . ويشتد الغضب بتخصيص كل فريق منهم بباب من أبواب جهنم ^٢ - أعادنا الله منها - وأبواب النار تفضي إلى دركاتها ، وهي أطباق بعضها فوق بعض ^٣ ، وكما زادت أعمال المرء سوءاً ، زاد في الدرجات انحذاراً . وقد قيل في أسماء وترتيب طبقات النار عدة أقوال ولا مانع من قبول ما نُقل عنها من أقوال ، ولكن ينبغي عدم القطع بترتيب هذه الطبقات أو أسمائها ، لأنه لم يرد في القرآن ولا صحيح السنة ^٤ .

وقد قيل في الحكمة من كونها سبعة أبواب عدة آراء ^٥ ، قد يكون أقربها للصواب ما ذكره الرازي من اختلاف درجات الكفر بالغلظ و الخفة ^٦ ، وما ذكره البقاعي عن حكمة تميز الطبقة الأولى بعصاة الموحدين الذي أشار إليه القرطبي ^٧ مقابل الأخيرة للمنافقين على ما جاء في قوله تعالى : " إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار " النساء ١٤٥ مدنية حيث قال (فجعلت جزء الطبقة العليا من النار مقابلة لقسم المنافقين من كل أمة ، لعملهم أعمال الكفار مع الإيمان ، كما أن عمل المنافقين عمل المؤمنين مع الكفران فكانوا أخفى الكفار فكان لهم

^١ - حاشية الشهاب جـ ٥ ص ٢٩٦ ، وانظر الألوسي جـ ١٤ ص ٥٢ .

^٢ - انظر البقاعي جـ ١١ ص ٦٠ .

^٣ - انظر ابن جرير جـ ١٤ ص ٢٤ ، الزمخشري جـ ٢ ص ٣٩١ ، ابن عطية جـ ١٠ ص ١٣٢ ، الرازي جـ ١٩ ص ١٩٠ ، القرطبي جـ ١٠ ص ٣٠ ، النيسابوري بهامش جامع البيان جـ ١٤ ص ١٩ ، أبو حيان جـ ٥ ص ٤٤٢ ، ابن كثير جـ ٤ ص ١٦٣ ، البقاعي جـ ١١ ص ٦٠ ، أبو السعود جـ ٥ ص ٧٩ ، حاشية الشهاب جـ ٥ ص ٢٩٦ المتن والهامش ، الألوسي جـ ١٤ ص ٥٢ ، الطاهر بن عاشور جـ ١٤ ص ٥٣ .

^٤ - انظر الألوسي جـ ١٤ ص ٥٣ .

^٥ - ذكر البيضاوي والشهاب في حاشية الشهاب جـ ٥ ص ٢٩٦ المتن والهامش أن الأبواب سبعة لأن مجامع المهلكات تنحصر في الحواس الخمس والقوة الغضبية والقوة الشهوية . وذكر البقاعي في نظم الدرر جـ ١١ ص ٦١ ، ٦٢ أن أصناف الكفار خمسة وهم اليهود والصابئة والنصارى والمجوس وعباد الأوثان وهم مصارحون بكفرهم والمنافقون لا يعرفون ظاهراً فعدوا قسماً واحداً وأفرد العصاة من كل منهم قسماً آخر فأصبحت سبعة أقسام ، ونقل عن السهورودي أنها سبعة بحسب الأعضاء لأنها مصادر السيئات ، وذكر الطاهر بن عاشور جـ ١٤ ص ٥٣ أن العدد أطلق يراد به الكثرة

^٦ - انظر الرازي جـ ١٩ ص ١٩١ .

^٧ - انظر القرطبي جـ ١٠ ص ٣٠ .

الدرك الأسفل من النار) ^١ فعصاة الموحدين يعملون أعمال الكفار مع الإيمان فناسب كونهم في أقل درجات العذاب ، والمنافقون يعملون أعمال المؤمنين مع الكفر فهم أحبث وأشد جرأة بالكذب على الله ، ولهذا ناسب كونهم في الدرك الأسفل . وبعد أن يتضح سوء مصير الكافرين ، يستأنف السياق بذكر جزاء الفريق المقابل وكأن سائلاً سأل : فما مصير أضداد هؤلاء الغاوين ؟ فجاء الجواب يشير إلى أنه في الوقت الذي يتدافع فيه كل قسم من الكفرة على باب النار المختص بهم ليقعوا سريعاً تحت طائلة عذابه ^٢ ، ينعم المتقون كما في قوله " إن المتقين في جنات وعيون " بالاستقرار في جنات كثيرة الشجر غزيرة المياه ، سواء أريد بها أنهار اللبنة والعسل والخمر ^٣ ، أو غيرها من العيون ^٤ ، قد قيل لهم ادخلوها ^٥ ملاقين سلاماً وتحيية من الملائكة ، وسلامة من الخوف والحرمان والآفات لا تنقطع ^٦ . وليتم تمتعهم بهذا النعيم نزع عن صدورهم الأحقاد القديمة ليصبحوا كالإخوان في المحبة والمودة ^٧ ، وجلسوا فيها جلسة ترف ودعة ^٨ ، تتحقق لهم بها الكرامة ^٩ وتدل على عزتهم و نفاسة شأنهم ^{١٠} ، تلك هي الجلوس (على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد و الدر و الياقوت و السرير مثل ما بين صنعاء إلى الجايبة) ^{١١} وقد نبه المفسرون إلى ما في لفظ (سرير) من الدلالة على الرفعة والتهيئة

^١ - البقاعي جـ ١١ ص ٦٢ .

^٢ - انظر الشهاب جـ ٥ ص ٢٩٦ .

^٣ - انظر الرازي جـ ١٩ ص ١٩٢ ، القرطبي جـ ١٠ ص ٣٢ ، الخازن جـ ٣ ص ٩٧ ، حاشية محيي الدين زادة جـ ٣ ص ١٥٧ ، الألوسي جـ ١٤ ص ٥٧ .

^٤ - انظر الرازي جـ ١٩ ص ١٩٢ ، الخازن جـ ٣ ص ٩٧ ، الألوسي جـ ١٤ ص ٥٧ .

^٥ - انظر الألوسي جـ ١٤ ص ٥٧ .

^٦ - انظر ابن جرير جـ ١٤ ص ٢٥ ، الرازي جـ ١٩ ص ١٩٢ ، القرطبي جـ ١٠ ص ٣٢ ، الخازن جـ ٣ ص ٩٧ ، ابن كثير جـ ٤ ص ١٦٤ ، البقاعي جـ ١١ ص ٦٣ ، أبو السعود جـ ٥ ص ٨٠ ، حاشية الشهاب جـ ٥ ص ٢٩٧ المتن والهامش ، الألوسي جـ ١٤ ص ٥٨ ، الطاهر بن عاشور جـ ١٤ ص ٥٥ .

^٧ - انظر الخازن جـ ٣ ص ٩٧ .

^٨ - انظر الطاهر بن عاشور جـ ١٤ ص ٥٦ .

^٩ - انظر أبو حيان جـ ٥ ص ٤٤٥ مستدلاً بقول الرسول عليه السلام : يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة ، الألوسي جـ ١٤ ص ٥٩ .

^{١٠} - انظر النيسابوري جـ ١٤ ص ٢١ مستدلاً باشتقاقه من سر الوادي وهو أفضل موضع منه .

^{١١} - الرازي جـ ١٩ ص ١٩٣ القرطبي جـ ١٠ ص ٣٣ ، النيسابوري جـ ١٤ ص ٢١ ، الخازن جـ ٣ ص ٩٧ ، الألوسي جـ ١٤ ص ٥٩ ، عن ابن عباس .

للسرور^١ ، كما أشار النيسابوري إلى أمر آخر حين قال (قال الليث : سرير العيش مستقره الذي يطمئن عليه حال سروره وفرحه . والتركيب يدور على العزة والنفاسة ، ومنه قولهم : سر الوادي لأفضل موضع منه)^٢ ، ففيه دلالة على استقرار العيش بالفرح والسرور . كما أن لذقم وسرورهم لا يكتمل على هذه الأسرة إلا بمقابلتهم إخوانهم ، وتواصلهم معهم لما في مواجهة الإخوان من السرور والأنس^٣ ، سواء عن طريق المواجهة بحيث لا يرى أحدهم قفا صاحبه^٤ ، أو المزاورة^٥ ، وهم مع هذا الاستمتاع بما في الجنة من ضروب النعيم لا يتعبون ولا ينصبون ، لأن جُلَّ ما في الجنة يكون بالأمر والإرادة وليس بتكلف ولا معاناة ، وقيل لكمال قوتهم لا يعترتهم تعب ولا نصب^٦ وقد أفاد انتفاء المس وهو أقل قدر متحقق من التعب انتفاء دوامه بطريق الأولى^٧ وأيّد هذا النفي بقوله لا يمسه ، الذي نُفي فيه الفعل بلا ، التي نبه السهيلي إلى دلالتها على امتداد زمن النفي ، فقال مقارناً بين لن ولا مبتدئاً بلن (ومن خواصها أنها تنفي ما قرب لا يمتد معنى النفي فيها كامتداد معنى النفي في حرف لا إذا قلت : لا يقوم زيد أبداً . وقد قدمنا أن الألفاظ مشاكلة للمعاني التي هي أرواحها ، يتفرس العاقل فيها حقيقة المعنى بطبعه وحسه كما يتعرف الصادق الفراسة صفات الأرواح في الأجساد بنحيزة نفسه فحرف (لا) لام بعدها ألف يمتد بها الصوت ، ما لم يقطعه تضيق النفس فأذن امتداد لفظها بامتداد معناها ، (ولن) بعكس ذلك فتأمله ، فإنه معنى لطيف وغرض شريف)^٨ وقد نبه أبو السعود في أمثال هذا الأسلوب إلى أنه يشير إلى دوام الانتفاء وليس انتفاء الدوام بحسب

^١ - انظر المصادر السابقة و البقاعي جـ ١١ ص ٦٣ ، محيي الدين زادة جـ ٣ ص ١٥٨ .

^٢ - النيسابوري بهامش جامع البيان جـ ١٤ ص ٢١ .

^٣ - انظر القرطبي جـ ١٠ ص ٣٣ ، النيسابوري بهامش جامع البيان جـ ١٤ ص ٢١ ، البقاعي جـ ١١ ص ٦٣ ، الطاهر بن عاشور جـ ١٤ ص ٥٦ .

^٤ - انظر ابن عطية جـ ١٠ ص ١٣٤ ، الرازي جـ ١٩ ص ١٩٣ ، القرطبي جـ ١٠ ص ٣٣ ، الخازن جـ ٣ ص ٩٧ ، أبو حيان جـ ٥ ص ٤٤٥ ، ابن كثير جـ ٤ ص ١٦٥ ، البقاعي جـ ١١ ص ٦٣ ، أبو السعود جـ ٥ ص ٨٠ ، الألوسي جـ ١٤ ص ٥٩ ، الطاهر بن عاشور جـ ١٤ ص ٥٦ .

^٥ - انظر الخازن جـ ٣ ص ٩٧ ، أبو حيان جـ ٥ ص ٤٤٥ ، الألوسي جـ ١٤ ص ٥٩ .

^٦ - انظر أبو السعود جـ ٥ ص ٨٠ ، الألوسي جـ ١٤ ص ٥٩ .

^٧ - انظر أبو حيان جـ ٥ ص ٤٤٥ .

^٨ - أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي ت ٥٨١ هـ ، نتائج الفكر في النحو تحقيق د. محمد ابراهيم البنادر الرياض للنشر والتوزيع - الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ص ١٣٠ ، ١٣١ .

مقتضيات السياق ، يقول معلقاً على قوله " فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون " البقرة ٣٨) والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يتوهم من كون الخبر في الجملة الثانية مضارعاً لما تقرر في موضعه أن النفي وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام)^١ فدوام الانتفاء يعني دوام عدم حصول الخوف ، بخلاف انتفاء الدوام فقد يعني حصوله في بعض الأوقات . و لا يتوهم من تسليط النفي على الفعل المضارع في الجملة الثانية وقوع النفي على الدوام فيحصل الحزن أحياناً وإنما يفيد تسليط النفي على الفعل المضارع استمرار الانتفاء ، ولأن هذا الأمر ليس مطرداً نبه أبو السعود إلى أنه بحسب المقام . وقد أشار الطاهر في أكثر من موضع إلى أن نفي المضارع يفيد تجدد النفي ودوامه فقال معلقاً على قوله " أيشركون مالا يخلق شيئاً " الاعراف ١٩١ (ونفي المضارع في قوله " مالا يخلق " للدلالة على تجدد نفي الخالقية عنهم)^٢ وقال أيضاً في الحكمة من مجيء الفعل " يرجون " مضارعاً في قوله : " كانوا لا يرجون حساباً " النبأ ٢٧ (للدلالة على استمرار انتفاء ما عبر عنه بالرجاء)^٣ فتسليط النفي على الفعل المضارع المفيد للتجدد والاستمرار إثبات للنفي في كل أزمدة الفعل المتجددة المستمرة ، ومن هنا أفاد دوام الانتفاء . وبناءً على كل ما تقدم يتضح أن في التركيب عدة عوامل متضافرة لإثبات دوام الانتفاء أولها : انتفاء المس وهو أقل قدر متحقق من الإصابة واستخدام (لا) الدالة على امتداد زمن النفي وتسليط النفي على المضارع المستمر ، مما يفيد حصول النفي في كل تلك الأزمنة المستمرة . وفوق كل هذا فهم خالدون في هذا النعيم بقوله : " وما هم منها بمخرجين " . ولا يفهم أن ذكر الخلود هنا يتكرر مع القول بعدم انقطاع النعيم في قوله (آمنين) لأن المقصود هناك ادخلوها (آمنين ممن عقاب الله أو أن تسلبوا نعمة أنعمها الله عليكم)^٤ أي عدم زوال هذا النعيم عنهم^٥ والمقصود هنا خلودهم في

^١ - أبو السعود ج ١ ص ٩٣ ، وانظر ص ١٠٨ البقرة ٦٢ ص ٢٥٨ البقرة ٢٦٢ ج ٧ ص ٢٦١ الحجر ٦٣ ،

ج ٣ ص ١٤٦ الأنعام ٤٨ .

^٢ - الطاهر بن عاشور ج ٩ ص ٢١٥ .

^٣ - الطاهر بن عاشور ج ٣٠ ص ٤٠ .

^٤ - ابن جرير ج ١٤ ص ٢٥ ، وانظر الرازي ج ١٩ ص ١٩٢ .

^٥ - ذكر بعض المفسرين مثل القرطبي ج ١٠ ص ٣٢ ، البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ج ٥ ص ٢٩٧ ، ابن كثير ج ٤ ص ١٦٤ ، أبو السعود ج ٥ ص ٨٠ أن الأمن قد يكون أمناً من الخروج من الجنة وهذا يلزمه التكرار مع (ما

دار النعيم ، والله تعالى أعلم .

وقد جاءت صياغة قوله تعالى: "وما هم منها بمخرجين" لتفيد دوام تنعمهم في الجنة ولعل هذا يقابل تخصيص كل فريق من الكفرة بباب عن طريق اللام التي تفيد الملكية مما يعني ملازمتهم لهذا المكان ، فكما أن أولئك دائمون في النعيم ملازمون له فإن هؤلاء ملازمون للعذاب لا ينفكون عنه . وقد أفاد تقديم النفي على الجملة دوام انتفاء الخروج وليس نفي دوام عدم الخروج^١ ، فدوام الانتفاء لخروجهم يعني دوام بقائهم في الجنة ، أما نفي الدوام فيعني احتمال مجيء وقت يتحقق فيه الخروج . وجاءت الباء لتأكيد النفي^٢ . ومع اختصاص كل من الفريقين بمرتبته ، فإن ثمة فرقاً بين دخول المتقين وذكر النار موعداً للكافرين ، كأن المتقين قد دخلوا والكفار لم يدخلوا بعد وإنما وعدوا بالعذاب وفي انتظار تحقق الوعيد عذاب الخوف والإشفاق . كما أن هناك - بما فصل من نعيم المتقين^٣ ، وأبهم من عذاب الكافرين بذكر دخولهم فقط من أبوابها دون ذكر ما بعده - إشارة إلى فتح أبواب الرحمة ، لمن أراد إنقاذ نفسه من غواية الشيطان .

يؤيد هذا ما جاء عقب الآيات كلها تأكيداً لما ورد فيها وتمكيناً له في النفوس^٤ من قوله تعالى : " نبي عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم " ويؤنس هذا الرأي قول الرازي (اعلم أن عباد الله قسمان : منهم من يكون متقياً ، ومنهم من لا يكون كذلك فلما ذكر الله تعالى أحوال المتقين في الآية المتقدمة ، ذكر أحوال غير المتقين في هذه الآية

هم منها بمخرجين) وقد أحاب عنه الشهاب بأنه قد يكون للتأكيد ، ولعل ما ذكرتُ استثناساً بقول ابن جرير و الرازي هو الأصوب .

^١ - أشار أبو السعود في تفسيره إلى أن النفي في قوله : (لا يمسهم سوء ولا هم يجزنون) ٦١ من سورة الزمـر إلى أنه (ليس المراد نفي دوام المساس والحزن بل دوام نفيهما) جـ ٧ ص ٢٦١ . كما أشار د . صباح دراز إلى أن تقديم النفي على الجملة بأسرها نفي لكل معناها انظر من الإعجاز البلاغي ص ١٣٤ .

^٢ - انظر أبو حيان جـ ٥ ص ٤٤٥ ، د . عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية وبيانية ، دار المعارف ١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م ص ١٩٠ .

^٣ - حيث ذكر اكتمال نعيم المؤمنين بكونه منفعة ، مقرونة بالتعظيم ، خالية من الشوائب ، دائمة وهو ما فصله الرازي جـ ١٩ ص ١٩٣ .

^٤ - انظر الزنجشيري جـ ٢ ص ٣٩٢ ، النيسابوري بهامش جامع البيان جـ ١٤ ص ٢١ ، أبو حيان جـ ٥ ص ٤٤٥ ، أبو السعود جـ ٥ ص ٨٠ ، حاشية الشهاب جـ ٥ ص ٢٩٨ المتن والهامش ، الألوسي جـ ١٤ ص ٥٩ .

فقال : " نبيء عبادي ")^١ ، و قول البقاعي في صلة هذه الآية بسابقتها : (ولما كان المفهوم من هذا السياق أن الناجي إنما هو المتقي المخلص الذي ليس للشيطان عليه سلطان وكان مفهوم المخلص من لا شائبة فيه ، وكان الإنسان محل النقض وكان وقوعه في النقض منافياً للوفاء بحق التقوى والإخلاص ، وكان ربما أياسه ذلك من الإسعاد فأوجب له التمادي في البعاد قال سبحانه جواباً لمن كأنه قال فما حال من لم يقيم بحق التقوى " نبيء عبادي ")^٢ فالغفران والرحمة لمن عاد عن غيئه وأقبل إلى صراط ربه ، مقابل العذاب الأليم لمن تمادى في غيئه ، معرضاً عن صراط ربه المستقيم .

فهذه الآية تجمع بين الترغيب في رحمة الله ، والترهيب من عذابه مع تغليب جانب الرحمة وهذا ما أشار إليه عدد من المفسرين " يقول الإمام الرازي " إنه (لما ذكر الرحمة والمغفرة ، بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة أولها : قوله (أني) وثانيها : قوله (أنا) وثالثها : إدخال حرف الألف واللام على قوله الغفور الرحيم . ولما ذكر العذاب لم يقل أني أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال : " وأن عذابي هو العذاب الأليم " وثالثها : - أي اللطائف الموجودة في الآية - أنه أمر رسوله أن يبلغ إليهم هذا المعنى ، فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة ورابعها : أنه لما قال " نبيء عبادي " كان معناه نبيء كل من كان معترفاً بعبوديتي ، وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع ، فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصي ، وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى)^٣ فابتداء الآية بأمر الرسول بالإنباء بغفرانه ورحمته توكيد لهما فكأنه تعالى أشهد رسوله على هذه الرحمة والغفران . وفي إثباتها لذاته دون إثبات العذاب حيث لم يقل (أنا المعذب) توكيد آخر فهو متصف بالرحمة ولكن عذابه شديد إذا وقع، وتحققه يكون بما يوجب عمل المرء . كما أن صياغة جملة الرحمة (أني أنا الغفور الرحيم) تزيد من هذا التأكيد كالإتيان بحرف التوكيد (إن) واختصاصه تعالى بها عن طريق ضمير

^١ - الرازي ج ١٩ ص ١٩٤ .

^٢ - البقاعي ج ١١ ص ٦٣-٦٤ .

^٣ - الرازي ج ١٩ ص ١٩٥ ، وانظر النيسابوري بهامش جامع البيان ج ١٤ ص ٢١ ، الخازن ج ٣ ص ٩٨ ، أبو حيان ج ٥ ص ٤٤٥ ، أبو السعود ج ٥ ص ٨٠ ، حاشية الشهاب ج ٥ ص ٢٩٨ المتن والهامش ، الألووسي ج ١٤ ص ٥٩ ، الطاهر بن عاشور ج ١٤ ص ٥٧ .

الفصل (أنا) ، وطريق التعريف في صيغتي المبالغة الغفران والرحمة (الغفور الرحيم) ، و
الابتداء بالصفة السارة وهي الغفران الناشئة عن رحمة الله . وقدّم المغفرة المناسبة لوصف الجنة
وتفصيل نعيمها على العذاب المناسب لوصف النار الذي أجمل وهذا من دقائق البيان العزيز .
ومن السور التي تتصل بذكر سلطان المضلين على الضالين - وإن لم يذكر فيها لفظ
المتقين - سورة الصافات ، يقول تعالى :

﴿ أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ
اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾
مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾
قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ
كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰبِقُونَ ﴿٣١﴾

فَأَغْوَيْتَكُمْ إِنَّا كُنَّا غٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ
﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوْا آلِهَتِنَا
لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ
لَذٰبِقُونَ الْعَذَابِ الْآلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾

الصافات ٢٢ - ٤٠ مكية .

فهناك بعض النقاط التي تلتقي فيها هذه السورة مع سورة الحجر مثل حشر التابعين مع
المتبوعين الذي دل عليه هناك قوله : " وإن جهنم لموعدهم أجمعين " الحجر ٤٣ وهنا

احشروا الذين ظلموا و أزواجهم وما كانوا يعبدون " ، كما تلتقي في أسلوب الاستثناء وإن اختلف ركناه ، ففي الحجر استثنى الغاوين جاعلاً إياهم قلة لا يعتد بقدرها من عباده ، وهنا استثنى عباد الله المخلصين ، وهم قليلون في العدد مرتفعون في القدر . وقدّم هناك جزء الغاوين وهو جهنم لأن استثناءهم - كما يبدو والله أعلم - استوجب الغضب عليهم ، في حين قدّم في الصافات ذكر عباد الله المخلصين مشاراً إليهم باسم الإشارة للبعد تنويهاً بشأنهم وأنهم جديرون بهذا الجزء^١ وفي الاستثناء التام حسم وتوكيد ، يتلاءم مع القضايا الذي تصاغ به . فجملة الاستثناء تثبت المعنى مرتين ، مرة بإيجابه ومرة بنفي ضده كما أن هذا الأسلوب بوضعه الطرفين في مقابلة ، بإثبات أحدهما ونفي الآخر ، يظهر ثنائية الإسلام التي سبق أن أشير إلى معناها في تفسير لفظ (مثاني) كما أشار إلى ذلك الكعبي حين قال (وتظهر ثنائية الاستثناء في القرآن الكريم ثنائية الإسلام وأنه كما هو في جوهره قائم على ثنائية بين الإيمان والكفر وبين الثواب والعقاب وبين التقوى والفسوق وبين الأعلى والأسفل ، حيث أن الاستثناء قائم في الغالب في الكتاب الكريم على مستثنى ومستثنى منه ليس من جنسه ، وفي ذلك تأكيد على القطيعة القائمة بين الحق وبين الباطل وبين الخير وبين الشر)^٢ فالأشياء كلها تتقابل داخل ثنائية الحق والباطل ، والخير والشر . والواحد الأحد هو الله تعالى . وتبدأ الآيات بذكر الحشر أي حشر التابعين مع المتبوعين وهدايتهم إلى الجحيم ، ثم توقيفهم للسؤال . وهنا يتبدى ضعفهم وخذلانهم لبعضهم ، وتبدأ الخصومة التي عبر عنها القرآن بالتساؤل بقوله " وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون " - أي قبل دخول النار - فالتساؤل هنا (على معنى التقرير واللوم والتسخط)^٣ دل عليه السياق وهو اتهام الأتباع للمتبوعين بإضلالهم ، ونفي المتبوعين إيمان التابعين أصلاً واعترافهم على أنفسهم بالغواية . وفي حذف مفعول الذوق في قوله تعالى " إنا لذائقون " دلالة على شدة الحال وهو ما أشار إليه الطاهر في آية الزمر " ولكن حقت كلمة

١ - انظر أبو السعود جـ ٧ ص ١٩٠ ، الألويسي جـ ٢٣ ص ٨٥ ، الطاهر بن عاشور جـ ٢٣ ص ١١١ .

٢ - ربيعة الكعبي ، التركيب الاستثنائي في القرآن الكريم ، دراسة نحوية بلاغية ، دار الغرب الاسلامي - بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٣ م ص ٩٦ .

٣ - ابن عطية جـ ١٣ ص ٢٢٧ ، وانظر الرازي جـ ٢٦ ص ١٣٣ ، القرطبي جـ ١٥ ص ٧٤ ، النيسابوري جـ ٢٣ ص ٥٠ ، الخازن جـ ٤ ص ١٧ ، أبو حيان جـ ٧ ص ٣٤٢ ، ابن كثير جـ ٦ ص ٨ ، البقاعي جـ ١٦ ص ٢١١ ، أبو السعود جـ ٧ ص ١٨٨ ، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٢٦٧ المتن والهامش ، الألويسي جـ ٢٣ ص ٨١ ، الطاهر بن عاشور جـ ٢٣ ص ١٠٤ .

العذاب على الكافرين " ٧١ من أنه جواب المتندم المكروب فإنه يوجز جوابه لأن أصل الكلام أن يقولوا : ولكن تكبرنا وعاندنا فحقت كلمة العذاب على الكافرين . ولكن الكلام جاء هكذا على سبيل : الأمر كما ترون ^١ ، ولو قيل هنا - كما يقال عادة في حذف المفعول - إنه لشمول كل صنوف العذاب لم يفد ما يفيد جعل الحذف لشدة الحال ، لأنه من العلوم والمفهوم أن الذوق منصب على العذاب . ومع كون الحذف يشير من وجه آخر إلى كثرة صنوفه وتنوعها ، إلا أن قصد السياق التركيز على تيقنهم من وقوع العذاب وإشفاقهم منه حتى أنهم لا يستطيعون النطق باسمه . ومن هنا ناسب ذكره بعد ذلك في قوله " فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون " زيادة في تحسيرهم وتخويفهم .

وبعد أن يذكر سبب هذا العذاب وهو كفرهم بالله الواحد الأحد ، وتكذيبهم بالرسالة يكرر هذا التخويف بأشد منه عن طريق الالتفات إليهم بالخطاب في قوله " إنكم لذائقو العذاب الأليم " . وقد نبه الإمام أبو السعود إلى الغرض من الالتفات بأنه دليل على كمال الغضب ^٢ ، ولكن لم يبين وجه دلالة عليه وبينه الألوסי حين قال (والالتفات لإظهار كمال الغضب عليهم بمشافتهم بهذا الوعيد وعدم الاكتراث بهم وهو اللائق بالمستكبرين) ^٣ فإن المشافهة بكلمات الوعيد والتفريع والتوبيخ وما شابهها تدل على قلة قدر المخاطبين وأنهم ليسوا ممن يُعتد بشأنهم ، أو تخشى مواجهتهم باللوم والتفريع .

وبعد أن تصل الآيات بالتخويف والتهويل إلى هذا الحد تستثني عباد الله المخلصين . فصيغة الاستثناء ومفرداته تبعث الطمأنينة في قلوب المؤمنين والحسرة والندم في قلوب الكافرين ، لأن الاستثناء له قوة جملتين ، إحداهما : تنفي ذوق العذاب عن عباد الله المخلصين والثانية : توجهه على الظالمين ^٤ (والعذاب هو الإيجاع الشديد واختلف في أصله فقيل هو من قولهم عذب الرجل - كضربه - إذا ترك المأكل والنوم فهو عاذب ، فالتعذيب في الأصل هو حمل الإنسان على أن يعذب أي يجوع ويسهر وقيل أصله من العذب ، وعذبه أي أزال عذب حياته كمرّضه أي أزال مرضه ، وقيل أصل التعذيب إكثار الضرب بعذبة السوط أي

^١ - انظر الطاهر بن عاشور ج ٢٤ ص ٧١ .

^٢ - انظر أبو السعود ج ٧ ص ١٩٠ .

^٣ - الألوסי ج ٢٣ ص ٨٥ .

^٤ - انظر ربيعة الكعبي ، التركيب الاستثنائي ص ٩٢ .

طرفها) ^١ فالناجي من هذا العذاب سعيد ولا شك . ثم إن في اختيار لفظ عباد الله المخلصين تكريماً ما بعده تكريم وترغيباً في سلوك سبيلهم بوصف العبودية . وقد لحظ ابن جنيت ٣٩٢هـ و ابن عطية أن لفظ العباد يأتي في مجال الرفعة والدلالة على الطاعة ، في حين يأتي لفظ عبيد مقترناً بمعنى التحقير وقلة الشأن ^٢ وأشار الدكتور / محمد الخضري إلى وجه الدلالة بأن (الانتقال في عباد من الكسرة إلى الفتحة ثم إلى الاستطالة بالألف الرامزة إلى الرفعة وانتصاب القامة ، يشير إلى أن الانتساب إلى الله بعبادته ينقل الإنسان من وهدة الرذيلة والخنوع للند من البشر إلى سمو النفس والوجه في حضرة المعبود ، والانتقال في عبيد من الفتحة إلى الكسرة فالاستطالة بالياء يوحي بانكسار النفس واستغراقها في الذل ومهانتها باستعباد الناس لها) ^٣ ويبدأ ذكر عباد الله المخلصين - كما سبق أن ذكرت - بالتنويه بشأنهم عكس ما جاء في استثناء الغاوين في سورة الحجر من الابتداء بعذابهم .

يقول تعالى في وصف جزاء المؤمنين هنا :

أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيِّضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّرْبِ بَيْنَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيِّضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَأِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾

^١ - د . محمد محمد أبو موسى ، من أسرار التعبير القرآني ، مكتبة وهبة القاهرة الطبعة الثانية ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ص

^٢ - أشار إلى ذلك د. محمد الأمين الخضري ، الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ ، مطبعة الحسين الإسلامية ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م ص ١٧٤ عن ابن عطية ج ٣ ص ١٣٧ - ١٣٨ ، وانظر المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها تحقيق علي النجدي ناصف ، عبد الحليم النجار ، د . عبد الفتاح شلي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة . ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م ج ٢ ص ١٤ ، ١٥ .

^٣ - محمد الخضري ، الإعجاز البياني ص ١٧٤ .

أَعِدَّا مِثْنًا وَكُنَّا ثَرَابًا وَعِظْمًا أَعِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ
 ﴿٥٤﴾ فَأَطَّلَعَ فَرَعَاهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ
 ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ
 ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ
 الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِيُمِثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾

٤١ - ٦١ مكية .

فهؤلاء المؤمنون لهم في الجنة رزق معلوم ، قيل معلوم الصفة ^١ وهي صفات الحسن
 واللذة وقيل معلوم الوقت ^٢ ، أي بكرة وعشيا ، وقيل معلوم الوجود والـدوام ^٣ . وهو
 أجناس مختلفة ^٤ من المطعومات ، يتناولونها للتفكه والتلذذ فقط ولا تكتمل نعمة الحواس إلا
 بالإكرام فالرزق المصحوب بالمن والإهانة لا يُعد نعمة ^٥ . ولذا قال تعالى " وهم مكرمون "
 ثم إنهم في أحسن مكان وهو جنات النعيم يجلسون أحسن جلسة وأدناها على الراحة
 والمتعة وهي جلسة الملوك ^٦ " على سرر " لأن الجالس على السرير يستطيع التقلب فيه

^١ - انظر الزمخشري جـ ٣ ص ٣٣٩ ، الرازي جـ ٢٦ ص ١٣٦ . النيسابوري جـ ٢٣ ص ٥٢ ، الخازن جـ ٤ ص
 ١٧ ، البقاعي جـ ١٦ ص ٢٢٩ ، أبو السعود جـ ٧ ص ١٩٠ ، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٢٦٩ المتن والهامش ،
 الألوسي جـ ٢٣ ص ٨٥ .

^٢ - انظر الزمخشري جـ ٣ ص ٣٣٩ ، الرازي جـ ٢٦ ص ١٣٦ ، القرطبي جـ ١٥ ص ٧٧ ، النيسابوري جـ ٢٣
 ص ٥٢ ، الخازن جـ ٤ ص ١٧ ، أبو السعود جـ ٧ ص ١٩٠ الألوسي جـ ٢٣ ص ٨٥ .

^٣ - انظر ابن عطية جـ ١٣ ص ٢٣١ ، الرازي جـ ٢٦ ص ١٣٦ ، القرطبي جـ ١٥ ص ٧٧ ، النيسابوري جـ ٢٣
 ص ٥٢ ، البقاعي جـ ١٦ ص ٢٢٩ ، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٢٦٩ المتن والهامش ، الطاهر بن عاشور جـ ٢٣
 ص ١١١ .

^٤ - انظر ابن منظور لسان العرب جـ ١٣ ص ٥٢٣ ، مادة فكه .

^٥ - انظر الزمخشري جـ ٣ ص ٣٣٩ - ٣٤٠ ، ابن عطية جـ ١٣ ص ٢٣١ ، الرازي جـ ٢٦ ص ١٣٧ ،
 النيسابوري جـ ٢٣ ص ٥٢ ، أبو حيان جـ ٧ ص ٣٤٣ ، البقاعي جـ ١٦ ص ٢٢٩ ، أبو السعود جـ ٧ ص
 ١٩٠ ، الألوسي جـ ٢٣ ص ٨٦ ، الطاهر بن عاشور جـ ٢٣ ص ١١٢ .

^٦ - انظر البقاعي جـ ٦ ص ٢٢٩ .

كما شاء^١ . ويتم أنسهم بتقابلهم مع إخوانهم وانتصاب مجلس لشرب خمر ليس فيه ما في الدنيا من آفات أو منغصات . وقد اكتفت الآية بذكر فعل الطواف دون فاعله الذي ذكر في الواقعة^٢ ، وفي الطور^٣ ، وفي الإنسان^٤ وقد يعود ذلك إلى مرورها على ذكر النعيم المحسوس إجمالاً ، للتخلص إلى حديثهم المتضمن لنجاحهم من كيد القرناء وهو المناسب للتفصيل في سياق ذكر الأتباع والمتبوعين . وهذا لا يعني أنها لم تفصل مطلقاً في صور النعيم في مجلس أنسهم ، فالخمر جارية ظاهرة لعيونهم غزيرة متدفقة كما أشار إليه لفظ (معين) سواء كان اشتقاقه من رؤية العين^٥ ، أو من نبع الماء^٦ ، لأن جريها أثماراً يقتضي غزارتها ، وتدفعها فحراً يقتضي رؤيتها بالعين وفي إثارة لفظ (لذة) دون (لذية) ، مبالغة في طيبها وهذا ما نبه إليه الزمخشري حين قال : (كأنها نفس اللذة وعينها ، أو هي تأنيث اللذ يقال لذ الشيء فهو لذ ولذيد ووزنه فَعَل كقولك رجل طب)^٧ . وهي خالية من كل ضرر خفي وظاهر ، لأن الغول (اسم عام في الأذى يقال غاله كذا إذا ضره في خفاء)^٨ .

والنزف ذهاب العقل^٩ وقيل نفاذ الشراب^{١٠} . فالقائلون بأنه ذهاب العقل جعلوا

^١ - انظر الطاهر بن عاشور ج ٢٣ ص ١١٢ .

^٢ - آية ١٧ .

^٣ - آية ٢٤ .

^٤ - آية ١٩ .

^٥ - انظر ابن جرير ج ٢٣ ص ٣٤ ، الزمخشري ج ٣ ص ٣٤٠ ، ابن عطية ج ١٣ ص ٢٣١ ، الرازي ج ٢٦ ص ١٣٧ ، القرطبي ج ١٥ ص ٧٨ ، الخازن ج ٤ ص ١٨ ، أبو حيان ج ٧ ص ٣٤٤ ، ابن كثير ج ٦ ص ١١ ، البقاعي ج ١٦ ص ٢٣٠ ، أبو السعود ج ٧ ص ١٩١ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ المتن والهامش ، الألوسي ج ٢٣ ص ٨٧ ، الطاهر بن عاشور ج ٢٣ ص ١١٣ .

^٦ - انظر المصادر السابقة .

^٧ - الزمخشري ج ٣ ص ٣٤٠ .

^٨ - ابن عطية ج ١٣ ص ٢٣١ .

^٩ - انظر ابن جرير ج ٢٣ ص ٣٦ ، الزمخشري ج ٣ ص ٣٤٠ ، ابن عطية ج ١٣ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، الرازي ج ٢٦ ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، القرطبي ج ١٥ ص ٧٨ - ٨٩ ، النيسابوري ج ٢٣ ص ٥٣ ، الخازن ج ٤ ص ١٨ ، أبو حيان ج ٧ ص ٣٤٤ ، ابن كثير ج ٦ ص ١١ ، أبو السعود ج ٧ ص ١٩١ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ٢٧٠ المتن والهامش ، الألوسي ج ٢٣ ص ٨٨ ، الطاهر بن عاشور ج ٢٣ ص ١١٤ .

^{١٠} - انظر المصادر السابقة .

ذكره بعد ذكر الغول وهو السكر تخصيص بعد تعميم ، لأنه أعظم المفسد ، فهو من باب المبالغة في نفي الأضرار عنها ، والقائلون بنفاد الشراب تجنبوا الوقوع في التكرار^١ ، وجمع البقاعي بين الوجهين دون تعارض^٢ . وبالتبع لصفات وصف الخمر بما ينفي ضررها نجد هناك قوله تعالى في الواقعة " لا يصدعون عنها ولا ينزفون " ١٩ ، وقوله في الطور " يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم " ٢٣ ، ففي الآيتين ذكر الضرر الأخف قبل الأعظم ، ومن هنا ناسب - كما يظهر لي والله أعلم - عدُّ ذكر النزف بمعنى ذهاب العقل من بقية أضرار الخمر المذكورة ضمن لفظ (الغول) وإن شملت السكر .

ولما كان لا يكتمل تمتعهم إلا بالنساء والخمر أدعى شيء إليهن ذكرهن على سبيل الاختصاص (عندهم)^٣ وذكر ما يدل على كمال حسنهن فهن جميلات العيون ، صافيات البشرة مشرقاتها . وقد قيل في معنى قوله " كأنهن بيض مكنون " إن المقصود من التشبيه بالبيض بيض النعام الذي تكنه وتستره عن العيون فلا يراه أحد ويكون لونه أبيضاً مختلطاً بصفرة وهو من أفضل الألوان عند العرب^٤ ، وقيل إن المقصود الرقة تشبيهاً ببياض البيض الموجود داخل القشرة ، يقول ابن جرير : (شبههن في بياضهن وأنهن لم يمسهن قبل أزواجهن إنس ولا جان ببياض البيض الذي هو داخل القشر وذلك هو الجلدة الملبسة المح قبل أن تمسه يد أو شيء غيرها ، وذلك لاشك هو المكنون فأما القشرة العليا فإن الطائر يمسها والأيدي تباشرها والعش يلقاها ... جاء الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ... عن أم سلمة قلت : يا رسول الله أخبرني عن قوله " كأنهن بيض مكنون " قال : رقتهن كرقعة الجلدة التي رأيتها في داخل البيضة التي تلي القشر وهي الغرقية)^٥ فعلى هذين الوجهين يكون المقصود إما الرقة وإما البياض المشوب بصفرة ومن هنا استشكل هذا بأية الرحمن " كأنهن الياقوت

^١ - انظر النيسابوري ج ٢٣ ص ٥٣ .

^٢ - انظر البقاعي ج ١٦ ص ٢٣١ .

^٣ - انظر المصدر السابق ص ٢٣٢ .

^٤ - انظر ابن عطية ج ١٣ ص ٢٣٣ ، الرازي ج ٢٦ ص ١٣٨ ، القرطبي ج ١٥ ص ٨٠ ، النيسابوري ج ٢٣ ص ٥٣ ، الخازن ج ٤ ص ١٨ ، أبو حيان ج ٧ ص ٣٤٤ ، أبو السعود ج ٧ ص ١٩١ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ٢١٨ المتن والهامش ، الألوسي ج ٢٣ ص ٨٩ ، الطاهر بن عاشور ج ٢٣ ص ١١٤ - ١١٥ .

^٥ - ابن جرير ج ٢٣ ص ٣٧ .

والمرجان " ٥٨ ، من حيث أن الياقوت لونه أحمر فقيل إن المذكورات في آية الرحمن غير المذكورات في الصافات لأن الأحسنية تختلف باختلاف الرائي ، والجنة فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلد الأعين ، وقيل يجوز أن يكون التشبيه بالبيض لأبدانهم والتشبيه بالياقوت بالنظر لبياض وجوههم المشوب بحمرة ، وقيل المقصود من التشبيه بالياقوت الصفاء .^١ وقد ذهب البقاعي إلى أن المقصود بالبيض المكنون (مخالطة البياض المائل إلى الحمرة بصفرة ، وهو أصفى الألوان وأعدلها يشابه لون نور القمر)^٢ وإن كان هذا اللون موجوداً فعلاً فلا إشكال أصلاً .

ولتكتمل لذتهم يتنادمون متذاكرين أحب الأحاديث ، وهو حديث الخلاص فتساؤلهم في قوله " فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون " (تسأول راحة وتنعم)^٣ ، وهو شبيه بما سيأتي في الطور وإن كان يختلف التذاكر هنا عنه هناك فهو هنا لنعمة الخلاص من قرناء السوء ، وهناك لأسباب الخلاص ، وهي تفضل الله عليهم لإشفاقهم من عذابه في قولهم " إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ، فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم " الطور ٢٦ - ٢٧ . وبينما يكون تسأول الكفرة خصومة وتقريعاً واقفين ذليلين على أبواب الجحيم يكون تسأول المؤمنين لذة وسعادة جالسين في أحسن هيئة (يتفاوضون فيما بينهم أحاديثهم في الدنيا وهو من تمام الأئس في الجنة وهو معطوف على معنى يطاف عليهم المعنى يشربون فيتحدثون على الشراب كعادة الشراب قال بعضهم :

وما بقيت من اللذات إلا أحاديث الكرام على المدام

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم في الدنيا)^٤ . ولعل اختتام القصة بقوله " إن هذا هو الفوز العظيم " لما أحيط بها من المخاطر التي لم تذكر في الآيات المشابهة لها

^١ - انظر الألويسي جـ ٢٣ ص ٩٠ .

^٢ - البقاعي جـ ١٦ ص ٢٣٣ .

^٣ - ابن عطية جـ ١٣ ص ٢٣٤ .

^٤ - القرطبي جـ ١٥ ص ٨١ ، وانظر الزمخشري جـ ٣ ص ٣٤٠ ، الرازي جـ ٢٦ ص ١٣٨ ، النيسابوري جـ ٢٣ ص ٥٣ ، أبو حيان جـ ٧ ص ٣٤٥ ، ابن كثير جـ ٦ ص ١٢ ، أبو السعود جـ ٧ ص ١٩١ ، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٢٧٠ المتن والهامش ، الألويسي جـ ٢٣ ص ٩٠ ، الطاهر بن عاشور جـ ٢٣ ص ١١٥ .

نحو " ذلك الفوز العظيم " ^١ و " ذلك هو الفوز العظيم " ^٢ .

فإن آية الصفات هنا أكدت بعدة مؤكدات وهي إن واسم الإشارة ، واللام المرحلقة وضمير الفصل وذلك يناسب ما ذكر في قصة المؤمن مع قرينه من مخاطر الغواية ، التي أوشكت أن تؤدي بالمؤمن إلى الهلاك .

ويُختتم الكلام هنا بقوله " لمثل هذا فليعمل العاملون " أي لمثل هذا النعيم لا لغيره يعمل العاملون وقد أشار د. الخضري إلى أهمية تقديم متعلق الفعل " فليعمل " وهو " لمثل هذا " ، كما أشار إلى أهمية اقتران الفعل بالفاء حين قال عن الفوز (فهو الجدير وحده بالتسابق إليه ، ولذلك قدم المعمول " لمثل هذا " لإفادة الحصر ، مع ما في الإشارة إليه من زيادة الترغيب فيه وما في الفاء من معنى الجزاء وإفصاحها عن شرط مقدر من تأكيد الاختصاص ، والمعنى : إن كانوا عاملين فليكن لمثل هذا عملهم) ^٣ فقد أفادت الفاء الفصيحة هنا الحث على المبادرة إلى العمل لتحصيل مثل هذا النعيم .

ولا تنتهي المقابلة بين عقاب أتباع الشيطان وثواب متبعي الحق عند هذا الحد ، بل تعود الآيات مرة أخرى إلى إبراز سوء حال الفريق الأول عن طريق الاستفهام التقريري ^٤ في قوله تعالى :

أَذَلِكْ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ
﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ
الشَّيْطَانِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ
لَهُمْ عَلَيْهَا شُوبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾

الصفات ٦٢ - ٦٨ مكية

^١ - النساء ١٣ ، المائدة ١١٩ ، التوبة ٨٩ ، ١٠٠ ، الصف ١٢ ، التغابن ٩ .

^٢ - التوبة ٧٢ ، ١١١ ، يونس ٦٤ ، غافر ٩ ، الدخان ٥٧ ، الحديد ١٢ .

^٣ - محمد الخضري ، من أسرار حروف العطف ص ١٢٨ .

^٤ - انظر ابن عطية ج ١٣ ص ٢٣٧ ، النيسابوري ج ٢٣ ص ٥٥ ، أبو حيان ج ٧ ص ٣٤٨ .

فالغرض من الاستفهام تقرير فضل النعيم وترغيب النفوس فيه ، وتنفيرها من ضده وهو العذاب . وهذا ما ذهب إليه البقاعي حين قال (ولما فات الوصف هذا التشويق إلى هذا النعيم ، رمى في نعته رمية أخرى سبقت العقول وتجاوزت حد الإدراك وعلت عن تخيل الوهم في استفهام منفر من ضده بمقدار الترغيب فيه لمن كان له لب)^١ فالمقصود من ذكر صفات شجرة الزقوم إبرازها أمام مقابلهما وهو نعيم الجنة لزيادة ترسيخ فضل النعيم وزيادة الترغيب فيه . وللإستفهام مزية في أسلوب التفضيل بين شيئين لا تفاضل بينهما وهما نزل الجنة ونزل النار لأنه يبعث الذهن (على اختيار أحدهما)^٢ ، ومن ثم يُقر للأفضل . ومن المعلوم للجميع أن لا خيرية في نزل جهنم فتثبت الخيرية المطلقة للنعيم ، والاستفهام هنا توبيخ للكفار ، لسوء اختيارهم الذي تسبب في أكلهم من شجرة الزقوم^٣ . وقد يكون على سبيل السخرية بهم^٤ . وقد ورد في سورة الفرقان استفهام مشابه لهذا وإن ورد العذاب مقدماً هناك هو قوله " قل ذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاءً ومصيراً " الفرقان ١٥ ، وقد سبق الحديث عنها . والنزل ما يعد للنازل من الضيافة ويعقبه أنواع أخرى من الكرامات الأخرى يقول البيضاوي (وفي ذكره دلالة على أن ما ذكر من النعيم لأهل الجنة بمنزلة ما يقام للنازل ولهم ما وراء ذلك ما يقصر عنه الأفهام وكذلك الزقوم لأهل النار)^٥ فإذا كان للمؤمنين بعد النزل من النعيم ما تقصر عنه الأفهام فإن لهم بعد شجرة الزقوم من صنوف العذاب ما تعجز عن تصوّره الأوهام . وشجرة الزقوم شجرة تنبت في أصل الجحيم وترتفع أغصانها إلى دركاتها ، وقيل إن اشتقاق لفظ (الزقوم) من التزقم وهو (البلع على شدة وجهد)^٦ ورد هذا ابن دريد^٧ ، في حين ذهب الرازي إلى أن (ظاهر لفظ القرآن يدل على أنها شجرة كريهة الطعم منتنة الرائحة شديدة الخشونة)^٨ ، وقد يؤيده تحليل عناصر الكلمة

^١ - البقاعي جـ ١٦ ص ٢٣٨ .

^٢ - ابن عطية جـ ١٣ ص ٢٣٧ ، وجاء في النسخة اختبار بالباء المفردة ولعله خطأ مطبعي والصواب اختيار .

^٣ - انظر الزمخشري جـ ٣ ص ٣٤٢ ، الرازي جـ ٢٦ ص ١٤١ ، البقاعي جـ ١٦ ص ٢٣٩ .

^٤ - انظر الرازي جـ ٢٦ ص ١٤١ ، الألويسي جـ ٢٣ ص ٩٥ .

^٥ - البيضاوي جـ ٧ ص ٢٧٣ .

^٦ - ابن عطية جـ ١٣ ص ٢٣٨ .

^٧ - ذكر هذا عنه الرازي جـ ٢٦ ص ١٤١ والطاهر بن عاشور جـ ٢٣ ص ١٢٣ .

^٨ - الرازي جـ ٢٦ ص ١٤١ .

كما ذهب صاحب كتاب البيان في روائع القرآن حين قال : (يوحى هذا اللفظ بأمرين كل منها كرية :

أ- اشتراك مادة (ز - ق - م) مع مادة (س - ق - م) في كل شيء إلا اختلاف الزاي والسين من حيث الجهر والهمس ومن هنا يوحى (زقوم) بالسقم .

ب- توالي القاف (التي يقرب مخرجها من البلعوم) ، والميم (التي يقتضي نطقها إقفال الشفتين) يوحى بأن ثمرة هذه الشجرة تستعصي على البلع ويطول استعصاؤها بإيحاء تشديد القاف وطول الواو التي بين القاف والميم ، ويضاف إلى ذلك مشاركة هذه الكلمة لكلمة (لقمة) في حرفين من حروفها مما يعزز فكرة إرادة البلع مع المشقة ^١ وقد زيد من تهويل أمرها بتشبيه ثمرها برؤوس الشياطين وهي مثل في القبح و الكراهة ، كما أن صورة الملك مثل في الحسن والكمال فهذا (على نحو ما قد جرى به استعمال المخاطبين بالآية بينهم وذلك أن استعمال الناس قد جرى بينهم في مبالغتهم إذا أراد أحدهم المبالغة في تقبيح الشيء قال كأنه شيطان) ^٢ . ولما كانت الشجرة فتنة الكافرين في الدنيا بتكذيبهم بوجودها وإنكارهم أن يأكلوا منها إكراهاً وادعائهم قدرتهم على المدافعة فقد سبب عن هذا ^٣ كله أكلمهم منها في قوله " فإنهم لا ياكلون منها " ولعل التأكيد (بأن) هو الذي حدا بالمفسرين إلى جعل الأكل منها قسراً ، إما بالجوع وإما بإكراه الملائكة ^٤ . ولا يقف التعذيب عند حد أكلها وإنما يمتد إلى امتلاء البطون من ثمرها المر المتن وهذا يفيد غاية التعذيب الذي يمتد شوطاً آخرًا بشرب الحميم الساخن فوقه (ليجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم ، تغليظاً

^١ - د. تمام حسّان ، البيان في روائع القرآن ، عالم الكتب القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ ص ٢٩٣-٢٩٤ .

^٢ - ابن جرير جـ ٢٣ ص ٤١ ، وقد قيل في معنى ذلك وجهان آخران لعلهما يعودان إلى الأول - كما ذهب البيضاوي جـ ٧ ص ٢٧٣ ، البقاعي جـ ١٦ ص ٢٤٠ - الأول اسم لشجرة خبيثة كريهة الشكل والثاني اسم لحية قبيحة الرأس من أنخيث الحيات ، انظر ابن جرير جـ ٢٣ ص ٤١ ، الزمخشري جـ ٣ ص ٣٤٢ ، ابن عطية جـ ١٣ ص ٢٣٨ ، الرازي جـ ٢٦ ص ١٤٢ ، القرطبي جـ ١٥ ص ٨٧ ، النيسابوري جـ ٢٣ ص ٥٦ ، أبو حيان جـ ٧ ص ٣٤٨ ، ابن كثير جـ ٦ ص ١٧ - ١٨ ، البقاعي جـ ١٦ ص ٢٤٠ ، أبو السعود جـ ٧ ص ١٩٤ ، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٢٧٣ المتن والهامش ، الألوسي جـ ٢٣ ص ٩٦ ، الطاهر بن عاشور جـ ٢٣ ص ١٢٤ .

^٣ - انظر البقاعي جـ ١٦ ص ٢٤٠ .

^٤ - انظر الرازي جـ ٢٦ ص ١٤٢ - ١٤٣ .

لعذابهم وتجديداً لبلائهم) ^١ والزقوم لا يخلو من حرارة تنتج عن غليه في البطون ، كما في آية الدخان " كالمهل يغلي في البطون " ٤٥ . وعلى هذا فالحرارة هنا أشد لأنها ناتجة عن حرارة الزقوم وعن حرارة الحميم ، وهذا التهويل في وصفها مناسب للترهيب منها الذي بُنيت عليه الآيات - كما سيأتي - وقد ذهب بعض المفسرين إلى جعل الشُّوب للشراب فكأن صديدهم ودماءهم ودموعهم تختلط بالحميم ^٢ ، ولا دليل على هذا في ظاهر لفظ القرآن . فإبقاء اللفظ على ظاهره وهو كون المزج للطعام أولى . وفي حرف العطف ثم في قوله " ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم " قولان ذكرهما الزمخشري وتبعه آخرون (أحدهما أنهم يملؤون البطون من شجر الزقوم وهو حار يحرق بطونهم ويعطشهم فلا يسقون إلا بعد ملي ، تعذيباً بذلك العطش ، ثم يسقون ما هو أحر وهو الشراب المشوب بالحميم . والثاني أنه ذكر الطعام بتلك الكراهة والبشاعة ، ثم ذكر الشراب بما هو أكره وأبشع فجاء بثم للدلالة على تراخي حال الشراب عن حال الطعام و مباينة صفة لصفته في الزيادة عليه) ^٣ فحاصل القول الأول أنه للتراخي الزمني أي يتركون زماناً ملياً عطشى ، ثم يغاثون بهذا السائل شديد الحرارة ، وحاصل القول الثاني أنه للتراخي الرتي أي أن حال الشراب من الكراهة والبشاعة أسوأ من حال الطعام . ولكن القول بالتراخي الزمني يعارضه مجيء الآية في الواقعة بالفاء في قوله " فمالتون منها البطون فشاربون عليه من الحميم " ٥٣ - ٥٤ وقد تنبه لهذا الاختلاف عدد من المفسرين وأخذوا يبحثون له عن مبررات ^٤ وقد تأمل الآيتين داخل سياقهما الدكتور محمد

^١ - القرطبي ج ١٥ ص ٨٧ - ٨٨ ، وانظر ابن جرير ج ٢٣ ص ٤١ ، الرازي ج ٢٦ ص ١٤٣ ، و النيسابوري ج ٢٣ ص ٥٧ ، الخازن ج ٤ ص ١٩ ، ابن كثير ج ٦ ص ١٨ .

^٢ - انظر الزمخشري ج ٣ ص ٣٤٢ ، القرطبي ج ١٥ ص ٨٧ ، و النيسابوري ج ٢٣ ص ٥٧ ابن كثير ج ٦ ص ١٨ ، أبو السعود ج ٧ ص ١٩٤ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ٢٧٤ ، الألوسي ج ٢٣ ص ٩٦ .

^٣ - الزمخشري ج ٣ ص ٣٤٣ ، وانظر الرازي ج ٢٦ ص ١٤٣ ، و النيسابوري ج ٢٣ ص ٥٧ ، أبو حيان ج ٧ ص ٣٤٩ ، أبو السعود ج ٧ ص ١٩٤ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ٢٧٤ المتن والهامش ، الألوسي ج ٢٣ ص ٩٦ .

^٤ - ذكر الألوسي خلاصة ما قيل في هذه المسألة فأورد اعتراض المعترض بآية الواقعة وذكر الجواب فقال (وأجيب بأنه يجوز أن يكون شرب الشراب المزوج بالحميم متأخراً بزمان عن ملئهم البطون دون شرب الحميم وحده وكذا يجوز أن يكون الحال مختلفاً فتارة يتأخر الشرب مطلقاً زماناً وأخرى لا يتأخر كذلك وقال بعضهم ملوهم البطون أمر ممتد فباعبار ابتدائه يعطف بثم وباعتبار انتهائه بالفاء) الألوسي ج ٢٣ ص ٩٦ .

الخضري فذهب في دلالة حرف العطف (ثم) إلى رأي آخر غير ما ذهب إليه المفسرون دون أن يتعارض معهم . يقول تحت عنوان أثر الزمن في مضاعفة العذاب (فلما كان الغرض هو تفضيح هذه الشجرة والتهويل من شأن الأكل منها ^١ كانت إطالة زمن الأكل منها هي الأنسب بهذا الغرض وكأنهم كلما آلمهم الأكل منها واشتد بهم العطش لِيُطْفِئُوا من نارها في بطونهم ، زيدوا من الأكل منها تشديداً في العذاب عليهم ، بخلاف السياق في آية الواقعة حيث كان الغرض أن يجمع للضالين بين ألوان من العذاب متمثلة في شر المأكل والمشرب ، وبُلوغ هناك في الشرب بدليل تكراره فدخلت الفاء للترقي من عذاب شديد فيما يأكلون ، إلى عذاب أشد فيما يشربون) ^٢ فقد تنبه إلى خصيصة أخرى هي إطالة زمن الأكل منها وليس العطش بها كما اقتصر المفسرون عليه ، وهذه الخصيصة تضاعف العذاب فإن عذاب العطش وحده وإن كان ملياً أقل من عذاب الأكل من شجرة كريهة ساخنة مصحوباً بالعطش الناتج عن حرارتها وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية وقال " اتقوا الله حق تقاته فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم فكيف بمن يكون طعامه " ^٣ وروي عن سعيد بن جبير أنه (قال : إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم لعرفهم بوجوههم فيها ، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل وهو الذي قد انتهى حره ، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي سقطت عنها الجلود ، ويصهر ما في بطونهم فيمشون تسيل أمعاؤهم وتتساقط جلودهم ثم يضربون بمقامع من حديد فيسقط كل عضو على حياله يدعون بالثبور) ^٤ وبعد أن يظلموا زمناً في هذا العذاب - أعادنا

^١ - في النسخة بها ولعله خطأ مطبعي .

^٢ - محمد الخضري من أسرار حروف العطف ص ٢٨٣

^٣ - سنن الترمذي ، كتاب صفة جهنم (٢٥١٠) ، سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد (٤٣١٦) . موسوعة الحديث الشريف .

^٤ - ذكره ابن كثير ج ٦ ص ١٨ ، عن ابن أبي حاتم ، وفي آية الكهف (٢٩) ج ٤ ص ٣٨٤ بقوله (فاختلفت) (ويعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها) وذكره ابن جرير عن جعفر وهارون بن عنتره في آية الكهف برواية (لعرف جلود وجوههم) ج ١٥ ص ١٥٨ ، وفي آية الحج (٢٠) ج ١٧ ص ١٠١ (يعرف جلود وجوههم) وورد عند أبي الفرج زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي ت ٧٩٥هـ التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار

الله منه - يعودون إلى الجحيم وهذا ما أفاده حرف التراخي (ثم) في قوله " ثم إن مرجعهم ... " سواء كان انتقالهم حسيماً من مساكنهم إلى مكان الحميم^١ وقيل لمكان الشجرة وشرب الحميم^٢ أو كان مستعاراً (للانتقال من حالة طارئة إلى حالة أصلية تشبيهاً بمغادرة المكان ثم العود إليه كقول عمر بن الخطاب ... (فإنهما إن تملك ماشيتهما يرجعان إلى نخل وزرع) يعني عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف فإنه إنما عني أنهما ينتقلان من الانتفاع بالماشية إلى الانتفاع بالنخل والزرع)^٣ فكأنهم عادوا من حال الأكل من الشجرة وشرب الحميم إلى حال الاحتراق بحر الجحيم دون أكل أو شرب . وهكذا قابلت الآيات بين ما كان للمؤمنين في الجنة وبين ما كان للكافرين في النار فشراب الحميم (في مقابلة ما لأهل الجنة من الشراب المدلول عليه بقوله " يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين... " الخ كما أن الزقوم في مقابلة ما لهم من الفواكه)^٤ . وطعام الكفرة بإهانة ، تُكرهُهم الملائكة عليه ، في حين أن رزق المتقين المعلوم يأتيهم وهم أعزاء مكرمون . ويفزع هؤلاء الكفرة من منظر الشجرة وثمرها الذي يشبه رؤوس الشياطين ، في حين ينعم نظر المؤمنين برؤية ما لهم من الطيبات ورؤية إخوانهم ونسائهم . وبينما يكون انتقال الكفار عن أماكنهم أو عن أحوالهم بمزيد من العذاب ، يكون انتقال المؤمنين لمزيد من الغبطة والسرور حين يطلعون على أهل النار فيفرحون بخلاصهم منها .

هذا ، وفي السورة موضع آخر للاستثناء والمستثنى فيه نفسه هنا يقول تعالى :

مراجعة وتعليق محمد حسن الحمصي دار الرشيد - بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ص ١٤٨ ، برواية لعرف جلود وجوههم .

^١ - انظر الرازي ج ٢٦ ص ١٤٣ ، الخازن ج ٤ ص ١٩ ، البقاعي ج ١٦ ص ٢٤١ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ٢٧٤ المتن والهامش ، الألوسي ج ٢٣ ص ٩٦ .

^٢ - انظر الزمخشري ج ٣ ص ٣٤٣ ، ابن عطية ج ١٣ ص ٢٣٩ ، القرطبي ج ١٥ ص ٨٨ ، النيسابوري ج ٢٣ ص ٥٧ ، أبو السعود ج ٧ ص ١٩٤ .

^٣ - الطاهر بن عاشور ج ٢٣ ص ١٢٦ ، وانظر ابن عطية ج ١٣ ص ٢٣٩ و النيسابوري ج ٢٣ ص ٥٧ .

^٤ - الألوسي ج ٢٣ ص ٩٧ .

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ

﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٠﴾

الصفات ١٥٨ - ١٦٠ مكية .

فإن المشركين الذين قالوا إن الملائكة بنات الله أو إن الله تعالى وإبليس إخوان^١، سيُحضرون أي للعذاب (لأن سائر الآيات التي ذكر فيها الإحضار في هذه السورة إنما عني بها الإحضار في العذاب فكذلك في هذا الموضع)^٢ ، ولأن الإحضار لا يستعمل مطلقاً إلا في الشر^٣ ، ولا سيما في اصطلاح القرآن^٤ . واستثنى من المعذنين عباد الله المخلصين وقد سبقت الإشارة إلى ما يحتويه اللفظ من تكريم وترغيب ، وأضيف هنا أن لفظ " عباد الله المخلصين " تكرر في السورة في خمسة مواضع أربعة منها بأسلوب الاستثناء^٥ ولعل في مقصد السورة إلى إثبات أن (الانفراد بالملكوت لا يكون إلا مع الوحدانية بالذات)^٦ ، وما أقسم به تعالى من أمور اتضح فيها القصد كالاصطفاف للملائكة أو المصلين أو المجاهدين (فبان أن الخير كله في الوحدة وأنه لا صلاح بدونها)^٧ أقول لعل في هذا تكمن الحكمة من تكرار الإخلاص وصفاً لعباد الله المستثنين من كل عذاب والله أعلم .

وجزاء كبير من آيات سورة الزمر يدور حول كذب المشركين على الله وادعائهم له صاحبة الولد ويؤبخون ويستشهد لهم بدلائل القدرة والوحدانية في الكون ثم يُهددون بما سيؤول إليه أمرهم في الآخرة إن استمروا على هذا القول ويأتي قوله تعالى :

١ - انظر ابن جرير جـ ٢٣ ص ٦٩ .

٢ - المصدر السابق .

٣ - ذكره القرطبي عن الماوردي . انظر القرطبي جـ ١٥ ص ٨٤ .

٤ - انظر النيسابوري جـ ٢٣ ص ٥٤ .

٥ - آية ٤٠ ، آية ٧٤ ، آية ١٢٨ ، آية ١٦٠ .

٦ - البقاعي جـ ١٦ ص ١٨٦ .

٧ - المصدر السابق ص ١٨٩ .

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي
 جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا
 يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾

الزمر ٦٠ - ٦١ مكية .

للتخويف من الاستمرار في الكذب والافتراء على الله تعالى . والترغيب في ثواب توقيه ،
 وأول ما يلقانا في هذه الآية من جزائهم اسوداد وجوههم وقد اختلف العلماء في حقيقته وهل
 هو سواد حقيقي^١ أو ما يعلوهم من الكآبة والهموم^٢ ، وفي الابتداء بذكر الوجوه وإسناده
 الاسوداد لها بيان بليغ فكأن الوجوه بما هي عليه من السواد والكآبة تمثل دليلاً واضحاً عليهم
 يعرفهم به أهل الآخرة^٣ وفي هذا تشنيع عليهم وهو بلا شك أخزى لهم وأشد إيلاماً
 لنفوسهم ، وهذا من جهة أخرى فيه زيادة تقريع وتوبيخ يناسب تكبرهم لأن (المتكبر إذا
 كان سيئ الوجه انكسرت كبرياؤه لأن الكبرياء تضعف بمقدار شعور صاحبها بمعرفة الناس
 نقائصه)^٤ وقد أشار بعض المفسرين إلى دلالة الاستفهام على التقرير كما أشاروا إلى المقرر به
 فيه وهو كون اسوداد الوجه علامة على أن صاحبه من أهل النار . وقد علق الشهاب على قول
 البيضاوي (تقريرٌ لأنهم يُرون كذلك)^٥ قائلاً (لأن من تحقق عذابه يكون كذلك)^٦ أي أن
 من تحقق دخوله النار يكون وجهه مسوداً . ويوضح هذا أبو السعود حين ينص على أن التقرير
 لحالهم من السواد ودخولهم النار فيقول : (وهو تقرير لما قبله من رؤيتهم كذلك)^٧ وهكذا

^١ - انظر ابن عطية ج ١٤ ص ٩٨ ، الرازي ج ٢٧ ص ٩ ، أبو حيان ج ٧ ص ٤١٩ ، البقاعي ج ١٦ ص
 ٥٤٢ ، أبو السعود ج ٧ ص ٢٦١ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ٣٤٨ المتن والهامش ، الألويسي ج ٢٤ ص ١٩ ،
 الطاهر ج ٢٤ ص ٤٩ .

^٢ - انظر المصادر السابقة والخازن ج ٤ ص ٦١ .

^٣ - انظر البقاعي ج ١٦ ص ٥٤٢ .

^٤ - الطاهر بن عاشور ج ٢٤ ص ٥١ .

^٥ - البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ج ٧ ص ٣٤٨ وانظر الألويسي ج ٢٤ ص ١٩ .

^٦ - الشهاب ج ٧ ص ٣٤٨ .

^٧ - أبو السعود ج ٧ ص ٢٦١ .

يدعو الاستفهام (أليس في جهنم ...) بما تحمله طبيعته إلى إيقاظ الذهن لطلب إجابة فتأتي موافقة لمقصود الآية وهي كون جهنم مقام الذين يتكبرون عن الحق ، وفي هذا تأكيد يزيده تهورياً تقدم الظرف (في جهنم) والتعبير بالمتوى الذي فسره ابن كثير بالسجن مستدلاً بحديث مروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : (يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجناً في جهنم يُقال له بولس فتعلوه نار الأنيار يُسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار)^١ ثم يبين تعالى حُسن حال المتقين فيقول " وينجي الله الذين اتقوا " (لأن الأشياء تتبين بأضدادها)^٢ فكما اتضحت هناك نعمة الله على من كذب عليه مستعلياً بباطله تتجلى هنا رحمة الله بمن اتقى هذا الاستعلاء فيخلصه الله مما فيه المكذبون تخليصاً يتجدد بتجدد الأهوال وكثرتها يقول البقاعي : (ولما ذكر حال الذين أشقاهم أتبعهم حال الذين أسعدهم فقال عاطفاً لجملة على جملة لا على (ترى) المظروف ليوم القيامة إشارة إلى أن هذا فعله معهم في الدارين وإشارة إلى كثرة التنجية لكثرة الأهوال كثرة تفوت الحصر)^٣ فكثرة التنجية لتجددها مستفادة من صيغة الفعل المضارع . ويفهم من كلام البقاعي أن المفازة هي السعادة الأزلية وهو ما أشار إليه صراحةً البيضاوي وشارحاه^٤ في أحد معانيها . وما اقتصر عليه القرطبي^٥ وابن كثير^٦ في حين ذهب ابن جرير^٧ وآخرون^٨ إلى أن معنى بمفازتهم بأعمالهم وفضائلهم . والقول الأول أظهر إلا إذا قيل إن الفوز بالفضائل مقترن بالسعادة التي سبقت في علم الله لأن في جعل المفازة هي العمل كون الباء للسببية ، وفي هذا

-
- ^١ - رواه ابن كثير ج ٦ ص ١٠٥ ، عن ابن أبي حاتم باختلاف قليل في الألفاظ ، وانظر هذه الرواية في سنن الترمذي ، كتاب صفة القيامة والرفائق والورع رقم ٢٤١٦ ، مسند المكثرين من الصحابة رقم ٦٣٩٠ .
- ^٢ - ابن عطية ج ١٤ ص ٩٩ .
- ^٣ - البقاعي ج ١٦ ص ٥٤٢ .
- ^٤ - انظر حاشية الشهاب ج ٧ ص ٣٤٨ المتن والهامش ، حاشية محيي الدين زادة ج ٤ ص ٢١٢ .
- ^٥ - انظر القرطبي ج ١٥ ص ٢٧٤ .
- ^٦ - انظر ابن كثير ج ٦ ص ١٠٥ .
- ^٧ - ابن جرير ج ٢٤ ص ١٥ .
- ^٨ - انظر الرمحشري ج ٣ ص ٤٠٦ الرازي ج ٢٧ ص ١٠ ، أبو حيان ج ٧ ص ٤٢٠ ، أبو السعود ج ٧ ص ٢٦١ ، حاشية الشهاب ج ٣ ص ٣٤٨ ، المتن والهامش ، حاشية محيي الدين زادة ج ١ ص ٢١٢ ، الألويسي ج ٢٤ ص ٢٠ ، الطاهر بن عاشور ج ٢٤ ص ٥٢ .

الأمر خلاف سبق أن تناولته عند الحديث عن الباء ويمكن حمل العمل عند من ذكره^١ على قول لا إله إلا الله لحديث وزن الأعمال وفيه أن بطاقة لا إله إلا الله ترجح كفة الميزان (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يصاح برجل من أمي يوم القيامة على رؤوس الخلائق فينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مد البصر ثم يقول الله عز وجل هل تنكر من هذا شيئاً فيقول لا يارب فيقول : أظلمت كتيبتي الحافظون ثم يقول : ألك عن ذلك حسنة فيهاب الرجل فيقول : لا ، فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنات وإنه لا ظلم عليك اليوم فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول : إنك لا تُظلم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة)^٢ أو على التقوى (كما يشعر به إيراده في حيز الصلوة)^٣ أي قوله الذين اتقوا وعلى كل فإن (الاحتمالات العقلية في الآية كثيرة ... فيها المقبول ودونه بل فيها ما لا يتسنى أصلاً)^٤ ، ولذا فالوقوف عند تأمل هذا الفوز مع ملاحظة أسبابه ودواعيه وهي الإيمان والعمل الصالح مع ما أفادته إضافة مفازة إلى ضميرهم من شدة تلبسهم بالفوز حتى عُرف بهم^٥ هو ما يحقق الهدف . وتأتي جملة (لا يمسهم سوء ولا هم يحزنون) استئنافاً بيانياً لتوضيح هذا الفوز يقول الزمخشري : (كأنه قيل ما مفازتهم فقيل " لا يمسهم سوء " أي ينجيهم بنفي سوء والحزن عنهم)^٦ وعدم المس انتفاء للديمومة كما سبق أن ذكرت في سورة الحجر و(أل) التعريف في سوء شامل لكل ما ذُكر من جنس سوء الذي وقع على المكذبين وإن كان أهم ذلك سوء النار كما ذكر ابن جرير^٧ وقوله " ولا هم يحزنون " أي

^١ - قاله ابن زيد انظر ابن جرير ج ٢٤ ص ١٥ ، ابن عطية ج ١٤ ص ٩٩ ، وجاء لدى الرازي ج ٢٧ ص ١٠ ، البقاعي ج ١٦ ص ٥٤٣ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ٣٤٨ المتن والهامش ، حاشية محيي الدين زادة ج ٤ ص ٢١٢ .

^٢ - سنن ابن ماجه كتاب الزهد رقم (٤٢٩٠) سنن الترمذي كتاب الإيمان رقم (٢٥٦٣) مسند أحمد ، مسند المكثرين من الصحابة (٦٩٩٦) . موسوعة الحديث .

^٣ - أبو السعود ج ٧ ص ٢٦١ .

^٤ - الألويسي ج ٢٤ ص ٢٠ ، ٢١ .

^٥ - انظر الطاهر بن عاشور ج ٢٤ ص ٥٢ .

^٦ - الزمخشري ج ٣ ص ٤٠٦ .

^٧ انظر ابن جرير ج ٢٤ ص ١٦ .

يخزنون على ما فاتهم من الدنيا (وليس المراد نفي دوام المساس والحزن بل دوام نفيهما) .^١
 وتأمل صياغة جمليتي " لا يمسهن سوء ... " نجد إيماء بدلالة المقابلة إلى حال أهل النار - أعاذنا الله منها برحمته - أشار إلى هذا الطاهر حين قال : (جاء في جانب نفي السوء بالجملة الفعلية لأن ذلك لنفي حالة أهل النار عنهم وأهل النار في مس من السوء متجدد ، وجيء في نفي الحزن عنهم بالجملة الاسمية لأن أهل النار أيضاً في حزن وغم ثابت لازم لهم . ومن لطيف التعبير هذا التفنن فإن شأن الأسواء الجسدية تجدد آلامها ، وشأن الأكدار القلبية دوام الإحساس بها) وفي التعبير عن الفريقين بالاسم الموصول دليل على اشتهاك كل منهم بعمله .^٢ وفي التصريح بلفظ الجلالة تقييح لفعل الكاذبين عليه^٣ باستعلاء وتكبر وتنويه بشأن المتقين لعقابه . وكما دلت اسمية الجملة " وجوههم مسودة " على ثبات سوء حال أولئك دلت الجملتان " لا يمسهن ... " على تجدد و دوام حسن حال هؤلاء . والصورتان موجزتان تشيران إلى ما لا يحصى من صنوف السوء اللاحق بفريق الكفرة المكذبين والنعيم الحاصل لفريق المتقين .

وفي آخر سورة الزمر وبعد ذكر قيام الناس للحساب وتوفية كل نفس ما عملت تبدأ الآيات في

تفصيل هذه التوفية يقول تعالى

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا
 وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ
 وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ ۖ وَلَكِن كَلِمَةُ الْعَذَابِ
 عَلَىٰ الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ
 مَثْوَىٰ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا

١ - أبو السعود جـ ٧ ص ٢٦١ .

٢ - الطاهر بن عاشور جـ ٢٤ ص ٥٣ .

٣ - انظر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، كتاب دلائل الإعجاز تحقيق محمود محمد شاكر دار المدني الطبعة الثانية

٣١ ١٤١٣هـ - ١٩٩٢ م ص ٢٠٠ وما بعدها .

٤ - انظر البقاعي جـ ١٦ ص ٥٤١ .

حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
 طِبِّتُمْ فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعُدَّهُ
 وَأَوْزَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾

الزمر ٧١ - ٧٤ مكية .

يقول الإمام البقاعي (ولما كان الأغلب على هذه المقامات التحذير قـدم في هذه التوفية حال أهل الغضب فقال وسيق) ^١ ولعله يقصد بهذه المقامات مقامات ذكر الجزاء في سياق الأعمال الموجبة له لا ذكر الجزاء مطلقاً ^٢ ، وإن جاء بعد ذكر التوفية في سورة يسـ تقدم حال أهل الرضا في قوله تعالى " فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون " يس ٥٤ - ٥٥ مكية ، فذلك كالاعتراض بين ذكر جزاء المكذبين قبلها وبعدها . وتقابل الآيات بين سوق الكافرين إلى جهنم التي تلقاهم بالتجهم والعبوس جزاء ما تلقوا به كلمة الله ^٣ وسوق المتقين إلى الجنة التي تُجنُّهم من العذاب جزاء ما وقوا أنفسهم من الشرك . فالكافرون يُساقون بعنف وإهانة إلى النار ويأتونها وأبوابها موصدة في وجوههم لكون (إغلاق الباب المقصود عن قاصده دالاً على صغاره) ^٤ وما أن وصلوا إليها حتى (فتحت لهم أبوابها سريعاً لتعجل لهم العقوبة) ^٥ فانظر كيف دل فعل الفتح على شرِّين في وقت واحد الذل بغلق الأبواب في وجوههم وتعجيل العذاب بفتحها وفي مقابل

^١ - البقاعي جـ ١٦ ص ٥٦٤ .

^٢ - هذا ما فهمته من كلام الإمام البقاعي والتمست له شواهد مؤيدة ففي سورة مريم ابتدئ في قوله " يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ونسوق المجرمين ... " بالثواب ولعل ذلك لا يتناء السورة على الرحمة وتكرار اسم الرحمن فيها ، وفي الواقعة ابتدئ الجزاء بذكر السابقين ولم يرد فيها ذكر لتكذيب ولا كفر وإنما بدأت بذكر أصناف الناس يوم القيامة ، وفي سورة (ص) ابتدئ بذكر جزاء المتقين لأنه جاء عقب ذكر المصطفين الأخيار من الأنبياء . وعلى كل فالبقاعي ذكر أن هذا على الأغلب والله تعالى أعلم .

^٣ - انظر البقاعي جـ ١٦ ص ٥٦٤ .

^٤ - البقاعي جـ ١٦ ص ٥٦٥ .

^٥ - ابن كثير جـ ٦ ص ١١٢ .

هؤلاء يساق المتقون إلى الجنة فيجدونها (مفتوحة كمنازل الأفراح)^١ ، وهذا نحو ما ورد في قوله تعالى " جنات عدن مفتحة لهم الأبواب " سورة ص ٥٠ غير أن الجملة هناك اسمية لأنها في وصف الجزاء وهنا فعلية لأنها ترصد حركة الأحداث يوم القيامة . وقد روي في ذلك أثر (عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا انتهوا إلى بابها إذا هم بشجرة يخرج من أصلها عينان فعمدوا إلى إحداها فشربوا منها كأنما أمروا بها فخرج ما في بطونهم من قدر وأذى أو قذى ثم عمدوا إلى الأخرى فتوضؤوا منها كأنما أمروا به فحرت عليهم نضرة النعيم فلن تشعث رؤسهم بعدها أبداً ولن تبلى ثيابهم بعدها ثم دخلوا الجنة فتلقتهم الولدان كأنهم اللؤلؤ المكنون فيقولون أبشر أعد الله لك كذا وأعد لك كذا وكذا ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه جندل اللؤلؤ الأحمر والأصفر والأخضر يتلأأ كأنه البرق فلولا أن الله قضى أن لا يذهب بصره لذهب ثم يأتي بعضهم إلى بعض أزواجه فيقول أبشري قد قدم فلان بن فلان فيسميه باسمه واسم أبيه فتقول أنت رأيت أنت رأيت فيستخفها الفرح حتى تقوم فتجلس على أسكفة بابها فيدخل فيتكئ على سريره)^٢ وفي حين يلقي الكفرة حرارة النار وذكاءها وشرارها يحذف الجواب المنبيء عما يلقاه المتقون للدلالة (على أنه شيء لا يحيط به الوصف)^٣ ولتذهب النفس في تقديره كل مذهب^٤ . ويقابل خزنة النار أهل النار بالتوبيخ والتقريع في قولهم " ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا " ، في حين يقابل خزنة الجنة المتقين بقولهم " سلام عليكم " أي تحية و أمانة من كل مكروه^٥ ، وذلك بما أفاده تنكير لفظ السلام . ونتج عن مقابلة الكفرة مع الخزنة أن أقر

^١ - ابن عطية ج ١٤ ص ١٠٦ .

^٢ - انظر ابن جرير ج ٢٤ ص ٢٤ ، وابن كثير ج ٦ ص ١١٧ عن ابن أبي حاتم ، وذكر رواية قريبة منه عن الرسول صلى الله عليه وسلم ابن قيم الجوزية ، حادي الأرواح ص ١١١ ، ١١٢ عن ابن أبي الدنيا وقال : هذا حديث غريب وفي إسناده ضعف وفي رفعه نظر والمعروف أنه موقوف على علي .

^٣ - الزمخشري ج ٣ ص ٤١١ ، وانظر الرازي ج ٢٧ ص ٢٣ ، القرطبي ج ١٥ ص ٢٨٥ ، الخازن ج ٤ ص ٦٤ ، أبو السعود ج ٧ ص ٢٦٤ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ٣٥٤ المتن والهامش ، الألوسي ج ٢٤ ص ٣٤ .

^٤ - انظر الخطابي بيان إعجاز القرآن ص ٥٢ ، والرماني النكت في إعجاز القرآن ص ٧٧ ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ابن كثير ج ٦ ص ١١٥ ، البقاعي ج ١٦ ص ٥٦٩ .

^٥ - انظر ابن عطية ج ١٤ ص ١٠٧ ، الرازي ج ٢٧ ص ٢٢ ، القرطبي ج ١٥ ص ٢٨٦ أبو حيان ج ٧ ص ٤٢٥ .

الكفرة باستحقاقهم للعذاب بقولهم " حقت كلمة العذاب على الكافرين " فقبل لهم " ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين " فالفاء الداخلة على سوء المثوى هنا لم أجد أحداً من المفسرين أشار إلى معناها وهل هي للترتيب الزمني أو الرتبي وقد يكون من المقبول أن نقول إنها للتفاوت الرتبي أي أن دخولهم النار أفضى بهم إلى ما هو أسوأ وهو القرار في شر مكان ، في حين جاء في جانب المتقين قوله " طبتم فادخلوها " أي أن دخولهم الجنة كان مسبباً عن طيبهم وطهارتهم من الأدناس^١ ، ولعل فيه إشارة أيضاً إلى أن طيبهم أمر حسن ودخولهم الجنة المسبب عنه أحسن منه حيث جمع لهم بين حسنيين الطيب ودخول الجنة كما جمع لأولئك بين شرين دخول النار والاستقرار في أسوأ مكان منها . وإنجاز الوعيد حسرة تنفثها صدور الكافرين " ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين " وإنجاز الوعد فرحة ينطلق بشكرها لسان المتقين " الحمد لله الذي صدقنا وعده " فما أبعد الفرق بين الإنجازين !! وشتان ما بين الشعورين بصدق الوعد فهناك وجوب لعذاب قد وقع وهنا وعد بخير قد صدق وهناك كفر أوجبه وهنا عمل أورثه . وقد أشار المفسرون في ذكر الخلود إلى معنى المكث الطويل . جاء ذلك في تفسير قوله تعالى " وهم فيها خالدون " البقرة ٢٥ فقد قال ابن عطية (والخلود الدوام في الحياة أو الملك ونحوه وخلد بالمكان إذا استمرت إقامته فيه وقد يُستعمل الخلود مجازاً فيما يطول . وأما هذا الذي في الآية فهو أبدي حقيقة)^٢ . والذي يجعله أبدياً إنما هو السياق وقرائن الأحوال وهو ما بيّنه الرازي حين قال (الخلد هو الثبات الطويل سواءً دام أو لم يدم واحتجوا فيه بالآية والعرف أما الآية فقوله تعالى " خالدون فيها أبداً " ولو كان التأيد داخلاً في مفهوم الخلد لكان ذلك تكراراً وأما العرف فيقال حبس فلان فلاناً حبساً مخلداً أو لأنه يُكتب في صكوك الأوقاف وقف فلان وفقاً مخلداً ... وقال آخرون : العقل يدل على دوامه لأنه لو لم يجب دوامه لجوزوا انقطاعه فكان خوف الانقطاع ينغص عليهم تلك النعمة لأن النعمة كلما كانت أعظم كان خوف انقطاعها أعظم وقعاً في القلب وذلك يقتضي أن لا ينفك أهل الثواب

^١ - انظر ابن جرير جـ ٢٤ ص ٢٥ ، الزمخشري جـ ٣ ص ٤١١ ، ابن عطية جـ ١٤ ص ١٠٧ ، الخازن جـ ٤ ص ٦٤ ، أبو حيان جـ ٧ ص ٤٢٥ ، البيضاوي بحاشية الشهاب جـ ٧ ص ٣٥٥ ، حاشية محيي الدين زادة جـ ٤ ص ٢١٧ ، ابن كثير جـ ٦ ص ١١٦ ، البقاعي جـ ١٦ ص ٥٦٩ ، أبو السعود جـ ٧ ص ٢٦٤ ، الألوسي جـ ٢٤ ص ٣٤ .

^٢ ابن عطية جـ ١ ص ١٥٠ ، وانظر القرطبي جـ ١ ص ٢٤١ .

البتة من الغم والحسرة والله تعالى أعلم^١ فقد استدل الرازي بدليلين أحدهما ذكر لفظ التأيد مع الخلود مما يفيد أنه أمر زائد على الخلود ، و الثاني بالعقل من حيث أن الخوف من انقطاع النعيم سوف ينغصه ، في حين أشار غيره من المفسرين إلى أن تأبد الخلود في النعيم مستفاد من القرآن والصحيح من السنة^٢ ، وجعله البقاعي مستفاداً من سياق الامتنان^٣ ، فالخلود لا يقتضي الدوام بأصل دلالته ، لأن الدائم الباقي هو الله تعالى ، ولو قيل إن الخلود هو الدوام لتناقض مع قوله تعالى " كل شيء هالك إلا وجهه " القصص ٨٨ . فدوام بقاء المؤمنين في الجنة والكافرين في النار يختلف عن بقاء دوام الله تعالى وإن كان لا يعني أنهم يخرجون من الجنة . ولهذا التفرقة بين بقاء المخلوقات وبقاء الله الأبدى ذكر الرازي أن الخلود هو المكث الطويل وليس الدوام ، ونبه لهذا صاحب شرح العقيدة الطحاوية^٤ .

لفظ المثوى :-

وقد لحظت أن لفظ المثوى لم يأت بمعنى الإقامة والمكث إلا في العقاب نحو قوله تعالى : " ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين " آل عمران ١٥١ ، و " فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين " النحل ٢٩ ° ، ولم يأت في سياق الثواب . ومن الممكن القول بأنه يشير إلى ثباتهم في العذاب في مكان ضيق صرحت به كثير من الآيات ، بعكس ما يرد في آيات الثواب من ذكر سعة المكان وحرية التنقل بين جنات كثيرة ومساحات شاسعة . ويؤنس إلى هذا ما قوبل به المثوى هنا في الزمر من السعة التي أعرب عنها قوله تعالى " نتبوا من الجنة حيث نشاء " ، وما ذم به المثوى في قوله " فبئس مثوى المتكبرين " ، في مقابل ما مدح به ثواب المتقين في قوله " فنعم أجر العاملين " وسيأتي ما يؤيد هذا في آخر البحث ولا ينافيه قراءة " لتوثيئهم " في آية العنكبوت " لنبوئئهم من الجنة غرفا " ٥٨ لأن إسناده إلى ضمير العظمة يكسبه تشريفاً وتكريماً .

^١ - الرازي ج ٢ ص ١٣١ .

^٢ - انظر أبو حيان ج ١ ص ٢٦١ ، أبو السعود ج ١ ص ٧٠ ، حاشية الشهاب ج ٢ ص ٧٧ المتن والهامش ، الألوسي ج ١ ص ٢٠٥ .

^٣ - انظر البقاعي ج ١ ص ١٩٧ .

^٤ - انظر علي بن علي بن محمد الحنفي ، شرح الطحاوية في العقيدة السلفية د. عبد الرحمن عميرة ، مكتبة المعارف الرياض الطبعة الثانية ١٤٠٧ - ١٩٨٦ م ج ١٦٥ وما بعدها .

^٥ - وانظر العنكبوت ٦٨ ، الزمر ٣٢ ، ٦٠ ، ٧٢ ، غافر ٧٦ ، فصلت ٢٤ ، محمد ١٢ ، الأنعام ١٢٨ .

وبقي في الآية أمر جدير بالتوضيح ، وهو الإتيان في جزاء الفريقين بلفظ السوق . وقد ذهب العلماء في تحليله عدة مذاهب ، فذهب ابن جرير ومن تبعه ^١ إلى أن السوق في جانب المتقين لمراكبهم ، وذهب غيرهم إلى أن سوق الكافرين دعاً وعنفاً ، وسوق المتقين حثاً وإسراعاً بهم إلى دار الكرامة ^٢ ، وذهب آخرون إلى أنه من باب المقابلة و المشاكلة فقط ^٣ . ومن المؤكد أن بين السوقين فرقاً يوضحه السياق كما ذكر محيي الدين زادة حين قال (إن العنف والهوان خارج عن حقيقة السوق ، وهي عبارة عن الحث على السير والإسراع بالسائر نحو المقصد ، وقد يكون خيراً له بإيصاله سريعاً إلى موضع الراحة ، وقد يكون شراً بإيصاله إلى ضد ذلك ، فكل واحد من العنف والهوان ومن ضدهما إنما يستفاد من السوق بمعونة المقام وقرائن الحال) ^٤ . ويعلق البقاعي على سوق المتقين في الآية بقوله (فشتان ما بين السوقين هذا سوق إكرام ، وذاك سوق إهانة وانتقام وهذا لعمري من بدائع أنواع البديع ، وهو أن يأتي سبحانه بكلمة في حق الكفار فتدل على هوانهم بعقابهم ، ويأتي بتلك الكلمة بعينها وعلى هيئتها في حق الأبرار فتدل على إكرامهم بحسن ثوابهم . فسبحان من أنزله معجز المباني متمكن المعاني عذب الموارد والمثاني) ^٥ . و ذكر الألوسي بأن (السائق للكفرة ملائكة الغضب والسائق للمتقين شوقهم إلى مولاهم) ^٦ ولا أجد ما ينافيه ، خاصة وأن السوق مذكور دون تحديد السائق ، ولعله مما يصح أن تذهب فيه النفس كل مذهب والله أعلم .

وقد أشار البقاعي بعد هذه الآيات إلى أن جملة " والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون " معطوفة على جملة محذوفة والتقدير (فالذين آمنوا بالله وتقبلوا آياته أولئك هم الفائزون) ^٧ ، ومثله ما جاء في آخر سورة الفرقان التي سبقت دراستها ، فقد جعل جملة " ومن

^١ - انظر ابن جرير جـ ٢٤ ص ٢٣ ، الزمخشري جـ ٣ ص ٤١١ ، الرازي جـ ٢٧ ص ٢٢ ، القرطبي جـ ١٥ ص ٢٨٥ ، الخازن جـ ٤ ص ٦٤ ، أبو حيان جـ ٧ ص ٤٢٥ ابن كثير جـ ٦ ص ١١٣ .

^٢ - انظر الرازي جـ ٢٧ ص ٢٢ ، الخازن جـ ٤ ص ٦٤ ، أبو السعود جـ ٧ ص ٢٦٤ ، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٣٥٤ المتن والهامش .

^٣ - انظر أبو حيان جـ ٧ ص ٤٢٥ ، الطاهر بن عاشور جـ ٢٤ ص ٧١ .

^٤ - محيي الدين زادة جـ ٤ ص ٢١٧ .

^٥ - البقاعي جـ ١٦ ص ٥٦٧ .

^٦ - الألوسي جـ ٢٤ ص ٣٤ .

^٧ - البقاعي جـ ١٦ ص ٥٤٤ .

يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً " الفرقان ١٩ معطوفة على مقابلها المقدر وهو (فمن يعدل منكم لسماع هذا الوعظ بوضع العبادة في موضعها نثبه ثواباً جليلاً)^١ ولعل الذي حدا بالبقاعي إلى هذا ما عرف واشتهر من عادة القرآن في شفع الترغيب بالترهيب والبشارة بالندارة .
ومن السور التي يُبتدأ السياق فيها بذكر العقاب بعد ذكر توفية الحساب بالأعمال ، في حال ذكر الجزاء مع العمل الموصل إليه ، مما يناسبه التهديد والترهيب من العقوبة ، سورة الدخان يقول تعالى :

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾
إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامٌ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ
﴿٤٥﴾ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ
صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ
﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾
فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾
كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمَنِينَ
﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ
﴿٥٦﴾ فَضَلًّا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾

٤٠ - ٥٧ مكية .

وقد بدأت الآيات بذكر مطعوم الكافر ولعل السبب معرفة السامع بمكانها وسوء ثمرها

^١ - البقاعي ج ١٣ ص ٣٦٤ .

الوارد في سورة الصفات السابقة في النزول على هذه السورة^١ . قال تعالى : " إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم " الصفات ٦٤ . فهذا يعني أن مكان الكافر في وسط الجحيم ويؤيده قوله تعالى " خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم " . وقد شبه ثمرة شجرة الزقوم المشتق من (الزقم أي اللقم الشديد)^٢ الدال على كراهته بالمهل وهو دُرْدِيُّ الزيت^٣ وهو (كالرصاص أو الفضة أو ما يذاب في النار إذا أذيب بها فتناهت حرارته وشدت حميته في شدة السواد)^٤ . واختلف في هذا الطعام فذهب ابن عطية إلى أنه يفعل في الجوف (كما يفعل المهل السخن من الإحراق والإفساد)^٥ ، وذهب الرازي وغيره إلى أنه يغلي بحرارته في بطونهم كما يغلي الحميم^٦ ، وفي هذا مبالغة في شدة حرارته لا توجد فيما ذهب إليه ابن عطية . وقد نبه لهذا الألويسي بقوله (وأنت تعلم أن غليان الطعام في البطن فيه مبالغة أما التشبيه بمهل يغلي في البطن فلا)^٧ فجعل الغليان للمهل في البطن يعني اشتداد حرارته مرة واحدة ، وجعل الطعام هو الذي يغلي يفيد اشتداد الحرارة مرتين مرة بكون المهل ساخناً ، وأخرى بغليانه داخل البطن فهو تعذيب إثر تعذيب . وكان سائلاً يسأل ما الذي حدا بالأثيم إلى الأكل من هذا الطعام ؟ فيأتي قوله تعالى " خذوه فاعتلوه " بمثابة إجابة وهو أنه أخذ قهراً وسحب ثم دفع دفعاً عنيفاً إلى مكان الشجرة^٨ وأكره عليها بل زيد عليها مرتبة أسوأ في التعذيب أفادها حرف التراخي ثم^٩ . يقول د. الخضري في ذلك (وكأنه يقول خذوهم فجروهم جراً عنيفاً حتى تلقوهم في وسط النار بل اصنعوا بهم ما هو أشد وأفظع وهو أن تصبوا عليهم العذاب صباً)^{١٠} . وهنا نتوقف

^١ - رقم سورة الصفات حسب النزول (٥٥) وسورة الدخان (٦٣) كما ذكره الزركشي انظر بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي . البرهان ج ١ ص ١٩٣ .

^٢ - البقاعي ج ١٨ ص ٤٣ .

^٣ - جاء في اللسان ج ٣ ص ١٦٦ (دردي الزيت وغيره : ما يبقى في أسفله)

^٤ - ابن جرير ج ٢٥ ص ٧٨ .

^٥ - ابن عطية ج ١٤ ص ٢٩٩ .

^٦ - انظر الرازي ج ٢٧ ص ٢٥١ ، القرطبي ج ١٦ ص ١٤٩ ، البقاعي ج ١٨ ص ٤٤ ، حاشية الشهاب ج ٨ ص ١٢ المتن والهامش ، حاشية محيي الدين زادة ج ٤ ص ٣١٧ .

^٧ - الألويسي ج ٢٥ ص ١٣٣ .

^٨ - انظر البقاعي ج ١٨ ص ٤٥ .

^٩ - انظر المصدر السابق ، الطاهر بن عاشور ج ٢٥ ص ٣١٥ .

^{١٠} - د. محمد الأمين الخضري ، من أسرار حروف العطف ص ٢٣٥ .

لنرى الفرق بين قوله " صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم " ، وقوله تعالى في سورة الحج :
" يصب من فوق رؤوسهم الحميم " فالمصبوب هو الحميم والمذكور عذابه ، وهذه استعارة
جسدت العذاب سائلاً مفاضاً على هذا الأثيم ، زادها تأكيداً لشدة العذاب قوله " فوق رأسه "
ولم يقل فوقه ليفيد شمول هذا العذاب لسائر جسد المعذب ، في مقابل ما سوف ينعم به
المتقون من شمول النعمة بثياب السندس و الإستبرق . وفي صب العذاب فوق رأس الأثيم إهانة
لأن الرأس موطن التكريم والرفعة ومع الإهانة له (حر الظاهر بالحميم والباطن بالزقوم)^١ ،
ويزداد عذابه بتقريعه والتهمك به^٢ في قوله تعالى (إنك أنت العزيز الكريم) ، لأن المعذب ليس
عزيزاً ولا كريماً ولكن يقال ذلك له زيادة في النكاية به . ويقول الزمخشري في معنى الإذاقة :
(أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس الناس
منها ، فيقولون ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه العذاب . شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم
بما يدرك من طعم المر والبشع)^٣ . وقد لحظت أن الذوق في سياقات الجزاء لا يأتي إلا مع
العذاب يقول تعالى : " فذاقت وبال أمرها " الطلاق ٩ " حتى ذاقوا بأسنا " الأنعام ١٤٨ .
و علل بعض المفسرين هذا الأمر بأنه دليل على شدة العذاب لأن الإحساس الذوقسي (أتم
الإدراكات)^٤ ، ولكن يعرض لهذا الأمر تساؤل وهو إذا كان الذوق في العذاب يدل على
شدة الإحساس به فلم لا يُسند إلى النعيم ؟ أشار الرازي إلى أن المقصود بالذوق مع شدته
حصول أقل جزء منه لأن الذائق للشيء يأخذ منه القليل ، يقول الرازي : (لفظ الذوق إنما
يذكر في القدر القليل الذي يؤتى به لأجل التجربة ، ثم إنه تعالى ذكر أن ذلك الذوق عذاب

^١ - البقاعي جـ ١٨ ص ٤٦ .

^٢ - انظر ابن جرير جـ ٢٥ ص ٨٠ ، الزمخشري جـ ٣ ص ٥٠٦ ، ابن عطية جـ ١٤ ص ٣٠٠ ، الرازي جـ ٢٧
ص ٢٥٢ ، القرطبي جـ ١٦ ص ١٥١ ، الخازن جـ ٤ ص ١١٦ ، النيسابوري جـ ٢٥ ص ٨٧ ، ابن كثير جـ ٦
ص ٢٦٠ ، البقاعي جـ ١٨ ص ٤٦ ، أبو السعود جـ ٨ ص ٦٥ ، الشهاب جـ ٨ ص ١٣ ، الألوسي جـ ٢٥
ص ١٣٤ ، الطاهر بن عاشور جـ ٢٥ ص ٣١٦ .

^٣ - الزمخشري جـ ٢ ص ٤٣١ آية النمل (١١٢) .

^٤ - وانظر آل عمران ١٨١ ، النساء ٥٦ ، المائدة ٩٥ ، الأنعام ٦٥ ، يونس ٥٢ ، النحل ٩٤ ، ١١٢ ، سبأ ١٢ ، ٤٢ ،
ص ٨ ، ٥٧ ، الزمر ٢٦ ، القمر ٤٨ ، الحشر ١٥ ، التغابن ٥ ، النبأ ٢٤ .

^٥ - الرازي جـ ٢٩ ص ٧١ تفسير آية القمر ٤٨ .

شديد^١ فإذا كان القليل منه عذاباً شديداً فكيف يكون حال الكثير منه ؟)^٢ ، فإن في فعل الذوق دلالة على تنامي الإحساس بالعذاب ، لأنه إذا كان الذوق وهو إدراك أقل درجات العذاب يحمل الأليم الشديد منه فما بال ما هو أكثر وهو كمال الإحساس بأنواعه وتجرع غصصه! ، وهذا ملائم للتخويف الذي يمثل عاملاً مهماً في صرف أهواء النفوس عن موجبات الغضب ، لأن أول ما يرجوه المؤمن الإفلات من العذاب والنجاة من النار ولا يتعارض هذا مع بقية السياقات التي جاء فيها لفظ الذوق نحو " وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا " يونس ٢١ ، فإن هذه الآية وما شابهها^٣ إنما تذكر اغترار المرء بنعمة الله ، وهذا يعود إلى معنى القدر القليل ، لأن الإنسان يبتر بأقل قدر يحصل له من الخير من الله تعالى ويؤيد هذا ما ذهب إليه الرازي في تفسير قوله " ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور " هود ٩ - ١٠ حين قال (لفظ الإذاعة والذوق يفيد أقل ما يوجد به الطعم فكان المراد أن الإنسان بوجدان أقل القليل من الخيرات العاجلة يقع في التمرد والطغيان وبإدراك أقل القليل من المحنة والبلية يقع في اليأس والقنوط والكفران)^٤ ، ولم ترد مادة الذوق في غير هذين السياقين إلا في ذوق آدم عليه السلام^٥ للشجرة وهو يعود إلى معنى إدراك القليل من الشيء .

(لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء ولهذا سمي القرآن مثاني)^٦ فقال " إن المتقين في مقام أمين " ثم يترجم المقام الأمين بقوله " في جنات وعيون " وقد فسر العلماء المقام الأمين بعدة تفسيرات فقال ابن جرير (آمين في ذلك الموضع مما كان يخاف منه في مقامات الدنيا من الأوصاب والعلل والأنصاب والأحزان)^٧ ، وقال ابن عطية (يؤمن فيه

^١ - في الكتاب الشديد ولعله خطأ مطبعي .

^٢ - الرازي جـ ٢٧ ص ١٢٠ آية فصلت (٢٧) .

^٣ - يونس ٢١ ، الروم ٣٣ ، ٣٦ ، الشورى ٤٨ ، هود ١٠ ، فصلت ٥٠ .

^٤ - الرازي جـ ١٧ ص ١٩١ .

^٥ - في قوله تعالى " فلما ذاقا الشجرة " الأعراف ٧ .

^٦ - ابن كثير جـ ٦ ص ٢٦٠ .

^٧ - ابن جرير جـ ٢٥ ص ٨١ ، وانظر الزمخشري جـ ٣ ص ٥٠٧ الرازي جـ ٢٧ ص ٢٥٣ ، القرطبي جـ ١٦ ص

١٥٢ ، النيسابوري جـ ٢٥ ص ٨٧ ، البقاعي جـ ١٨ ص ٤٨ ، أبو السعود جـ ٨ ص ٦٦ ، الألويسي جـ ٢٥ ص

الغَيْر) ^١ أي أحداث الدهر ونوائبه ، وجعله البيضاوي والشهاب وابن كثير أمناً من الآفات وعن الانتقال ^٢ وجمع ذلك كله ابن قيم الجوزية فقال : (والأمين الآمن من كل سوء وآفة ومكروه وهو الذي قد جمع صفات الأمن كلها فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص وأهله آمنون فيه من الخروج والنقص والنكد) ^٣ ، وفي معنى " آمين الآمن مما فيه الكافر من العذاب ولعل مما يرجح هذا مجيء قوله تعالى في سورة الحجر " إن المتقين في جنات وعيون " ^{٤٥} دون ذكر المقام الأمين ، وذلك لأن المقام في الحجر ليس مقام تفصيل لعذاب الكفرة فلم يذكر سوى أبواب جهنم السبعة ، أما هنا فقد فصل ووضح مما قد يحدث رهبة ورعباً في قلوب المتقين حين تلاوة الذكر فجاء قوله تعالى " في مقام أمين " أي مما فيه الكافرون تطمينا لقلوبهم وتفريقاً بين المكان الذي يلقي فيه صنوف العذاب ، والذي يؤمن فيه منها . و يلحظ بينه وبين لفظ المتقين مناسبة خفية من حيث المعنى ، فكما أن المتقي جعل بينه وبين الكفر وقاية فقد جعله الله في مكان آمن يوقى فيه عذاب النار . ويأتي وصف جزاء المتقين بذكر مطعمهم ومشروبهم ^٤ الذي دل عليه قوله : " جنات وعيون " (وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شجرة الزقوم وشرب الحميم) ^٥ ، فهم يتمتعون بجنات وعيون (تقصر العقول عن إدراك وصفها) ^٦ بما أفاده التنكير كما يلبسون ثياباً من حرير رقيق وجليظ كثير ^٧ ، يتخيرون منه ما يشاؤون ، في مقابل احتراق أجساد الأثماء بنيران الحميم _ كما سبق أن ذكر - ثم هم يأمنون بصحبة إخوانهم في الجنة متقابلين غير متدابرين ، وبصحبة الحور العين الذين قرنهم بهن تعالى " وزوجناهم بحور عين " .

وهنا نقف لنلاحظ أمراً وهو أن الآية هنا في الدخان وفي الطور في قوله " وزوجناهم بحور عين " جاءت بذكر التزويج بمعنى الاقتران مع ذكر الاقتران بالأخوة ، في حين جاء قوله " وعندهم قاصرات الطرف " في سورة ص وفي سورة الصافات عند ذكر الشراب ، وكأن

^١ - ابن عطية ج ١٤ ص ٣٠١ و انظر الخازن ج ٤ ص ١١٦ .

^٢ - انظر ابن كثير ج ٦ ص ٢٦٠ ، حاشية الشهاب ج ٨ ص ١٣ المتن والهامش .

^٣ - ابن قيم الجوزية حادي الأرواح ص ٨١ .

^٤ - انظر حاشية الشهاب ج ٨ ص ١٣ المتن والهامش .

^٥ - ابن كثير ج ٦ ص ٢٦٠ .

^٦ - البقاعي ج ١٨ ص ٤٨ .

^٧ - انظر المصدر السابق .

السياق الذي يذكر فيه الترويح يشير إلى الأُنس بالصحة ، في حين يشير السياق بذكر العندية وما شابهها - نحو ما جاء في قوله " وحرور عين " في الواقعة - إلى لذة الاستمتاع بالنساء من حيث (كان حضور الجوارى يجالس الشراب من مكملات الأُنس والطرب عند سادة العرب)^١

وليتم نعيم هؤلاء أوجد الله خدماً يخدمونهم فيطلبون منهم ما يشاؤون " آمنين " . وهنا نقف مرة أخرى عند الأمن الذي ذهب بعض المفسرين إلى أنه أمن من التخمّة ومن نفاذ هذه الفاكهة وما شابه ذلك^٢ ، وأشار البقاعي في اتصال الآية بما بعدها وهو قوله " لا يذوقون فيها الموت " إلى دخول معنى الأمن من الموت فيما يشمله لفظ آمنين^٣ وقد أصاب في هذا ، كما أصاب ابن قيم الجوزية في إضافة معنى الخلود بالأمن من الخروج حين قال : (فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام فلا يخافون انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها وأمن الخروج منها فلا يخافون ذلك وأمن الموت فلا يخافون فيها موتاً)^٤ فهم آمنون من الخروج من هذا المكان بما دل عليه لفظ الأمن وآمنون من انقطاعه بالموت الذي عبر عنه " لا يذوقون فيها " . ولو اكتفى في معنى الأمن بأنه الأمن من الموت كما ذهب ابن جرير^٥ والقرطبي^٦ والخازن^٧ فسيكون من قبيل التوكيد ذكر عدم ذوق الموت في الآية التي تليها وهي " لا يذوقون فيها الموت " . و جعل الأمن هنا لعدم الخروج من الجنات يمنع وقوع التكرار بين الأمن من الآفات والعلل والأحزان المذكور في أول الآيات في قوله " مقام أمين " و الأمن المذكور في قوله " آمنين " ، ولا ينافيه دخول معنى الأمن من الخروج في المقام الأمين كما ذكره ابن قيم الجوزية لأنه قد يعد هنا من قبيل التخصيص بعد التعميم . وهذا شبيه بما مر بنا في الحجر حين الحديث عن قوله تعالى " ادخلوها بسلام آمنين " ٤٦ .

^١ - الطاهر بن عاشور جـ ٢٣ ص ١١٤ آية الصافات ٤٨ ، وانظر البقاعي جـ ٢١ ص ٢١٠ آية النبأ ٣٤ .

^٢ - انظر الرازي جـ ٢٧ ص ٢٥٤ ، البيضاوي بهامش الشهاب جـ ٨ ص ١٣ ، ابن كثير جـ ٦ ص ٢٦١ ، النيسابوري جـ ٢٥ ص ٨٨ ، الألويسي جـ ٢٥ ص ١٣٦ ، الطاهر بن عاشور جـ ٢٥ ص ٣١٩ .

^٣ - انظر البقاعي جـ ١٨ ص ٥٠ .

^٤ - ابن قيم الجوزية حادي الأرواح ص ٨١ .

^٥ - انظر ابن جرير جـ ٢٥ ص ٨٢ .

^٦ - انظر القرطبي جـ ١٦ ص ١٥٤ .

^٧ - انظر الخازن جـ ٤ ص ١١٧ .

وقد توقف الإمام الرازي عند جملة ووقاهم عذاب الجحيم بعد ذكر كونهم في الجنات فقال (فإن قالوا : مقتضى الدليل أن يكون ذكر الوقاية عن عذاب الجحيم متقدماً على ذكر الفوز بالجنة ... قلنا التقدير كأنه تعالى قال ووقاهم في أول الأمر عن عذاب الجحيم)^١ ، فهو يشير إلى أن الواو للجمع دون الترتيب ، وذهب ابن كثير إلى أنه (مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم و سلمهم ونجاهم وزحزحهم عن العذاب الأليم في دركات الجحيم فحصل لهم المطلوب ونجاهم من المهوب)^٢ وهو أقرب إلى الصواب ، لأنه جعلها نعمة مستقلة . وقد صرح بهذا في الحديث عن الموضع المشابه له من سورة الطور^٣ . و يبدو فيها تأكيد على الخلود ، لأنهم بعد أن استقروا في النعيم قد وقوا الوقوع في الجحيم فلن يكون لهم عودة إليه ، وهذا مثل قولنا وصل فلان إلى بلدة كذا ونجا من الأهوال أي لن تصل إليه أبداً ، وقولنا فاز فلان بكذا وسلم من الإخفاق أي لن يكون له عودة إليه أبداً وسيأتي الحديث عن مثل هذا في تحليل آيات سورة محمد . ولا يخفى ما في جعل الأثيم في وسط الجحيم من تضيق عليه وما في تنقل المتقين في جناهم من سعة لهم ، وهذا أمر ملحوظ في سياقات الجزاء وهو أن أماكن العذاب محددة مثل " جهنم " ، " سواء الجحيم " ، " مكاناً ضيقاً " وما شابه ذلك في حين أن أماكن النعيم لا حدود لسعتها نحو " جنات و عيون " ، " جنات و نعيم " ، " ظلال و عيون " ، ونبه إلى الحكمة في ذلك الزمخشري من حيث أن (الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة)^٤ .

وتوافق سورة الطور مع سابقتيها المبدوء فيهما بذكر العقاب بعد ذكر قيام الناس للحساب يقول تعالى :

^١ - الرازي ج ٢٧ ص ٢٥٤ .

^٢ - ابن كثير ج ٦ ص ٢٦٢ .

^٣ - انظر ابن كثير ج ٦ ص ٤٣١ وقد أشار الإمام عبد القاهر الجرجاني إلى استقلال جملة الحال المسبوقة بالواو . انظر الدلائل ص ٢١٣ .

^٤ - الزمخشري ج ٣ ص ٨٤ تفسير آية الفرقان ١٣ .

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ۗ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٢﴾
 أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٣﴾ أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا
 تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ
 فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٥﴾ فَكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقْلَهُمْ رَبُّهُمْ
 عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

مُتَّكِيِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ
 مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيئًا ﴿١٩﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ
 فِيهَا كِهَادًا ۖ وَالْحَمِيمُ ﴿٢٠﴾ يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا

لَّا لَعْنُ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢١﴾ ۖ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وُعْدَىٰ ۖ كَأَنَّهُمْ
 لَوَالِدُهَا وَمَا كَانُوا مِنْهَا بِعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٣﴾
 قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٤﴾ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا
 عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٥﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ۗ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ

﴿٢٦﴾

فالفاء الداخلة على الويل في قوله " فويل " هي الفاء الداخلة على جزاء الشرط^١، وفيها معنى التسبب لأن القيامة لما كانت مكان المحاسبة وكانوا قد كذبوا بها في الدنيا كان وقوعها سبباً إلى وقوع جزائهم فيها، ومعنى السرعة في وقوعهم تحت وطأة هذا الويل عند قيام الساعة دون مهلة. وللمكذابين يوم القيامة العذاب والهلاك سواء كان الويل وادياً في جهنم^٢، أو كان بمعنى الشدة والإرهاق^٣، ويصور القرآن طريقة تعذيبهم هنا بدفعهم إلى النار دفعاً مما جعل المفسرين يطلبون توفيقاً بين هذا والسحب في آية القمر " يوم يسحبون في النار على وجوههم " فذكروا في ذلك وجوهاً (أحدها: أن الملائكة يسحبونهم في النار ثم إذا قربوا من نار مخصوصة هي نار جهنم يقذفونهم فيها من بعيد، فيكون السحب في النار والدفع في نار أشد وأقوى... الثاني: جاز أن يكون في كل زمان يتولى أمرهم ملائكة، فيلج النار يدفعهم ملك وفي النار يسحبهم آخر. الثالث: جاز أن يكون السحب بسلاسل يسحبون في النار والساحب خارج النار. الرابع: يحتمل أن يكون الملائكة يدفعون أهل النار إلى النار إهانة واستخفافاً بهم ثم يدخلون معهم النار ويسحبونهم فيها)^٤ و الوجه الأخير أليق بالسياق فإن خزنة جهنم يغلون أيديهم إلى أعناقهم ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ثم يدفعونهم في النار دفعاً على وجوههم وزخاً^٥ في أعناقهم حتى يردوا النار، فهذا الدفع مستخدم لإظهار هوانهم كما استهانوا بآيات الله بخوضهم فيها، وفي الخوض معنى الاستخفاف لأنه مأخوذ من المشي في الماء^٦، وهو نحو العتل في آية الدخان في قوله " فاعتلوه إلى سواء الجحيم ". ثم يتهم بهم الخزنة ويوبخونهم زيادة في غمهم وتحسيرهم بقولهم " أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون " لأن الشك في الأمر يعرض من هاتين الجهتين إما من السحر الذي يخيل أمراً غير حقيقي، وإما من اختلال في بصر الناظر^٧. ولما يقف هؤلاء أمام الحقيقة وهي النار التي لا مهرب منها يقنطون من الخير مطلقاً بقول الخزنة " اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم " فإن للصبر مزية

^١ - انظر ابن جرير ج ٢٧ ص ١٣ .

^٢ - انظر المصدر السابق .

^٣ - انظر ابن عطية ج ١٥ ص ٢٣٤ .

^٤ - الرازي ج ٢٨ ص ٢٤٦ .

^٥ - (الزخ: السير العنيف) اللسان ج ٣ ص ٢١ .

^٦ - انظر حاشية الشهاب ج ٨ ص ١٠٣ .

^٧ - انظر ابن عطية ج ١٥ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

على الجزع حين وقوع المكاره (لنفعه في العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير ، فأما الصبر على العذاب الذي هو الجزاء ولا عاقبة ولا منفعة فلا مزية له على الجزع)^١ .

وفي معنى الصلي قال البيضاوي (أي ادخلوها)^٢ ، وعقب عليه الشهاب بقوله (ادخلوها إشارة إلى أن الصلي مجاز عن الدخول فيها)^٣ وقال ابن كثير (أي ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته)^٤ فهو يشير إلى ما ذكره الزمخشري من أن (المصلي عند العرب أن يحفروا حفيراً فيجمعوا فيه جمرًا كثيراً ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسطه فأما ما يشوى فوق الجمر أو على المقلبي أوفي التنور فلا يسمى مصلياً)^٥ . ومن هنا نفهم القول بمجازية الصلي التي ذكرها البيضاوي والشهاب ، لأن المعنى الحقيقي للصلي عندهم الاستدفاء .

وبعد أن يتم جزاء الكافرين يذكر القرآن كعاداته^٦ جزاء مقابليهم بقوله " إن المتقين في جنات ونعيم " ، فبينما يتحرق الكفرة في النار كما حرقوا قلوب عباد الله ورسوله^٧ ، ينعم المتقون نعيماً لا يوصف في جنات عظيمة الشأن (بضد ما أولئك فيه من العذاب و النكال)^٨ . وقد جعل البقاعي^٩ والطاهر بن عاشور^{١٠} جملة " إن المتقين ... " استثناءً بيانياً مشيرين إلى حال السامع من التشوق لمعرفة حال الأضداد المذكورين ، وفي هذا تنبيه إلى أن قضية الترغيب والترهيب قضية تتصل بنفوس المتلقين بجانب أنها تهدف إلى تبيين الفرق بين الأضداد . وهذا أولى مما ذهب إليه صاحب كتاب المشاهد في القرآن الكريم من أن القرآن (إذ يفعل ذلك يلحظ ما طبعت عليه النفوس من تباين في التكوين والاستعداد ، فمن النفوس نفوس تستهويها النعم الدنيوية وأخرى تتطلب نعم الآخرة ، ولذلك يقدم لها القرآن من هذه النعم ما يلي

-
- ١ - الزمخشري جـ ٤ ص ٢٣ .
 - ٢ - البيضاوي جـ ٨ ص ١٠٣ .
 - ٣ - الشهاب جـ ٨ ص ١٠٣ .
 - ٤ - ابن كثير جـ ٦ ص ٤٣١ .
 - ٥ - الزمخشري جـ ٤ ص ٢٤٦ .
 - ٦ - انظر الطاهر بن عاشور جـ ٢٧ ص ٤٥ .
 - ٧ - انظر البقاعي جـ ١٩ ص ١٢ .
 - ٨ - ابن كثير جـ ٦ ص ٤٣١ .
 - ٩ - انظر البقاعي جـ ١٩ ص ١٢ .
 - ١٠ - انظر الطاهر بن عاشور جـ ٢٧ ص ٤٥ .

حاجتها... ومن النفوس ما لا يجديها الترغيب وحده، بل لابد لها من الترهيب والوعيد^١، لأنه هنا يجعل الترهيب والترغيب لفتتين من الناس وما ذهب إليه البقاعي وابن عاشور يجعلهما لنفس واحدة وهذا أليق بأسلوب القرآن الكريم وتمكين تأثيره في نفس متلقيه فليس فيه أمرٌ يختص بفئة وآخر يختص بغيرها من حيث التأثير، بل إنه يخاطب بالجملة الواحدة فئتين مثل ذكر نعيم المتقين الذي يزيد في غبطتهم وفي حسرة أصدادهم.

وهؤلاء المتقون ينعمون بما في الجنات من عطايا فرحين مسرورين بها، أو بسلامتهم التامة من النار بخلودهم في الجنة - كما سبق أن جاء في سورة الدخان - وهذا مقابل كرب الكفار وحزنهم ويأسهم من النجاة في قوله "اصلوها فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم" وإذا كان الكفار يخاطبون مخاطبة توبيخ وتقريع "اصلوها..."، فالمتقون يخاطبون مخاطبة إعزاز وتكريم "كلوا واشربوا هنيئاً". ويُعلل لهؤلاء ثوابهم بقوله "بما كنتم تعملون" دلالة على الفضل والزيادة - كما سبق أن ذكر عند الحديث عن الباء في أول الفصل - في حين يعلل لأولئك عقابهم بقوله "إنما تجزون ما كنتم تعملون" دلالة على العدل، وإشارة إلى سوء ما كانوا يعملون. يقول الإمام الرازي (فإن قيل... فهل بينهما فرق؟ قلت بينهما بون عظيم من وجوه. الأول: كلمة إنما للحصر أي لا تجزون إلا ذلك، ولم يذكر هذا في حق المؤمن فإنه يجزيه أضعاف ما عمل ويزيده من فضله... والثاني: قال هنا (بما كنتم) وقال هناك (ما كنتم) أي تجزون عين أعمالكم إشارة إلى المبالغة في المماثلة... وقال في حق المؤمن (بما كنتم) كأن ذلك أمرٌ ثابت مستمر بعملكم هذا)^٢، فقد أتى في جانب العذاب بما يفيد أن العمل مقتضى للجزاء اقتضاء السبب للمسبب، وفي جانب الثواب بما يفيد التفضل والزيادة، وفي هذا تكريم بعد تكريم، لأنه وإن كان دخول الجنة بفضله وليس بالعمل فإنه لمن بالغ الفضل أن يقول لهم هذا بعملكم. وذهب الطاهر بن عاشور إلى أن (جملة إنما تجزون... تعليل لجملة "اصلوها"... والحصر المستفاد من كلمة (إنما) قصر قلب بتزليل المخاطبين منزلة من يعتقد أن ما لقوه من العذاب ظلم لم يستوجبوا مثل ذلك من شدة ما ظهر عليهم من الفزع. وعدي تجزون" إلى "ما كنتم تعملون" بدون الباء خلافاً لقوله بعده

^١ -د. حامد صادق قنيسي، المشاهد في القرآن الكريم - مكتبة المنار الأردن الطبعة الأولى ١٩٨٤م ص ٢٦٢.

^٢ - الرازي ج ٢٨ ص ٢٤٩.

" كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون " ليشمل القصر مفعول الفعل المقصور أي تجزون مثل عملكم لا أكثر منه فينتفي الظلم عن مقدار الجزاء كما انتفى الظلم عن أصله (١) . ومع أن خلاصة ما ذهب إليه الطاهر هي ما ذهب إليه الرازي إلا أن القول بأن الحصر يفيد قلب الحكم يشير إلى هول العذاب وفضاعته حتى يحسب الكافر أنه عوقب بأكثر مما فعل فيأتي قصر القلب لهذا . والحكمة من استخدام (إنما) هو التبيين للكافر أن هذا العذاب لو راجع نفسه فيه لوجده مناسباً لجريمة الكفر فيكون التسليم بأن هذا هو الجزاء المناسب هو ما دعا إلى القصر بإنما ٢ .

وكنتُ قد ذكرتُ في أول الفصل أن آيات العذاب حين تخلو من باء السببية فإنها تستخدم أساليب أخرى لها نفس القوة في الربط بين الجزاء والعمل مثل أسلوب القصر ولكن اللافت للنظر أن أساليب القصر لم تأت على نمط واحد ، فقد جاءت بإنما كما في هذا الموضوع وفي سورة التحريم ٣ وباستخدام النفي والاستثناء في حوالي تسعة مواضع منها مرة واحدة بحرف النفي (ما) في قوله تعالى " وما تجزون إلا ما كنتم تعملون " الصافات ٣٩ ، وأربعة مواضع بحرف النفي (لا) منها " ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون " يس ٥٤ ، وأربعة مواضع بحرف الاستفهام المفيد للنفي منها قوله : " هل تجزون إلا ما كنتم تعملون " النمل ٥ . فالنفي والاستثناء يكون (للأمر ينكره المخاطب أو يشك فيه) ٦ وهذا النفي قد تكون الأداة فيه (لا) وقد تكون هل (الاستفهامية) وكل ذلك وراءه دقائق وأسرار وبحته يحتاج إلى عمل مفرد وليس مما يقتضيه سياقنا الذي نحن فيه . ويؤكد ارتباط الجزاء بالعمل كونه مقصوراً عليه ، وهذا يبرز سببية العمل للجزاء سببية حتمية تنفي ما عداها من الأسباب وتثبت عدل الله تعالى . أما ورود الجزاء مرتبطاً بالعمل بدون حصر فقد ورد مرتين إحداهما قوله تعالى : " كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون " الجاثية ٢٨ والثانية : " وذروا الذين

١ - الطاهر بن عاشور جـ ٢٧ ص ٤٤ - ٤٥ .

٢ - يقول الإمام عبد القاهر (إن موضوع إنما تجي خير لا يجمله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما ينزل هذه المنزلة) الدلائل ص ٣٣٠ .

٣ - آية ٧ .

٤ - انظر الأنعام ١٦٠ ، القصص ٨٤ ، غافر ٤٠ .

٥ - انظر الأعراف ١٤٧ ، سبأ ١٧ ، ٣٣ .

٦ - عبد القاهر الجرجاني ، الدلائل ص ٣٣٢ .

يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون " الأعراف ١٨٠ ، لأن المراد الإخبار بوقوع
الجزاء من غير نظر إلى أنهم لا يجزون إلا ما كانوا يعملون .

ونعود إلى جزاء الفريقين في السورة فقد توقف الإسكافي عند الفرق بين قوله تعالى هنا
" فاكهين بما آتاهم ربهم " وقوله تعالى في الذاريات " آخذين ما آتاهم ربهم " بأن الآيات هنا
فصلت (ما تنتهي إليه اللذة وتقرحه الشهوة)^١ ، وفي الذاريات تذكر تقبلهم للنعيم جملة
لتخلص (لخطاب من يدعى إلى فعلهم)^٢ . ولفظ التفكه على هذا يؤذن بتفصيل الجزاء ،
ف نجد المتقين يتكثرون على سرر مصفوفة ، وهذا دليل الترف والدعة ودليل السرور - كما سبق
أن ذكر - ويزيد سرورهم هذا صحبتهم للهور العين و صحبتهم لإخوانهم وأبنائهم ، سواء
كان قوله " والذين آمنوا ... " معطوفاً على لفظ " بحور " كما ذهب الزمخشري^٣ ، أو كان
جملة مستأنفة ، لأن مصاحبة الإخوان تفهم من كونهم على السرر . وقد ورد في آيات أخرى
كونهم عليها متقابلين مع إخوانهم نحو ما جاء في قوله تعالى " على سرر متقابلين " الحجر
٤٧ ، وقوله " متكئين عليها متقابلين " الواقعة ٧ ، وغيرهما . واجتمع لهم بذكر الحور في
قوله : " وزوجناهم بحور عين " عدة مزايا منها : أن الزوج هو الله تعالى ومنها وصفهن
بالحسن (واختار الأحسن من الأحسن فإن أحسن ما في صورة الآدمي وجهه وأحسن ما في
الوجه العين ولأن الحور والعين يدلان على حسن المزاج في الأعضاء ووفرة المادة في الأرواح أما
حسن المزاج فعلامته الحور وأما وفرة الروح فإن سعة العين بسبب^٤ كثرة الروح المصوبة
إليها)^٥ .

وبعد أن تكتمل لذاتهم النفسية بهذا الأنس ، وبتطمينهم بعدم نقص أعمالهم بقوله

١ - أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي ت ٤٢٠هـ - درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز دراسة وتحقيق وتعليق محمد مصطفى إيدين رسالة مخطوطة لنيل درجة الدكتوراه بجامعة أم القرى ١٤١٤هـ - ج ٢ ص ٧٣٨ ، وعلق في هامش رقم (٤٧) من نفس الصفحة بأن كل ما في الذاريات متصل بما به يصل الإنسان إلى الجنات ، وما في الطور متصل بما يناله الإنسان فيها .

٢ - المصدر السابق .

٣ - انظر الزمخشري ج ٤ ص ٢٤ . وقد رد الشهاب على أبي حيان في حمله على فهم الزمخشري للآية واتهامه لفكره الأعجمي . انظر أبو حيان ج ٨ ص ١٤٦ ، الشهاب ج ٨ ص ١٠٤ .

٤ - هكذا في النسخة ولعل الصواب تسبب .

٥ - الرازي ج ٢٨ ص ٢٤٩ .

" كل امرئ بما كسب رهين " ، لأنه (لما ذكر اتباع الأدينى للأعلى فى الخير فضلاً أشفقت النفس من أن يكون اتباع فى الشر فأجاب تعالى بأنه لا يفعل)^١ ، ذكر زيادة تفضله عليهم بإمدادهم بأنواع المأكلى والمشارب ، وفى تنكير لفظ فاكهة ولحم فى قوله " وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون " ، وما أفاده حرف التبعض (من) فى قوله (مما يشتهون) دلالة على عظمة هذا الخير ووفرتة ، فهو خير كثير ووافر ينعمون به ضمن ما ينعمون به مما تشتهيه نفوسهم . ثم تكمل لهم اللذات بذكر الكأس بعد ذكر الفاكهة واللحم (وكان أهل الترف فى الدنيا إذا شربوا الخمر كسروا سورة حدثها فى البطن بالشواء من اللحم... ويدفعون لذع الخمر عن أفواههم بأكل الفواكه و يسمونها النقل)^٢ ، ويدل فعل التنازع فى قوله " يتنازعون فيها كأساً " على أنهم (يشربون متجاذبين مجاذبة الملاعبة لفرط المحبة والسرور وتحلية المصاحبة)^٣ ، ثم إن هذه الخمر ليس فيها من عيوب خمر الدنيا شيء فلا كذب ولا باطل يقع بسببها ولا فعل يؤثم صاحبه^٤ ، بل هى أحاديث حكمة وخير^٥ . وتكتمل مظاهر نعيمهم بذكر الخدم الذين يطوفون عليهم بأصناف الملاذ . وفى تنكير لفظ غلمان وتشبيهم باللؤلؤ المكنون إشارة إلى أنهم قد بلغوا فى الحسن مبلغاً كبيراً . وفى تخصيصهم بهم فى قوله " غلمان لهم " ^٦ ، وتقييد تشبيه اللؤلؤ بلفظ المكنون دليل على أنهم فى كنفهم لا يكادون يفارقونهم^٧ وإذا كان عادة أهل الدنيا التحادث على الشراب (ليتم به استئناسهم كما قيل :

وما بقيت من اللذات إلا أحاديث الكرام على المدام^٨

فإن حديث المتقين فى الجنة إنما هو بأحسن حديث إلى قلب المحب وهو الأسباب التى أوصلتهم

^١ - البقاعى جـ ١٩ ص ١٥ .

^٢ - الطاهر بن عاشور جـ ٢٧ ص ٥٢ .

^٣ - البقاعى جـ ١٩ ص ١٧ ، وانظر حاشية الشهاب جـ ٨ ص ١٠٥ ، حاشية محبى الدين زادة جـ ٤ ص ٤١٣ .

^٤ - انظر ابن جرير جـ ٢٧ ص ١٧ .

^٥ - انظر الزمخشري جـ ٤ ، ص ٢٥ ، حاشية محبى الدين زادة جـ ٤ ص ٤٠٣ .

^٦ - انظر البقاعى جـ ١٩ ص ١٨ ، حاشية الشهاب جـ ٨ ص ١٠٥ المتن والهامش .

^٧ - انظر الرازى جـ ٢٨ ص ٢٥٤ .

^٨ - حاشية محبى الدين زادة جـ ٤ ص ٤٠٤ .

لهذا النعيم و اللهج بشكر المنعم ^١ ، فيتذكرون أسباب تفضل الله تعالى عليهم وهي إشفاقهم من عقابه وعبادته دون إشراك ^٢ . وفي إلحاق الذرية بالذين آمنوا تحقيق لجزء من دعاء الملائكة لهم في سورة غافر كما ذكر الشيخ عبد الرحمن الميداني ^٣ - حين قالوا " ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم " آية ٤٠ ، ففي آية الطور هنا تحققت الاستجابة للملائكة (في حدود مسألة إلحاق ذريتهم بهم لا في مسألة رفع مرتبتهم من مرتبة المتقين إلى مرتبة الأبرار) ^٤ ، ويأتي تحقيق الاستجابة للشطر الثاني من الدعاء في سورة الرعد في قوله تعالى : " جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم " الرعد ١٣ .

وفي سورة النبأ ذكر الطاهر بن عاشور ما يرجح ارتباط التهديد بذكر الأعمال الموجبة للغضب فيقول (وابتدئ بذكر جهنم لأن المقام مقام تهديد إذ ابتدئت السورة بذكر تكذيب المشركين بالبعث) ^٥ فبعد أن تذكر الآيات ابتداء قيام الساعة تقول "

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّٰغِيْنَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّيْسِيْنَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾

^١ - انظر البقاعي جـ ١٩ ص ١٨ .

^٢ - انظر ابن جرير جـ ٢٧ ص ٢٨ .

^٣ - انظر عبد الرحمن الميداني ، روائع من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ص ٣٠٧ .

^٤ - المصدر السابق .

^٥ - الطاهر بن عاشور جـ ٣٠ ص ٣٤ ، وانظر النيسابوري بهامش جامع البيان جـ ٣٠ ص ٧ ، ٨ .

جَزَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴿٣١﴾

النبأ ٢١ ص ٣٦ مكية .

فجهنم تنتظر الكافرين وتترقبهم لتوقع بهم أشد العقاب سواء كان المرصاد اسـم مكان يرصد فيه الكفرة والمؤمنون فينجو المؤمنون ويسقط الكفرة فيه^١ ، أو صيغة مبالغة من الرصد وهو الترقب^٢ . وحين يدخلونها يلبثون دهوراً متتابعة لا تنقطع ، لا يذوقون برداً يطيب قلوبهم ولا شراباً يرويهـم من العطش إلا الحميم و الغساق وهما سائلان أولهما شديد الحرارة والثاني شديد البرودة نـن أسود - كما سبقت الإشارة إليه في سورة ص - فيعذبون بحر الأول وبرد الثاني (فالحميم شرابهم في دولة السعير و الغساق في دولة الزمهير)^٣ وفي الآية تهكم ألحـت إليه صياغة الاستثناء حيث جاءت على طريقة (تأكيد الشيء بما يشبه ضده في الصورة)^٤ فهم حين يسمعون أنهم لا يذوقون برداً ولا شراباً يألمون فيقع الاستثناء فيظنون أن هناك مخرجاً لهم فيتأكد العذاب بما بعد الأداة وهو كون الذي يذوقونه حميماً و غساقاً فيخيب أملهم في النجاة مما هم فيه .

وقد قيل في معنى " أحقاباً " إنه مشتق من حقب عامناً إذا قل مطره (حقب فلان إذا أخطأه الرزق فهو حقب وجمعه أحقاب فينتصب حالا عنهم : يعني لا بـثين فيها حقبين جحدين)^٥ ، ولعل القول الأول بأنها الأزمان المتتابعة أولى لمناسبته لذكر اللبث لأنه لا يقال مثلاً مكث زيد حزيناً إلا على تقدير زمن معين نحو مكث شهراً أو دهوراً حزيناً وما شابه ذلك وتذكر الآيات أن ما وقعوا فيه من العذاب كان وفق أعمالهم (فلا ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أعظم من النار)^٦ ، و سبب كفرهم هو عدم إيمانهم بالبعث والحساب ، وتكذيبهم

^١ - انظر ابن جرير جـ ٣٠ ص ٧ ، الزمخشري جـ ٤ ص ٢٠٩ ، ابن عطية جـ ١٦ ص ٢١٠ ، الرازي جـ ٣١ ص ١٢ ، القرطبي جـ ١٩ ص ١٧٥ ، النيسابوري جـ ٣٠ ص ٨ الخازن جـ ٤ ص ٣٤٧ ، ابن كثير جـ ٧ ص ١٩٨ ، البقاعي جـ ٢١ ص ٢٠٣ ، حاشية الشهاب جـ ٨ ص ٣٠٦ ، الطاهر بن عاشور جـ ٣٠ ص ٣٥ ، ،

المتن والهامش .

^٢ - انظر المصادر السابقة .

^٣ - البقاعي جـ ٢١ ص ٢٠٦ .

^٤ - الطاهر بن عاشور جـ ٣٠ ص ٣٨ .

^٥ - الزمخشري جـ ٤ ص ٢٠٩ .

^٦ - الخازن جـ ٤ ص ٣٤٧ .

لآيات الله فإن عدم الإيمان باليوم الآخر يجرئهم على المعاصي ، والتكذيب بالآيات يحملهم على الإشراف بالله . ثم جاء قوله تعالى " وكل شيء أحصيناه كتاباً " . وفي الحكمة من مجيئه هنا يقول محيي الدين زادة (ثم إنه تعالى لما بيّن أن ما يوجب الجزاء المذكور وهو فسادهم بحسب قوتهم العملية والنظرية بيّن أن تفاصيل أحوالهم الفاسدة عملاً واعتقاداً معلومة له فقال " وكل شيء أحصيناه كتاباً " وهذه الجملة معترضة بين السبب ومسببه فإن قوله " فذوقوا " مسبب عن تكذيبهم والأصل " وكذبوا بآياتنا كذاباً فذوقوا " وفائدة الاعتراض تقرير ما ادّعاه من قوله " جزاء وفاقا " كأنه قال أنا عالم بجميع ما فعلوه على وجه جزئي فأجازيهم جزاء وفاقا لأعمالهم وما أنا بظلام للعبيد)^١ فبعد أن ذكر تعالى أنه مجازيهم جزاء وفاقا ، وبعد أن بين أن السبب عدم التصديق باليوم الآخر وعدم تصديق الآيات المرسلّة أكد على عدله تعالى بجملة " وكل شيء أحصيناه كتاباً " ثم ذكر النتيجة التي أفضى إليها تكذيبهم - كما أشارت إليه فاء الجزاء - وهي ذوقهم العذاب وقد روي أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال في آية " فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً " (لم تنزل على أهل النار آية أشد من هذه فذوقوا ... " قال : فهم في مزيد من العذاب أبداً)^٢ . وقد تعود شدتها إلى عدة أمور ، أولها : موقع الآية من سابقاتها ، وثانيها : الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، وثالثها : صورة الاستثناء . أما الأول وهو موقعها فهو أنها تكرر لعقابهم المذكور سابقاً في قوله " إن جهنم ... " وقد أشار الرازي إلى ذلك في قوله (إنه تعالى عدد وجوه العقاب ثم حكم بأنه جزاء موافق لأعمالهم ثم عدد فضائحهم ثم قال " فذوقوا " فكأنه تعالى أفتى وأقام الدلائل ثم أعاد تلك الفتوى بعينها وذلك يدل على المبالغة في التعذيب)^٣ . ثاني الأمور التي تدل على شدة هذه الآية الالتفات الذي دل على كمال الغضب^٤ ، لمشافهتهم بالخطاب (بالتقريع والتوبيخ وهو أعظم في الإهانة والتحقير)^٥ ، مع ما في التقريع في يوم الفصل والغضب من أرحم الراحمين من

^١ - حاشية محيي الدين زادة ج ٤ ص ٦٠٨ .

^٢ - رواه ابن جرير ج ٣٠ ص ١٢ وابن كثير ج ٧ ص ٢٠٠ .

^٣ - الرازي ج ٣١ ص ١٩ .

^٤ - انظر المصدر السابق .

^٥ - الشهاب ج ٨ ص ٣٠٨ .

تأيس لهم^١ ، وثالث الأمور صياغة الآية في صورة استثناء الأسوأ من السيئ (وفي هذا الأسلوب ابتداء مطمع بانتهاء مؤيس وذلك أشد حزناً وغماً بما يوههم أن ما ألقوا فيه هو منتهى التعذيب حتى إذا ولج ذلك أسماعهم فحزنوا له اتبع بأنهم ينتظرهم عذاب آخر أشد فكان ذلك حزناً فوق حزن ، فهذا منوال هذا النظم وهو مؤذن بشدة الغضب)^٢ .

وبعد ذكر حال هؤلاء يذكر حال أصدادهم فيقول تعالى " إن للمتقين مفازاً ... " وقد فسر المفاز بالفوز بالنجاة من النار^٣ والفوز بالمطلوب^٤ ، ومكان الفوز وهو الجنة^٥ وما يعيننا هنا هو إثارة لفظ الفوز وقد ذهب الطاهر بن عاشور إلى أن (في اشتقاقه إثارة الندامة في نفوس المخاطبين بقوله " فتأتون أفواجاً " وبقوله " فلن نزيدكم إلا عذاباً ")^٦ وفيه أيضاً إسعاد لنفوس المتقين في الدنيا والآخرة ، لما يحمله من معنى تحقيق الوصول إلى الهدف ، لأن معنى الفوز (النجاة والظفر بالأمنية والخير)^٧ وأبدل من لفظ المفاز " حدائق و أعناباً " على التنكير ليفيد أنها حدائق وأعناب عظيمة الشأن^٨ ، وأوثر لفظ الحدائق ليفيد اشتغالها على (أنواع الأشجار ذوات الثمار والرياحين لتجمع مع لذة المطعم لذة البصر والشم)^٩ . وخص العنب من بين الثمار لمزيجته على سائر الفواكه^{١٠} ، وذكره دون الشجر لإفادة أن أشجار

^١ - انظر المصدر السابق ج ٨ ص ٣٠٩ .

^٢ - الطاهر بن عاشور ج ٣٠ ص ٤٢ - ٤٣ .

^٣ - انظر ابن جرير ج ٣٠ ص ١٢ ، الخازن ج ٤ ص ٣٤٨ ، البقاعي ج ٢١ ص ٢٠٩ ، حاشية الشهاب ج ٨ ص ٣٠٩ المتن والهامش .

^٤ - انظر ابن جرير ج ٣٠ ص ١٢ ، الزمخشري ج ٤ ص ٢١٠ ، الرازي ج ٣١ ص ٢٠ ، الخازن ج ٤ ص ٣٤٨ ، البقاعي ج ٢١ ص ٢١٩ ، حاشية الشهاب ج ٨ ص ٣٠٩ المتن والهامش .

^٥ - انظر ابن جرير ج ٣٠ ص ١٢ ، الزمخشري ج ٤ ص ٢١٠ ، ابن عطية ج ١٦ ص ٢١٤ ، القرطبي ج ١٩ ص ١٨١ ، أبو حيان ج ٨ ص ٤٠٧ ، ابن كثير ج ٨ ص ٢١٠ ، البقاعي ج ٢١ ص ٢٠٩ ، حاشية الشهاب ج ٨ ص ٣٠٩ ، المتن والهامش .

^٦ - الطاهر بن عاشور ج ٣٠ ص ٤٤ .

^٧ - ابن منظور، لسان العرب ج ٥ ص ٣٩٢ .

^٨ - انظر الخازن ج ٤ ص ٣٤٨ .

^٩ - البقاعي ج ٢١ ص ٢٠٩ .

^{١٠} - انظر النيسابوري ج ٣ ص ١٠ ، البقاعي ج ٢١ ص ٢٠٩ .

الجنة لا توجد إلا موقرة حملاً به^١ . وهذا التمتع بالمكان الطيب والرزق الطيب ، مقابل ما فيه الكفرة من العذاب في أسوأ مكان (جهنم) وشراهم أسوأ شراب وهو الحميم و الغساق . ومن كمال تمتع المتقين ذكر لذة الخمر والتمتع بالنساء . وقد ذكر كلاً منهما بكمال حاله ، فالخمر كثيرة غزيرة عبر عنها لفظ الدهاق (وأصله من الدهق وهو متابعة الضغط على الإنسان بشدة وعنق وكذلك الكأس الدهاق متابعتها على شاربها بكثرة وامتلاء)^٢ ، وهذه الخمر ليس فيها باطل ولا كذب .

وقد توقف الإمام الرازي أمام لفظ (كذابا) في قوله : " لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً " وأجاب عن سؤال مُفترض وهو : هل يكون المقصود بنفي صيغة المبالغة كذاباً أنهم لا يسمعون الكثير من الكذب وإنما يسمعون القليل ؟ بأن المقصود بكذاباً هنا إشارة إلى ما تقدم في قوله " وكذبوا بآياتنا كذاباً " (والمعنى أن هؤلاء السعداء لا يسمعون كلامهم المشوش الباطل الفاسد)^٣ ، وجعلها البقاعي بمعنى التكذيب فقال : (فإن هذه الصيغة تقال على التكذيب ومطلق الكذب فصار المعنى و لا أذى بمعارضة في القول)^٤ فجعله بدلالة المبالغة شاملاً لنفي حصول الكذب منهم ، وتكذيب بعضهم بعضاً ، أي كل ما يمكن أن يدخل في جنس الكذب . وقد وجدت الزمخشري في توجيه النفي في نظير ذلك وهو المبالغة في النفي في لفظ (لا يستحسرون) في قوله تعالى : " وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون " الأنبياء ١٩ يقول (فإن قلت : الاستحسار مبالغة في الحسور فكان الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور قلت : في الاستحسار بيان أن ما هم فيه يوجب غاية الحسور وأقصاه وأنهم أحقاء لتلك العبادات الباهظة بأن يستحسروا فيما يفعلون : أي تسييحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لا يتخلله فترة بفراغ أو شغل آخر)^٥ ، فإن نفي الاستحسار وهو مبالغة في الحسور لا يراد منه أنهم يحسرون قليلاً ، وإنما المراد نفيه

١ - انظر البقاعي ج ٢١ ص ٢٠٩ .

٢ - ابن جرير ج ٣٠ ص ١٣ .

٣ - الرازي ج ٣١ ص ٢١ .

٤ - البقاعي ج ٢١ ص ٢١٠ ، وانظر البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ج ٨ ص ٣٠٩ ، محيي الدين زادة ج ٤ ص ٦٠٩ .

٥ - الزمخشري ج ٢ ص ٥٦٦ .

عنهم تماما و أشارت صيغة المبالغة إلى أن ما هم فيه أمر جدير بالتعب ، ومع ذلك فهو منفي عنهم و في هذه الآية التي نحن بصدها قد يستفاد من صيغة المبالغة في الكذب وإرادة نفيه مطلقاً أن عادة المكثّر من الشراب حصول كذب كثير عنه وخرم الجنة ليس فيها ذلك .

وكما ازداد عذاب الكفرة بقوله تعالى لهم " فذوقوا ... " ، فقد اكتمل نعيم هؤلاء بمجلس الخمر الذي ذكر بعد ذكر المساكن النزهة . وفي قول البقاعي (ولما ذكر النساء ذكر الملائم لعشرتهن فقال " وكأساً ")^١ ، تأييد لما سبق أن لمحتّه من ارتباط مجالس الخمر بوجود قاصرات الطرف ، في حين ورد لفظ الصحبة في غير هذه السياقات لمعنى المؤانسة .

وإذا كان جزاء الكافرين " وفاقاً " فإن جزاء المتقين " عطاءً حساباً " ، فأما كونه عطاء فهو واضح في الفضل ، وأما كونه حساباً فقد قيل في معناه إنه كافياً ، أو كثيراً ، وجمعهما ابن كثير في قوله (جازاهم الله به و أعطاهم به بفضله ومثّه وإحسانه ورحمته " عطاءً حساباً " أي كافياً وافياً سالماً كثيراً تقول العرب أعطاني فأحسبني أي كفاني ومنه حسبي الله أي الله كافي)^٢ ، أو بحسب الأعمال ، ولعل هذا هو الأولى فمن الناس المقل ومنهم المكثّر ولكل أضعاف عمله ، ولهذا قيل إن دخول الجنة برحمة الله والدرجات فيها على قدر الأعمال^٣ . ولفظ " حساباً " إشارة إلى مقام العدل كما ذكر الرازي أي (راعيت في ثواب أعمالكم الحساب لئلا يقع في ثواب أعمالكم بخسٌ ونقصان)^٤ ، وفيه معنى الزيادة لأنه يكفي صاحبه فيما يريد ويستتبهه كما ذكر ابن كثير سابقاً وغيره^٥ .

وتأتي الآيات في سورة آل عمران لتوضح حقيقة قد تغيب عن الذهن يقول تعالى :

^١ - البقاعي ج ٢١ ص ٢١٠ .

^٢ - ابن كثير ج ٧ ص ٢٠١ .

^٣ - انظر ابن عطية ج ١٦ ص ٢١٥ ، الرازي ج ٣١ ص ٢٢ ، النيسابوري ج ٣٠ ص ١١ حاشية الشهاب ج

٨ ص ٣٠٩ المتن والهامش ، محيي الدين زادة ج ٤ ص ٦٠٩ ، ابن قيم الجوزية حادي الأرواح ص ٧٢ .

^٤ - الرازي ج ٣١ ص ٢٢ .

^٥ - انظر ابن عطية ج ١٦ ص ٢١٥ ، الرازي ج ٣١ ص ٢٢ ، الخازن ج ٤ ص ٣٤٨ ، البقاعي ج ٢١ ص

٢١١ ، حاشية الشهاب ج ٨ ص ٣٠٩ المتن والهامش ، محيي الدين زادة ج ٤ ص ٦٠٩ ، الإسكافي ، درة

التنزيل ص ٥١٧ .

لَا يَغْرَنَّاكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤُنْهَمُ
 جَهَنَّمَ وَيُسَّسُ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ
 لِلْآبِرَارِ ﴿١٩٨﴾

١٩٦ - ١٩٨ مدنية .

فكان الآيات تجيب على استفهام نشأ في نفوس السامعين عما فيه الكفرة من النعمة
 والخير وسعة الأموال ، لتقرر أن ما هم فيه إنما هو متاع ، ثم مرجعهم إلى جهنم . وفي الحكمة
 من ذكر لفظ المأوى في قوله " مأواهم جهنم " يقول أبو حيان (وعبر بالمأوى إشعاراً بانتقالهم
 عن الأماكن التي تقلبوا فيها وكان البلاد التي تقلبوا فيها إنما كانت لهم أماكن انتقال من مكان
 إلى مكان لا قرار لهم ولا خلود ثم المأوى الذي يأوون إليه ويستقرون فيه هو جهنم) ^١ . وقد
 رأى البقاعي في لفظ متاع معنى حقارة الشأن (من حيث أن لفظ المتاع أطلق في لسان العرب
 على الجيفة التي هي متاع المضطر وأرزاق سباع الحيوان وكلاهما) ^٢ ، ثم ينتهي بهم هذا المتاع إلى
 أسوأ مصير . وقد ساعد التنكير والوصف بالقلّة "متاع قليل" مع حرف العطف " ثم
 مأواهم " التي تفيد أنهم يمشون في هذا القل زمناً على بيان شدة سوء حالهم . وقد ذهب
 ابن عطية إلى تعليل آخر لقوله " لا يغرنك " حين قال (نزلت لا يغرنك في هذه الآية منزلة لا

^١ - أبو حيان ج ٣ ص ١٥٤ .

^٢ - البقاعي ج ١ ص ٢٩٢ ولم أجد هذا الفرق في المعاجم والمراجع التي بين يديّ نحو : معجم مقاييس اللغة لابن فارس
 ج ٥ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ والقاموس المحيط لمجد الدين محمد الفيروزبادي ت ٨١٧ هـ دار العلم للجميع بيروت ، بصائر
 ذوي التمييز في لطائف الكتب العزيز ، لمجد الدين محمد الفيروزبادي ، تحقيق الأستاذ عبد العليم الطحاري المجلس الأعلى
 للشؤون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م ج ٤ ص ٤٧٧ وما بعدها ابن
 منظور ، لسان العرب ، ج ٨ ص ٣٢٨ وما بعدها وقد يعود المعنى الذي ذكره إلى استخدام أقدم للكلمة ، أو أن
 السياق هو الذي يقتضيه فقد ورد لفظ متاع في قوله تعالى " يتمتعك متاعاً حسناً " هود (٣) وأشار البقاعي ج ٩
 ص ٢٢٨ إلى أن الوصف بالحسن ليلائم ما يوتاه الصالحين من المتاع في الدنيا ، ومثله وصف المرأة الصالحة بخير المتاع في
 قوله صلى الله عليه وسلم " الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة " صحيح مسلم كتاب الرضاع (٢٦٦٨) ،
 النسائي كتاب النكاح (٣١٨٠) سنن ابن ماجه كتاب النكاح (١٨٤٥) مسند أحمد مسند المكثرين من الصحابة
 (٦٢٧٩) .

تظن أن حال الكفار حسنة فتهتم لذلك وذلك أن المغتر فارح بالشيء الذي يغتر به فالكفار مغترون بتقليبهم والمؤمنون مهتمون به لكنه ربما يقع في نفس مؤمن أن هذا الإملاء للكفار إنما هو لخير لهم فيجزيء هذا جنوحاً إلى حالهم ونوعاً من الاغترار فلذلك حسنت لا يغرنك^١ ، فالآية على هذا تحذير من ظن الخير في تقلب الكفرة في البلاد وتقرير لعدم الخيرية فيه .

وقد ذهب العلماء في تحقيق لفظ الاغترار عدة مذاهب^٢ و ربما كان أقربها أنه استعارة كما صرح الطاهر حيث يقول (وهو هنا مستعار لظهور الشيء في مظهر محبوب وهو في العاقبة مكروه)^٣ ، وكأنه يشير إلى أن ظهور الشيء على خلاف ما هو عليه يرجع إلى النظرة العجلى الحالية من التمحيص ، فيكون المراد استعارة الاغترار للنظر الخالي من التمحيص بجامع فوات الحقيقة وغياها وهذا ما دل عليه كلام الرازي من (أن الغرور مصدر قولك غررت الرجل بما يستحسنه في الظاهر ثم يجده عند التفتيش على خلاف ما يحبه فيقول غرني ظاهره أي قبلته على غفلة عن امتحانه)^٤ ، وأوماً إليه ابن كثير حيث قال (يقول تعالى لا تنظر إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور فعما قليل يزول هذا كله عنهم)^٥ .

وبعد أن تذكر الآيات أن مصيرهم جهنم ، تتبعه بالجملة الحالية " وبئس المهاد " . وقد دلت جملة الحال المقترنة بالواو على أن حال جهنم مع ما تلقاهم به من التحم والعبوس^٦ ، أنها شر موضع ومكان يستقرون فيه . وفي هذا تأكيد لسوء حالهم ، لأن جملة الحال المقترنة بالواو تستقل بالفائدة فمضمونها خبر جديد فذاك ، كما أشار الإمام عبد القاهر حيث يقول : (وكل جملة جاءت حالاً ثم اقتضت الواو فذلك لأنك مستأنف بها خبراً وغير قاصد إلى أن

^١ - ابن عطية جـ ٣ ص ٣٢٦ .

^٢ - أحاب الزمخشري في الكشاف جـ ١ ص ٤٩٠ على قول من قال كيف جاز أن يغتر الرسول عليه السلام بأن فيه وجهين أحدهما أنه خطاب للرسول والمقصود أتباعه لأنه رئيسهم والثاني أنه تأكيد وإلهاب للرسول عليه السلام على غرار (ولاتكن من الكافرين) وروى البيضاوي في تفسيره بhamش حاشية الشهاب جـ ٣ ص ٩٣ أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين في رخاء ولين عيش فيقولون إن أعداء الله في خير وسعة ، فنزلت الآيات .

^٣ - الطاهر بن عاشور جـ ٤ ص ٢٠٦ .

^٤ - الرازي جـ ٩ ص ١٥٢ .

^٥ - ابن كثير جـ ٢ ص ١٨٣ .

^٦ - انظر البقاعي جـ ١٩ ص ١٠ .

تضمها إلى الفعل الأول في الإثبات) ^١ ، فهذا يعني فيما نحن بصدده أن الواو اقتضت أن يكون مقامهم في جهنم ، وأن يكون مقاماً سيئاً ، وهو عكس ما لو قيل (جهنم بئس المهاد) ، لأنها سوف تدل حينئذٍ على أن مقامهم في جهنم سيءٌ . وفي ابتداء الخبر الجديد في الجملة الحالية تأكيد نابع من تكرار المسند إليه ، يقول الإمام عبد القاهر : (المعنى في قولك جاءني زيد وهو يسرع ، على استئناف إثبات للسرعة ، ولم يكن ذلك في جاءني زيد يسرع وذلك أنك إذا أعدت ذكر زيد فجئت بضميره المنفصل المرفوع ، كان بمنزلة أن تعيد اسمه صريحاً فتقول (جاءني زيد وزيد يسرع) في أنك لا تجد سبيلاً إلى أن تدخل يسرع في صلة المجيء ، وتضمه إليه في الإثبات . وذلك أن إعادتك ذكر زيد لا يكون حتى تقصد استئناف الخبر عنه بأنه يسرع ، وحتى تبتدئ إثباتاً للسرعة) ^٢ ، فإن المسند إليه (زيد) أخبر عنه خبران الأول بالمجيء ، والثاني بالسرعة ، وتكرار المسند إليه في الآية التي نحن بصددها في جملة " بئس المصير " وهو المخصوص بالذم المحذوف يفيد شدة الترويع و التهويل - والله أعلم بمراده - .

وفي الآية ترويع إثر ترويع فجهم مأوى ومستقر ، وهي فراش ومضجع لأن المستقر في منزل لا يلامس جسده جوانبه ولكن المضطجع على الفراش لا يلامس جسده فحسب بل يلتصق به ويحتويه لأن (أصل معنى المهد التوثير) ^٣ وعلى هذا ففي الآية تهكم ، وهي تشير من جانب آخر إلى ارتباط الجزاء بالعمل وهو ما ذهب إليه البيضاوي من أن معنى المهاد (أي ما مهدوا لأنفسهم) ^٤ لما في المهد من معنى الكسب والعمل يقال (مهد لنفسه يمهد مهداً كسب وعمل ، والمهاد الفراش ، وقد مهدت الفراش مهداً بسطته ووطأته) ^٥ فكأن هؤلاء الكفار قد هيأوا لأنفسهم هذا المأوى الذي يضمهم إليه ليزيقهم أشد أنواع العذاب .

وبعد أن يذكر عقاب الكافرين يذكر ثواب أضدادهم بحرف الاستدراك لكن في قوله "لكن الذين اتقوا ربهم ... " ووجه الاستدراك - كما ذهب محيي الدين زادة - دفع توهم أن تكون قلة النفع لازمة للتقلب ، فإن المتقين إذا انقلبوا وأصابوا ما أصابه الكفار أو لم يصيبوا فإن

^١ - عبد القاهر الجرجاني ، الدلائل ص ٢١٣ .

^٢ - المصدر السابق ص ٢١٥ - ٢١٦ .

^٣ - ابن منظور ، لسان العرب ج ٣ ص ٤١٠ .

^٤ - البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ج ٣ ص ٩٤ .

^٥ - ابن منظور لسان العرب ج ٣ ص ٤١٠ .

لهم عند الله ثواباً عظيماً^١.

وحسن الاستدراك ولكن ، لأن ما بعدها من ألوان النعيم يقابل ما قبلها من ضرور العذاب . يقول أبو حيان (استدرك ولكن الإخبار عن المتقين بمقابل ما أخبر به عن الكافرين ، وذلك شيئان أحدهما : مكان استقرار وهي الجنات ، والثاني : ذكر الخلود فيها وهو الإقامة دائماً والتمتع بنعيمها سرمداً فقابل جهنم بالجنات ، وقابل قلة متاعهم بالخلود الذي هو الديمومة في النعيم . فوقعت (لكن) هنا أحسن موقع لأنه آله معنى الجملة إلى تكذيب^٢ الكفار وإلى تنعيم المتقين فهي واقعة بين الضدين)^٣ فوجه حسن الاستدراك هنا أن ما بعد لكن لا يكون إلا مخالفاً لما قبلها^٤ فإذا كان ضده أبرز حرف الاستدراك شدة المباشرة بينهما . ولعل الذي سوغ مقابلة قلة المتاع بالخلود - فيما ذكره أبو حيان - ما ذكره الأزهرى من أن المتاع في الأصل هو كل شيء (ينتفع به و يتبلغ به ويتزود والفناء يأتي عليه في الدنيا)^٥ فهو شيء لا بقاء له . ثم يقابله من وجه آخر قوله تعالى " نزلاً من عند الله " فذلك متاع حقير وهو كما سبق أن ذكر البقاعي مما يطلق على الجيف ، وهذا نزل تكريم من عند الله وما ظنك بضيف في ضيافة الرحمن !^٦ هذا مع ما في الإشارة بقوله " نزلاً " إلى أنه أول ما يلقونه ثم يزدادون من النعيم ، كما أن الضيف يقدم له النزل أول ما يرد ثم يكمل تكريمه فيما بعد . وإذا كان الكفار في جهنم مستقرين ثابتين بما أفادته الجملة الاسمية " مأواهم جهنم " ، فإن اختصاص المتقين بالجنات " لهم جنات " يجعلهم ينتقلون فيها حيث شاءوا ، وهذا يؤيد ما ذكرته سابقاً من تحديد أماكن العذاب وسعة أماكن الثواب . وفي حين يوحى لفظ المهاد بنزول الكفرة في الموضع المنخفض ، فإن كون الجنة تجري من تحتها الأنهار دليل على علو مكانها ومن ثم مكان المتقين . هذا ما ذكره الإسكافي بدرة التنزيل في حديثه عن آية المائدة وشبهاتها دون أن يشير إلى هذه الآية حيث يقول : (" من " لابتداء الغاية ، والأنهار مبادئها

^١ - انظر حاشية محيي الدين زاده ج ٢ ص ٦٩٨ .

^٢ - هكذا في الكتاب ولعل الأصوب (تعذيب) لما ذكره المصنف من أن المقابلة بين الضدين .

^٣ - أبو حيان ج ٣ ص ١٥٤ .

^٤ - انظر ربيعة الكعبي ، التركيب الاستثنائي ص ٣٣ .

^٥ - ابن منظور ، لسان العرب ج ٨ ص ٣٢٩ .

^٦ - انظر حاشية الشهاب ج ٣ ص ٩٤ .

أشرف ، والجنات التي مبادئ الأنهار من تحت أشجارها أشرف من غيرها فكل موضع ذكر فيه (من تحتها) إنما هو عام لقوم فيهم الأنبياء والموضع الذي لم يذكر فيه (من) إنما هو لقوم مخصوصين ليس فيهم الأنبياء عليهم السلام)^١ ، فالجنة التي تكون الأنهار من تحتها أعلى درجة ، لأن هذا يعني أن مبتدأ الأنهار من تحتها ، ثم تجري في بقية الجنان تحت قصور المؤمنين وغرفهم ، ويؤيد هذا الحديث الذي روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري أنه قال (إن في الجنة مائة درجة أعدتها الله عز وجل للمجاهدين في سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة)^٢ .

وفي ختم ثواب المتقين بقوله " وما عند الله خير للأبرار " بعد قوله " نزلاً من عند الله " تفخيم لشأن جزائهم ، وإيدان بأنه خير لا ينقطع ولا يفنى ، لأنه من عند الله الذي لا يخلف وعده وييده خزائن السماوات والأرض ومقاليدها . وتكرار لفظ الجلالة تأكيد لشرف هذا الجزاء وتكثير لفظ " خير " إشارة إلى شمول خيريته وعمومها^٣ وترغيب في هذا الخير يجعله للأبرار .

وقد ذكر المؤمنون في أول الآيات بلفظ المتقين وفي آخرها بلفظ الأبرار (والأبرار هم المتقون الذين أخبر عنهم بأن لهم جنات)^٤ وقد يكون السبب في هذا الاختلاف مع أن المقصود باللفظين واحد ، أن ذكر المتقين كان مناسباً لذكر الكفار ، فكأنه عرفهم بتوقيهم مما وقع فيه الكفار من الشرك . ولفظ الأبرار أشار إلى الصفة الجامعة لكل خصال الخير فيهم ، وليس فقط توقيهم عن الشرك ، لأن أجمع ما قيل في معنى البر إنه الخير^٥ . وقد أشار أبو

^١ - الخطيب الإسكافي درة التنزيل ج ١ ص ٢٩٠ ، و في نسخة دار الأفاق ص ١٠٢ : (والأنهار أشرف مبادئها) والموجود هنا أوضح .

^٢ - صحيح البخاري ، كتاب الجهاد والسير (٢٥٨١) ، كتاب التوحيد (٦٨٧٣) ، سنن الترمذي ، كتاب صفة الجنة (٢٤٥٣) ، (٢٤٥٤) ، سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد (٤٣٢٢) ، مسند أحمد ، باقي مسند المكثرين (٨٠٦٧) ، (٨١١٩) ، مسند الأنصار (٢١٠٧٣) ، باقي مسند الأنصار (٢١٦٣٧) ، (٢١٦٧٦) موسوعة الحديث .

^٣ - انظر شروح التلخيص ج ٢ ص ٩١ .

^٤ - أبو حيان ج ٣ ص ١٥٥ ، انظر أبو السعود ج ٢ ص ١٣٥ .

^٥ - انظر ابن منظور لسان العرب ج ٤ ص ٥٢ .

السعود إلى تكرار ذكر الثواب قبل العقاب في قوله " فاستجاب لهم ربهم ... " وبعده في قوله " لكن الذين اتقوا ... " بأنه (بيان لكمال حسن حال المؤمنين غب بيان وتكرير له إثر تقرير)^١ ، وجعل البقاعي توسط الإنذار بين البشارتين مداواة لما يمكن أن يؤثر في إيمان بعض النفوس حين تنظر إلى ما فيه الكفار من عاجل السعة^٢ . وقد بنيت هذه الآيات على الترغيب بذكر أولي الألباب ودعائهم واستجابة الله لهم فناسب تكرار البشارة ، ويؤيد هذا ما جاء في الصفات حين توسطت آيات الثواب في قوله " أولئك لهم رزق معلوم... " بين موضعين لذكر العقاب أولهما " إنكم لذائقو العذاب الأليم " وثانيهما " قل أذلك خير نزلًا أم شجرة الزقوم " ، لأن الآيات هناك قد بنيت على ترهيب المكذبين بالبعث .

وتأتي آيات المقابلة في الجزاء في سورة محمد مؤتلفة مع سابقاتها ائتلاف الدليل بموضوعه ، فالسورة تتحدث من أول آية فيها عن الكافرين والمؤمنين وجزاء الصد عن سبيل الله مقابل جزاء الإيمان بما أنزل على محمد عليه السلام . وتذكر نصر الله لمن ينصره وإحباطه لأعمال الكافرين ، وولايته تعالى للمؤمنين وتخليه عن ولاية الكافرين ، ومصير المؤمنين إلى الجنات و مصير الكافرين إلى النار ، ثم يقول تعالى " أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم " محمد ١٤ فالإنكار المنصب على المساواة بين المتبع للبينه و المتبع لهواه ، دليل وبرهان قوي على عدم مساواة الخير بالشر في ميزان العدل عند الله تعالى . ويردفه برهان آخر مشبه بالأول لكنه منصب على جزاء كل منهما^٣ ، وهو قوله تعالى :

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ^ط فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ
مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّرِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن
عَسَلٍ مُّصَفًّى^ط وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ
خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ^ط

محمد ١٥ مدنية .

^١ - أبو السعود جـ ٢ ص ١٣٥ .

^٢ - انظر البقاعي جـ ٥ ص ١٦٣ .

^٣ - انظر ابن المنير ، الإنصاف بهامش الكشاف جـ ٣ ص ٥٣٣ ، حاشية الشهاب جـ ٨ ص ٤٤ - ٤٥ المتن والهامش

فالأية تنكر أبلغ إنكار مساواة الجنة بالنار مع عدم وجود حرف الإنكار (لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار ودخوله في حيزه وانخراطه في سلكه وهو قوله تعالى : " أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله " فكأنه قيل : أمثل الجنة كمن هو خالد في النار ؟)^١ ، وفي تعريه عن حرف الإنكار (زيادة تصوير لمكابرة من يسوى بين المتمسك بالبينه والتابع لهواه وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار وبين النار التي يسقى أهلها الحميم)^٢ . وقد صرح الشهاب بوجه الأبلغية فيه قائلاً (وجهه أنه لما ترك فيه حرف الإنكار كان في إثباته إشارة إلى التهكم به وإلى تخطئة من توهمه ، وهو كالبيان والبرهان على ما قبله حتى قيل لا يستوي ذو الحجة البينة والأهوية القبيحة البينة حتى تستوي الجنة والنار)^٣ ، أي أن وجه المبالغة في ترك حرف الإنكار مع ثبوت معناه هو التهكم فكما يوقن كل عاقل أن لا مساواة بين متبع الحق ومتبع الهوى ، فهو يوقن أن لا مساواة بين الجنة والنار ، ولا يستطيع القول بذلك إلا من لا عقل له . ومن هنا استغنى الكلام عن حرف الإنكار لظهور دلالاته ، وهذا أوضح مما ذهب إليه الطاهر بأن (المراد بانتفاء المماثلة الكناية عن التفاضل ، والمقصود بالفضل ظاهر هو الفريق الذي وقع عليه الثناء)^٤

ونظراً لتكرار الوعد بالجنة للذين آمنوا فيما سبق من الآيات في السور المكية^٥ (صار الوعد بها في غاية التحقق فعبر عنه هنا بالماضي المبني للمفعول إشارة إلى أنه أمر قد تحقق بأسهل أمر)^٦ ولما كان الحديث منصباً على وصف الجنة لبيان عدم مساواتها بالنار قال تعالى : " فيها أنهار ... " . وفي القول بوجود أنهار من الماء واللبن والخمر والعسل إشارة إلى غزارتها^٧ ، ورؤيتها تجري أمام أعين الرائيين ، فتجتمع لهم بذلك لذة النظر مع لذة الذوق وقد قيل

ثلاثة تنفي عن القلب الحزنُ
الخضرةُ والماءُ والوجهُ الحسنُ^٨

^١ - الرمخشري جـ ٣ ص ٥٣٣ .

^٢ - المصدر السابق .

^٣ - حاشية الشهاب جـ ٨ ص ٤٥ .

^٤ - الطاهر بن عاشور جـ ٢٦ ص ٩٤ .

^٥ - هذه السورة مدنية رقمها ٩٤ في ترتيب النزول .

^٦ - البقاعي جـ ١٨ ص ٢١٨ ، حيث أشار إلى سبق ذكر الوعد بالجنة في السورة نفسها .

^٧ - انظر حاشية الشهاب جـ ٨ ص ٤٦ .

^٨ - ذكره محيي الدين زاده جـ ٤ ص ٣١٧ دون ذكر قائله وهو من الأبيات المتداولة .

وجريانها لا يكون في أنحاديده كما ذكر الطاهر^١ ، بل تجري فوق الأرض لما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : (لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في أودية في الأرض والله إنما لتجري سائحة على وجه الأرض حافاتهما قباب اللؤلؤ وطينها المسك الأذفر)^٢ . وقد نفى القرآن عن هذه الأنهار كل الآفات مثبتاً لها كل المحاسن ، فالماء غير آسن أي غير متغير الريح والطعم واللون وفي الحكمة من ذلك قال ابن قيم الجوزية : (فإن قيل : فقد وصف سبحانه الأنهار بأنها جارية ، ومعلوم أن الماء الجاري لا يأسن ، فما فائدة قوله غير آسن ؟ قيل : الماء الجاري وإن كان لا يأسن فإنه إذا أخذ منه شيء وطال مكثه أسن وماء الجنة لا يعرض له ذلك ولو طال مكثه ما طال)^٣ . واللبن لم يتغير طعمه لأنه لم يخرج من ضروع الماشية ، كما في الحديث المرفوع ولم يتغير طعمه فيصبح حامضاً ولا قارصاً^٤ ولا حازراً^٥ بل هو في غاية البياض والحلاوة والدسومة . والخمر لم يعصرها الرجال بأقدامهم ، كما في الحديث المرفوع^٦ ، فليس بها كراهة طعم ولا ريح كخمر الدنيا ، وإنما هي لذة للشاربين وهذا على معنى أن طعمها يلتذ به كل إنسان مع اختلاف أذواقهم ، قال الرازي (قال في الخمر لذة للشاربين ولم يقل في اللبن لم يتغير طعمه للطاعمين ، ولا قال في العسل مصفى للناظرين ، لأن اللذة تختلف باختلاف الأشخاص ... فقال (لذة للشاربين) بأسرهم ، ولأن الخمر كريهة الطعم فقال لذة أي لا يكون في خمر الآخرة كراهة الطعم ، وأما الطعم واللون فلا يختلفان باختلاف الناس ، فإن الحلو والحامض وغيرهما يدركها كل أحد كذلك ، لكنه قد يعافه بعض الناس ويلتذ به البعض مع اتفاقهم على أن له طعماً واحداً ، وكذلك اللون فلم

^١ - انظر الطاهر بن عاشور ج ٢٦ ص ٩٦ والقرطبي ج ١ ص ٢٤٠ آية البقرة (٢٥) .

^٢ - رواه ابن كثير ج ٦ ص ٣١٦ ، ابن قيم الجوزية ، حادي الأرواح ص ١٣٥ .

^٣ - ابن قيم الجوزية حادي الأرواح ص ١٣٣ .

^٤ - في اللسان ج ٧ ص ٧٠ (شراب قارص يحذي اللسان) وفي حاشية الشهاب ج ٨ ص ٤٥ (نوع من الحموضة كأنها تقرص لسان الشارب بقبضه) وهو أوضح .

^٥ - في اللسان ج ٤ ص ١٨٥ (الحزر - بالحاء المهملة - من اللبن فوق الحامض) وفي حاشية الشهاب ج ٨ ص ٤٥ رواها بالحاء المعجمة ولم أجد لها في فصل الخاء وقد قال (هو نوع من الحموضة أشد منه بلذعه) أي أشد من القارص .

^٦ - رواه ابن كثير ج ٦ ص ٣١٥ ، ولم يسنده ، وكذلك الحديث عن اللبن (لم يخرج من ضروع الماشية) .

يكن إلى التصريح بالتعميم حاجة) ^١ . والعسل خال من بقايا الشمع وما شابه ذلك مما يكدر صفاءه . و تنكير لفظ أنهار يفيد عظمة شأنها .

أما الحكمة من ورودها على هذا الترتيب فقد ذكر أبو حيان وجهاً تبعه فيه ابن قيم الجوزية (وبدئ من هذه الأنهار بالماء وهو الذي لا يستغنى عنه في المشروبات، ثم باللبن إذ كان يجري مجرى المطعوم في كثير من أقوات العرب وغيرهم، ثم بالخمير لأنه إذا حصل الري و المطعوم تشوفت النفس إلى ما تلتذ به، ثم بالعسل لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم فهو متأخر في الهيئة) ^٢ . ورأى البقاعي رأياً وصفه بأنه أحسن مما قال أبو حيان وهو (أنه لما كان السياق للتعجب في ضرب المثل لأنه قول لا ينفك عن غرابة بدأ بأنهار الماء لغرابتها في بلادهم، وشدة حاجتهم إليها، ولما كان خلوها عن تغير أغرب نفاه، ولما كان اللبن أقل فكان جريه أنهاراً أغرب ثني به ، ولما كان الخمر أعز ثلث به ، ولما كان العسل أشرفها وأقلها ختم به) ^٣ ونلاحظ أن البقاعي أشار في أنهار الماء إلى تقديمها لغرابة وجودها في بلاد العرب، ومثله الطاهر بن عاشور ^٤ . والأظهر أن لا تربط معاني القرآن وخاصة في مجال الثواب والعقاب بالعربي خاصة ، لأنه نزل لكافة الأمم. وإذا كان الماء قليلاً عند العرب فهو كثير عند غيرهم وهكذا غيره . وإنما ينبغي البناء على أمر عام لطبيعة النفس الإنسانية . وقد نستطيع القول بأن التدرج كان للغرابة ، و لنفاسة هذه الأشياء . فليس مستغرباً وجود نهر من الماء ولذا بدئ به ثم تدرج الأمر في الغرابة فذكر اللبن ثم الخمر ثم العسل، لأن وجود أنهار من اللبن أمر أكثر غرابة وأكثر منه وجود أنهار خمر وعسل وكذلك لنفاسة هذه الأشياء. فالماء أصل الحياة ولكنه غير متوفر في كثير من الأشياء و الأماكن وأعز منه اللبن وأعز وأنفس منهما خمر الدنيا في مقياس البشر وخمر الجنة التي لا غول فيها وأكثرهم نفاسة العسل . وقد يكون من الأسباب التي اقتضت هذا الترتيب أن استفادة الإنسان منها وفقاً له فالإنسان لا يكاد يستغني عن الماء وأقل منه احتياجاً واستهلاكاً اللبن الذي هو غذاء وقوت ثم هو يشرب الخمر أقل من ذلك للذة، ويتناول من العسل أقل للتمتع بطعمه، ولعل هذا أولى من القول بأن العسل شفاء لأنه

^١ - الرازي جـ ٢٨ ص ٥٥ .

^٢ - أبو حيان جـ ٨ ص ٧٩ ، وانظر ابن قيم الجوزية ، حادي الأرواح ص ١٣٣ .

^٣ - البقاعي جـ ١٨ ص ٢٢٢-٢٢٣ .

^٤ - انظر الطاهر بن عاشور جـ ٢٦ ص ٩٦ .

لا داء هناك ولا سقم .

و قد لحظت أن الأتجار في السور السابقة لم تذكر إلا عموماً و الأشربة لم يذكر منها إلا الخمر في قوله تعالى " يدعون فيها بفاكهة كثيرة و شراب " ص ٥١ ، وقوله " يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم " الطور ٢٣ ، وقوله " وكأساً دهاقاً " النبأ ٣٤ ، ولم يذكر من صفتها غالباً إلا ما ينفي الضرر عنها . وقد أضافت الآيات هنا أن " لهم فيها من كل الثمرات " وذكرها بعد الشراب يؤيد أنها للنفك - كما ذهب الخازن^١ - والتبعيض فيها دليل على أن الموجود أكثر . ولهم فوق هذا مغفرة من ربهم .

وقد ذهب المفسرون في تفسير مغفرة إلى عدة أقوال، فذكر ابن عطية^٢ والشهاب^٣ أنها النعيم الذي سببته المغفرة . وذهب الرازي إلى أنها إما أن تكون على التقليم و التأخير أي كانت لهم مغفرة قبل دخولها ، وإما على معنى رفع التكليف عنهم فهم يأكلون ويشربون دون حساب ، وإما على معنى ستر قبائح ما يستنتج من الفضلات عن الطعام و الشراب^٤ .

و حين اطلعت على رأي البقاعي الذي جعل معنى المغفرة محو الذنوب و آثارها (بحيث لا يخشون لها عاقبة بعقاب ولا عتاب)^٥ حتى لا يتكدر عيشهم وجدت أن هذا المقصد يشبه ما لحظته في قوله تعالى " ووقاهم عذاب الجحيم " الدخان ٥٦ ، وقوله تعالى " ووقاهم ربهم عذاب الجحيم " الطور ١٨ من حيث دلالة ذكرهما بعد النعيم على عدم الخروج منه إلى العذاب مرة أخرى، لأن منادياً ينادي بذلك هناك، ومن ثم على الخلود . فعدم المعاقبة يعني أن نعيمهم لا يتكدر ولا يتنقص وعدم العقاب يعني أنه لا ينقطع ولا يزول، ومن ثم فهو يشير إلى الخلود .

ومما يؤنس هذا الرأي ما يقتضيه تقابل المعاني فإن الآيات قابلت الجنة بالنار، والأتجار بالماء الحميم، ووجود كل الثمرات بالزقوم - كما أشار إليه ابن كيسان^٦ - ودلت عليه آيات أخرى

^١ - انظر الخازن ج ٤ ص ١٣٧ .

^٢ - انظر ابن عطية ج ١٥ ص ٦١ .

^٣ - انظر الشهاب ج ٨ ص ٤٦ .

^٤ - انظر الرازي ج ٢٨ ص ٥٥ .

^٥ - البقاعي ج ١٨ ص ٢٢٤ .

^٦ - روى عنه القرطبي قوله (مثل هذه الجنة التي فيها الثمار والأتجار كمثل النار التي فيها الحميم والزقوم) القرطبي

ج ١٦ ص ٢٣٧ .

ربطت شرب الحميم بأكل الزقوم^١، وهذه المقابلة الأخيرة أظهر مما ذهب إليه الرازي - مع تحقق ما قاله في مواضع أخرى - من جعل الثمرات زيادة لا مقابل لها لأن هذا من شأن وصف النعيم^٢ وبقاء الخلود في النار لا مقابل له . فجعل المغفرة دالة على الخلود في الجنة ينتظم به سلك المعاني في الآية لأن الخلود في الجنة يزداد به النعيم تميزاً مقابل الخلود في عذاب النار وصنوفه . وهو أيضاً أظهر من جعل المغفرة بمعنى ستر قبائح قضاء الحاجة مقابلة لتقطع الأمعاء من الحميم^٣ ، لأن عذاب تقطع الأمعاء شديد جداً فقد روى أنها تذوب وتسيل بين قدميه^٤ - أعاذنا الله منه - فالأنسب أن يقابل بنعمة كبيرة جداً كنعمة تناول كل الثمرات مثلاً ، وليس بعدم قضاء الحاجة . ثم إن الآيات بنيت على تفخيم شأن الثواب نحو تنكير لفظ أهـار، وجنس كل نهر، وتعميم أنواع الثمرات، ثم التنكير والتنوين في لفظ المغفرة ، كل هذا يدل على أنها مغفرة عظيمة الشأن - كما ذكر الألويسي^٥ - فالقول بأنها مغفرة للنتاج عن المطعوم والمشروب يذهب بعظمة شأنها . فالمؤمنون يتنعمون في الجنة بظلالها والالتذاذ بشرب أهـارها وهذا بكرمه تعالى وفضله ولهم فوق هذا سعادة بنعمة أخرى ذكرت مستقلة لعظمتها وهي مغفرته تعالى لهم، ووقايتهم من العذاب، سواء أريد بذلك عدم الخروج من هذا النعيم إلى العذاب، أو أريد الامتنان عليهم برأس الفضل والسبب فيما هم فيه من النعيم وهو المغفرة .

و في مصادر اللغة والاستعمال جاء قولهم : (جاء القوم جمّاً غفيراً ... أي جاءوا بجماعتهم الشريفة والوضيع ولم يتخلف أحد وكانت فيهم كثرة ... وغفر الجرح يغفر غفراً نكس وانتقض)^٦ وفي هذا دلالة على معنى الزيادة. فأما الزيادة في الجماعة فظاهرة وأما في

^١ - نحو آية الواقعة " لاأكلون من شجر من زقوم ، فمالتون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم " ٥٢ - ٥٤ ، وآية الصافات " فإنهم لاأكلون منها فمالتون منها البطون ثم إن لهم عليها لشرباً من حميم " ٦٦ - ٧٦ .

^٢ - انظر الرازي جـ ٢٨ ص ٥٧ .

^٣ - انظر المصدر السابق .

^٤ - روى الخازن جـ ٤ ص ١٣٧ ما أخرجه الترمذي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال (إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمر من بين قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان) ، كتاب صفة جهنم (٢٥٠٥) مسند أحمد ، باقي مسند المكثرين (٨٥٠٩) ، موسوعة الحديث الشريف .

^٥ - انظر الألويسي جـ ٢٦ ص ٤٩ .

^٦ - ابن منظور، لسان العرب جـ ٥ ص ٤٤ .

الجرح فإن النكس فيه زيادة للألم ، لأن المرض يعود أشد مما كان . فهل يمكن أن تكون هذه المعاني متضمنة في المذكور في القرآن فيشير لفظ المغفرة إلى معنى الزيادة أي لهم في الجنة أنهار وثمار وزيادة من ربهم . أو أنها بعيدة عنها ؟

وبالتأمل نرى أن صورة النعيم فيها تفصيل وتفخيم لشأنه كما هو واضح، وفي المقابل فإن آية العذاب وإن كانت موجزة فهي تشير بصياغتها إلى صنوف كثيرة منه اقتضاها الخلود في النار بما يشير إليه من الثقل زمناً طويلاً فيها، وسقي الحميم الذي وردت صفته في الأحاديث الشريفة وطريقته المهينة في آيات أخرى مثل آية الواقعة " فشاربون شرب الهيم " والدخان في قوله: " ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم " وغيرها .

ويتشابه ابتداء آية سورة الرعد بآية محمد فيقول تعالى :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾

٣٥ مدينة وقيل مكة^١ .

فمثل الجنة المذكور هناك هو المذكور هنا، ثم يختلف سياق الآيتين فقد جاءت هنا بعد ذكر العذاب الذي اختص به الكافرون، فقال تعالى : " أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضل الله فما له من هاد، لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق " الرعد ٣٣ - ٣٤ . فالعذاب الذي خصهم به في قوله سبحانه " لهم عذاب " بتقدم الجار والمجرور وتنكير لفظه، هو عذاب شديد وعظيم^٢ ، يشمل عذاب الدنيا كالقتل والأسر^٣ ، وعذاب الآخرة الذي هو أشق عليهم لشدته ودوامه^١ .

^١ - انظر السيوطي ، الاتقان ج ١ ص ١٢ ، الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ١٨٨ .

^٢ - انظر الطاهر بن عاشور ج ١٣ ص ١٤٥ .

^٣ - انظر ابن جرير ج ١٣ ص ١٠٨ .

والمتقون تحقق وعد الله الذي لا يخلف الميعاد لهم بجنة تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها ويشير حرف الجر (من) إلى أنها جنة عالية لأن مبادئ الأنهار من تحتها - لما سبق أن ذكر -^٢

وإذا كان التنكير في قوله " لهم عذاب " يبين أنه لا يدرك منه سوى عظيم (الألم المستمر)^٣ ، فإن التعريف في لفظ جنة يبين أنها معرفة لهم بما ذكره تعالى في الآيات السابقة على هذه في النزول ، وبقوله تعالى : " ويدخلهم الجنة عرفها لهم " محمد ٦ . ويقابل كون عذاب الكافرين في الآخرة إيلاماً وإضراراً ، ليس فيه من الراحة شيء^٤ ، مستمراً لأنه أنواع كثيرة^٥ دل عليها نحو قوله " وآخر من شكله أزواج " ص ٥٨ ، والدعاء بالثبور في قوله تعالى " وادعوا ثبوراً كثيراً " الفرقان ١٤ ؛ يقابل ذلك كون ثواب المتقين (منافع خالصة عن الشوائب ، موصوفة بصفة الدوام)^٦ . فالجنة - بلا شك - منفعة ، ودل على خلوصها من الشوائب ما ذكر من الظل ، والأكل المعلوم انتفاء الضرر عنه بآيات أخرى نحو " يدعون فيها بكل فاكهة آمنين " الدخان ٥٥ وقوله: " فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة " الواقعة ٣٢ - ٣٣ ، أما دوامها فلأن الأنهار تنبت الأشجار وهذا يفيد دوام الثمر والظل^٧ ثم ختمت الآيات بقوله " تلك عقبي الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار " ففي الإشارة إلى الثواب بلفظ تلك ما يفيد بُعد هذا الجزاء في المنزلة وأن هذه العقبي جديرة بمن اتقى الله وفيه حث على التقوى والتعبير يلح إلى كل ما ذكر عن الجنة ونعيمها مما لا يدرك وصفه في حين أن الحصر المستفاد من تعريف الخبر في قوله : " عقبى الكافرين النار " يعين نوع الجزاء والمجزى به مما لا يدع للكافرين أملاً في النجاة، وهذا ما بينه البيضاوي بقوله (وفي ترتيب النظمين إطماع للمتقين وإقناط للكافرين)^٨ وهكذا نجد سياق الآيات هنا يوجز الثواب - عكس ما هو في سورة محمد - حيث ذكر هناك أنواع الأنهار وصفاتها في حين اكتفى هنا بذكر وجودها "تجري

^١ - انظر الرازي ج ١٩ ص ٥٨ ، البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ج ٥ ص ٢٤٤ .

^٢ - في آية آل عمران ١٩٦ - ١٩٨ .

^٣ - البقاعي ج ١٠ ص ٣٥٣ .

^٤ - انظر الرازي ج ١٩ ص ٥٨ .

^٥ - انظر المصدر السابق .

^٦ - المصدر السابق ص ٥٩ .

^٧ - انظر البقاعي ج ١٠ ص ٣٥٤ .

^٨ - البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ج ٥ ص ٢٤٥ .

من تحتها الأتھار". وذكر هناك نوع عذاب الكافرين وهو شرب الحميم في حين أجهل هنا بلفظ عذاب الآخرة في قوله "ولعذاب الآخرة أشق" ووصف بأنه أشق ، ومثله كثير في كتاب الله يتراوح القول فيه بين الإجمال والتفصيل .

والخوف والخشية من الله تعالى توصلان إلى الإيمان وتعدان عنواناً له ، ولكن مرتبة الخشية أكبر من الخوف، لأن (الخوف خشية سببها ذل الخاشي، والخشية خوف سببه عظمة المخشي... والعبد من الله خائف وخاش لأنه إذا نظر إلى نفسه رآها في غاية الضعف فهو خائف، وإذا نظر إلى حضرة الله رآها في غاية العظمة فهو خاش لكن درجة الخاشي فوق درجة الخائف)^١. وقد جاء جزاء الخشية في موضعين مقابلاً بضدها ، فجاء في سورة يس في قوله تعالى " وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم " يس ١٠ - ١١ مكية . وفي سورة الملك قوله

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

٦ - ١٢ مكية .

فالخشية في الموضوعين نتجت عن استعمال العقول لتدبر الآيات، مما جعل النفوس تستجيب

^١ - الرازي ج ٢٩ ص ١٢٢ في تفسير آية الرحمن ٤٦ و أشار في تفسير آية ق (٣٣) ج ٢٧ ص ١٧٧ إلى أن هذا الفرق في الغالب .

لأمر ربها. وقد لحظت أن جزاء الخشية وهو قوله " فبشرهم بمغفرة وأجر كريم " وقوله " لهم مغفرة وأجر كبير " قد جاء عاماً منكرّاً ليشمل مالا يحيط الوصف به من أنواع النعيم. ولعل هذا يعود إلى معنى الخشية فهي أولاً أمر باطن في النفوس لا يعلمه سوى الله فناسب أن يكون جزاؤه مخفياً لا يدرك كنهه، فيجازي الله كلاً على قدر خشيته، وهي ثانياً مرتبة أعلى من الخوف مما يستدعى أن يكون جزاؤها أعلى قدرّاً من جزاء الخوف فلا تبلغ الألفاظ وصفه. ويرجح ذلك ما علق به الرازي على جزاء الخوف في سورة الرحمن حيث قال (وإذا كان هذا للخائف فما ظنك بالخاشي ؟)^١.

ونلاحظ بين آيتي يس والملك فرقاً وهو أن الأجر جاء في سورة يس موصوفاً بقوله (كريم)، وفي الملك بأنه (كبير)، فوصف الأجر بالكريم مناسبٌ للبشارة المذكورة معه في قوله: " فبشره بمغفرة وأجر كريم " لأن البشارة لا تكون إلا بأعظم الأشياء^٢، ووصف الكرم - كما سيأتي - يدل على نفاسة هذا الأجر . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن في هذا مناسبة للسياق فالأجر الكريم في آية يس يقابل ما ذكر في جزاء الكافرين من إهانتهم بغلّ أيديهم إلى أعناقهم في قوله تعالى : " إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون " آية ٨، في حين أن الأجر الكبير في آية الملك يقابل الضلال الكبير الذي اتهم به الكافرون الرسل بقولهم " إن أنتم إلا في ضلال كبير " وفيه نوع تهكم .

هذا وفي دراسة جزاء الخائف لمقام ربه إشارة إلى ما فوق ذلك من جزاء الخاشي يقول

تعالى :

^١ - الرازي جـ ٢٩ ص ١٢٢ .

^٢ - ذكر ذلك الرازي جـ ٢٥ ص ١٤٢ في تفسير آية لقمان (٩) .

يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾
 يَتُوفَّوْنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾
 وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾
 ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ
 ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾

فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَكِيَيْنَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ
 وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ
 قَبْصِرَاتُ الطُّرْفِ لَمْ يَطْمِئْتُهُنَّ أَنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جِآنٌ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

الرحمن ٤١ - ٦١ مدنية .

فآيات أوجزت في عقاب المجرمين مقابل إطنابها في ثواب المؤمنين ولعل السبب في ذلك أن السورة بنيت على الرحمة ومطلعها " الرحمن علم القرآن خلق الإنسان " والسورة لتعداد آياته، وأولها الرحمة المدلول عليها بالرحمن ثم القرآن ثم الخلق وكأنه إنما خلقه للقرآن أي الدين والرحمة . هذا مع تفصيل السور المكية بذكر صنوف العذاب مما جعل الأخذ بالناصية والقدم - بما دل عليه من صنوف العذاب - يقابل صنوف النعيم المذكورة في الآيات - كما سيتضح - ومما يؤنس إلى هذا قول الرازي معلقاً على ورود قوله " فبأي آيات

ربكما تكذبان " ثلاث مرات في جانب النعيم، في حين لم تفصل بين آيات العذاب (نقول فيه تغليب جانب الرحمة ، فإن آيات العذاب سردها سرداً وذكرها جملة ليقتصر ذكرها ، والثواب ذكره شيئاً فشيئاً لأن ذكره يطيب للسامع)^١، ومع هذا فإن الإيجاز يدل على كثير من المعاني، فإن ما يظهر على وجوه المحرمين من الكآبة والحزن^٢ ، أو سواد الوجوه وزرقة العيون^٣ ، يقابله محذوف دل عليه سياق الآيات وآيات آخر مثل " وجوه يومئذ مسفرة " عبس ٣٢، و" وجوه يومئذ ناضرة " القيامة ٢٢، و" وجوه يومئذ ناعمة " الغاشية ٨، فوجوه أهل النار سوداء خاشعة ذليلة ترهقها كآبة الكفر والعصيان ويعلوها الخوف والإشفاق من العذاب بما دلّ عليه أمثال قوله " ووجوه يومئذ عليها غبرة "، وقوله " ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة " القيامة ٢٤ - ٢٥، وقوله " ووجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة الغاشية ٢ - ٣ مقابل كون وجوه أهل الجنة وضياءً نضرة بما ترى من إحسان الله تعالى إليها وتكريمه لها، وما تنعم به من ضروب النعيم الحسي والنفسي . والأخذ بالنواصي والأقدام (فيه بيان نكاهم وسوء حالهم ... لأن في نفس الأخذ بالناصية إذلالاً وإهانة وكذلك الأخذ بالقدم)^٤، كما يدل على ما خلف ذلك من العذاب الذي يستتبع الأخذ بالناصية والقدم ، مثل الإلقاء في النار ، والسحب فيها ، وإنزالهم في مكان ضيق وصب صنوف العذاب عليهم، ويقابله اختصاص المؤمنين بالجنات لأن في الاختصاص بالجنة كرامة وفي التنعم بما فيها تكريماً وسعادة .

وقد أشار الرازي إلى أن التعريف في عذاب جهنم في قوله " هذه جهنم " و التنكير في الثواب بالجنة للإشارة إلى كثرة المراتب والنعمة^٥ ، ولا ينافي هذا ما ذكرته عن البقاعي في سورة الرعد من أن التنكير في العذاب في قوله " لهم عذاب في الحياة الدنيا " يفيد التسهيل من أمره لأن دلالة التنكير على شدة العذاب وتنوع صنوفه ناسبت المقام هناك ، والدلالة على كثرة المراتب والنعمة هنا ناسبت مقام الامتنان . وقوله تعالى " يطوفون بينها وبين حميم

١ - الرازي ج ٢٩ ص ١٢٥ .

٢ - انظر البيضاوي ج ٨ ص ١٣٦ .

٣ - انظر ابن جرير ج ٢٧ ص ٩٢ .

٤ - الرازي ج ٢٩ ص ١٢٠ .

٥ - انظر المصدر السابق ص ١٢٢ .

آن " يشير إلى الذل و العذاب ، الذل يجعلهم طوافين بين جهنم والحميم،والعذاب لما ذكر في آيات أخر عن أكل شجرة الزقوم والشرب من الحميم من غليان البطون وتقطيع الأمعاء و سيلاها - نعوذ بالله منه - وفي قوله " بينها وبين ... " جمع بين عذاب النار، وعذاب الحميم وقد ذكر ابن كثير أن هذه الآية تشبه قوله تعالى " في الحميم ثم في النار يسجرون " غافر ٧٢، وآية الرحمن أشد لذكر الطواف مما يفيد تكرار وقوعهم في كل نوع من نوعي العذاب، وهي أشد أيضاً من آية الصافات " ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم " لأنها ذكرت عودهم إلى الحميم بعد أكل الشجرة وشرب الحميم ، في حين أن هذه جعلتهم يترددون بين العذابين مرة بعد مرة .

و (لما قال تعالى في حق المجرم إنه يطوف بين نار وبين حميم آن ، وهما نوعان، ذكر لغيره وهو الخائف جنتين في مقابلة ما ذكر في حق المجرم، لكنه ذكر هناك أنهم يطوفون فيفارقون عذاباً ويقعون في الآخر، ولم يقل هاهنا يطوفون بين الجنتين بل جعلهم الله تعالى ملوكاً وهم فيها يطاق عليهم ولا يطاق بهم احتراماً لهم وإكراماً في حقهم)^١.

وقد روي في الصحيحين عن نوعي الجنتين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن)^٢ ، ولكن المقصود من الجنتين جنات^٣ بدليل آيات أخر، وإنما ذكرت التثنية لعدة اعتبارات^٤ من أرجحها ما قيل من

^١ - - الرازي ج ٢٩ ص ١٢٣ .

^٢ - صحيح البخاري ، كتاب تفسير القرآن (٤٥٠٠) ، كتاب التوحيد (٦٨٩٠) ، وفي صحيح مسلم ، كتاب الإيمان (٢٦٠٥) سنن الترمذي ، كتاب صفة الجنة (٢٤٥١) ، سنن ابن ماجه ، كتاب المقدمة (١٨٢) مسند أحمد، مسند الكوفيين (١٨٨٥١) بلفظ الكبرياء، موسوعة الحديث الشريف . وقد روى ابن جرير ج ٢٧ ص ٨٥ عن أبي موسى عن أبيه (قال جنتان من ذهب للمقربين أو قال للسابقين وجنتان من ورق لأصحاب اليمين) .

^٣ - انظر الرازي ج ٢٩ ص ١٢٣ .

^٤ - ذكر الزمخشري ج ٤ ص ٤٩ أن الجنتين إحداهما للخائف الإنسي والثانية للخائف الجنّي ، أو جنة لفعل الطاعات وجنة لترك المعاصي ، أو جنة يثاب بها وأخرى على جهة التفضل وذكر البيضاوي ج ٨ ص ١٣٧ احتمال أن يكون لكل واحد جنة لعقيدته وأخرى لعمله . وذكر سيد قطب في ظلال القرآن، دار العلم للطباعة والنشر بجدة ، الطبعة الثانية عشرة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ج ٦ ص ٣٤٥٧ أنهما ضمن الجنة الكبيرة المعروفة واختصاصهما بالذكر قد يكون لمرتبتها .

أن فيها نوعين نعيم الروح ونعيم الجسد^١ وما قيل من أن المراد (بالثنوية المبالغة إلهاماً لأنها جنات متكررة و متكررة مثل " ألقيا في جهنم كل كفار عنيد " ونحو ذلك)^٢ .

وعلى هذا فالمؤمنون لهم جنات يتمتعون بظلمها ومائها، في حين طوي ذكر عذاب المجرمين المقابل لهذا النعيم وهو الاستغلال بدخان اللهب والاحتراق بجره . وبينما يطعم المؤمنون من أصناف الفواكه المتنوعة آمنين من آفاتهما وانقطاعها ، يطعم الكافرون الزقوم ويشربون عليه الحميم فتتقطع أمعاؤهم . و يتكئ المؤمنون على الفرش الوثيرة ، في حين يفترش الكافرون جهنم . وينعم هؤلاء بالأنس بمجالس الخمر وصحبة النساء ، في حين يجتمع أولئك مع أشباههم في الكفر ومعبوديتهم و يتعذبون ويتحسرون بخصومتهم معهم .

وقد ذكر القرآن من صفات النساء ما يدعو للرجبة فيهن، فهن طاهرات عفيفات ومصونات مخدرات يشبهن في صفائهن ونقاتهن وفي (غاية ما يكون من سكون النفس وقوة القلب وشدة البدن و اعتدال الدم)^٣ الياقوت والمرجان . وقد ذكرت سابقاً قول البقاعي عن اللون المحب للعرب الممتزج فيه البياض بالصفرة والحمرة فإذا نظر إلى هذا وما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خلق الحور العين من الزعفران " ^٤ ، يكون المقصود من التشبيه تلك الدرجة من اللون الأبيض المائل إلى الحمرة مختلطاً بصفرة وروى ابن جرير عن قتادة قوله (صفاء الياقوت في بياض المرجان)^٥ . وذكر البقاعي في هذه الآية أنه (قد يُستفاد من ذلك أن ألوانهن البياض والحمرة على نوع من الإشراب هو في غاية الإعجاب من الشفوف والصفاء)^٦ ، فقد أضاف هنا على ما ذكر سابقاً الشفافية والصفاء ومما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في قطعة من حديث أول زمرة تلج الجنة أنه قال

^١ - انظر الرازي ج ٢٩ ص ١٢٣ .

^٢ - البقاعي ج ١٩ ص ١٨٠ .

^٣ - المصدر السابق ص ١٨٥ .

^٤ - انظر ابن قيم الجوزية ، حادي الأرواح ص ١٧٠ - ١٧١ حيث ذكر رواية الطبراني له ورواية إسحاق بن راهويه عن مجاهد ثم قال (وهو أشبه بالصواب) ثم ذكر رواية عقبة بن مكرم للحديث عن مجاهد عن ابن عباس ، وقوله لا يصح رفع الحديث وحسبه أن يصل إلى ابن عباس ، ثم ذكر قولاً لأبي سلمة بن عبد الرحمن وقال (وهذا مروى عن صحابين وهما ابن عباس وأنس و عن تابعيين وهما أبو سلمة ومجاهد) .

^٥ - ابن جرير ج ٢٧ ص ٨٨ .

^٦ - البقاعي ج ١٩ ص ١٨٥ .

" لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن " ^١.

وتقابل صنوف النعيم الموجودة في الجنتين التاليتين في قوله تعالى:

وَمِنْ ذُوْنِهِمَا جَنَّاتٍ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آءَاءِ رَبِّكُمْ أَتُكذَّبَانِ ﴿١٣﴾ مُدْهَمَّاتٍ

﴿١٤﴾ فَبِأَيِّ آءَاءِ رَبِّكُمْ أَتُكذَّبَانِ ﴿١٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ ﴿١٦﴾

فَبِأَيِّ آءَاءِ رَبِّكُمْ أَتُكذَّبَانِ ﴿١٧﴾ فِيهِمَا فَنَكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿١٨﴾

فَبِأَيِّ آءَاءِ رَبِّكُمْ أَتُكذَّبَانِ ﴿١٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ

آءَاءِ رَبِّكُمْ أَتُكذَّبَانِ ﴿٢١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ

آءَاءِ رَبِّكُمْ أَتُكذَّبَانِ ﴿٢٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٢٤﴾

فَبِأَيِّ آءَاءِ رَبِّكُمْ أَتُكذَّبَانِ ﴿٢٥﴾ مُتَكَيِّنَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ

حِسَانٍ ﴿٢٦﴾ فَبِأَيِّ آءَاءِ رَبِّكُمْ أَتُكذَّبَانِ ﴿٢٧﴾

الرحمن ٦٢ - ٧٧ مدنية .

مع صنوف العذاب التي في قوله " يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ... " ولكن تختلف في الدرجة . وللعلماء في تحديد هذه الدرجة رأيان أحدهما :- أن الجنتين المذكورتين بقوله " ومن دونهما " أقل في الدرجة، ولهم في ذلك حجج جمعها ابن القيم في كتابه فقال (والسياق يدل على تفضيل الجنتين الأوليين من عشرة أوجه . أحدها : قوله " ذواتا أفنان " وفيه قولان أحدهما : أنه جمع فنن وهو الغصن، والثاني : أنه جمع فنن وهو الصنف أي ذواتا أصناف شتى من الفواكه وغيرها ولم يذكر ذلك في اللتين بعدهما . الثاني : قوله " فيهما عينان تجريان " وفي الآخرين " فيهما عينان نضاحتان " والنضاحة هي الفوارة،

^١ - صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها رقم (٥٠٦٥) ، مسند أحمد ، باقي مسند المكثرين رقم (٦٨٥٥) ، (٧٠٧١) ، موسوعة الحديث الشريف .

والجارية السارحة وهي أحسن من الفوارة فإنها تتضمن الفوران والجريان^١. الثالث: أنه قال " فيهما من كل فاكهة زوجان " وفي الآخرين " فيهما فاكهة ونخل ورمان "، ولا ريب أن وصف الأولين أكمل واختلف في هذين الزوجين... والظاهر والله أعلم أنه الحلو والحامض والأبيض والأحمر، وذلك لأن اختلاف أصناف الفاكهة أعجب وأشهى وألذ للعين والفم. الرابع: أنه قال " متكئين على فرش بطائنها من إستبرق " وهذا تنبيه على فضل الظهائر وخطرهما، وفي الآخرين قال " متكئين على رفر ف خضر وعبقري حسان "، وفسر الرفر بالمحابس والبسط، وفسر بالفرش، وفسر بالمحابس فوقها، وعلى كل قول فلم يصفه بما وصف به فرش الجنتين الأولين. الخامس: أنه قال " وجنى الجنتين دان " أي قريب وسهل يتناولونه كيف شاءوا، ولم يذكر ذلك في الآخرين. السادس: أنه قال " فيهن قاصرات الطرف "... وقال في الآخرين " حور مقصورات في الخيام " ومن قصرت طرفها على زوجها باختيارها أكمل ممن قصرت بغيرها. السابع: أنه وصفهن بشبهه الياقوت والمرجان في صفاء اللون وإشراقه وحسنه، ولم يذكر ذلك في التي بعدها. الثامن: أنه قال سبحانه وتعالى في الجنتين الأولين " هل جزاء الإحسان إلا الإحسان "، وهذا يقتضي أن أصحابهما من أهل الإحسان المطلق الكامل، فكان جزاؤهم بإحسان كامل. التاسع: أنه بدأ بوصف الجنتين الأولين وجعلهما جزاءً^٢ لمن خاف مقامه، وهذا يدل على أنهما أعلى جزاء الخائف لمقامه... العاشر: أنه قال " ومن دونهما جنتان " والسياق يدل على أنه نقيض فوق كما قال الجوهري^٣.

والثاني من الرأيين في درجة هذه الجنة أنها أدنى إلى العرش وقد ذكر القرطبي ما رجح به أبو عبد الله الترمذي الحكيم في (نوادير الأصول) هذا الرأي فقال (قوله تعالى " فيهما عينان نضاختان "... الترمذي قالوا بأنواع الفواكه والنعم والجواري المزينات والدواب

^١ - في كتاب (الجريين) ولعله خطأ مطبعي.

^٢ - في الكتاب (جزءاً) ولعله خطأ مطبعي.

^٣ - ابن قيم الجوزية، حادي الأرواح ص ٨٣ - ٨٤ وذكر بعضاً من هذه الفروق القرطبي جـ ١٧ ص ١٨٤، ابن كثير جـ ٦ ص ٥٠٢ وما بعدها، البيضاوي والشهاب في حاشية الشهاب جـ ٨ ص ١٣٨ وما بعدها، الألوسي جـ ٢٧ ص ١٢١ وما بعدها، وأشار إلى أن الجنتين الأخيرتين أقل في الدرجة كل من الزمخشري جـ ٤ ص ٥٠، الرازي جـ ٢٩ ص ١٣٤، أبو حيان جـ ٨ ص ١٩٦، البقاعي جـ ١٩ ص ١٨٧، أبو السعود جـ ٨ ص ١٨٦.

المسرجات والثياب الملونات . قال الترمذي وهذا يدل على أن النضج أكثر من الجري... قوله تعالى : " فيهن خيرات حسان ... " قال الترمذي : فالخيرات ما اختارهن الله فأبدع خلقهن باختياره ، فاختيار الله لا يشبه اختيار الآدميين . ثم قال : " حسان " فوصفهن بالحسن فإذا وصف خالق الحسن شيئاً بالحسن فانظر ما هناك . وفي الأولين ذكر بأنهن " قاصرات الطرف " و " كأنهن الياقوت والمرجان " فانظر كم بين الخيرة وهي مختارة الله ، وبين قاصرات الطرف... وقال الترمذي الحكيم أبو عبد الله في قوله تعالى " حور مقصورات في الخيام " : بلغنا في الرواية أن سحابة أمطرت من العرش فخلقت الحور من قطرات الرحمة ، ثم ضرب على كل واحدة منهن خيمة على شاطئ الأنهار سعتها أربعون ميلاً وليس لها باب ، حتى إذا دخل وليّ الله الجنة انصدعت الخيمة عن باب ليعلم وليّ الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم تأخذها ، فهي مقصورة قد قصر بها عن أبصار المخلوقين . والله أعلم . وقال في الأولين : " فيهن قاصرات الطرف " قصرن طرفهن على الأزواج ولم يذكر أنهن مقصورات فدل على أن المقصورات أعلى وأفضل ... قوله تعالى " متكئين على رفرف خضر " ... قال الترمذي : فالرفرف أعظم خطراً من الفرش فذكره في الأولين " متكئين على فرش بطائنها من إستبرق " وقال هنا : " متكئين على رفرف خضر " فالرفرف هو شيء إذا استوى عليه الولي رفرف به ؛ أي طار به هكذا وهكذا ... روي لنا في حديث المعراج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ سدرة المنتهى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به إلى مسند العرش ، ... فالرفرف خادم من الخدم بين يدي الله تعالى له خواص الأمور في محل الدنو والقرب ، كما أن البراق دابة يركبها الأنبياء مخصوصة بذلك في أرضه ، فهذا الرفرف الذي سخره الله لأهل الجنة الدانيتين هو متكأهما وفرشهما ، يرفرف بالولي على حافات تلك الأنهار وشطوطها حيث شاء إلى خيام أزواجه الخيرات الحسان ثم قال " وعبقري حسان " فالعقري ثياب منقوشة تبسط ، فإذا قال خالق النقوش إنها حسان فما ظنك بتلك العباقر !^١

وقد ذهب أبو حيان إلى أن الزمخشري رجح القول بأن الجنة الأخرين أفضل فقال (" ومن دوئهما " أي من دون تينك الجنة في المنزلة والقدر جنتان لأصحاب اليمين ...

^١ - القرطبي جـ ١٧ ص ١٨٥ وما بعدها .

وقال ابن عباس " ومن دونهما " في القرب للمنعمين والمؤخرتا الذكر أفضل من الأولين يدل على ذلك أنه وصف عيني هاتين بالنضخ وتينك بالجري فقط وهاتين بالدهمة من شدة النعمة وتينك بالأفنان وكل جنة ذات أفنان، ورجح الزمخشري هذا القول فقال للمقربين جنتان من دونهم من أصحاب اليمين إدهامتا من شدة الخضرة، ورجح غيره القول الأول بذكر جري العينين والنضخ دون الجري)^١ ، ولم أجد هذا في الكشاف بل وجدت العكس حيث يقول : (ومن دونهما " ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للمقربين " جنتان " لمن دونهم من أصحاب اليمين)^٢ . وذكر الطاهر احتمال صحة الرأيين^٣ .

وكما كانت جهنم في المقابلة المذكورة سابقاً تلقي الكفرة بالتجهم والعبوس وتلقيهم في صنوف العذاب والجنة تتلقى المؤمنين بما تنشرح له صدورهم من الأشجار والثمار والمياه فإن الجنة هنا كذلك تلقي داخلها بما يبهج صدورهم من الخضرة الكثيفة التي تضرب إلى السواد في قوله " مدهامتان " والعيون الفوارة بالماء في قوله " فيهما عينان نضاختان " والفواكه الكثيرة المتنوعة في قوله " فيهما فاكهة ونخل ورمان " وقد سبق أن ذكرت بيت الشاعر الذي يقول :-

ثلاثة تنفي عن القلب الحزن الخضرة والماء والوجه الحسن

فإن لرؤية اللون الأخضر تأثيراً على النفس يمنحها الهدوء والراحة كما ذكر الرازي عن تأثير اللون الأخضر^٤ ولوجود المياه تأثيراً في كثافة الظلال ووفرة الفواكه والثمار . وتكتمل سعادة النفس بصحبة الجميلات العفيفات من النساء وقد اجتمع لأهل الجنة كل هذا على غاية ما يكون مما لا يتحقق في الدنيا .

وبينما يطوف الكافرون ويترددون بين صنوف العذاب فيطعمون الزقوم الذي يجمع بين كراهة الشكل ورتن الرائحة ومرارة الطعم وحرارة غليانه في البطون، ويشربون فوقه الحميم يتقلب المؤمنون في صنوف النعيم فيطعمون فواكه تجمع بين طيب الطعم وحُسن

^١ - أبو حيان ج ٨ ص ١٩٦ - ١٩٧ .

^٢ - الزمخشري ج ٤ ص ٥٠ .

^٣ - انظر الطاهر بن عاشور ج ٢٧ ص ٢٧٢ .

^٤ - انظر الرازي ج ٢٩ ص ١٣٦ .

الرائحة وسلامة العاقبة من التنغيص والانقطاع والامتناع كما في قوله " لا مقطوعة ولا ممنوعة " الواقعة ٣٣ . وقد ذكر الرازي أن في أفراد النخل والرمان بالذكر بعد ذكر الفاكهة في قوله " فيهما فاكهة ونخل ورمان " إشارة بذكر الطرفين إلى ذكر كل ما بينهما^١ . فإن خصائص النخل تقابل خصائص شجر الرمان . وهو ما ذكره في قوله في سورة الواقعة " في سدر مخضود وطلح منضود " ٢٨ - ٢٩ من حيث أن خصائص شجر السدر تقابل خصائص شجر الموز فهي تجمع كل ما بينهما . ولعل في إقرار هذا القول ما يلغي التفاوت بين الجنتين الأوليين المذكور فيهما " من كل فاكهة زوجان " والجنتين الأخريين المذكور فيهما قوله : " فاكهة ونخل ورمان " وعلى هذا فالقول بأنهما أفردا لشرفهما^٢ أولى .

بين الرحمن والقمر :-

ذكرت في بداية الحديث عن آيات سورة الرحمن أن السورة أوجزت العقاب وأطنبت في ذكر الثواب . وذكرت هناك أن السبب قد يرجع إلى بناء السورة على الرحمة وإلى أنها مدنية سُبقت بكثير من الآيات التي فصلت العقاب . وقد رأى الإمام البقاعي أن السورة مقارنة بسابقتها وهي سورة القمر ، فيها تفصيل عام فقال (لما ختم سبحانه القمر بعظيم الملك وبلغ القدرة وكان الملك القادر لا يكمل ملكه إلا بالرحمة وكانت رحمته لا تتم إلا بعمومها قصر هذه السورة على تعداد نعمه على خلقه في الدارين وذلك من آثار الملك وفصل فيها ما أجمل في آخر القمر من مقر الأولياء والأعداء في الآخرة)^٣ فكلامه متجه إلى علاقة آخر القمر بالرحمن ، ونقل عن ابن الزبير الغرناطي فرقاً آخر بالنظر إلى علاقة موضوعات سورة الرحمن بسورة القمر حيث قال :- (وقال الإمام أبو جعفر ... فلما انطوت هذه السورة على ما ذكرنا وبان فيها عظيم الرحمة في تكرر القصص وشفع العظائم وظهرت حجة الله على الخلق وكان ذلك من أعظم ألطافه تعالى لمن يسره لتدبر القرآن ووفقه لفهمه واعتباره أردف ذلك سبحانه بالتنبيه على هذه النعمة فقال تبارك وتعالى :

^١ - انظر المصدر السابق ص ١٣٤ .

^٢ - انظر ابن كثير ج ٦ ص ٥٠٢ ، حاشية الشهاب ج ٨ ص ١٣٩ المتن والهامش .

^٣ - البقاعي ج ١٩ ص ١٣٩ ص ١٤٠ .

" الرحمن علم القرآن ... " ^١، فلعل ما يقصده ابن الزبير أن غرض السورتين إظهار عظيم الرحمة ولكن بطريقتين متقابلين فالقمر ذكرت قصص الأنبياء وعقوبة من خالفهم ، والرحمن ذكرت آلاء الله ونعمه ونعيمه وكأنها تدعو المخاطبين إلى ترك سبيل المكذبين واتباع سبيل المؤمنين ومن هنا نلمح مقابلة بين السورتين من حيث تفصيل أمر المكذبين في الأولى وعقابهم، وتفصيل أمر الطائعين في الثانية وثوابهم. وبينهما تلاؤم من حيث (أن بناء السورة على إعلام الثقلين بنعمه سبحانه لديهم وإقامة الحججة عليهم وتعريفهم بأنهم لو وقفوا للحظ نعمه تعالى وما بث في السموات والأرض ومخلوقاتها من عجائب صنعه، ما كفر منهم أحد ولا كذب. وإنما أتى على ما قدم ذكره من الأمم المكذبة في سورة القمر المتصلة بهذه لعدولهم عن النظر السديد اعتماداً على الأهواء ونبذاً للعدل والإنصاف) ^٢.

بين الرحمن وفاطر والواقعة :-

التقت الأقسام الثلاثة التي ذكرت في سورة الرحمن وهي الكفار والسابقون و أصحاب اليمين مع سورتين سابقتين عليها في النزول وهما سورة فاطر وسورة الواقعة .

وأولى السور الثلاث سورة فاطر ^٣ وقد أضافت إلى الصنفين المؤمنين صنفاً ثالثاً هو الظالم لنفسه - كما عليه جمهور المفسرين ^٤ - ومع أن هذا التقسيم يلمح أكثر إلى جانب العمل مما يؤهل لأن يكون موقع السورة الباب الثاني في البحث إلا أن المقارنة اقتضت ذكرها هنا . يقول تعالى :

^١ - البقاعي جـ ١٩ ص ١٤١ ص ١٤٢ ، . ولم أجده في الحديث عن السورتين في كتاب (ملاك التأويل) ولعله في مكان آخر .

^٢ - القرطبي، ملاك التأويل جـ ٢ ص ٨٨٣ .

^٣ - مكية ترتيبها في النزول رقم ٤٣ . وقد أشار إلى التقائها بالواقعة ابن جرير جـ ٢٢ ص ٨٩ ، ابن عطية جـ ١٣ ص ١٧٦ ، القرطبي جـ ١٤ ص ٣٤٦ ، ابن كثير جـ ٥ ص ٥٨٣ ص جـ ٦ ص ٥٠٩ ، البقاعي جـ ١٦ ص ٥٨ .

^٤ - انظر ابن جرير جـ ٢٢ ص ٨٨ ، الزمخشري جـ ٣ ص ٣٠٩ ، ابن عطية جـ ١٣ ص ٣٧٤ ، الرازي جـ ٢٦ ص ٢٤ ، القرطبي جـ ١٤ ص ٣٤٧ ، الخازن جـ ٣ ص ٥٠٠ ، أبو حيان جـ ٧ ص ٢٩٩ ، ابن كثير جـ ٥ ص ٥٨٣ ، البقاعي جـ ١٦ ص ٥٥ وما بعدها ، أبو السعود جـ ٧ ص ١٥٣ ، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٢٢٦ المتن والهامش ، الألوسي جـ ٢٢ ص ١٩٤ ، الطاهر بن عاشور جـ ٢٢ ص ٣١١ ، ٣١٢ .

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ

﴿٣٧﴾

فاطر ٣٢-٣٧ مكية .

وأول ما يلحظ على آياتها إجمال صنوف النعيم وصنوف العذاب مقارنة بما ورد في سورتي الواقعة والرحمن، ولعل لسبقها عليهما شأنًا في ذلك . فقد جمعت الفرق الثلاث فيما ذكرت من النعيم دون اختصاص أحد منهم بشيء ، فالمؤمنون على اختلاف مراتبهم يدخلون جنات عدن و يحلون فيها بأساور الذهب و اللؤلؤ بعد لبسهم الحرير . وفي التحلي معنيان (أحدهما: إظهار كون المتحلي غير مبتذل في الأشغال، لأن التحلي لا يكون حالة الطبخ والغسل ، وثانيهما: إظهار الاستغناء عن الأشياء وإظهار القدرة على الأشياء ، وذلك لأن التحلي إما باللائي والجواهر وإما بالذهب والفضة ، والتحلي بالجواهر

واللآلئ يدل على أن المتحلي لا يعجز عن الوصول إلى الأشياء الكبيرة عند الحاجة حيث يعجز عن الوصول إلى الأشياء القليلة الوجود لا حاجة ، والتحلي بالذهب والفضة يدل على أنه غير محتاج حاجة أصلية وإلا لصرف الذهب والفضة إلى دفع الحاجة ، إذا عرفت هذا فنقول الأساور محلها الأيدي وأكثر الأعمال باليد فإنها للبطش فإذا حليت بالأساور علم الفراغ)^١ ، فالتحلية بالأساور كما اتضح دليل على الراحة، ودليل على الغنى . وقوله : (الأساور محلها الأيدي وأكثر الأعمال باليد) يشير إلى الحكمة من جعل الجزاء في هذه الآية وما شابهها التحلي بالأساور حيث أنها ذكرت في سياقات ذكر الإيمان مع العمل مثل قوله في سورة الحج " يجلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير" الحج ٢٣، وسورة الكهف " يجلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً " ٣١ ، وسورة الإنسان " وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً " ٢١ .

وفي كون جملة اللباس اسمية ما يؤذن (بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غني عن البيان إذ لا يمكن عراؤهم عنه وإنما المحتاج إلى البيان أن لباسهم ماذا بخلاف الأساور واللؤلؤ فإنها ليست من اللوازم الضرورية ... فجعل بيان تحليتهم مقصوداً^٢ بالذات. ولعل هذا هو الباعث على تقديم التحلية على بيان حال اللباس)^٣. فبينما ينعم هؤلاء بدخول الجنة والتحلي الدال على ما وراءه من النعيم الذي أشارت إليه آيات سابقة ، يشقى الكفار بدخول النار دون غيرهم - بما أفاده تقدم الجار والمجرور (لهم) - ويقعون تحت طائلة أنواع شديدة من العذاب ، عبر عنها قوله " لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها " ، لأن المراد أن عذابهم دائم لا ينقطع ولا يفتر^٤ ، ولا يعارضه قوله " كلما خبت زدناهم سعيراً " الإسراء ٩٧ ، لأن (المراد دوام العذاب فلا ينافي تعذيبهم بالزمهري ونحوه)^٥. وبينما يلهج لسان المؤمنين بالحمد لله الذي أذهب عنهم كل حزن وأحلمهم دار إقامة لا يتحولون عنها ، يصطرخ الكافرون ويستغيثون طالبين الخروج ليعملوا صالحاً بدلاً مما قدموا من السيئات في

١ - الرازي ج ٢٦ ص ٢٧ .

٢ - في الكتاب مقصوراً بالراء المهملة ولعله خطأ مطبعي لأن الأنسب للمعنى ما ذكرت .

٣ - الألوسي ج ٢٢ ص ١٩٩ .

٤ - انظر الرازي ج ٢٦ ص ٢٩ .

٥ - حاشية الشهاب ج ٧ ص ٢٢٨ .

قوله " يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل " . وبينما يزداد تنعم المؤمنين الذي عبر عنه رفع الكلفة إلى حد عدم مس النصب واللغوب في قوله " لا يمسننا فيها نصب ولا يمسننا فيها لغوب " ، يُزاد في عذاب الكفرة حين يجابون على طلبهم بقوله " فذوقوا فما للظالمين من نصير " لأن (قوله فذوقوا إشارة إلى الدوام وهو أمر إهانة)^١ .

وقد ذهب العلماء في تفسير النصب واللغوب إلى عدة أقوال أهمها النصب : التعب والوجع ، واللغوب : العناء والإعياء^٢ ، ومنها أن (النصب تعب البدن و اللغوب تعب النفس اللازم عن تعب البدن)^٣ ، وقيل عن (النصب : التعب من نحو شدة حر وشدة برد ، و اللغوب : الإعياء من جراء عمل أو جري)^٤ ولم أجد فيما اطلعت عليه من المعاجم والمراجع^٥ الفرق الأخير . وقد ذكر بعض المفسرين في الحكمة من الجمع بينهما أنه تأكيد ومبالغة^٦ ، ولعل المقصود من كل ما ذكر أنه لا يمسنهم فيها تعب ناتج عن الشاق من الأعمال ، ولا يمسنهم إعياء لتقلهم في جناهم ومباشرتهم لأنواع النعيم، ومما يؤنس هذا الرأي - وإن كان لم ينص عليه صراحةً - قول الرازي إن (ما قال الله في غاية الجلالة ، وكلام الله أجل وبيانه أجمل . ووجهه هو أنه تعالى بين مخالفة الجنة لدار الدنيا، فإن الدنيا أماكنها على قسمين أحدهما: موضع تمس فيه المشاق والمتاعب كالبراري والصحاري والطرق

^١ - الرازي ج ٢٦ ص ٣٠ ، وانظر البقاعي ج ١٦ ص ٦٤ والظاهر بن عاشور ج ٢٢ ص ٣٢٠ .

^٢ - انظر ابن جرير ج ٢٢ ص ٩٢ ، الزمخشري ج ٣ ص ٣١٠ ، القرطبي ج ١٤ ص ٣٥١ ، البقاعي ج ١٦ ص ٦١ ، أبو السعود ج ٧ ص ١٥٤ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ٢٢٨ المتن والهوامش ، الألوسي ج ٢٢ ص ٢١٠ ، وانظر أبو جعفر النحاس ت ٣٣٨ هـ ، معاني القرآن الكريم ، تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني ، جامعة أم القرى الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ ، ١٩٨٩ م ج ٥ ص ٤٦٠ ، أبو إسحاق إبراهيم الزجاج ت ٣١١ هـ معاني القرآن وإعرابه تحقيق د. عبد الجليل شلي ، عالم الكتب الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م ج ٤ ص ٢٧١ .

^٣ - ابن عطية ج ١٣ ص ١٧٨ ، وانظر أبو حيان ج ٧ ص ٣٠٠ ، ابن كثير ج ٥ ص ٥٨٨ .

^٤ - الطاهر بن عاشور ج ٢٢ ص ٣١٧ .

^٥ - ابن منظور، لسان العرب، ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، الحسين محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن، أعدده للنشر د. محمد أحمد خلف الله ١٩٧٠ م، النحاس، معاني القرآن الكريم، الزجاج، معاني القرآن وإعرابه .

^٦ - انظر أبو السعود ج ٧ ص ١٥٤ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ٢٢٨ المتن والهوامش ، الألوسي ج ٢٢ ص ٢٠٠ ، الطاهر بن عاشور ج ٢٢ ص ٣١٧ .

و الأراضي ، والآخر: موضع يظهر فيه الإعياء كالبيوت والمنازل التي في الأسفار من الخانات، فإن من يكون في مباشرة شغل لا يظهر عليه الإعياء إلا بعد ما يستريح ، فقال تعالى : " لا يمسننا فيها نصب " أي ليست الجنة كالمواضع التي في الدنيا مظان المتاعب بل هي أفضل من المواضع التي هي مواضع مرجع العي فقال " ولا يمسننا فيها لغوب " أي لا نخرج منها إلى مواضع نتعب ونرجع إليها فيمسننا فيها الإعياء ^١. وقد يؤيد هذا ما ذكره الزمخشري في تفسير قوله تعالى : " ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون " الأنبياء ١٩ ، حين ذكر الحكمة من ورود المبالغة في الحسور بقوله : " لا يستحسرون " بأن ما فيه الملائكة من العبادة حري بأن يجعلهم يستحسرون . ومن هنا يظهر والله أعلم أن المراد من ذكر الإعياء ما قد يتبادر إلى الذهن من أن الانتقال في الجنات والتلذذ بأنواع النعيم من مأكول ومشروب ومنكوح قد يوجب إعياءهم ^٢. ويحتمل أن يكون المراد أنهم لا ينصبون في الجنة لشدهم ، ولا يصابون بالضعف نتيجة لمرور الوقت أي لا يصابون بالشيخوخة ، ويتأيد هذا بما تدور عليه مادة اللغوب من الضعف ^٣.

وقد نزلت سورة الواقعة بعد سورة فاطر وهي مكية لكنها في المصحف وردت بعد سورة الرحمن المدنية . وسورة الواقعة تصف - بعد التصريح بأقسام الناس يوم القيامة - مشاهد تنعم المؤمنين وتعذيب الكافرين ، في حين تصف سورة الرحمن ما في الجنة من النعم دون الإشارة إلى كيفية التنعم بها . ومن هنا نجد المشاهد في سورة الواقعة متحركة بتحريك الأحداث، في حين أنها في سورة الرحمن تبدو كمشاهد ثابتة لما تحويه الجنان من النعيم . ولعل السبب يعود إلى طبيعة موضوع السورتين فسورة الرحمن تعداد لنعم الله وآلائه على الثقلين فناسب أن تعدد نعم الله وآلاءه في الجنان ، وسورة الواقعة تصف وقوع الواقعة وتذكر من صفتها ما فيه حركة واضطراب نحو " خافضة رافعة " ، ونحو " رجت الأرض رجاً " ، فناسب أن تذكر مشاهد النعيم متحركة بحركة المتنعمين فيها . يقول سيد قطب في دلالة لفظ الواقعة وما يتبعها من أمور (فالواقعة بمعناها ويجرس اللفظ ذاته - بما فيه من مد ثم

^١ - الرازي ج ٢٦ ص ٢٨ .

^٢ - انظر ابن قيم الجوزية حادي ، الأرواح ص ١٧٤ وما بعدها ، ابن كثير ج ٦ ص ٥٢٥ و ٥٢٦ .

^٣ - انظر الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ص ٦٨١ ، ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ج ٥ ص ٢٥٦

سكون - تلقى في الحس كأنما هي ثقل ضخمة ينقض من علٍ ثم يستقر ... ثم إن سقوط هذا الثقل ووقوعه كأنما يتوقع له الحس أرجحة ورجحة يحدثها حين يقع . ويلى السياق هذا التوقع فإذا هي " خافضة رافعة " ... ثم يتبدى الهول في كيان هذه الأرض . الأرض الثابتة المستقرة فيما يحس الناس . فإذا هي ترج رجاً - وهي حقيقة تذكر في التعبير الذي يتسق في الحس مع وقع الواقعة - ... وينتهي هذا المشهد الأول للواقعة لنشهد آثارها في الخفض والرفع و في أقدار البشر ومصائرهم الأخيرة)^١ . يقول تعالى :

يقول تعالى :

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفِكَهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾

^١ - سيد قطب في ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٤٦٢ و ص ٣٤٦٣ .

وَفَلَكِهَاتٍ كَثِيرَةٍ ۝ ٣٢ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝ ٣٣ وَفَرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝
 ٣٤ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ۝ ٣٥ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝ ٣٦ غُرُبًا أَتْرَابًا ۝ ٣٧
 لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝ ٣٨

الواقعة ١٠ - ٣٨ مكية

والذي مهد لهذه الحركة في جزاء كل فريق إشارة سورة الواقعة إلى الأعمال كالسابق في قوله : " والسابقون " والعمل في قوله : " جزاءً بما كانوا يعملون " والتكذيب في نحو " ثم إنكم أيها الضالون المكذبون " والأعمال تشير إلى حدث يتحرك ، وهذا يناسبه و يتلاءم معه أن يذكر جزاؤه متحركاً من خلال أحداثه ، و هو ما حققته صيغة الأفعال مثل (يطوف ، يتخيرون ، يشتهون ...) .

و لم يصرح المفسرون بالتقاء أقسام الجزاء في سورة الواقعة مع أقسامه في سورة الرحمن - كما صرحوا في سورة فاطر - سوى ما أشار إليه ابن جرير^١ وابن قيم الجوزية^٢ وابن كثير^٣ من أن الجنيتين الأولىين في سورة الرحمن للمقربين والآخرين لأصحاب اليمين ، وما أشار إليه سيد قطب من أن رتبة الجنيتين الآخرين في سورة الرحمن وجنة أصحاب اليمين في الواقعة أقل بكون نعيمهما من عالم البداوة^٤ ، فهو لمح للتشابه بين وصف الجنة في هذين الموضعين دون التصريح به ، كما لم يقارنوا بين جنات كل من السورتين^٥ . غير أن المتأمل في جنتي الرحمن وجنتي الواقعة يلمح تشابهاً أوماً إلى بعض أجزائه بعض المفسرين .

^١ - انظر ابن جرير جـ ٢٧ ص ٨٥ .

^٢ - انظر ابن قيم الجوزية حادي الأرواح ص ٨٢ .

^٣ - انظر ابن كثير جـ ٦ ص ٤٩٨ .

^٤ - انظر سيد قطب ، في ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٤٥٨ و ص ٣٤٦٤ .

^٥ - جاء هذا بناءً على الإطلاع على كتب التفسير المشهورة وكتب متشابهة القرآن مثل : كتاب الخطيب الإسكافي ، درة التنزيل وغرة التأويل ، دار الآفاق الجديدة بيروت الطبعة الثانية - ١٩٧٧ م . أحمد بن الزبير الغرناطي ، ملك التأويل . محمود الكرمانى ، أسرار التكرار في القرآن ، تحقيق عبد القادر عطا ، دار الاعتصام الطبعة الثانية ١٣٩٦ هـ -

فالجتان اللتان من ذهب في سورة الرحمن هي جنان السابقين في الواقعة . فهم يتنعمون بقربهم من الله تعالى قرب شرف وكرامة ، على سرر (مرمولة بالذهب)^١ . والاتكاء في قوله " متكئين عليها متقابلين " يدل على الراحة والدعة ، والتقابل على الأانس والسرور . ويكتمل أنسهم وسرورهم بما يطوف عليهم به الولدان من خمر لذيدة تخالف ما عليه خمر الدنيا بقوله : " لا يصدعون عنها ولا ينزفون " .

وصورة هذا المجلس لم ترد في الرحمن وقد لحظت أن ذكر الخمر ومجالسها وردت في السور المكية أكثر كما في الصافات والطور والواقعة والنبأ في حين لم ترد في السور المدنية إلا قليلاً ، ومن ذلك وصف أنهار الخمر في سورة محمد وذكر مجلس الخمر في سورة الإنسان .

ومما ورد أيضاً في سورة الواقعة ولم يرد في سورة الرحمن ذكر لحم الطير في قوله : " ولحم طير مما يشتهون " . واختلفت قبل ذلك طريقة ذكر الفاكهة في السورتين ، فذكر وجودها في الرحمن بقوله " فيهما من كل فاكهة زوجان " ، في حين ذكر فعل التخيير في الواقعة ولفعل التخيير دون الاختيار دلالة على (أنهم يأخذون ما يكون منها في نهاية الكمال وأهم في غاية الغنى عنها والله تعالى أعلم)^٢ ، ومثله فعل الاشتهاء على اختلاف في علة ذكر الاشتهاء للحم^٣ ، وتأخيره عن الفاكهة^٤ . وفعل التخيير وصياغته في صيغة الفعل المضارع يؤكّد حركة أحداث آيات الواقعة .

أما النساء فقد وصفهن بقوله : " حور عين " وشبههن باللؤلؤ المكنون بقوله : " كأمثال اللؤلؤ المكنون " (وإنما عني بقوله كأمثال اللؤلؤ أي أن صفاءهن وتلألؤهن كصفاء الدر وتلألؤه)^٥ ، في حين وصفهن في سورة الرحمن بقوله : " قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس

١ - ابن جرير جـ ٢٧ ص ٩٩ عن ابن عباس ومجاهد .

٢ - الألوسي جـ ٢٧ ص ١٤٣ .

٣ - انظر الرازي جـ ٢٩ ص ١٥٣ ، البقاعي جـ ١٩ ص ٢٠٥ ، الألوسي جـ ٢٧ ص ١٣٧ ص ١٣٨ ، الطاهر بن عاشور جـ ٢٧ ص ٢٩٦ .

٤ - انظر الرازي جـ ٢٩ ص ١٥٣ ، الألوسي جـ ٢٧ ص ١٣٧ .

٥ - عبد الله بن نايقا البغدادي ت ٤٨٥ هـ ، كتاب الجمان في تشبيهات القرآن ، تحقيق د. محمود الشيباني ، مركز الصف الإلكتروني ، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م ص ٢٥٢ .

قبلهم ولا جان " وشبههن بالياقوت والمرجان مما يجعل القول بأنهن (في صفاء الياقوت وحسنه)^١ متعيناً إن ذهبنا إلى أن لون هؤلاء الحور هو الأبيض المختلط بالصفرة . وإن قلنا بقول الداهيين إلى أن اللون الموصوف به الحور هو الأبيض المشرب بحمرة يكون التشبيه باللؤلؤ المقصود به صفاؤه وصونه عن المس .

ومما ذكر في سورة الرحمن ولم يُذكر في سورة الواقعة الأفنان في قوله : " ذواتا أفنان " والعينان في قوله : " فيهما عينان تجريان " وقد يكون السبب - كما ذكر مراراً - أن الآيات في سورة الرحمن تعدد نعماً وفي الواقعة تصف تنعماً ، أو لعل لدلالة الفاكهة ولحوم الطير - في الواقعة - على وجود الأشجار بأغصانها والمياه المنبثة لها ؛ شأناً في ذلك ، ويؤيده ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن طير الجنة كأمثال البُخْت يرعى في شجر الجنة " ^٢ فمن الواضح من هذا الحديث ونحوه اقتران وجود الشجر بوجود الطير واقترانه بوجود الماء أمر بدهي .

أما الجنتان الأخريان المختصتان بأصحاب اليمين وهما أقل رتبة ، فقد أشار بعض المفسرين إلى أن نعيمهما يختلف عن الأولتين - في سورة الواقعة - بأنه من أكمل (ما يتمناه أهل البوادي) ^٣ ، في حين يشير نعيم الأولتين إلى أعلى (ما يتصور لأهل المدن) ^٤ . و الأظهر أن تكون الحكمة من ذلك هي الإشعار (بالتفاوت بين الحالين) ^٥ كما ذهب البيضاوي . ويبعد أن تكون للإشارة إلى نوع من الحشونة كما ذهب سيد قطب ^٦ . وفي هذه الجنان سدرٌ وطلحٌ وماء وظل ، ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

١ - ابن نايقا ، الجمان ص ٢٥٠ .

٢ - مسند أحمد ، باقي مسند المكثرين ١٢٨٣٣ موسوعة الحديث الشريف ، والبُخْت (جمال طوال الأعناق) اللسان ج ٢ ص ٩ مادة بخت .

٣ - البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ج ٨ ص ١٤٤ ، وانظر سيد قطب ، في ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٤٥٨ و ص ٣٤٦٤ .

٤ - البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ج ٨ ص ١٤٤ .

٥ - المصدر السابق .

٦ - انظر سيد قطب ، في ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٤٥٨ و ٣٤٦٤ .

عنه: " في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام اقرؤا إن شئتم " وظل ممدود" ^١ . ولعل ما في الرحمن من ذكر الادهيمام ^٢ في قوله: " مدهامتان " ونضخ العيون في قوله: " فيهما عينان نضاختان " يشير إلى وجود تلك الشجرة وذلك الظل ، لما ذكره البقاعي من أن العيون (تكون عنها الرياض والأشجار الكبار) ^٣ .

وهنا " فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة " (والنفي هنا أوقع من الإثبات لأنه بمنزلة وصف و توكيده وهم لا يصفون بالنفي إلا مع التكرير بالعطف) ^٤ وفي سورة الرحمن " فيهما فاكهة ونخل ورمان " .

وهنا " فرش مرفوعة " وليست موضونة ، ولا كسرر الملوك المذكورة في الجنتين الأولتين ونساء هذه ينشأن " أباكراً عرباً أتراباً " ، والنساء في سورة الرحمن " خيرات حسان ... حور مقصورات في الخيام ... لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان " . وقد ورد في تفسير معنى العُرب الأتراب حديث يشير إلى أن هؤلاء هن الخيرات الحسان في سورة الرحمن فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الحور العين ليغنين في الجنة يقلن نحن خيرات حسان خُبئنا لأزواج كرام " ^٥ .

وجاءت الإشارة إلى الفرش في قوله : " وفرش مرفوعة" في الواقعة قبل ذكر النساء في حين جاءت الإشارة إليها في قوله : " متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان " في سورة الرحمن

^١ - صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ٣٠١٢ ، ٣٠١٣ ، كتاب تفسير القرآن ٤٥٠٢ ، كتاب الرقاق ٦٠٦٩ ، صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٥٠٥٤ ، ٥٠٥٥ ، سنن الترمذي ، كتاب صفة الجنة ٢٤٤٦ ، ٢٤٤٧ ، كتاب تفسير القرآن ٣٢١٤ ، ٣٢١٥ ، سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ٤١٢٦ ، مسند أحمد ، باقي مسند المكثرين ٧١٨٥ ، ٨٨٧٥ ، ٩٠٤٩ ، ٩٢٧٤ ، ٩٤٥٦ ، ٩٤٩٢ ، ٩٥٧١ ، ٩٦٨٥ ، ٩٨٦٩ ، ١١٦٢٧ ، ١١٩٤١ ، ١٢٢١٦ ، ١٢٤٦١ ، ١٢٦٧٩ ، ١٢٩٧٥ ، سنن الدارمي ، كتاب الرقاق ٢٧١٦ ، ٢٧١٧ ، موسوعة الحديث الشريف .

^٢ - جاء في اللسان جـ ١٢ ص ٢٠٩ (ادهام الزرع : علاه السواد رياً) .

^٣ - البقاعي جـ ٢١ ص ١٨٢ آية المرسلات " إن المتقين في جنات وعيون " ٤١ .

^٤ - الطاهر بن عاشور جـ ٢٧ ص ٣٠٠ .

^٥ - رواه ابن كثير جـ ٦ ص ٥٢٧ عن الحافظ أبي يعلى ، وروي في معجم الطبراني الصغير جـ ٢ ص ٣٥ حديث رقم (٧٣٤) الموسوعة الذهبية برواية (نحن خير الحسان أزواج قوم كرام) .

بعد ذكر النساء . وقد يكون هذا بالنظر إلى اختلاف طباع البشر - كما ذهب الرازي^١ - دون النظر إلى مكانة الجنتين في هذا التقديم والتأخير ، لأن الترتيب المذكور في سورة الواقعة لأصحاب اليمين هو المذكور في سورة الرحمن للمقربين .

أما أصحاب الشمال المقابلون لفريقي المؤمنين ، فهم :

فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾
 إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ
 الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا
 أَعِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ
 لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ
 أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكُونُ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾
 فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا
 شُرْبَ الْهَيْمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾

الواقعة ٤٢ - ٥٦ مكية .

إنهم يتنفسون سموماً يشوي وجوههم وأجسادهم . وفي ذكر السموم إشارة بالأذن إلى الأعلى وهو حر النار^٢ ، كما يشربون حميماً ساخناً يقطع أمعائهم ، في مقابل ما أولئك فيه من برد الأغصان والعيون ، ويُظل هؤلاء (ظل من دخان شديد السواد ... لا بارد ولا كريم ... وليس بكريم لأنه مؤلم من استظل به . والعرب تتبع كل منفي عنه صفة حمد نفسي

^١ - انظر الرازي جـ ٢٩ ص ١٣٥ .

^٢ - انظر الرازي جـ ٢٩ ص ١٦٨ .

الكرم عنه) ^١ ، في حين يتمتع أولئك بظلال باردة وكريمة ، ويطعمون أنواع الفواكه السائغة ويطعم الكفار الزقوم بل يزداد عذابهم بملء بطونهم منه ، بما أفادته الفاء من الترتيب الرتبي - كما ذهب الدكتور الخضري - ^٢ ويمتد عذابهم أكثر ^٣ بشرب الحميم (وكأنه يقول إن تعجب من أكلهم الزقوم فإن فهمهم في الأكل منه إلى امتلاء البطون أعجب ، وإن غرابة شربهم من الحميم دون غرابة إفراطهم في الشرب منه) ^٤ . ولعل قصر سيد قطب ° المقابلة بين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال يعود إلى أن السابقين فئة خاصة أفردت بالحديث عنها .

أما لفظ الإيمان فقد جاء في صيغة فعل ماضٍ صلة للموصول في عدة مواضع ، وجاء اسماً في مواضع أخرى . وقد وعد تعالى الذين آمنوا بالنصر في الدنيا والآخرة والتثبيت . كذلك ذكر النصر جزاءً للإيمان في سورة غافر ، التي جاء في أولها قوله تعالى : " غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير " آية ٣ مكية ، مشيراً إلى عدة أسماء من أسماء الله الحسنى ، تتضمن أن من لم يسلم أمره كله إليه ، وجادل في آياته فإنه يخزيه فيعذبه ويرديه ^٦ ومن أطاعه وأتاب إليه نصره ، فأنجاه من العذاب .

وأثبت تعالى عزته وقدرته بذكر خذلانه لمكذبي رسله ، وأخذه لهم في الدنيا في قوله : " فأخذتهم فكيف كان عقاب " آية ٥ ، وقوله : " فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق " آية ٢١ ، وفي الآخرة في قوله : " وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار " آية ٦ ، وقوله : " يوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب " ٤٦ .

ثم جاء ذكر النصر للذين آمنوا في سياق ذكر تخاصم أهل النار بما يفيد عدم نصر أحدهم للآخر يقول تعالى :

^١ - ابن جرير جـ ٢٧ ص ١١٠ - ١١١ .

^٢ - انظر د. محمد الخضري ، من أسرار حروف العطف ص ٤١ .

^٣ - بما دلت عليه الفاء من الترتيب الرتبي ، انظر المرجع السابق .

^٤ - المرجع السابق ٤٢ .

^٥ - انظر سيد قطب ، في ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٤٦٥ .

^٦ - انظر البقاعي جـ ١٧ ص ١ .

وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
 إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾
 قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾
 وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا
 مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْ لِمَ تَكُ تَأْتِيكُمْ رَسُولُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
 قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَا الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٥٠﴾

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ
 ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ

الذَّارِ ﴿٥٢﴾

غافر ٤٧ - ٥٢ مكية .

فإن كون الكفرة أتباعاً ومتبوعين في النار ، تجري بينهم محاجة ومحاوره رغبة في الخلاص منها ، مما ينتج منه عدم عون المستكبرين على الله للضعفاء وعدم عون الملائكة لهم ؛ يقابله نصر الله للذين آمنوا الذي وضحه أبو السعود قائلاً : (وقوله تعالى : " إنا لننصر ... " لبيان أن ما أصاب الكفرة من العذاب المحكي من فروع حكم كلي تقتضيه الحكمة وهو أن شأننا المستمر أننا ننصر رسلنا وأتباعهم) ^١ . ونصر الله في الدنيا يكون (بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة) ^٢ و (بإلزامهم طريق الهدى الكفيلة بكل فوز) ^٣ وفي الآخرة (بإعلاء درجاتهم في

^١ - أبو السعود جـ ٧ ص ٢٨٠ .

^٢ - حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٢٧٧ المتن والهامش ، وانظر ابن جرير جـ ٢٤ ص ٤٨ ؛ الزمخشري جـ ٣ ص ٤٣١ ، الرازي جـ ٢٧ ص ٧٦ ، أبو السعود جـ ٧ ص ٢٨٠ .

^٣ - البقاعي جـ ١٧ ص ٨٧ .

مراتب الثواب) ^١ . و عدم نصر الكفار غير المصرّح به في الآية يُفهم من كونهم في النار لأن معنى هذا أنهم حُرّموا التوفيق بكفرهم نحو ما جاء في قوله تعالى : " فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم " الصف آية ٥ ، وقوله : " ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً " الأنعام آية ١٢٥ . والآيات تصور خذلانهم في الآخرة أولاً بكونهم في النار ، وثانياً بكونهم يطلبون النصر من رؤسائهم إما على التبعية لهم كما اعتادوا ^٢ ، وإما توبيخاً لهم لإضلالهم إياهم ^٣ ، وثالثاً بكونهم يطلبون من خزنة النار الموكلين بتعذيبهم الدعاء بالتخفيف عنهم ^٤ فلا يجابوا إلى أي من مطلوبهم .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يأتي قوله : " يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار " المبدل من قوله : " يوم يقوم الأشهاد " ليكمل صورة المقابلة من حيث تقرير جزائهم ، فنصر الله للرسول والمؤمنين في الآخرة ، قوبل بثلاثة أمور ، أحدها : أنهم ليس لهم عذر ينفعهم وإن وجد لم يقبل ^٥ ثانيها : أن لهم اللعنة (وهذا يفيد الحصر) ^٦ . ثالثها : لهم سوء الدار وهو النار وعذابها (وإذا كان هذا لهم فما ظنك بما هو عليهم ! وقد علم من هذا أن لأعدائهم - وهم الرسل وأتباعهم - الكرامة والرحمة ولهم قبول الاعتذار وحسن الدار فظهرت بذلك أعلام النصر) ^٧ ، فالنصر يعني (حسن المعونة) ^٨ ، وهؤلاء لا يُعينهم على الخلاص معذرتهم باتباع كبرائهم وآبائهم ، ولا معذرتهم بعدم المشيئة نحو : " لو شاء الله ما أشركنا " الأنعام ١٤٨ .

^١ - الرازي جـ ٢٧ ص ٧٦ .

^٢ - انظر الطاهر بن عاشور جـ ٢٤ ص ١٦١ .

^٣ - انظر الرازي جـ ٢٧ ص ٧٤ الطاهر بن عاشور جـ ٢٤ ص ١٦١ .

^٤ - ذهب كثير من المفسرين إلى أن النجاءهم للخزنة لظنهم أنهم أحوب دعوة ، وألمح ابن كثير جـ ٦ ص ١٤٥ إلى عدم تركيزهم حين سألوها الخزنة وهم كالسجانين أن يدعوا لهم بالتخفيف ، في حين صرح البقاعي جـ ١٧ ص ٨٤ بأنهم (لسوء ما هم فيه لا يعقلون فهم لا يضعون شيئاً في محله كما كانوا في الدنيا) .

^٥ - انظر ابن جرير ٢٤ ص ٤٩ ، الزمخشري جـ ٣ ص ٤٣٢ ، الرازي جـ ٢٧ ص ٧٧ ، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٢٧٧ المتن والهامش .

^٦ - الرازي جـ ٢٧ ص ٧٧ .

^٧ - البقاعي جـ ١٧ ص ٨٨ .

^٨ - ابن منظور ، اللسان جـ ٥ ص ٢١١ .

وفي النصر معنى الإقبال من الله على العبد لأنه (أصل صحيح يدل على إتيان خير وإيتائه ... وأما الإتيان فالعرب تقول نصرت بلد كذا إذا أتته ... ولذلك يسمى المطر نصراً^١ ، ويقابله للكفار الطرد والإبعاد . وفي النصر معنى الإيتاء والله يؤتي المؤمنين الدار الحسنى وهي الجنة في حين يجعل لمقابلهم الكفار سوء الدار وهي النار أعاذنا الله منها .

ويأتي التثبيت للمؤمنين في سورة إبراهيم التي تتحدث بعض آياتها - في إثبات التوحيد والبعث والحساب - عن ضلال الكافرين في قوله : " أولئك في ضلال بعيد " آية ٣ ، وتكذيبهم الرسل وشكهم فيما جاءوا به في قوله : " وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب " آية ٩ ، وتمثيل ضياع أعمالهم برماد بددته الريح في قوله : " مثل الذين كفروا برهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف " آية ١٨ ، وتصوير حالهم يوم القيامة قد أفرغت أفئدتهم من الإباء والاستكبار^٢ الذي كانوا عليه في قوله : " وأفئدتهم هواء " آية ٤٣ .

ويتصل ذكر التثبيت بذكر ثبات كلمة التوحيد لبيان جزاء المتمسكين بهذه الكلمة وجزاء المنحرفين عنها يقول تعالى :

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ



إبراهيم ٢٧ مكية .

فالمؤمنون بالله يثبتهم في الدنيا والآخرة والكافرون يضلهم فيهما كذلك . وقد اختلف أهل التأويل في معنى التثبيت في الدنيا فقال بعضهم : إنه التثبيت على الإيمان ، وأنهم إذا فتنوا لم يزلوا^٣ ، وقال آخرون إن المقصود سؤال القبر^١ . أما التثبيت في الآخرة فيكاد يجمع المفسرون

^١ - ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ج ٥ ص ٤٣٥ .

^٢ - انظر البقاعي ج ١٠ ص ٤٣٤ .

^٣ - انظر ابن جرير ج ١٣ ص ١٤٥ ، الزمخشري ج ٢ ص ٣٧٧ ، ابن عطية ج ١٠ ص ٨٤ ، القرطبي ج ٩ ص ٣٦٣ ، النيسابوري ج ١٣ ص ١٣٢ ، ابن كثير ج ٤ ص ١٣١ ، البقاعي ج ١٠ ص ٤١٥ ، أبو السعود

على أن المقصود به التثبيت في سؤال القبر ، وأضاف آخرون التثبيت في مواقف القيامة ^٢ .
 و الأرحح القول بأن التثبيت في الدنيا أي مدة الحياة في الدنيا ، وفي الآخرة السؤال في القبر
 وذلك (لأن الميت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا ودخل في أحكام الآخرة) ^٣ .
 أما إضلال الظالمين فالمراد به في الدنيا عدم التوفيق للإيمان ^٤ ، أو الإمهال في الضلال ^٥
 أو عدم الثبات في الفتن ^٦ ، وفي الآخرة أنهم لا يهتدون لحجتهم عند المساءلة في القبر ^٧ وهم
 في مواقف القيامة أضلّ وأزلّ ^٨ .

وثبات المؤمنين لا يقابل ضلال الكافرين مقابلة الضدين ، ولعله من المقابلات الخلافية
 التي يكون فيها الأمر المقابل مخالفاً للأمر المقابل له وليس ضده ، أو هو من الاحتباك كما ذهب
 الإمام البقاعي حين قال : (ذكر الثبات أولاً دليلاً على ضده ثانياً والإضلال ثانياً دليلاً
 على الهدى أولاً) ^٩ . وعلى كلٍ فإن صورة المقابلة تتضح بكون ثبات المؤمنين على
 التوحيد في الدنيا نعمة يقابلها نقمة ضلال الكافرين عنه ، وثباتهم في المساءلة الذي يعد
 بداية سلوكهم الطريق إلى الجنة ، يقابله ضلال الكافرين عن حجتهم الذي يُعد بداية سبيل
 وجوب العذاب عليهم .

جـ ٥ ص ٤٤ ، حاشية الشهاب جـ ٥ ص ٢٦٦ المتن والهامش ، الألوسي جـ ١٣ ص ٢١٧ ، الطاهر بن عاشور
 جـ ١٣ ص ٢٢٦ .

^١ - انظر ابن جرير جـ ١٣ ص ١٤٢ ، ابن عطية جـ ١٠ ص ٨٤ ، القرطبي جـ ٩ ص ٣٦٣ ، الخازن جـ ٣ ص
 ٧٨ ، الألوسي جـ ١٣ ص ٢١٧ .

^٢ - انظر الزمخشري جـ ٢ ص ٣٧٧ ، ابن عطية جـ ١٠ ص ٨٤ ، أبو السعود جـ ٥ ص ٤٤ ، حاشية الشهاب
 جـ ٥ ص ٢٦٦ المتن والهامش ، الألوسي جـ ١٣ ص ٢١٧ ، الطاهر بن عاشور جـ ١٣ ص ٢٢٦ .

^٣ - الرازي جـ ١٩ ص ١٢٢ .

^٤ - انظر ابن جرير جـ ١٣ ص ١٤٥ .

^٥ - انظر القرطبي جـ ٩ ص ٣٦٤ .

^٦ - انظر البيضاوي جـ ٥ ص ٢٦٦ .

^٧ - انظر ابن جرير جـ ١٣ ص ١٤٥ ، القرطبي جـ ٩ ص ٣٦٤ .

^٨ - انظر الألوسي جـ ١٣ ص ٢١٧ .

^٩ - البقاعي جـ ١٠ ص ٤١٥ .

بين النساء والحديد والمائدة :-

تأتي المقابلة بين جزاء الإيمان وجزاء الكفر في سورة النساء في عدة مواضع منها قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا
بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ
عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ
أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ ط وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

النساء ١٥٠ - ١٥٢ مدنية .

فالكفر هنا مقيدٌ بجميع الرسل والإيمان كذلك ، ومن هنا جاء الجزاء ملائماً لهذا القيد
فهناك توافق بين الجزاء والعمل ، حيث أن من استهان بالله ورسله ، وأراد التفرقة بين الإيمان
بالله ورسله أعد الله له العذاب الذي يهين صاحبه ^١ ، في حين أن ثواب من آمن بالله ورسله
أن يؤتیه ما وعده من الأجر والثواب ^٢ ، ومضاعفة الحسنات ^٣ ، بعد التجاوز عن السيئات ^٤ ،
ويلحظ أن لفظ أجورهم يطوي تحته كل ما وعدوا به في القرآن الكريم والسنة من الأجر
المشتمل على الجنات والأثمار والثمار والخور العين وغير ذلك من أصناف النعيم . و في قول
البقاعي بأن معنى لفظ أجورهم (أي كاملة بحسب نياتهم وأعمالهم) ^٥ ما يعلل الإضافة فيه .
ويؤنس هذا الرأي ما ذكره الطاهر بن عاشور في آية الحديد - التي ستأتي بعد قليل - من

^١ - انظر ابن كثير ج ٢ ص ٤٢٥ ، البقاعي ج ٥ ص ٤٥١ .

^٢ - انظر الزمخشري ج ١ ص ٥٧٦ ، حاشية الشهاب ج ٣ ص ١٩٥ المتن والهامش .

^٣ - انظر حاشية الشهاب ج ٣ ص ١٩٥ المتن والهامش .

^٤ - انظر أبو حيان ج ٣ ص ٤٠١ .

^٥ - البقاعي ج ٥ ص ٤٥٣ .

أن (معنى إضافة أجر ونور إلى ضميرهم أنه أجر يُعرف بهم ونور يعرف بهم)^١ . ومن
المعلوم أن درجات الإيمان متفاوتة ومن ثم فمراتب الأجر متفاوتة ، وشبيهه بآية النساء هذه
ما جاء في سورة الحديد من قوله :

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ
عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِعَٰيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

الحديد ١٩ مدنية .

فهي تتحدث عن جزاء المؤمنين بالله ورسله وتختصهم بأجرهم ونورهم . وقد قيل عن هذا
النور إنه حقيقة بمعنى النور الحسي^٢ ، وقيل إنه (مجاز عبارة عن الهدى والكرامة والبشرى
التي حصلوا فيها)^٣ ، وكلا المعنيين يوصلان إلى كون المؤمنين يسيرون إلى الجنة بيسر و
سهولة وهذا يقابل تحبب الكفار وحيرتهم في مواقف القيامة . وقد أوماً إلى هذا كون
الكافرين أصحاب الجحيم ، لأن من كان مصيره إلى النار عُلم ولاشك سوء حال طريقه
إليها . أما تعلق الأجر والنور فقد قيل بالمؤمنين بالله ورسله^٤ ، وقيل بالشهداء^٥ ، فمن
جعله خاصاً بالمؤمنين فقد جمع في وصفهم الصدق والشهادة ، لأنهم صدقوا بالله ورسله ،
وشهدوا لله بالوحدانية ويشهدون لأنبيائهم بتبليغ الرسالة ، ويشهدون على الأمم ويشهدون
على العباد في أعمالهم . ومن جعله خاصاً بالشهداء في سبيل الله فلأن هذا النور والأجر
العظيم أحرى بمن قُتل في سبيل الله ، و(الإيمان غير موجب في المتعارف للمؤمن اسم

^١ - الطاهر بن عاشور جـ ٢٧ ص ٣٩٨ .

^٢ - انظر ابن عطية جـ ١٥ ص ٤٢٠ .

^٣ - المصدر السابق ص ٤٢١ .

^٤ - انظر ابن جرير جـ ٢٧ ص ١٣٢ ، ابن عطية جـ ١٥ ص ٤١٩ ، ٤٢٠ ، الرازي جـ ٢٩ ص ٢٣٢ القرطبي

جـ ١٧ ص ٢٥٣ ، ابن كثير جـ ٦ ص ٥٦١ ، حاشية الشهاب جـ ٨ ص ١٥٩ ، ١٦٠ المتن والهامش ، الطاهر بن

عاشور جـ ٢٧ ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ .

^٥ - انظر المصادر السابقة .

شاهد) ^١ ، وعلى هذا يكون التقدير على التعلق الأول أن لهم أجراً مثل أجر الصديقين والشهداء ^٢ وعلى التعلق الثاني يكون التقدير أن الشهداء (لهم أجر أنفسهم ونور أنفسهم) ^٣ . وسواء ترجح القول الأول أو الثاني يظل الجزاء عائداً على فئة آمنت بالله ورسله . ويقابل هذا الأجر والنور المتضمن دخولهم الجنة كون الكافرين ملازمين للنار لا يفارقونها (فلا أجر لهم ولا نور) ^٤ ، وهذا جزاء ما سترؤوا من نور الإيمان الذي (دلّت عليه أنوار عقولهم ومراثي فكرهم) ^٥ . وبينما تعظم كرامة المؤمنين بالله ورسله بإضافة الأجر والنور لهم ، تُعظّم مهانة الكافرين بالله والمكذّبين لرسله بذكر صحبتهم للنار تهكمّاً ^٦ في قوله : " أولئك أصحاب الجحيم " . ومما أظهر هذا التباين الإشارة إلى الفريقين بالاسم المختص بالبعد (أولئك) ففي فريق الإيمان دل على أنهم (الذين لهم الرتب العالية والمقامات السامية) ^٧ ، وفي فريق الكفر دل على أنهم (المبعدون من الخير خاصة) ^٨ . وقد جاء في سورة النساء قوله : " سوف يؤتيهم أجورهم " لتأكيد الوعد ^٩ ، وجاء هنا " لهم أجرهم ونورهم " وكأنه أمر قد تحقق ، فقد يرجع السبب في ذلك إلى تأخر سورة الحديد في النزول عن سورة النساء ومجيء هذه الآية بعد مجيء ذكر سعي نور المؤمنين بين أيديهم وبإيمانهم مما يستفاد منه تحقق كون النور لهم .

وتلتقي آيات في سورة المائدة مع هذين الموضوعين في ذكر جزاء الإيمان بالله ورسله - وإن لم يُنص عليه - فإن إيمان النصارى بمحمد بعد عيسى عليهما السلام يفيد هذا المعنى يقول تعالى :

^١ - ابن جرير جـ ٢٧ ص ١٣٣، ١٣٤ .

^٢ - انظر الزمخشري جـ ٤ ص ٦٥ .

^٣ - القرطبي جـ ١٧ ص ٢٥٣ .

^٤ - المصدر السابق ص ٢٥٤ .

^٥ - البقاعي جـ ١٩ ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

^٦ - لمست معنى التهكم مما في الصحبة من مشاعر الود والألفة والله أعلم .

^٧ - البقاعي جـ ١٩ ص ٢٨٥ .

^٨ - المصدر السابق ص ٢٨٦ .

^٩ - انظر الزمخشري جـ ١ ص ٥٧٦ ، حاشية الشهاب جـ ٣ ص ١٩٥ المتن والهامش .

* لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا^ط
 وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرِي ذَلِكَ بَانَ
 مِنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ
 إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ
 رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا
 جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾

فَأَثَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا^ج
 وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
 أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

المائدة ٨٢ - ٨٦ مدنية .

وثمة تشابه بين سياق سورة الحديد والمائدة في ذكر الشهادة ، فقد أشار ابن جرير في معنى
 لفظ الشاهدين هنا إلى قول ابن عباس (محمد صلى الله عليه وسلم وأمه إنهم شهدوا أنه قد
 بلغ وشهدوا أن الرسل قد بلغت ... فذهب ابن عباس إلى أن الشاهدين هم الشهداء)^١ وتؤيد
 قراءة " صديقين وشهداء " بدل " قسيسين ورهباناً " ^٢ ، أن المقصود في الآيتين متقارب .
 وعلى هذا تكون الجنان التي تجري من تحتها الأنهار المقصود بها جنات عالية في درجات
 الأنبياء مفسرة للثواب المذكور في سورة الحديد .

ويتطابق جزاء الفريق الكافر بالله المكذب لرسله في السورتين (الحديد والمائدة) وهو
 قوله : " والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم " . ويتقابل ثواب المؤمنين في
 السورتين مع عقاب الكافرين ، فالمؤمنون مستقرون في جنات تجري من تحتها الأنهار ،

^١ - ابن جرير ج - ٧ ص ٥ .

^٢ - انظر ابن كثير ج - ٢ ص ٦٢٤ .

والكفار مستقرون في النار ، ينعم أولئك ببرد المياه والأشجار التي تنبتها ويحترق هؤلاء بشدة حرارة النار التي تحيط بهم ، لأن الجحيم (كل نار عظيمة في مهواة)^١ ، وتطوي العبارتان " جنات تجري من تحتها الأنهار " ، و " أولئك أصحاب الجحيم " من ألوان النعيم وألوان العذاب ما لا يحيط به الوصف . وكل خالد فيما هو فيه المؤمنون بصريح العبارة الدالة على الخلود " خالدين فيها " ، والكافرون بذكر المصاحبة للنار الدال على ذلك^٢ ودلالة آيات أخر من كتاب الله^٣ .

ونعود إلى سياقات المقابلة في سورة النساء لنجد قوله تعالى :

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرًا بِالرَّسُولِ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمِنُوا خَيْرًا
لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا

حَكِيمًا

النساء ١٧٠ مدنية .

فقد تقابلت المعاني بين عبارتين موجزتين تشملان ما لا يحيط الوصف به من كل منهما ، فعبارة " خيراً لكم " تشمل كل ما يحقق معنى الخيرية في الجزاء الدنيوي والأخروي . وعبارة " فله ما في السموات والأرض " تشير إلى عظيم قدرة الله على إنزال العذاب الشديد عليهم واستبدالهم بغيرهم ممن ينقادون لحكمه^٤ ، لأنه من إقامة العلة مقام المعلول فملكية الله للسموات والأرض دلت على جواب الشرط المحذوف ، وهو إنزال العذاب بهم ، والسياق هو الذي دل عليه . وسياقي ما يماثله في الفصل الثاني في قوله " ومن كفر فإن ربي غني كريم " . وفي سورة النساء موضع ثالث حُذِف فيه أحد طرفي المقابلة ، ودل عليه الكلام يقول تعالى :

^١ - النيسابوري ج ٦ ص ٨٦ . وذكر أبو هلال العسكري ، الفروق اللغوية ، حققه جُسام الدين القدسي ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ص ٢٥٦ أن (الجحيم نار على نار وجمر على جمر ، وجاحمه شدة تلهبه)
^٢ - انظر ابن جرير ج ٧ ص ٦ ، الرازي ج ١٢ ص ٦٩ ، النيسابوري ج ٦ ص ٨٦ ، البقاعي ج ٦ ص ٢٧٣ ، الطاهر ج ٧ ص ١٣ .
^٣ - انظر ابن عطية ج ٥ ص ١٧٣ .
^٤ - انظر ابن جرير ج ٦ ص ٢٣ ، الرازي ج ١١ ص ١١٤ ، البقاعي ج ٥ ص ٥١٧ ، ٥١٨ .

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرَهُنَّ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا

﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ

وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

النساء ١٧٤ - ١٧٥ مدنية .

فقد ذكر جزاء الذين آمنوا وهو أنه تعالى يدخلهم في رحمة منه وهي الجنة^١ ،
ويزيدهم من فضله^٢ ، ويهديهم إلى الإسلام^٣ في الدنيا ، ويثبتهم^٤ عليه وإلى طريق الجنة في
الآخرة^٥ ، وحذف مقابله الذي دلت عليه أمّا التفصيلية ، وذكر جزاء أحد الفريقين دل على
جزاء الثاني^٦ ، فهذا الحذف يدل على أن مصير الكافرين الدخول في النار ، مقابل دخول
المؤمنين الجنة . والتسلط عليهم بأنواع العذاب المتزايد الذي يستحقون ، مقابل زيادة صنوف
أنواع النعيم التي ينعم فيها المؤمنون . وحرمانهم التوفيق في الدنيا إلى الإيمان ، وفي الآخرة إلى
طريق الجنان ، مقابل توفيق الله تعالى للمؤمنين وتثبيتهم على الإيمان ، وهدايتهم إلى طريق
الجنان . وكما أن (الإدخال في الرحمة والفضل عبارة عن الرضا)^٧ في حق المؤمنين ،
فسيكون عدم الإدخال دالاً على السخط على الكافرين .

وقد ذكر البقاعي الحكمة من هذا الحذف بأنه ترك للقسم الآخر ، ووضع حكم من
أعظم مقاصد السورة^٨ ، وكأنه يلفت إلى أن الحذف لعدم الاعتداد بشأنهم . وذكر الطاهر
أن الحذف للتهويل من شأن ما سيقع عليهم من العذاب^٩ . وقد يكون من الممكن الجمع بين

^١ - انظر الرازي جـ ١١ ص ١٢٠ ، ابن كثير جـ ٢ ص ٤٦٣ .

^٢ - انظر الرازي جـ ١١ ص ١٢٠ ، البيضاوي جـ ٣ ص ٢٠٧ ، ابن كثير جـ ٢ ص ٤٦٣ ،

البقاعي جـ ٥ ص ٥٢٨ .

^٣ - انظر الرازي جـ ١١ ص ١١٩ ، البقاعي جـ ٥ ص ٥٢٨ ، حاشية الشهاب جـ ٣ ص ٢٠٧ المتن والهامش .

^٤ - انظر الزمخشري جـ ١ ص ٥٨٩ .

^٥ - انظر ابن كثير جـ ٢ ص ٤٦٣ ، البقاعي جـ ٥ ص ٥٢٨ ، حاشية الشهاب جـ ٣ ص ٢٠٧ المتن والهامش .

^٦ - انظر الزمخشري جـ ١ ص ٥٨٩ ، الطاهر بن عاشور جـ ٦ ص ٦٢ .

^٧ - الطاهر بن عاشور جـ ٦ ص ٦٣ .

^٨ - انظر البقاعي جـ ٥ ص ٥٢٨ .

^٩ - انظر الطاهر بن عاشور جـ ٦ ص ٦٣ .

الحكمتين ، فإن في الإعراض عن ذكر فريق الكفرة احتقاراً لشأنهم ، يقابل التنويه بشأن المؤمنين المعتمدين بالله وفي تفخيم شأن جزاء المؤمنين عن طريق التنكير والتنوين^١ في قوله "رحمة منه وفضل" إشارة إلى ما يقابله من تهويل في جزاء الكافرين ، فكأنه حُذف لأن العبارات لا تحيط بوصفه .

ونستطيع أن نلاحظ إلى الآن أن التعبير بصيغة الفعل الماضي (الذين آمنوا) يشير إلى مجرد الإيمان^٢ ، فجاء الجزاء عاماً شاملاً من أجر ونور ورحمة وفضل ، ولعل السبب هو تناسب قدر الجزاء مع مرتبة الإيمان الذي أتى به صاحبه . وقد يؤيد هذا القول إن ذكر نوع الجزاء وهو "جنات تجري من تحتها الأنهار" جاء في سورة المائدة حين حُدد نوع إيمان النصراني وهو إيمان بالله وكتابه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم مع إيمانهم بنبوة عيسى عليه السلام ، ويؤيده أيضاً أن تحديد نوع الجزاء جاء في سياق سورة الحديد التي تشير إلى فضل الصدقة والمتصدقين ، وفي سورة الفتح التي تذكر أجر الجهاد في سبيل الله .

ومما يلاحظ أيضاً أن استعمال اسم الإشارة للبعيد (أولئك) جاء في جزاء الكافرين في قوله "أولئك هم الكافرون حقاً" النساء ١٥١ ، وقوله "أولئك أصحاب الجحيم" الحديد ١٩ ، والمائدة ٨٦ ، للدلالة على بعدهم عن الخير ، وجاء في جزاء المؤمنين في قوله "أولئك سوف يؤتيهم أجورهم" النساء ١٥٢ ، للدلالة على علو مراتبهم وسمو درجاتهم ، فهناك مقابلة بين البعد عن الخير في جانب الكفار في سورة النساء ونحوها مما يفيد تدنيهم عن مراتب الشرف ، والبعد في مراتب السمو التي تخص المؤمنين. ولا يخفى أن سر هذه الدلالة هو ما في اسم الإشارة من إيماء إلى أن من يشار إليه أحرىء بالحكم المقرر لهم^٣ . وقريب منه دلالة الاسم الموصول في الآيات على وجه بناء الخير^٤ فإن صلة الموصول تشير إلى وجه استحقاق كل فريق لجزائه . فهاتان الأداتان (اسم الإشارة ، اسم الموصول) تعدان برهاناً ودليلاً على نوع الجزاء الذي وقع لكل فريق ، غير أن الفرق بينهما أن اسم الإشارة يستحضر

^١ - انظر أبو السعود ج ٢ ص ٢٦٣ .

^٢ - انظر البقاعي ج ١٧ ص ٨٧ سورة غافر ، ج ١٠ ص ٤١٥ سورة إبراهيم .

^٣ - انظر شروح التلخيص ج ١ ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

^٤ - انظر المصدر السابق ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

أصحاب الجزاء أمام الأعين^١ ، ففيه حركة لا نجدها في الاسم الموصول الذي يكتفي بسرد العمل وجزائه.

ومن المواضع التي ذكر فيها - بعد آيات الحديد السابق ذكرها - النور جزاءً ما في قوله تعالى في سورة الحديد :

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
بُشْرَانِكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ
لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظِرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا
وَرَاءَكُمْ فَأَلْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ
الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَ لَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ

قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ
الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا
يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَانِكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانِكُمْ
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

١٢ - ١٥ مدنية .

وقد سبق أن ذكرت اختلاف المفسرين في حقيقة النور^٢ ، ولكن الجدير بالذكر هنا أن ابن جرير الذي اختار قول الضحاك بأن المعنى (يوم ترون المؤمنين والمؤمنات يسعى ثواب

^١ - انظر شروح التلخيص ج ١ ص ٣١٤ .

^٢ - عند الحديث عن قوله تعالى " لهم أجرهم ونورهم " من سورة الحديد .

إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم وفي أيمانهم كتب أعمالهم تطاير)^١ ، قد عاد في تفسير النور المذكور في سورة التحريم في الآية المشاهدة " نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم " آية ٨ إلى القول بأنه نور على الحقيقة حين قال (نورهم أمامهم ... و بأيمانهم كتابهم)^٢ ، وقد يكون الأنسب ، لأن السياق في وصف سيرهم إلى الجنة مما يتعلق بفرط إنارة ذلك الطريق . ويؤيد هذا ما ورد في باقي الآيات من طلب المنافقين الاقتباس من هذا النور ، ولو كان عبارة عن الهدى والرضوان^٣ لما طلبوه منهم . أما النور الذي بأيمانهم فقليل إنه كتبهم^٤ ، وقيل إنه نور على الحقيقة يكون من جهة اليمين^٥ ، ولعله الأصوب لما ذكرت . وعلى كل فإن المراد أن النور يحيط بهم من كل الجهات ويتأيد هذا بحذف حرف الجر (من) كما ذكر البقاعي^٦ ويقابل هذا النور الظلام الدامس الذي وقع فيه المنافقون - بما تدل عليه الآيات من طلبهم الاقتباس من نور المؤمنين وبما روى من آثار^٧ .

وقد جاء ذكر أهل الإيمان هنا عن طريق الوصف (المؤمنين والمؤمنات) وهذا بخلاف الآيات السابقة التي عبرت عنهم بالاسم الموصول (الذين آمنوا) . ولم أجد من المفسرين من التفت إلى هذا الفرق سوى ما لمح البقاعي من الارتباط بين الآيات السابقة - في ذكر التصديق - وهذه الآية من أنه (أشار إلى أن المحبوب من المال لا يخرج عنه ولا سيما مع الإقتار إلا من قر الدين في قلبه ، بتعبيره بالوصف فقال المؤمنين والمؤمنات أي الذين صار الإيمان لهم

^١ - ابن جرير جـ ٢٧ ص ١٢٨ .

^٢ - ابن جرير جـ ٢٨ ص ١٠٨ .

^٣ - انظر ابن عطية جـ ١٥ ص ٤٠٨ .

^٤ - انظر ابن جرير جـ ٢٧ ص ١٢٨ . ابن عطية جـ ١٥ ص ٤٠٨ . ابن كثير جـ ٦ ص ٥٥٥ أبو السعود جـ ٧ ص ٢٠٧ .

^٥ - انظر الزمخشري جـ ٤ ص ٦٣ ، ابن عطية جـ ١٥ ص ٤٠٨ ، البقاعي جـ ١٩ ص ٢٧٢ ، حاشية الشهاب جـ ٨ ص ١٥٧ المتن والهامش ، الألوسي جـ ٢٧ ص ١٧٤ ، الطاهر بن عاشور جـ ٢٨ ص ٣٧١ .

^٦ - انظر البقاعي جـ ١٩ ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

^٧ - روي عن ابن عباس أنه قال : بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا تبعوهم فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذ انظرونا نقتبس من نوركم فإننا كنا معكم في الدنيا . قال المؤمنون : ارجعوا من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور . رواه عنه ابن جرير جـ ٢٧ ص ١٢٩ وابن كثير جـ ٦ ص ٥٥٦ ، وانظر غير ذلك من الروايات الرازي جـ ٢٩ ص ٢٢٢ ، القرطبي جـ ١٧ ص ٢٤٥ ، الألوسي جـ ٢٧ ص ١٧٥ - ١٧٦ .

صفة راسخة^١ . ولعل ذكرهم هنا وفي آية الفتح " ليدخل المؤمنون والمؤمنات " آية ٥ بالوصف ، يجعل من الممكن القول بأنه جاء تنويهاً بشأنهم ، بخلاف ما سبق من مواضع الآيات المدروسة سابقاً ، التي اقتصر على ذكر إيمانهم الذي تفضل الله به عليهم بالجنة . ولا يرد على هذا قول البقاعي في فعل (آمنوا) في آية التحريم " يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم " ٨ إن المقصود إيمان عظيم^٢ ، لأنه استفاد التعظيم من معيته للرسول صلى الله عليه وسلم كما صرح هو و ابن الزبير^٣ بذلك ، ويقابل هذا التنويه بالمؤمنين والمؤمنات الدال على عراقتهم في وصف الإيمان التقريع والتوبيخ في تعريف المنافقين والمنافقات بالوصف الدال على العراقة في إظهار الإيمان وإبطان الكفر^٤ .

ولم أجد كثيراً من المفسرين توقفوا عند جمع الذكور مع الإناث في الآيات سوى الطاهر بن عاشور الذي جعله ونظائره للتنبيه (على أن حظوظ النساء في هذا الدين مساوية حظوظ الرجال إلا فيما خصصن به من أحكام قليلة لها أدلتها الخاصة ، وذلك لإبطال ما عند اليهود من وضع النساء في حالة ملعونات ومحرومات من معظم الطاعات)^٥ وجعله في آية الفتح " ليدخل المؤمنون والمؤمنات " لبيان أن (للمؤمنات حظ في ذلك - أي الثواب - لأنهن لا يخلون من مشاركة في تلك الشدائد ممن يقمن منهن على المرضى والجرحى وسقي الجيش وقت القتال ومن صبر بعضهن على الثكل أو التأيم ، ومن صبرهن على غيبة الأزواج والأبناء وذوي القرابة)^٦ ، فقد جعل في النص الأول الجمع بين الإناث والذكور لإثبات المساواة عموماً مقابل ما كان يُحتقر من شأنهن ، وفي الثاني لإثبات مشاركة المرأة للرجل في بعض أمور الحياة كالجهاد ونحوه . وهذا ما فعله الرازي حين قال : (في المواضع التي فيها ما يوهم اختصاص المؤمنين بالجزاء الموعود به مع كون المؤمنات يشتركن معهم ذكرهن الله صريحاً ، وفي المواضع التي ليس فيها ما يوهم ذلك اكتفى بدخولهم في المؤمنين)^٧ وكلا العالمين الجليلين

^١ - البقاعي جـ ١٩ ص ٢٧١ .

^٢ - انظر البقاعي جـ ٢٠ ص ٢٠٢ .

^٣ - انظر ابن الزبير ، ملاك التأويل جـ ٢ ص ٨٩٣ .

^٤ - انظر البقاعي جـ ١٩ ص ٢٧٣ .

^٥ - الطاهر بن عاشور جـ ٢٧ ص ٣٧٩ - ٣٨٠ .

^٦ - الطاهر بن عاشور جـ ٢٦ ص ١٥٢ .

^٧ - الرازي جـ ٢٨ ص ٨٣ تفسير آية الفتح ٥-٦ .

أشار إلى نفس العلة في ذكر المنافقات بجانب المنافقين وهو اشتراكهن معهم في العمل^١. ولعل في النص على الجمع في كل فريق مقابلاً للفريق الآخر إبرازاً لعاقبة الاشتراك في الخير، مقابل عاقبة الاشتراك في الشر.

ونعود للنظر في عناصر المقابلة في الآيات فإن الانطلاق الذي أفهمه سعي النور أمام المؤمنين يقابله تحبط المنافقين وحيرقهم في الظلام ومن ثم عجزهم عن اللحاق بالمؤمنين^٢ وخوفهم من الفوت الذي عبر عنه تجريد الفعل (انظرونا) من التاء^٣. وقد نتج عن طلبهم هذا استهزاء المؤمنين بهم^٤ - كما كانوا يستهزئون بأهل الإيمان^٥ في الدنيا - بأمرهم بالرجوع لطلب النور، لأنهم يعلمون أن لا نور لهم وإنما هو تأيس وإقناط^٦.

وفي مقابل خطاب المؤمنين مخاطبة تكريم ورضا بشارتهم بجنات عظيمة الشأن، يخاطب المنافقون خطاب استهزاء واستخفاف من المؤمنين في قوله "ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً" ويتقابل حال الفريقين أيضاً بعد ما دار من حوار حين ضرب بينهما السور فقد استغرق المؤمنون في الرحمة - بما دل عليه حرف الجر(في) من الظرفية - في حين يتدنى وصول العذاب للمنافقين من ناحية هذا الباب وجهته - بما دل عليه حرف الجر (من) من ابتداء الغاية - فيتوالى عليهم وتتابع صنوفه وأشكاله إلى ما لا نهاية لأن النهاية غير مذكورة.

وبينما يأمل المنافقون في النجاة باستنصارهم المؤمنين وتوسلهم بمعيتهم، تأتي إجابة المؤمنين في قوله "بلى ولكنكم... بابتداء مطمع يحتم بانتهاء مؤيس، وهذا أنكى لهم وأشد عذاباً عليهم وتأتي جملة "فاليوم لا يؤخذ..." التي أطلق عليها الطاهر اسم عطف التلقين^٧ لتقرر أن

١ - انظر الرازي جـ ٢٨ ص ٨٢ آية الفتح، الطاهر جـ ٢٧ ص ٣٨١ آية الحديد.

٢ - انظر الشهاب جـ ٨ ص ١٥٧.

٣ - انظر البقاعي جـ ١٩ ص ٢٧٣.

٤ - انظر الزمخشري جـ ٤ ص ٦٣، البقاعي جـ ١٩ ص ٢٧٤، أبو السعود جـ ٧ ص ٢٠٧، حاشية الشهاب

جـ ٨ ص ١٥٧ المتن والهامش، الألوسي جـ ٢٧ ص ١٧٦ - ١٧٧.

٥ - انظر الألوسي جـ ٢٧ ص ١٧٦ - ١٧٧ عن مقاتل.

٦ - انظر الزمخشري جـ ٤ ص ٦٣، الرازي جـ ٢٩ ص ٢٢٥، البيضاوي جـ ٨ ص ١٥٧، أبو السعود جـ ٧

ص ٢٠٧، الألوسي جـ ٢٧ ص ١٧٧.

٧ - انظر الطاهر جـ ٢٧ ص ٣٨٨ حيث قال (الفاء من عطف التلقين عاطفة كلام أحد على كلام غيره لأجل اتحاد

مكان المخاطبة).

لهؤلاء النار - كما لأولئك جنات لا يحيط بها الوصف - تتولاهم كما تولوا الأعمال الموصلة إليها^١ فتكون لهم مأوىً ومصيراً لا يخرجون منه أبداً - نعوذ بالله من ذلك المصير - .

وقد جاء قوله " مأواهم جهنم وبئس المصير " في الفتح دون ذكر الولاية . ولعل السبب أن الآيات هنا تصور تربصهم بالمؤمنين وولايتهم لأعمال السوء ، فناسب أن يذكر مُتولّيهم وهي النار على سبيل التهكم^٢ . وهناك مقابلة تفهم ضمناً من كون المؤمنين في " جنات تجري من تحتها الأنهار " وكون المنافقين في أسوأ مصير وهو النار ، فأولئك في أعالي الجنان وهؤلاء في أدون مكان . ويتأيد هذا بدمه تعالى لمصير الكفرة بقوله " وبئس المصير " مقابلاً لمدحه تعالى لجزاء المؤمنين بقوله " ذلك هو الفوز العظيم " فهو من تقابل المعاني - كما سبق أن ذكر في آية ص^٣ - والله أعلم .

وقبل أن تنتقل إلى السورة التالية نتوقف عند قوله تعالى " تجري من تحتها الأنهار " الذي جاء في أكثر من موضع^٤ وقد نقلت سابقاً قول الإسكافي بأن المواطن التي وُجِدَ فيها حرف الجر (مِنْ) تفيد أنها جنات عالية فيها الأنبياء^٥ . وبمراجعة المعجم المفهرس وجدت أن حرف الجر (مِنْ) ورد في اثنين وثلاثين موضعاً سبعة وعشرون منها اقترن الإيمان فيها بالعمل^٦ وجاءت مرة واحدة في سورة التوبة^٧ بدون حرف الجر (مِنْ) . ولم أجد من توقف كثيراً عند سبب وجود حرف الجر (من) إلا البقاعي وقد تفاوتت عباراته فيما نحن بصدد من السور فجعلها للتبعيض في سورة المائدة والتحریم^٨ ، وللتبعيض والقرب في

^١ - انظر الزمخشري ج ٤ ص ٦٤ ، أبو السعود ج ٧ ص ٢٠٨ ، حاشية الشهاب ج ٨ ص ١٥٨ المتن والهامش .

^٢ - انظر ابن عطية ج ١٥ ص ٤١٥ ، البقاعي ج ١٩ ص ٢٧٨ ، أبو السعود ج ٧ ص ٢٠٨ ، حاشية الشهاب ج ٨ ص ١٥٨ ، الألوسي ج ٢٧ ص ١٧٩ الطاهر ج ٢٧ ص ٣٨٩ .

^٣ - عند الحديث عن حسن مأب وشر مأب .

^٤ - المائدة ٨٥ ، الحديد ١٢ ، التحريم ٨ ، الفتح ٥ .

^٥ - انظر الإسكافي ، درة التنزيل ج ١ ص ٢٩٠ .

^٦ - البقرة ٢٥ ، آل عمران ١٥ ، النساء ١٣ ، ٥٧ ، ١٢٢ ، المائدة ١٢ ، الأعراف ٤٣ ، التوبة ٧٢ ،

٨٩ ، يونس ٩ ، إبراهيم ٢٣ ، النحل ٣١ ، الكهف ٣١ ، طه ٧٦ ، الحج ١٤ ، ٢٣ ، العنكبوت ٥٨ ، الزمر ٢٠ ،

محمد ١٢ ، الفتح ١٧ ، الصف ١٢ ، التغابن ٩ ، الطلاق ١١ ، البروج ١١ ، البينة ٨ .

^٧ - آية ١٠٠ .

^٨ - انظر البقاعي ج ٦ ص ٢٧١ ، ج ٢٠ ص ١٩٩ .

سورة الفتح^١ وللقرب في آية الحديد هنا^٢ . وسيأتي الحديث عن هذا الامر في فصل لاحق .

وعلى هذا فقد يكون من الممكن القول - تأييداً للإسكافي - بأن الجنات التي تجري من تحتها الأنهار جنات عالية بدليل التصريح بالعمل مع الإيمان وهي مرتبة بلا شك أعلى من الإيمان وحده . أما المواضع التي لم يصرح فيها بالعمل وجاء فيها حرف الجر مِنْ فإن السياق يشير إلى علو درجة هذا الإيمان نحو ما جاء في آية آل عمران^٣ التي جمعت في وصفهم بين التقوى والبر ، والبر كلمة جامعة لكل خصال الخير ، وما جاء في سورة المائدة^٤ والرعد^٥ والنحل^٦ والمجادلة^٧ وما نحن بصدده من آيات سورة الحديد^٨ والتحريم^٩ والفتح^{١٠} ، فالتقوى أو الإيمان المذكور في هذه المواضع إيمان عالي الدرجة . وقد سبق أن أشرت في أول هذا الفصل إلى أن التقوى والإيمان درجات أولها وأهمها التقوى من الشرك والإيمان بالله ويندرج ضمنها كل مراتب الطاعات وللمرء من الثواب قدر ما تحقق في قلبه من الإيمان وصدر عنه من طاعات .

وتشابه آيات في سورة التحريم مع آيات سورة الحديد التي نحن بصددها حيث ذكر

سعي النور بقوله تعالى :

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَزِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

﴿٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوْبُوْا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوْحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ

١ - انظر البقاعي ج ١٨ ص ٢٨٨ .

٢ - انظر البقاعي ج ١٩ ص ٢٧٢ ، وانظر د . صباح دراز من الإعجاز البلاغي ص ٧٤ .

٣ - آية ١٩٨ .

٤ - المائدة ٨٥ ، ١٩٩ .

٥ - آية ٣٥ .

٦ - آية ٣١ .

٧ - آية ٢٢ .

٨ - آية ١٢ .

٩ - آية ٨ .

١٠ - آية ٥ .

يُكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ نَا وَأَغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ

وَمَا أَوْذَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾

٧- ٩ التحريم مدنية .

فقد جاء التهيب بالنهي عن الاعتذار المفيد لتحقيق العقاب ، مقابلاً للترغيب في وعد المؤمنين التائبين بالثواب^١ . وجاء تحقيق اليأس من النجاة^٢ ، مقابلاً لتحقيق الأمل بالأمر بالتوبة . وبينما تثبت الكرامة للنبي وللمؤمنين معه بانتفاء الخزي عنهم^٣ ، يثبت للكفار الخزي والهوان بمصيرهم إلى جهنم . وقد جاء ذكر النور هنا بقوله " نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم " وهناك في سورة الحديد " يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم " فجملة " نورهم يسعى " مؤكدة بتقدم ما حقه التأخير ، وهي تستقل بإثبات الفائدة ، في حين أن جملة يسعى نورهم حالية تصور هيئتهم حال الرؤيا ، وقد ذهب الإمام البقاعي إلى أن تقدم النور (لأن السياق لتعظيم النبي صلى الله عليه وسلم بخلاف ما مضى في الحديد)^٤ وذهب ابن الزبير إلى أن (وجه ذلك - والله أعلم - أن قوله في سورة التحريم " والذين آمنوا معه " يفهم من حيث المعية قرب المنزلة وعلو الحال وتقدم ثبوته فناسب ذلك ورود الجملة الاسمية هنا لما تقتضيه من الثبات وتقدمه واستحكامه . وأما قوله في سورة الحديد " يسعى نورهم بين أيديهم " فبشارة للمؤمنين ولم يأت هنا كونهم مع نبيهم فلم يتحصل مما يفهم تمكن المنزلة وثبوتها ما يحصل في آية التحريم ، وإنما هذه بشارة يناسبها التجدد والحدوث فناسب ذلك الفعل بما يعطيه من هذا المعنى فقيل " يسعى نورهم بين

^١ - انظر الرازي ج ٣٠ ص ٤٨ .

^٢ - انظر القرطبي ج ١٨ ص ١٩٧ .

^٣ - انظر الطاهر بن عاشور ج ٢٨ ص ٣٧٠ .

^٤ - البقاعي ج ٢٠ ص ٢٠٣ .

أيديهم " ليفهم التكرار حدوث الشيء بعد الشيء فورد كل على ما يجب ويناسب والله أعلم)^١ فقد ربط الأول بين التقدم و الاهتمام مما جعله يذهب إلى معنى التعظيم . وربط الثاني بين التقدم و الاسمية فذهب إلى معنى الثبوت و الاستحكام .

ويقابل قول المؤمنين " ربنا أتم لنا نورنا " هنا بمعنى دوامه أو زيادته^٢ ، انطفاء نور المنافقين المدلول عليه بطلبهم للنور في سورة الحديد .

أما سورة الفتح فتلتقي مع سورة الحديد في التعبير عن أهل الإيمان بالوصف (المؤمنين والمؤمنات) يقول تعالى :

لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ^٥ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا
﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ
بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَهَنَّمَ^٦ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾

الفتح آية ٥-٦ مدنية .

فإن المؤمنين هنا هم الذين شهدوا صلح الحديبية فأمنوا بما أخبرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم عن ظهر غيب ، فإيمانهم ولا شك متمكن في نفوسهم . وقد جاء ذكر التكفير هنا بعد دخول الجنات في حين جاء في آية التحريم قبلها على الأصل . وذهب بعض المفسرين - في إيجاد الحكمة من ذلك - إلى أن الواو في قوله " ويكفر " هنا لترتيب الجمل في السرد لا في الوقوع^٣ ، وذهب بعضهم إلى أن التقدم للاهتمام^٤ . وقد يكون

^١ - ابن الزبير الغرناطي ، ملاك التأويل ج ٢ ص ٨٩٣ (يتحصل مما يفهم) هكذا في النص ولعل الأنسب (يتحصل ما يفهم) . (ما يحصل في آية التحريم) هكذا في النص ولعل الأنسب (ما تحصل) .

^٢ - انظر ابن جرير ج ٢٨ ص ١٠٨ ، البقاعي ج ٢٠ ص ٢٠٤ ، حاشية الشهاب ج ٨ ص ٢١٣ ، الطاهر بن عاشور ج ٢٨ ص ٣٧١ .

^٣ - انظر ابن عطية ج ١٥ ص ٩١ ، الرازي ج ٢٨ ص ٨٣ ، أبو حيان ج ٨ ص ٩١ .

^٤ - انظر أبو حيان ج ٨ ص ٩١ ، أبو السعود ج ٨ ص ١٠٥ .

المراد بتكفير السيئات ما ذكره البقاعي في قوله " مغفرة من ربهم " محمد آية ١٥ من أنهم لا يخشون عاقبه عتاب ولا عقاب وما ذكره الألوسي هنا من (أن يكون التكفير في الجنة على أن المعنى يدخلهم الجنة ويغطي سيئاتهم ويسترها عنهم فلا تمر لهم ببال ولا يذكرونها أصلاً لثلاً يخلجوا فيتكدر صفو عيشهم)^١. وعلى هذا فقد يكون قوله في سورة التحريم واغفر لنا بعد طلب إدامة النور للوصول إلى الجنة من هذا القبيل .

ويقابل الثواب المتمثل في دخول الجنات للمؤمنين ، العذاب للمنافقين الذي (يزيل كل ما لهم من العذوبة)^٢ بعودة عاقبة ظنهم السيئ عليهم . وكما أكرم الله تعالى المؤمنين بتكفير سيئاتهم ليتم نعيمه ، أهان أصدادهم بغضبه عليهم وإبعادهم عن رحمته في قوله " وغضب الله عليهم ولعنهم " . وقد جاء قوله تعالى : " وساءت مصيراً " يذكر فعل السوء مقابلاً لظنهم السيئ بالله سبحانه وتعالى ، فكأنه جزاءً موافق لسوء عملهم .

هذا وقد جاءت صيغة الفعل المضارع التي تفيد التجدد و الاستمرار فيما وقع جزاءً في الدنيا والآخرة مثل التعذيب في قوله " ويعذب المنافقين والمنافقات ... " الفتح ٦ ، والنصر في قوله " إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد " غافر ٥١ ، والتثبيت في قوله " يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ... " الآية إبراهيم ٢٧ ، لتفيد تحقق تجدد واستمرار وقوع هذا الجزاء .

ووردت فيما سيحدث يوم القيامة لاستحضار صور المعاني في الذهن مثل " يوم يسحبون في النار ... " الآية القمر ٤٨ ، " يوم ترى المؤمنين والمؤمنات ... " الحديد ١٢ و جاء الفعل المضارع مفيداً التجدد والاستمرار أيضاً فيما اقتصر على الجزاء الدنيوي ومن ذلك قوله تعالى :

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى
الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

البقرة ٢٥٧ مدنية .

^١ - الألوسي ج ٢٦ ص ٩٤ .

^٢ - البقاعي ج ١٨ ص ٢٨٩ .

لأن فعل (يخرجهم ، يخرجونهم) مفيد لتكرار حدوث هذا الإخراج ، سواءً كان المراد به الإخراج من الكفر إلى الإيمان ^١ ، أو من الشكوك والشبه إلى ثبات الإيمان وزيادته ^٢ . والعكس في الإخراج من النور إلى الظلمات . وتقابل ولاية الله تعالى للمؤمنين بمعنى توليته لهم بعونه وتوفيقه ، تولى الطواغيت الكفرة بنصرهم والتظاهر معهم على الكفر (ولعل تغيير السبك للاحتراز عن وضع الطواغوت في مقابلة الاسم الجليل ولقصد المبالغة بتكرير الإسناد مع الإيماء إلى التباين بين الفريقين من كل وجه حتى من جهة التعبير أيضاً) ^٣ فالفريقان يقابل أحدهما الآخر ولكن التعبير جرى بتقاسم ولي المؤمنين أولاً عنهم لزيادة اللطف بهم ، في حين قدم ذكر الكافرين على أوليائهم المتعددين منعاً لتقابل لفظ الأولياء وهم الطواغيت مع لفظ الجلالة ، مع ما في تكرير الإسناد في قوله " والذين كفروا أولياؤهم الطواغوت يخرجونهم ... " من المبالغة في مباينة حالهم لحال المؤمنين .

وقد ذكر المفسرون أن جمع لفظ الظلمات يرجع إلى كون طرق الضلال كثيرة ، وتوحيد النور يعود إلى أن الصراط المستقيم واحد ^٤ . هذا عما يحدث لهم في الدنيا ، أمّا في الآخرة فقد سكت القرآن عما للمؤمنين من الثواب المقابل لما ذكر في حق الكافرين تعظيماً لشأنهم من حيث أن أمرهم غير محتاج لبيان ، وأن شأنهم أعلى من مقابليهم ، أو أن قوله : " ولي المؤمنين " دل على الوعد ^٥ وقد يكون الحذف لأن (ما أعد لهم لا تفي بيانه العبارة) ^٦ .

ومما ذكر من الجزاء خاصاً بما يحصل في الدنيا قوله تعالى :

- ^١ - انظر ابن جرير ج ٣ ص ١٥ ، ابن عطية ج ٢ ص ٢٨٥ ، الرازي ج ٧ ص ١٨ .
- ^٢ - انظر الزمخشري ج ١ ص ٣٨٧ ، أبو السعود ج ١ ص ٢٥٠ ، حاشية الشهاب ج ٢ ص ٣٣٦ المتن والهامش ، الألوسي ج ٣ ص ١٤ ، الطاهر بن عاشور ج ٣ ص ٣٠ .
- ^٣ - أبو السعود ج ١ ص ٢٥٠ - ٢٥١ .
- ^٤ - انظر البقاعي ج ٤ ص ٤٥ - ٤٦ ، أبو السعود ج ١ ص ٢٥٠ ، الألوسي ج ٣ ص ١٤ .
- ^٥ - انظر حاشية الشهاب ج ٢ ص ٣٣٧ المتن والهامش ، الألوسي ج ٣ ص ١٥ .
- ^٦ - الألوسي ج ٣ ص ١٥ .

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْزِلْ مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا
 فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾

الأنفال ١٢ مدنية .

وقد نزلت هذه الآية في معركة بدر تذكر نصر الله تعالى للمؤمنين بإيمانهم وخذلانه للكافرين بكفرهم بما دلت عليه الصلة (الذين آمنوا ، الذين كفروا) ^١ ، فإن التثبيت سواء أريد به تقوية عزائم المؤمنين بإلقاء (توهم الظفر واحتقار الكفار) ^٢ ، أو بأقوال مؤنسة مقوية للقلب و (روي في ذلك أن بعض الملائكة كان في صورة الآدميين فكان أحدهم يقول للذي يليه من المؤمنين لقد بلغني أن الكفار قالوا لئن حمل المسلمون علينا لننكشفن) ^٣ ، أو حضورهم معهم ، أو قتالهم أعداءهم ^٤ ؛ يقابل إلقاء الرعب من حيث ان التثبيت أمن يقابل خوف إلقاء الرعب ، ومن حيث أن المثبت سيحقق النصر بإذن الله والخائف لا يثبت له ^٥ ولا نصر .

وقد تنبه الطاهر بن عاشور إلى المخالفة بين فعل الجزاء للمؤمنين والفعل المقابل له ، حين رأى أن إسناد التثبيت كان للملائكة دون إسناد الرعب ، فذهب إلى أن الحكمة في ذلك كون (الرعب خاطر شيطاني ذميم فجعله الله في قلوب الذين كفروا بواسطة أخرى غير الملائكة) ^٦ ، كما ملح أيضاً أن في عدم بيان كيفية إلقاء الرعب إشارة (إلى أنه

^١ - ذكر دلالة قوله " آمنوا " على أن الإيمان هو سبب التثبيت الطاهر بن عاشور جـ ٩ ص ٢٨١ والظاهر دلالة صلة كفروا على أن الكفر سبب الخذلان .

^٢ - ابن عطية جـ ٨ ص ٢٧ وانظر ابن جرير جـ ٩ ص ١٣٢ ، البقاعي جـ ٨ ص ٢٣٧ ، حاشية الشهاب جـ ٤ ص ٢٥٨ المتن والهامش .

^٣ - ابن عطية جـ ٨ ص ٢٧ و ٢٦ وانظر ابن جرير جـ ٩ ص ١٣٢ ، البقاعي جـ ٨ ص ٢٣٧ ، حاشية الشهاب جـ ٤ ص ٢٥٨ المتن والهامش .

^٤ - انظر ابن جرير جـ ٩ ص ١٣٢ ، ابن عطية ، البقاعي جـ ٨ ص ٢٣٧ ، حاشية الشهاب جـ ٤ ص ٢٥٨ المتن والهامش .

^٥ - انظر البقاعي جـ ٨ ص ٢٣٧ .

^٦ - الطاهر بن عاشور جـ ٩ ص ٢٨٢ .

رعب شديد قدره الله على كيفية خارقة للعادة)^١ .

وأصحاب الجنة هم المؤمنون بدليل مقابلتهم بمنكري البعث في سورتي يس والفرقان ،
وبأصحاب النار وهم الكفار في سورة الحشر كما سنرى، يقول تعالى :

فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾
إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِيهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي
ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِنُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ
﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَأَمْتَنُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ
﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ
إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ
الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾

٥٤ - ٦٤ يس مكية .

وقد بدئ بذكر أصحاب الجنة هنا بعد ذكر توفية الأعمال ، وهذا عكس ما سبق ذكره
في سورة الزمر وشبيهاها ، من أن المعتاد في هذه المواطن البدء بأهل العقاب . وقد ذكر
البقاعي هنا أن الحكمة من ذلك هي تأسيف أهل الشقاء (بالتذكير بالتأكيد بما كان لهم من
الإنكار في الدنيا)^٢ ، أي أنه يحسرهم على التكذيب بالبعث والجزاء الذي آمن به أصحاب
الجنة ، فجاء الجزاء مؤكداً بيان . وذكر أبو السعود أن (في هذه الحكاية مزجرة لهؤلاء
الكفرة عما هم عليه ومدعاة إلى الاقتداء بسيرة المؤمنين)^٣ ، فالحاصل أن البدء جمع بين
التحسير والحث على العودة بخلاف السياقات السابقة . ويؤيده قوله " ولو نشاء لطمسنا

^١ - الطاهر بن عاشور جـ ٩ ص ٢٨٢ .

^٢ - البقاعي جـ ١٩ ص ١٤٥ .

^٣ - أبو السعود جـ ٧ ص ١٧٢ .

على أعينهم ... " ففيه تعريض بالعقوبة الدنيوية إن لم يؤمنوا . والسورة عموماً في الاستدلال على التوحيد والرسالة والبعث ^١ ، وهذا يتضمن ترغيباً فيما يتم عرضه من الدلائل وترهيباً من الإعراض عنها . وقد سبقت الإشارة إلى أن الترغيب توسط بين موضعين للترهيب .

والآيات بعد أن ذكرت الاجتماع للتوفية قابلت بين حال الفريقين ، أولاً : بما أفهمته من استقرار المؤمنين أو بعضهم في الجنة ، حال ذهاب الكفار إلى النار ، وثانياً : بالحديث عن جزاء المؤمنين على طريق الغيبة إعلاءً لشأنهم وشأن جزائهم ، في مقابل مجابهة الكفار بخطاب إهانة وتحقير وتنكيل ^٢ في نحو (امتازوا) ، (اصلوها) ، وثالثاً : في تفصيل الجزاءين ، فبينما يستغرق المؤمنون في النعيم ^٣ - بما دل عليه حرف الجر (في) - وينشغلون عما فيه الكفرة من العذاب ^٤ ، يصلى الكافرون النار بمعنى يتوسطونها ^٥ ، فيكونون (في شغل شاغل كما كان أصحاب الجنة وشتان ما بين الشغلين) ^٦ . وإذا قلنا برأي من قال بعطف قوله (وامتازوا) على قوله (سلام) كابن عطية ^٧ ، فسيكون هناك تقابل بين خطاب الإكرام والرحمة وهو السلام من الله للمؤمنين ، وخطاب الإهانة والتحقير للمجرمين في قوله : (امتازوا) . وإذا ذهبنا إلى أن معنى الامتياز في قوله (وامتازوا) هو الانفصال عن بعضهم ^٨ ، يكون هناك تقابل بين هذا الافتراق وبين

^١ - انظر البقاعي ج ١٦ ص ٨١ .

^٢ - انظر الرازي ج ٢٦ ص ١٠١ ، حاشية الشهاب ج ٦ ص ٢٤٩ ، ابن كثير ج ٥ ص ٦٢٣ ، الطاهر بن عاشور ج ٢٣ ص ٤٩ .

^٣ - انظر البقاعي ج ١٦ ص ١٤٦ .

^٤ - انظر ابن كثير ج ٥ ص ٦٢٠ .

^٥ - ذكرت معنى توسط النار للصلي لما سبق أن ذكرته عن الزمخشري من أن المصلي حُفيرة قد توقد بالنار وتوضع الشاة بداخلها ، وما ذكره الرازي في هذه الآية ج ٢٦ ص ١٠١ من أنهم حاصلون فيها ، وابن كثير في سورة (ص) ج ٦ ص ٧١ من أنهم يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ، وما ذكره بقية المفسرين من معاني المباشرة والاحتراق وذوق حرها إنما هو على التسامح و ذكر الطاهر بن عاشور ج ٢٣ ص ٤٩ أنه من الاستدفاء وأطلق على الاحتراق تحكماً

^٦ - البقاعي ج ١٦ ص ١٥٦ .

^٧ - انظر ابن عطية ج ١٣ ص ٢٠٩ .

^٨ - انظر الزمخشري ج ٣ ص ٣٢٧ ، الرازي ج ٢٦ ص ٩٥ ، حاشية الشهاب ج ٦ ص ٢٤٢ المتن والهامش .

الاجتماع مع الأزواج المؤمنين^١ ، وقد روي أن لكل كافر بيتاً لا يرى ولا يُرى^٢ وأقول (إذا ذهبنا) ، لتعدد الآراء في مُتعلق الامتياز^٣ فقليل عن المؤمنين ، وقيل عن كل خير ، وقيل عن بعضهم . ولعل مما هياً لهذا التعدد حذف هذا المتعلق من الآية .

وقد تكرر لفظ اليوم خمس مرات ثلاث منها في جزاء الكافرين . وذهب في تعليل ذلك الطاهر إلى أنه تنويه بذلك اليوم بأنه يوم العدل^٤ ، وبأنه تعريض بالكفار الذين يجحدونه^٥ وبأنه تنويه بحصول الحال العجيب مثل ختم الأفواه ونطق الأيدي والأرجل^٦ ، وذهب البقاعي إلى أنه (كرر التعبير باليوم تعظيماً لشأنه وتهويلاً لأمره)^٧ . والآيات في سياق عرض أحداث يوم البعث والحساب وتجسيد جزاء كل فريق . وهذا يناسب التهويل حثاً لهم على العودة ، ونستطيع القول بالتنويه الذي ذكره الطاهر في شأن المؤمنين والتعريض في شأن الكافرين ، والنكات لا تتعارض . وتلتقي سورة الفرقان التالية لسورة يس في النزول ، معها في كون المقابلة بين المجرمين وأصحاب الجنة في قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلْتِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا
لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلْتِكَةَ
لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا
إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ

^١ - انظر الرازي جـ ٢٦ ص ٩٥ .

^٢ - انظر الزمخشري جـ ٣ ص ٣٢٧ ، حاشية الشهاب جـ ٦ ص ٢٤٢ المتن والهامش ، وقد ورد في المعجم الكبير لابن أيوب الطبراني قول عبد الله بن مسعود : إذا بقي في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من نار فيها مسامير من نار قال ذلك مرتين أو ثلاثاً فلا يرون أحداً في النار يُعذب غيرهم ثم قرأ عبد الله " لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون " ص ٩ رقم (٢٢٤) .

^٣ - انظر الزمخشري جـ ٣ ص ٣٢٧ ، الرازي جـ ٢٦ ص ٩٥ ، حاشية الشهاب جـ ٦ ص ٢٤٢ المتن والهامش

^٤ - انظر الطاهر جـ ٢٣ ص ٤٠ و ٤٩ .

^٥ - انظر الطاهر جـ ٢٣ ص ٤٥ .

^٦ - انظر الطاهر جـ ٢٣ ص ٤٩ .

^٧ - البقاعي جـ ١٦ ص ١٤٥ . وانظر ص ١٥٠ و ١٥٦ .

يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾

مكية ٢١ - ٢٤ .

إذا كانت الآيات في سورة يس قد فصلت في أصناف النعيم في الجنة ولم تذكر سوى صليّ المجرمين النار، فإنها هنا قد فصلت نوعاً ما فيما سيلقاه المجرمون من نفي البشارة عنهم الذي يدل على شدة الوعيد^١ وإجباط عملهم وجعله هباءً منثوراً الذي يدل على عدم وجود ما يجعلهم من أهل الجنة^٢. و (لما بين حال الكفار في الخسار الكلي والخيبة التامة شرح وصف أهل الجنة تنبيهاً على أن الحظ كل الحظ في طاعة الله)^٣ فقللي: " أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً " وقد ذهب المفسرون في بيان معنى المستقر والمقيل إلى عدة وجوه^٤ لعل أوضحها كون المستقر مكان الاستقرار والمقيل ما يقابل وقت القائلة في الدنيا من حيث كونهم في أحسن مكان وأحسن زمان^٥. ولا يمنع هذا من الأخذ بالوجه الأخرى^٦. فهناك تقابل تضاد بين الفريقين سواء كان في أحوال الآخرة^٧ أو في الدنيا والآخرة^٨، دل عليه استعمال اسم التفضيل بين أمرين لا تفاضل بينهما مما يفيد إثبات الفضل لأحدهما وسلبه من الآخر^٩ فأحدهما في خير مستقر وأحسن مقيل والآخر في شر مستقر وأسوأ مقيل. وبالتأمل في لفظ " قدمنا " من قوله " وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً "، مقابل قوله " خير مستقراً وأحسن مقيلاً " يمكن لمخ مقارنة خفية بين ما أدى إليه القدوم من جعلهم (لا قرار لهم إذا كانت النار

^١ - انظر أبو السعود ج ٦ ص ٢١١ .

^٢ انظر ابن كثير ج ٥ ص ١٤٥ .

^٣ - الرازي ج ٢٤ ص ٧٢ .

^٤ - انظر الزمخشري ج ٣ ص ٨٩ ، ابن عطية ج ١٢ ص ١٩ ، الرازي ج ٢٤ ص ٧٢ ، البقاعي ج ١٣ ص ٣٧٢ ، حاشية الشهاب ج ٦ ص ٤١٩ المتن والهامش.

^٥ - انظر ابن جرير ج ١٩ ص ٤ ، ابن كثير ج ٥ ص ١٤٥ ، حاشية الشهاب ج ٦ ص ٤١٩ المتن والهامش .

^٦ - انظر تلك الوجوه الرازي ج ٢٤ ص ٧٢ .

^٧ - انظر ابن عطية ج ١٢ ص ١٩ ، الرازي ج ٢٤ ص ٧٢ ، القرطبي ج ١٣ ص ٢٣ ،

^٨ - انظر ابن جرير ج ١٩ ص ٥ ، البقاعي ج ١٣ ص ٣٧٢ ، حاشية الشهاب ج ٦ ص ٤١٩ المتن والهامش.

^٩ - انظر ابن عطية ج ١٢ ص ١٩ وما ذكرته في آية الفرقان " قل أذلك خير أم جنة الخلد " .

مقيلهم) ^١، من حيث دلالة على الغضب التي ألمح إليها الرماني ^٢، وبين كون أصحاب الجنة في خير مستقر وأحسن مقيل من حيث دلالة على رضا الله تعالى عنه . وحيث جاء الاسم الدال على التفضيل بين أمرين لا تفاضل بينهما كان المقصود التقريع للكفرة من حيث تركهم الخير والأحسن إلى مالا خيرية فيه ولا حسن بوجه من الوجوه ، وفيه أيضاً تمكّم بهم من حيث إطماع لفظي (خير وأحسن) بأن ثمة خيراً وحسناً في النار ، وهما في الحقيقة منتفیان عنها تماماً فينتهي بهم الأمر انتهاءً مؤيساً ، وهذا ما أشار إليه محيي الدين زادة حين قال :- (فإن قيل كيف يكون مستقر أهل الجنة خيراً من مستقر أهل النار مع أنه لا خير في النار ... فالجواب أنه من قبيل التقريع والتهمك كما في قوله " أذلك خير أم جنة الخلد ") ^٣.

وهؤلاء الذين كذبوا بالبعث لم يستعملوا عقولهم في الوصول للحق الواضح وتعسفوا فيما طلبوه من دلائل ومنها رؤية الملائكة في قولهم " لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً " الفرقان آية ٧، فألمح قوله " يوم يرون الملائكة " إلى (تمليح وتهكم بهم لأن ابتداءه مطمع بالاستحابة وآخره مؤيس بالوعيد) ^٤ ، فهم قد طلبوا رؤية الملائكة فرأوهم ولكن على غير ما يتمنون ويحبون .

وصحبة الجنة في قوله " أصحاب الجنة " تعني أهم أهلها ^٥ وأنها منزلهم الذي يسكنونه في الآخرة ^٦ فلا يفارقونه أبداً وهذه الملازمة الحسنة يقابلها ملازمة أهل النار لها ولبثهم فيها - كما ذكر بعض المفسرين في معنى أصحاب الجحيم في بعض السور منها :

^١ - البقاعي جـ ١٣ ص ٣٧١ .

^٢ - أشار الرماني في رسالة النكت في إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٨٦ إلى أن (حقيقة قدمنا هنا عمدنا وقدمنا أبلغ منه لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر لأنه ، عاملهم من أحل إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم ثم قدم فرأهم على خلاف ما أمرهم وفي هذا تحذير من الاغترار بالإمهال) وتابعه الزمخشري جـ ٣ ص ٨٨ ، ابن عطية جـ ١٢ ص ١٨ ، أبو حيان جـ ٦ ص ٤٥٢ ، حاشية الشهاب جـ ٦ ص ٤١٨ المتن والهامش ، أبو السعود جـ ٦ ص ٢١٢ ، الألوسي جـ ١٩ ص ٧ - ٨ .

^٣ - محيي الدين زادة جـ ٣ ص ٤٤٩ .

^٤ - الطاهر بن عاشور جـ ١٩ ص ٧ .

^٥ - انظر ابن عطية جـ ١٢ ص ١٩ .

^٦ - انظر ابن جرير جـ ١٩ ص ٤ .

الحديد^١ والمائدة^٢ - . ويتفرع عن المعنى الأساسي في المقابلة فروع جزئية تعضده يتقابل فيها الجزاء مع العمل تقابلاً وفاقياً يلحظ منه المفسرون ما أمكن ويتعذر تتبعه تتبعاً دقيقاً في كل آيات الجزاء . وقد تنبه البيضاوي هنا إلى أن ثمة مقابلة بين تفرق الهباء المنثور في قوله " فجعلناه هباءً منثوراً " وتفرق (أغراضهم التي كانوا يتوجهون به نحوها)^٣ ، فاتجاهات أعمالهم كانت متعددة يرضون بها آلهتهم ويراءون بها الناس ويطلبون بها الشرف في الدنيا فناسب أن تبدد في كل اتجاه كالهباء المنثور .

ولم أجد من المفسرين ممن اطلعت على كتبهم^٤ من أشار أو لمَحَ مقابلة ما بين عتوهم في قوله " وعتوا عتواً كبيراً " ، وحجر البشارة عليهم من الملائكة في قوله " ويقولون حجراً محجوراً " . ولعل من الممكن أن يقال : إن تجاوزهم الحد تجاوزاً كبيراً قوبل بمنع البشارة عنهم منعاً تاماً ، ومن الممكن أيضاً أن يتأيد هذا بلحظ المقابلة بين المبالغة في العتو في قوله " كبيراً " والمبالغة في الحجر في قوله " محجوراً " وهكذا تتعاضد عناصر المقابلة بين الجزاء والعمل مع المقابلة بين جزاء الفريقين لإبراز الفرق وإيضاح شدة التباين ، وبضدها تتميز الأشياء .

هذا وقد بدئ بذكر أصحاب الجنة في سورة يس - لما مر - ، وجاء في آية الفرقان مؤخراً (لأنه لما وصف حال المشركين في الآخرة علم أن لا حظ لهم في الجنة فتعينت الجنة لغير المشركين يومئذ وهم المؤمنون ، إذ أهل مكة في وقت نزول هذه الآية فريقان مشركون ومؤمنون)^٥ وتأخر في سورة الحشر التالي ذكرها لأن (تقدم أصحاب النار في الذكر للإيدان من أول الأمر بأن المقصود^٦ الذي ينبئ عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من

^١ - انظر ابن عطية جـ ١٥ ص ٤٢١ ، البيضاوي جـ ٨ ص ١٦٠ ، البقاعي جـ ١٩ ص ٢٨٦ ، أبو السعود جـ ٨ ص ٢١٠ ، الألوسي جـ ٢٧ ص ١٨٤ ، الطاهر جـ ٢٧ ص ٤٠٠ .

^٢ - انظر ابن جرير جـ ٧ ص ٦ ، ابن عطية جـ ٥ ص ١٧٣ ، النيسابوري جـ ٦ ص ٨٦ ، ابن كثير جـ ٢ ص ٦٢٦ ، البقاعي جـ ٦ ص ٢٧٣ ، الطاهر جـ ٧ ص ١٣ .

^٣ - البيضاوي بهامش حاشية الشهاب جـ ٦ ص ٤١٩ .

^٤ - جامع البيان ، الكشاف ، المحرر الوجيز ، التفسير الكبير ، الجامع لأحكام القرآن ، غرائب القرآن ، تفسير الخازن ، تفسير القرآن العظيم ، نظم الدرر ، حاشية الشهاب ، تفسير أبي السعود ، روح المعاني ، التحرير والتنوير .

^٥ - الطاهر بن عاشور جـ ١٩ ص ٩ .

^٦ - في الأصل بالراء المهملة ولعله خطأ مطبعي .

جهة مقابلهم) ^١ .

وتأتي المقابلة بين أصحاب النار (وهم الكفار) وأصحاب الجنة (وهم المؤمنون) في سورة الحشر في خطوتين - إن صح التعبير - في قوله تعالى " لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون " آية ٢٠ مدنية . حيث نفى أولاً الاستواء كناية (عن البون بين الشئيين) ^٢ وهذا يعني أن ثمة فاضلاً ومفضولاً فيأتي قوله " أصحاب الجنة هم الفائزون " ليفيد اختصاص المؤمنين بالفوز دون مقابلهم - بما أفاده ضمير الفصل - ولا مانع من اعتبار (فوز غيرهم ببعض أمور الدنيا كالعدم) ^٣ مما يجعل القصر ادعائياً - كما ذهب الطاهر ، وإن كان الظاهر اعتبار فوزهم بالجنة مقابل خسران أضدادهم ، لأن الآيات في مقابلة أهل النار بأهل الجنة ومجيء الآية على هذا التركيب فيه شبه قرع العصا - كما يقول النيسابوري ^٤ - لأنه يقرر أمراً متعارفاً ولكن الناس (لفرط غفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة وتهالكهم على إثثار العاجلة واتباع الشهوات كأهم لا يعرفون الفرق بين الجنة ، والنار والبون العظيم بين أصحابهما وأن الفوز مع أصحاب الجنة فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينبهاوا عليه ، كما تقول لمن يعق أباه هو أبوك تجعله بمنزلة من لا يعرفه فتنبهه بذلك على حق الأبوة) ^٥ ، فهذا التقرير الناتج من عرض حقيقة مسلمة غفل عنها المخاطب ، يقابله التنويه بشأن أصحاب الجنة بقصرها عليهم ، وبتعريفهم بأل (الفائزون) التي تفيد أن لا فائز سواهم .

^١ - أبو السعود جـ ٨ ص ٢٣٣ .

^٢ - الطاهر بن عاشور جـ ٢٨ ص ١١٥ .

^٣ - المصدر السابق .

^٤ - انظر النيسابوري بامش جامع البيان جـ ٢٨ ص ٤٥ .

^٥ - الزمخشري جـ ٤ ص ٨٧ .

الفصل : الثاني
المقابلة في وصف جزاء نوازع النفس

إن للنفس نزوعاً إلى الخير وعزماً عليه أحياناً ونزوعاً إلى غيره أحياناً أخرى و يجازى كل من منزعها بما يلائمه ، كما أن لها تجاه نعم الله عليها وابتلاءاته لها منزعين إما الشكر أو الصبر وإما الكفران والقنوط . وسيختص هذا الفصل بدراسة المقابلة في وصف جزاء نزوع النفس إلى جانب الخير متمثلاً في إرادتها للآخرة ، وفي التوبة وما شابه ذلك ، مقابل نزوعها إلى خلافه متمثلاً في إرادة الدنيا ، أو الخيانة وما شابه ذلك كما سيدرس شكرها لنعم خالقها مقابل كفرانها لها ، ووعدها بالوفاء بالعهد مقابل نكثها له وما شابه ذلك من مواقفها تجاه نعمه تعالى وابتلاءاته .

وقد جاء ذكر جزاء نوازع النفس إلى الخير أو إلى الشر في أوائل ما نزل من القرآن في سورة الشمس يقول تعالى:

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾

اية ٩ - ١٠ مكية .

فسواء أُعيد فعل التزكية و التدسية إلى الله تعالى فأصبح المعنى (قد أفلح من زكى الله نفسه فكثرتها بتطهيرها من الكفر والمعاصي وأصلحها بالصالحات من الأعمال ... وقد خاب في طلبته فلم يدرك ما طلب ... من دسس الله نفسه ، فأخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله)^١ ، أو إلى الإنسان ذاته فأصبح المعنى قد أفلح من طهر نفسه بالطاعات و(قد خاب من دساها : نقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق)^٢ ؛ فإن المقابلة تبقى بين الفلاح وإدراك المطلوب وما يتبعه من الفوز بالجنة

^١ - ابن جرير جـ ٣٠ ص ١٣٥ ، وانظر ابن عطية جـ ١٦ ص ٣١٢ ، الرازي جـ ٣١ ص ١٩٣ ، ابن كثير جـ ٧ ص ٣٠١ عبد الرحمن السيوطي ت ٩١١ هـ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، دار الفكر بيروت ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م . جـ ٨ ص ٥٣٠ .

^٢ - البيضاوي بمامش حاشية الشهاب جـ ٨ ص ٣٦٦ ، وانظر ابن جرير جـ ٣٠ ص ١٣٥ ، ابن عطية جـ ١٦ ص ٣١٢ ، الرازي جـ ٣١ ص ١٩٣ ، ابن كثير جـ ٧ ص ٣٠١ البقاعي جـ ٢٢ ص ٧٨ ، السيوطي جـ ٨ ص ٥٣٠ ، الطاهر بن عاشور جـ ٣٠ ص ٣٧١ .

والتعم فيها ، والخيبة والخسران لعدم الظفر بالمراد ، وهذا يستلزم وقوع العقاب بدخول النار والاصطلاء بحرهما والتقلب في صنوف عذابها .

ولعل ما في معنى التزكية من الزيادة والنماء لطهارة النفس مقابل ما في التدسية من نقصان الفضائل و خفائها ، يسوغ إمكان لحظ الزيادة مقابل النقصان في لفظي الجزء (أفلح ، خاب) فالمفلح يتزايد عطاؤه مما يريد بسبب تنميته لنفسه بالخير والخائب يتناقص حظه من الخير إلى حد العدم لتناقص فضائله إلى حد الخفاء ، وذلك لأن التدسيس (إخفاء الشيء في الشيء)^١ .

ويتقابل جزاء نزوع النفس إلى الهداية مع جزاء نزوعها إلى الضلال تقابلاً خلافاً - وليس ضدياً - لاقتضاء المعنى ذلك في قوله تعالى :

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُدَ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٖٓ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ

قُلُوبِهِمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَتْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

الزمر آية (٢٢) مكية .

فقد جعلت المقابلة بين شرح الصدر وقسوته - وليس ضيقه - لما سيذكر . فشرح الصدر للإسلام هنا (استعارة لتحصيله للنظر الجيد والإيمان بالله)^٢ ، وقوبل بقسوة القلب التي لم يذكر صاحبها لمعرفة السامع به - كما ذهب ابن جرير^٣ - وإنما ذكر جزاؤه وهو " فويل للقاسية قلوبهم " . وجزء من شرح صدره للإسلام محذوف دل عليه ذكر الويل في جزء القاسية قلوبهم ، يقول البقاعي : (فالآية من الاحتباك ذكر أولاً الشرح والنور دليلاً على حذف ضده ثانياً وثانياً الويل للقاسية والضلال دليلاً على حذف ضده أولاً)^٤ وهذا

^١ - الرازي ج ٣١ ص ١٩٣ .

^٢ - ابن عطية ج ١٣ ص ٧٦ . وانظر الرازي ج ٢٦ ص ٢٦٦ ، القرطبي ج ١٥ ص ٢٤٧ ، أبو السعود ج ٧ ص ٢٠٥ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ٣٣٥ ، الألوسي ج ٢٣ ص ٢٥٧ ، الطاهر بن عاشور ج ٢٣ ص ٣٧٩ .

النيسابوري بماش جامع البيان في تفسير آية الأنعام ج ٨ ص ١٦ .

^٣ - انظر ابن جرير ج ٢٣ ص ١٣٤ .

^٤ - البقاعي ج ١٦ ص ٤٨٦ .

يدل على أن الجزء المحذوف يتضمن من الخير والسعادة وحسن الحال كل ما يقابل كلمة الويل التي تدل على سوء حال القاسية قلوبهم وعلى بلوغهم أقصى غايات الشقاوة والتعاسة^١. والأظهر أن الاحتباك منصرف إلى هذا الجزء دون ما قيل عنه من كون ذكر (النور دليلاً على حذف ضده ثانياً)، لأنه يفهم معنى الهداية^٢ التي يصح مقابلتها بالضلال المذكور ثانياً فلا حذف.

وقد ساعد بناء الجملة على إبراز حدة المقابلة بين الفريقين، فجمع للفريق القاسي ما في حذف جواب الاستفهام في قوله (كمن قسا قلبه) من قسوة قلبه التي تبعد عنه ربه، والتصريح بجزائه وهو قوله "فويل...". من تعجيل بالمساءة مقابل ترك ذكر جزاء المشروح صدره لتذهب فيه النفس كل مذهب. ويأتي قوله "فهو على نور من ربه" في مقابلة قوله "أولئك في ضلال مبين" لدلالة (على) على الاستعلاء والتمكن، فهذا المنشرح صدره على (بيان عظيم بكتاب به يأخذ وبه يعطي وإليه في كل أمر ينتهي قد استعلى عليه فهو كأنه راكبه يصرفه حيث يشاء)^٣، مقابل ما في الحرف (في) من معنى الاستغراق الدال على أن القاسية قلوبهم (متمكنون من الضلالة منغمسون في حماها فكان ضلالهم أشد من أن يتقشع حين يسمعون ذكر الله)^٤. وليس المهم التوقف عند رصد المقابلة وإنما المهم ما أفادت به المعنى وأوضحت به الفرق. فهذا إنسان تمكن من الهداية، فاستعد للآخرة وأتاب إليها^٥ فسار في طريقها الموصل إلى غايتها وهي الجنة،

^١ - انظر الطاهر بن عاشور ج ٢٣ ص ٣٨١، وقد ذكر ابن جرير ج ١ ص ٢٩٩ اختلاف أهل التأويل في معنى الويل، فمنهم من قال إنه العذاب، ومنهم من قال إنه واد من صديد في جهنم، ومنهم من قال إنه جبل في النار. وذكر ابن عطية ج ١ ص ٢٧٢ عن الخليل قوله إن الويل شدة الشر وقول من قال إنه واد في جهنم.

^٢ - انظر ابن عطية ج ١٣ ص ٧٦.

^٣ - البقاعي ج ١٦ ص ٤٨٥ وانظر النيسابوري ج ٢٣ ص ١٣٤.

^٤ - الطاهر بن عاشور ج ٢٣ ص ٣٨٢.

^٥ - ذكر ابن عطية ج ١٣ ص ٧٦، عن ابن مسعود (قلنا يارسول الله كيف انشراح الصدر قال: إذا دخل النور القلب إنشراح وانفسح، قالوا وما علامة ذلك؟ قال: الإجابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل الموت) ورواه القرطبي ج ١٥ ص ٢٤٧ عنه، وذكر رواية أخرى للحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وذكره أبو السعود ج ٧ ص ٢٥٠ بدون إسناد، ورواه الألويسي ج ٢٣ ص ٢٥٧ عن الثعلبي في تفسيره، والحاكم في مستدركه والبيهقي في شعب الإيمان وابن مردويه. وذكره السيوطي في الدر المنثور ج ٧ ص ٢١٩، ٢٢٠ عن ابن مردويه والترمذي الحكيم. ولم أجده في موسوعة الحديث الشريف والموسوعة الذهبية.

ومقابلته آخر منغمس في ظلمات الشك والحيرة والتيه لا يكاد يخرج منها ، ومن ثمَّ فلا نجاة له .

ثم إنَّ المقابلة بين شرح الصدر وقسوته لا ضيقه (لأن قسوته بكونه صخرة صماء تقتضي أن لا يقبل شيئاً فإن الضيق يشعر بقبول شيء قليل منه)^١ وهذا من تقابل المعاني الذي يجب البحث عن مكنوناته بعيداً عن الاشتغال بالتقابل اللفظي وحسب .

وهكذا نجد في بلاغة القرآن المعجزة كل لفظة لائقة بموضعها مؤديةً غرضها الذي لو أُبدل فيه غيرها منها لنتج عنه (إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة)^٢ . ومما تزداد به شدة التباين بين الطرفين جعل الشرح للصدر دون القلب ليدل (على شدته وإفراط كثرته التي فاضت حتى ملأت الصدر فضلاً عن قلبه)^٣ وإسناده لله تعالى ليقضي (أنه على أتم الوجوه لأنه فعل قادر حكيم) ، مقابل جعل القساوة للقلب بما يفيد عدم تقبله لشيء من الحق _ كما سبق أن ذكر _ وإسناد القسوة للقلوب دون الله (للإشارة إلى أنه جلبة خُلِقوا عليها)^٤ . بل تزداد القسوة تأكيداً ، في مقابل انشراح الصدر وامتلائه بالإيمان ، من انبعاثها - أي القسوة _ من ذكر الله ، وهو مما يلين القلوب ويرققها (فكونه سبباً للقسوة يدل على شدة الكفر الذي جعل سبب الرقة سبباً لقسوته)^٥ فهناك صدر قد امتلأ وفاض بالإيمان من الرب المحسن فاهتدى وفاز بمطلوبه فسعد وابتهج ، يقابل قلباً قسا عن سماع الذكر فاستعصى وتأبى على الهداية فضلاً وضاع واستحق شدة العذاب فتعس وشقي والعياذ بالله .

وإذا كان ما جاء في سورة الزمر جزاء قبول النفس للإسلام وقسوتها عنه فإن قوله

تعالى:

١ - حاشية الشهاب ج ٧ ص ٣٣٥ .

٢ - الخطابي ، بيان إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل ص ٢٩ .

٣ - حاشية الشهاب ج ٧ ص ٣٣٥ .

٤ - المصدر السابق .

٥ - المصدر السابق .

٦ - المصدر السابق ، وانظر الرازي ج ٢٦ ص ٢٦٦ ، القرطبي ج ١٥ ص ٢٤٨ ، البقاعي ج ١٦ ص ٤٨٦ ،

أبو السعود ج ٧ ص ٢٥٠ ، الألويسي ج ٢٣ ص ٢٥٧ ، الطاهر بن عاشور ج ٢٣ ص ٣٨٢ .

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَآئِرَ
 عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن
 يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ
 وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ
 اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

التوبة ٩٨ - ٩٩ مدنية .

يتحدث عن جزاء سكون النفس إلى تعاليم الإسلام وكرهها لها^١ ونفورها عنها . ففي
 لفظ الاتخاذ المفيد تكلف حدوث الأمر ما يبرز شدة المقابلة بين الفريقين . فأحد الفريقين
 (يتكلف غير ما تدعو إليه الفطرة الأولى من الأريحية والهمم العلية بأن يعد " ما ينفق مغرمًا ")
 أي فلا يبذله إلا كرهاً^٢ ، والآخر (يحث نفسه ويجاهدها إن عرضت له الوسواس
 الشيطانية على أن يُعدَّ (ما ينفق) أي فيما أمر الله به قُرْبَات)^٣ . وبدئ بفريق الخبثاء
 لجاورته لقوله تعالى : " الأعراب أشد كفرًا ونفاقًا " فهذا الفريق يقف من الإنفاق موقف
 الساخط المتبرم ، لأنه يعتقد (أن الذي ينفقه في سبيل الله غرامة وخسران ، وإنما يعتقد
 ذلك لأنه لا ينفق إلا تقيَّةً من المسلمين ورياء)^٤ ، وينتظر أن تدور الأيام على المسلمين
 بما يسوؤهم ويقابل هؤلاء من ينوي بما ينفق في جهاد المشركين وفي سفره مع رسول الله
 صلى الله عليه وسلم القرب إلى الله وطلب رضاه^٥ ، ويتبغي بها دعاء الرسول صلى الله عليه
 وسلم له فإنه كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم .

ولأن مواقف أولئك خلاف هؤلاء يكون جزاؤهم المقابل مخالفًا لجزائهم فهو في حق

^١ - انظر السيوطي، الدر المنثور ج ٤ ص ٢٦٧ .

^٢ - البقاعي ج ٩ ص ٥ .

^٣ - المصدر السابق ص ٦ .

^٤ - الرازي ج ١٦ ص ١٦٦ .

^٥ - انظر ابن جرير ج ١١ ص ٥ .

المنافقين إخبار أو دعاء^١ من الله بإحاطة دائرة السوء بهم (والدعاء من الله على خلقه : تكوين وتقدير مشوب بإهانة)^٢ ، وهذا شامل لكل ما يسوؤهم في الدنيا والآخرة ، وفي قوله : " سميع عليم " (من شدة الوعيد ما لا يخفى)^٣ . وكما تعود دائرة السوء بسوئها على هؤلاء الذين انتظروها للمسلمين ، تعود عاقبة حسن ظن المنفقين المؤمنين عليهم بتحقق قربهم عند الله تعالى سواءً بالنفقة أو بصلوات الرسول^٤ وإحاطة رحمته بهم - بما أفاده الحرف (في) من معنى الظرفية - في جنته ، ولا يخفى ما في تنكير وتنوين لفظ قرينة من التفتيح^٥ . ويقابل ما في إضافة السوء للدائرة - مع كون الدائرة أساساً للسوء^٦ - من توكيد في جزاء المنافقين ، التوكيد في تحقق جزاء المبتغين رضا الله بذكر حرف التنبية ، وإن ، في قوله : " ألا إنها قرينة " ، وتنوينه المفيد (للتفتيح المغنى عن الجمع أي قرينة لا يكتنه كنهها)^٧ والسين في قوله : " سيدخلهم الله في رحمته " .

وهكذا تقابلت الجزاءات بتقابل النيات وجوزي كل فريق حسب نيته ومبتغاه . فمن أضر السوء بكرهه للإنفاق في سبيل الله وتمنيه السوء للمؤمنين أحاط الله به دائرة السوء فلفته وشملته فلا يكاد يخرج منها ، ومن رام التقرب إلى الله قرّب إليه فحفظه ورعاه وأدخله في كنفه وجنته .

والإرادة بمعنى (عقد القلب وتمحض النية)^٨ من أعمال القلب ، وهو أمر معروف ، وكان ممن أشار إلى ذلك ابن رجب حين قال (واعلم أن النية في اللغة نوع من القصد والإرادة وإن كان قد فرّق بين هذه الألفاظ بما ليس هذا موضع ذكره . والنية في كلام

^١ - انظر البيضاوي ج ٤ ص ٣٥٧ .

^٢ - الطاهر بن عاشور ج ١١ ص ١٤ ، وانظر ابن عطية ج ٨ ص ٢٥٧ .

^٣ - أبو السعود ج ٤ ص ٩٦ .

^٤ - انظر ابن جرير ج ١١ ص ٥ ، ابن عطية ج ٨ ص ٢٥٨ .

^٥ - انظر الألويسي ج ١١ ص ٧ حيث أشار إلى دلالة التنوين .

^٦ - نقل الرازي عن أبي علي الفارسي قوله : (لو لم تضاف الدائرة إلى السوء أو السوء عرف منها معنى السوء لأن دائرة الدهر لا تستعمل إلا في المكروه) الرازي ج ١٦ ص ١١٧ . وذكر البيضاوي ج ٤ ص ٣٥٧ ، وأبو السعود ج ٤ ص ٩٦ أن إضافة السوء للدائرة لغرض المبالغة .

^٧ - الألويسي ج ١١ ص ٧ .

^٨ - حاشية الشهاب ج ٦ ص ٢٠ ، في تفسير آية الإسراء (١٨)

العلماء تقع بمعنيين أحدهما : بمعنى تمييز العبادات بعضها عن بعض كتمييز صلاة الظهر عن صلاة العصر مثلاً ... والمعنى الثاني : بمعنى تمييز المقصود بالعمل وهل هو الله وحده لا شريك له أم غيره ... وهي النية التي يتكرر ذكرها في كلام النبي صلى الله عليه وسلم تارة بلفظ النية ، وتارة بلفظ الإرادة ، وتارة بلفظ مقارب لذلك ... وقد ذكرنا أن النية في كلام النبي صلى الله عليه وسلم وسلف الأمة إنما يراد بها هذا المعنى الثاني غالباً فهي حينئذٍ بمعنى الإرادة ولذلك يُعبّر عنها بلفظ الإرادة في القرآن كثيراً كما في قوله تعالى : " منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة " آل عمران آية ١٥٢ ... وقوله " من كان يريد حرث الآخرة " ... وقوله " من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً " ^١ وقد أطلت فيما نقل من النص لتمييز موضع الآيات هنا وهو النية ، مع أن النية تُصحب غالباً بالعمل .

وإرادة الحياة الدنيا بمتاعها الزائل تقابل إرادة الحياة الآخرة بنعيمها الباقي ، ومن ثم فإن مُريد الحياة الدنيا (لا يعتقد غيرها ولا يؤمن بآخرة فهو يُفرغ أمله ومعتقده للدنيا) ^٢ ، فابتغاء الحياة الدنيا فقط دون الآخرة صورة من صور إنكار البعث والجزاء ، وقد جاء في سورة الفرقان نصٌ على عقاب الذين لا يرجون لقاء الله فلا يستعدون للآخرة وهو قوله تعالى : " وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ، يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً ، وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً) . ٢١ - ٢٣ مكية ، فصّل فيه ما يُفعل بهم ، وأجمل هنا في آيات الإرادة الجزاء . ولعل الحكمة في هذا الإجمال وضع قاعدة كلية تسير مسار المثل ، لأن النفوس قد تغيب عنها التفاصيل أحياناً ، ولكن القواعد الكلية تظل راسخة فيها كعلامات تضيء لها الطريق .

ونظراً لما قررته على نفسي من دراسة الآيات حسب ترتيب النزول ، ولارتباط

^١ - زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن البغدادي ثم الدمشقي الشهير بابن رجب ت ٧٩٥ هـ جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، إبراهيم باحس مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الثانية ، ١٤١٢ هـ ١٩٩١ م ج ١ ص ٦٥ - ٦٦ .

^٢ - ابن عطية ج ١٠ ص ٢٧٤ .

آيات المقابلة في جزاء الإرادة بآية الإسراء ارتباطاً بالمطلق^١ ، أو ارتباطاً بالمشاهدة^٢ ، فقد بدأت بدراستها في سياق آيات الإرادة ، مع أنها تنص على اقتران الإرادة بالعمل في قوله : " وسعى لها سعيها " وكان حقها أن تدرس في الباب الثاني من هذا البحث ولكن قُدمت لأن الأليق بالدراسة أن يضم الشبه إلى شبيهه والشكل إلى شكله يقول تعالى :

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾

الإسراء ١٨ - ١٩ مكية .

فالمقابلة بين صاحب الدنيا الذي لها يعمل و بها ينشغل وصاحب الآخرة التي إليها ينسب وفي سبيلها يسعى وقد التفت الطاهر إلى حكمة مجيء فعل الكون وجعل خبره فعلاً مضارعاً وهي الإشارة إلى أن هذا ديدنه وغاية همه فقال (والإتيان بفعل الكون هنا مؤذن بأن ذلك ديدنه وقصارى همه ، ولذلك جعل خبر (كان) فعلاً مضارعاً لدلالته على الاستمرار وزيادة تحقيق لتمحض إرادته في ذلك)^٣ وقد سبق إلى بيان ذلك البقاعي حين وصف هذه الإرادة بالتعمق والإمعان وأنها مصب جهده واقتضاء طبعه حيث قال (أي إرادة هو فيها في غاية الإمعان بما اقتضاه طبعه المشار إليه بفعل الكون)^٤ ، وهذا يقابل صاحب الآخرة بإرادته لها (مطلق إرادة بما أشار إليه التجريد من كان)^٥ ، مع ما يفيد المضي من (الرسوخ تنبيهاً

^١ - ذكر القرطبي جـ ١٦ ص ١٩ و ابن كثير جـ ٦ ص ١٩٥ ارتباط آية الشورى " من كان يريد حرث الآخرة " آية ٢٠ بآية الإسراء ارتباطاً بالمطلق وذكر ذلك القرطبي في آية آل عمران " ومن يرد ثواب الدنيا نوته منها ... " ١٤٥ ، انظر جـ ٤ ص ٢٢٧ .

^٢ - ذكر الطاهر بن عاشور جـ ٢٥ ص ٧٤ مشاهدة آية الشورى لآية الإسراء وذكر المشاهدة بين آية آل عمران والإسراء كل من ابن كثير جـ ٢ ص ١٢٤ ، أبو السعود جـ ٢ ص ٩٤ .

^٣ - الطاهر بن عاشور جـ ١٥ ص ٥٨ ، ٥٩ .

^٤ - البقاعي جـ ١١ ص ٣٩٥ وانظر النيسابوري جـ ١٥ ص ٢١ ، أبو السعود جـ ٥ ص ١٦٣ ، والطاهر بن عاشور جـ ١٥ ص ٥٨ .

^٥ - البقاعي جـ ١١ ص ٣٩٦ وانظر النيسابوري جـ ١٥ ص ٢١ ، أبو السعود جـ ٥ ص ١٦٣ .

على أن خير الآخرة أولى بالإرادة) ^١، فمريد الدنيا ينغمس في ملذاتها ومتعتها بإمعان دون أي التفات إلى الآخرة، ومريد الآخرة يسعى لها وينظر إلى ما أعدده الله له فيها دون اعتداد بالدنيا. فكلُّ قد قصر همه على ما يريد دون مقابله، وهذا ما قصد إليه الطاهر حين قال: (هذه المقابلة تقوم مقام الحصر الإضافي إذ ليس الحصر الإضافي سوى جملتين إثباتات لشيء ونفي لخلافه) ^٢ فكلُّ من الفريقين قد حصر إرادته في بابه، فأحدهما لا يريد إلا العاجلة والثاني لا يريد إلا الآخرة. ويتقابل جزاء الفريقين فيُعطي كلُّ ما يستحق فجزاء مريد الدنيا بجمل في قوله " عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً " مقابل جزاء مريد الآخرة في قوله " فأولئك كان سعيهم مشكوراً " حيث عجل لمريدي الدنيا فيها ما يشاؤه هو سبحانه، ولمن أراد منهم، فلم يُؤتوا كلهم ما أرادوا ولا أُوتي المريد كل مراده بل بقي بعضهم محروماً، ثم جعل الله مكان ما عجل لهم ^٣ جهنم يصلونها أي يتقلبون في صنوف عذابها وتحيط بهم من كل الجهات - بما أفاده معنى الصلي السابق ذكره في سورة ص ^٤ - وزيد في عذابهم بالإهانة والتحقير بالذم والخذلان والسخط من الله ^٥ والبعد عن رحمته ^٦ وقيل البعد في النار ^٧. فهذا العذاب الجسمي والروحي لمن أراد الدنيا، يقابل ثواب مُريد الآخرة الروحي والجسمي أيضاً.

ويُفهم نعيمهم الروحي من تنويه الله بشأنهم في قوله (أولئك)، وما يفيد رضاه عنهم من شكره لسعيهم في قوله " كان سعيهم مشكوراً ". ومن شكر الله سعيه لابد وأن يكون مكرماً. ويُعلم حصول الثواب بأصناف النعيم الجسمي لهم من تحقق معنى الشكر فإنَّ (الشكر عبارة عن مجموع أمور ثلاثة: اعتقاد كونه محسناً في تلك الأعمال، والثناء عليه

^١ - الطاهر بن عاشور ج ١٥ ص ٦٠.

^٢ - المصدر السابق ص ٥٨.

^٣ - انظر أبو السعود ج ٥ ص ١٦٤.

^٤ - انظر الفصل الأول من الباب الأول من البحث، وانظر ابن كثير ج ٤ ص ٢٩٦ سورة الإسراء.

^٥ - انظر ابن عطية ج ١٠ ص ٢٧٤، الرازي ج ٢٠ ص ١٧٨، ابن كثير ج ٤ ص ٢٩٦، البقاعي ج ١١

ص ٣٩٦، الطاهر بن عاشور ج ١٥ ص ٦٠.

^٦ - انظر الرازي ج ٢٠ ص ١٧٨، البيضاوي ج ٦ ص ٢٠، النيسابوري ج ١٥ ص ٢٠، أبو السعود ج ٥

ص ١٦٤.

^٧ - انظر ابن جرير ج ١٥ ص ٤٤.

بالقول ، والإتيان بأفعال تدل على كونه معظماً عند ذلك الشاكر . والله تعالى يُعامل المطيعين بهذه الأمور ، فإنه تعالى عالم بكونهم محسنين في تلك الأعمال ، وأنه تعالى يُثني عليهم بكلامه ، وأنه تعالى يعاملهم بمعاملات دالة على كونهم معظمين عند الله تعالى (^١ فهؤلاء قد قبل الله سعيهم وأثابهم عليه أضعافاً مضاعفةً وتجاوز عن سيئاتهم ، لأن الله تعالى لا يشكر (عملاً ولا سعيًا إلا أثاب عليه وغفر بسببه) ^٢ . وفي تركيب الآية ما يدل على سعة رحمة الله فمُريد (نفع الدنيا لا يكون مذمومًا إلا إذا كان غالبًا في ذلك ثابت القدم فسيح الأمل ومُريد الآخرة يكون محموداً بأدنى التفاتة بعد وجود الشرط) ^٣ أي شرط الإرادة .

وقد لحظت أمراً لم يُشر إليه أحد من المفسرين في تقابل معاني الآيتين وإن كان أشير إلى ما يومئ إليه . فإن فعل الكون في الجملة الأولى الدال على الاستمرار في قوله (كان يريد) قوبل في الجزء بالفعل الماضي (عجلنا) بما يفيد من تحقق الأمر ، فكأن الله تعالى قد بادره بهذا التعجيل لانشغاله بالدنيا عن الآخرة مع هوانها عقوبةً له ، وفعل الشرط الماضي في الجملة الثانية (أراد) الذي يعني أنه قد حدث من صاحبها التفات إلى الآخرة راسخ في نفسه قوبل في الجزء بفعل الكون الماضي " كان سعيهم مشكوراً " الدال على رسوخ وتحقيق معنى الشكر لسعيهم (أن الوصف تحقق فيه من قبل ، أي من الدنيا ، لأن الطاعة تقتضي ترتب الشكر عاجلاً والثواب آجلاً) ^٤ ، فهناك تقابل بين الجزء الزائل لمن بالغ في طلب الدنيا حتى كأنها جزء من كيانه ، وهو المعالجة به ثم حرمانه نعيم الآخرة ، والجزء الباقي الدائم في الدنيا والآخرة لمن طلب الآخرة ولو أدنى طلب .

ومما جاء في القرآن من آيات المقابلة بين نية العمل للآخرة ونية العمل للدنيا قوله تعالى

^١ - الرازي ج ٢٠ ص ١٧٩ - ١٨٠ .

^٢ - ابن عطية ج ١٠ ص ٢٧٥ ، وانظر ابن جرير ج ١٥ ص ٤٥ ، واقتصر البيضاوي والشهاب في حاشية الشهاب

ج ٦ ص ٢٠ على ذكر الثواب دون الغفران وكذلك البقاعي ج ١١ ص ٣٩٧ وأبو السعود ج ٥ ص ١٦٤ .

^٣ - النيسابوري ج ١٥ ص ٢١ .

^٤ - الطاهر بن عاشور ج ١٥ ص ٦١ .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ^ط وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ

الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾

الشورى ٢٠ مكية .

فالآية تقابل بين جزاء من كان يريد بعمله الآخرة ومن كان يريد الدنيا فتجعل _ بعد أن تؤكد بتجاوز صيغتي الماضي والمضارع في قوله (كان يريد) أنه أمر متأصل في كليهما متجدد حصوله منهما مستمرين عليه - جزاء الأول زيادةً ونماءً في عمله الحسن^١ وفي ثواب عمله بالمضاعفة إلى سبعمائة ضعف وأكثر^٢ ، مقابل تناقص جزاء الثاني ابتداءً بالقليل في الدنيا - كما عبر عنه حرف (من) التبعيضية في قوله - " منها " وانتهاءً بالحرمان التام يوم القيامة في قوله " وماله في الآخرة من نصيب " ومن ثم يكون جزاؤه النار ، لأنه ليس له عمل يدخله الجنة . فالزيادة في العمل في قوله " نزد له " نماءً وتكثير يقابله التناقص المبتدئ بالقليل في قوله " نؤته منها " والمنتهي إلى الخسران في قوله " ماله في الآخرة من نصيب " . والزيادة والنماء في الثواب فضل لمريد الآخرة يؤيده تقديمه في الذكر مع أن مراده الآخرة والسكوت عن ذكر نصيبه من الدنيا إعلاءً لشأن مراده ، يقابله كون تناقص الثواب إلى درجة العدم حرماناً وخيبة لمريد الدنيا يبرزه بيان أن ما يحصل عليه من الدنيا بعضاً مما يطلب ، والنص على أن لا نصيب له في الآخرة^٣ .

^١ - انظر ابن جرير جـ ٢٥ ص ١٤ . الرازي جـ ٢٧ ص ١٦٢ . القرطبي جـ ١٦ ص ١٨ ، البقاعي جـ ١٧ ص ٢٨٧ . الطاهر بن عاشور جـ ٢٥ ص ٧٥ .

^٢ - انظر ابن جرير جـ ٢٥ ص ١٤ ، الرازي جـ ٢٧ ص ١٦٢ . القرطبي جـ ١٦ ص ١٨ ، ابن كثير جـ ٦ ص ١٩٥ ، النيسابوري جـ ٢٥ ص ٣١ ، البقاعي جـ ١٧ ص ٢٨٧ ، أبو السعود جـ ٧ ص ٢٩ ، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٤١٧ ، المتن والهامش ، الألوسي جـ ٢٥ ص ٢٧ ، الطاهر بن عاشور جـ ٢٥ ص ٧٥ .

^٣ - هذا المعنى أشار إليه الرازي جـ ٢٧ ص ١٦١ ، ١٦٢ .

وإذا كان حرف التبويض من قد جاء في جانب مريد الدنيا في آية الشورى دالاً على قلة
الحاصل منها فقد جاء في آية آل عمران في قوله :

وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ

مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

آية ١٤٥ مدنية .

مضافاً إلى كلا الجانبين وقد ذهب المفسرون إلى أن ثواب الدنيا المقسوم لمريده منقطع عن
الآخرة ، وثواب الآخرة له مضافاً إلى ثواب الدنيا ^١ .

وتأييداً لهذا الفرق ذهب بعض المفسرين إلى أن قرينة الكلام تدل على التبويض في
جانب ثواب الدنيا وعلى الزيادة في جانب ثواب الآخرة ^٢ لأن الآية لم تمنع أن يؤتى نصيباً
من الدنيا ، ولأن القليل مع رضا الله كثير ، بخلاف التبويض لمن يريد الدنيا فهو قليل لأنه مهما
أوتي منها لم يكفه ، و السنة تفسر ذلك فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما سمعت النبي صلى
الله عليه وسلم يقول : " لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم
إلا التراب ويتوب الله على من تاب " ^٣ ، في حين ذهب آخرون إلى أن هذا الفرق يفهم من
آيات أخرى ^٤ . واتفق أغلبهم على أن قوله " سنجزى الشاكرين " تضمنين للزيادة والتفضل في
جانب مريد الآخرة ^٥ . حيث أهتم (الجزء وأضافه إلى نفسه تنبيهاً على أن جزاء الذين شكروا
نعمة الإسلام فلم يشغلهم عن الجهاد شيء لا يكتنه كنهه وتقصر عنه العبارة وأنه كما يليق

^١ - انظر ابن جرير ج ٤ ص ٧٦ ، ابن كثير ج ٢ ص ١٢٣ .

^٢ - انظر ابن عطية ج ٣ ص ٢٥٠ .

^٣ - صحيح البخاري ، كتاب الرقاق رقم ٥٩٥٦ ، ٥٩٥٧ ، ٥٩٥٨ ، ٥٩٥٩ ، صحيح مسلم ، كتاب الزكاة ١٧٣٧ ،
١٧٣٨ ، ١٧٣٩ ، ١٧٤٠ ، موسوعة الحديث الشريف .

^٤ - انظر ابن كثير ج ٢ ص ١٢٤ .

^٥ - انظر ابن جرير ج ٤ ص ٧٦ ، ابن عطية ج ٣ ص ٢٥٠ ، ابن كثير ج ٢ ص ١٢٤ ، أبو السعود ج ٢ ص

بعميم فضله وجسيم طوله)^١ .

وهكذا تبرز عناصر المقابلة واضحة بين من يريد الدنيا فيؤتى بعضاً مما يريد - بما قيدت به ذلك آية الإسراء السابق ذكرها - ومن يريد الآخرة فيؤتى مما يريد ، ويزداد عليه فضل الله ومضاعفاته . ومن آيات المقابلة في جزاء الإرادة قوله تعالى :

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمْتِعْكَنَّ وَأُسرِحْكَنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُنَّ
تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

٢٨ - ٢٩ الأحزاب مدنية .

فإن هذه الآيات التي خيرت نساء النبي صلى الله عليه وسلم بين إرادة الدنيا وزينتها وإرادة رضا الله ورسوله وما في الدار الآخرة من نعيم ، قد قابلت بين التمكين من المتعة مصحوباً بمفارقة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتنعم بما أعده الله لمن أرادته منهن ورسوله والدار الآخرة . وتتقابل عناصر الجزئين أولاً : من حيث إسناد جزاء الفريق الأول للرسول عليه السلام في قوله " فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً " ، في مقابل إسناد جزاء الفريق الآخر لله تعالى في قوله " فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً " ^٢ وثانياً : من حيث تحديد نوع جزاء الدنيا في قوله " أمتعكن " لأنها غاية ما يحصلن عليه ، في مقابل إهمام الجزاء المعد للفريق الآخر في قوله : " أجراً عظيماً " ، مع تنكيه وتنوينه بما يفيد أنه نعيم لا يكتفه كنهه .

وقبل أن نترك آيات الإرادة يجدر بنا أن نتوقف قليلاً لنلمس أوجه التشابه والاقتران

^١ - النيسابوري ج ٤ ص ٩٣ . وانظر أبو السعود ج ٢ ص ٩٥ .

^٢ - انظر د . محمد محمد أبو موسى ، من أسرار التعبير القرآني ، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ، مكتبة وهبة الثانية ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ص ٢٤٩ .

بينها . أما التشابه فهو لأساس القاعدة ، وهي أن مريد الدنيا لا يحصل عليها كاملة ويخسر آخرته . ومريد الآخرة له من الأجر والثواب فيها مالا يحيط به الوصف ، مع ما يرزقه الله به في الدنيا .

ففي سورة الإسراء في قوله " من كان يريد العاجلة عجلنا له ... " عوجل مريدو الدنيا بما تعجلوه وحرموا خير الآخرة . وفي الشورى في قوله : " ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها " أعطوا بعض ما طلبوه وتعبوا من أجله - بما دل عليه ذكر الحرث - وحرموا الآخرة أيضاً . وفي آل عمران في قوله : " ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها " كان الطلب للثواب فأعطوا منه كالفرق الآخر وزاد الآخرون بالفضل وهنا في آية الأحزاب الإرادة للحياة الدنيا وزينتها - دون إهمال تام للآخرة - فأوتين المتعة فيها - إن اخترتها - وخسرن مرافقة الرسول صلى الله عليه وسلم .

أما الفريق الآخر المقابل وهم مريدو الآخرة فقد جوزوا بالشكر لسعيهم في آية الإسراء " كان سعيهم مشكورا " ، وآية آل عمران في قوله : " وسنجزي الشاكرين " ونص على الزيادة في آية الشورى " نزد له في حرثه " لأن المجال للعمل والكسب أي تحمل المتاعب والمشاق فناسب ذكر الزيادة سواء أريد به في العمل بالتوفيق أو في ثوابه بالمضاعفة ، كما سبق أن ذكر .

والشكر شعور بالامتنان ينشأ في النفس من معروف سابق يتبعه قول وعمل وقد جاء جزاؤه مقابلاً لجزاء الكفران في قوله تعالى :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
لِنَفْسِهِ ۗ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾

لقمان ١٢ مكية .

فإن فائدة شكر الشاكر له ، أي عائدة عليه بالثواب والنفعة والإنقاذ من الهلكة ^١ ،

^١ - انظر ابن جرير ج ٢١ ص ٤٤ .

وبدوام النعمة ^١ (واستحقاق المزيد والدوام لقوله : " لئن شكرتم لأزيدنكم " لدلالة الزيادة على الدوام التزاماً) ^٢ ، وهذا النفع يقابل الضرر الواقع على من كفر نعمة ربه عليه. وقد حُذِفَ الجواب المتضمن للضرر وأُقيِمَ عِلَّتُهُ مقامه وهي قوله : " فإن الله غني حميد " (لأنه مع أنه لا يحتاج للشكر مشكور محمود إما بحسب الاستحقاق أو بنطق ألسنة الحال) ^٣.

وقد تنبه الرازي إلى أنه ثمة مقابلة بين صيغتي الفعلين المتقابلين (يشكر وكفر) (وهو أن الشكر ينبغي أن يتكرر في كل وقت لتكرر النعمة ... والكفر ينبغي أن ينقطع فمن كفر ينبغي أن يترك الكفران) ^٤ فالصيغتان تشيران إلى ما ينبغي . ثم إن الكفر معنى غير قابل للتكرير لأن الكافر كفر وانتهى ، بخلاف الشكر فإنه معنى قابل لأن يتجدد بتجدد النعم . وذكر الألووسي وجهاً آخر في تفسير الفرق بين الصيغتين حين ذهب إلى أن في صيغة الماضي (إشارة إلى أنه كثير متحقق بخلاف الشكر) ^٥ وهذا ناظر إلى دلالة الصيغة على الوقوع ، فالماضي قد وقع وتحقق ، والمضارع يقع أو سيقع وبينهما فرق ، والواقع هو الكثير المتحقق . ثم يرى البقاعي أن المضارع في قوله " يشكر " يفيد مع تجدد الفعل الذي هو الشكر تجدد ثوابه ، مقابل حلول عقاب الكفران بتحقيق وقوعه ، فقد ذهب إلى أن التعبير بالمضارع في معنى الشكر دالٌّ (على أن من أقبل عليه - في أي زمان كان - يلقاه ويكون معروفه له دائماً بدوام العمل) ^٦ وقال عن التعبير بالماضي في معنى الكفران (وعبر بالماضي إشارة إلى أن من وقع منه كفر ولو مرة جوزي بالإعراض عنه) ^٧ فمن تحقق كفره تحقق عقابه وهو الإعراض وهو بئس الجزاء وناهيك به من جزاء وقد كان ، وحسبه مرة واحدة . ففي الأول ترغيب بالثواب المتجدد بتجدد الشكر يقابل الترهيب المتضمن في وقوع العذاب بمجرد حدوث الكفران .

وقد جاءت في سورة النمل آية مشابهاً وهي قوله :

^١ - انظر البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ج ٧ ص ١٣٥ .

^٢ - حاشية الشهاب ج ٧ ص ١٣٥ .

^٣ - المصدر السابق ، و انظر ابن جرير ج ٢١ ص ٤٤ ، الرازي ج ٢٥ ص ١٤٥ ، الألووسي ج ٢١ ص ٨٤ .

^٤ - الرازي ج ٢٥ ص ١٤٥ .

^٥ - الألووسي ج ٢١ ص ٨٤ .

^٦ - البقاعي ج ١٥ ص ١٥٩ .

^٧ - البقاعي ج ١٥ ص ١٦٠ .

قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۗ

وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

٤٠ مكية .

وقد ذكرت الآية أن نفع الشاكر عائدٌ عليه باستدامة النعم^١ ، ولم تذكر في جزاء العمل المقابل وهو الكفران جزاءً مقابلًا وهو عودة ضرر الكافر عليه ، وإنما عبّر قوله : " فإن ربي غنيٌ كريم " عن علة تتضمن معلولاً غير مقابل ، وهو استمرار النعم وترك المعالجة بالعقوبة^٢ . وقد ذكر الحكمة من ذلك الشهاب في قوله : (وليس قوله " فإن ربي " قائمٌ بمقام معلوله الذي هو الجزاء وهو وإنما ضرر كفرانه عليه بقرينة ما قبله حتى يناسب تفسيره بأنه لا يتوقع عوضاً ولا يفعل لغرض يفوت بفوته لأنه لا يناسب قوله كريم)^٣ ، فإن ارتبطت الآية بما قبلها وهو كون استقرار العرش عند سليمان عليه السلام من فضل ربه " هذا من فضل ربي " المتضمن أنه تعالى لا يتوقع عوضاً من أحد ، وبما بعدها من صفة الكرم المنسوب له تعالى في قوله : " غنيٌ كريم " ينافي أن يقصد المعلول المتضمن عقاباً ، وبهية المعنى بأن يكون المقصود ترك تعجيل العقوبة ومواصلة الإنعام عليه .

وفي سورة إبراهيم جاء جزاء الشكر والكفران للنعمة في سياق إعلام عظيم بليغ ينتفي عنه الشكوك^٤ يقول تعالى :

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ

عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

٧ مكية .

^١ - انظر الكشف ج ٣ ص ١٤٩ ، أبو السعود ج ٥ ص ٢٨٧ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ١٤٨ ، المتن والهامش .

^٢ - انظر أبو السعود ج ٥ ص ٢٨٧ .

^٣ - حاشية الشهاب ج ٧ ص ٤٨ .

^٤ - انظر البقاعي ج ١٠ ص ٣٨٤ .

فإن شكر النعم عموماً بما يدخل فيه نعمة إنحاء بني إسرائيل وغيرها ، يستلزم زيادة النعم في عمومها . وقد أفاد هذا الشمول والعموم في الشكر وفي جزائه حذفُ مفعولي الفعلين^١ في قوله : " لئن شكرتم لأزيدنكم " . ويقابل شكر النعم كفرانها الذي قد يوقع في العذاب الشديد . وأقول " قد " لما لمحة البيضاوي والشهاب من بين المفسرين ، من أن مجيء جملة العقاب غير مسلطة على أحد يفيد عدم تأكد وقوعه . فالمقابلة على هذا بين تصريح بالوعد وتعريض بالوعيد يقول البيضاوي (" لئن كفرتم إن عذابي لشديد " فلعلني أعذبكم على الكفران عذاباً شديداً ومن عادة أكرم الأكرمين أن يصرّح بالوعد ويعرّض بالوعيد)^٢ . فالبيضاوي - وتابعه الشهاب - أرجع الأمر إلى عادته سبحانه من التصريح بالوعد والتعريض بالوعد ، وأضاف الشهاب أمراً آخر استنبطه من كلام البيضاوي فقال : (قوله : (فلعلني أعذبكم) بصيغة الترجي الدالة على عدم القطع لمناسبته لكرمه ورحمته ، لأن كفران النعم غير مستوجب للعذاب كغيره في عادته تعالى)^٣ ، فهو يرى أن إمكان عدم وقوع الجزاء قد يعود إلى نوع الذنب وهو كفران النعم ، لأنه لا يستوجب ما يستوجبه غيره من الذنوب من العذاب . وأما القول بأن كفران النعم غير مستوجب للعذاب كغيره فلعل مما حدا الشهاب إلى القول به هو مجيء جواب الشرط جملة خبرية حكمها غير مسند لمعين وهي قوله : " إن عذابي لشديد " ولعل هذا يتأيد بجمليتي آيتي لقمان والنمل وهما قوله : " فإن الله غني حميد " وقوله : " فإن ربي غني كريم " حيث ذهب المفسرون إلى القول بأن مما يذهب إليه المعنى أن الله يواصل إنعامه على عباده رغم كفرانهم ويمهلهم عن العقوبة - كما سبق ذكره في آية النمل - وعلى هذا فقد يكون قوله : " إن عذابي لشديد " دون أعذبكم دالاً على إمكان العفو ، أو أن يكون التعريض أشد من التصريح - كما ذهب الطاهر^٤ - فتكون المقابلة واقعة بين (ترجية وتخويف)^٥ فقد صرّح في جزاء الشكر بالوعد ولوّح في جزاء الكفران

^١ - انظر الطاهر بن عاشور جـ ١٣ ص ١٩٣ .

^٢ - البيضاوي بهامش حاشية الشهاب جـ ٥ ص ٢٥٣ - ٢٥٤ و انظر الحاشية جـ ٥ ص ٢٥٤ .

^٣ - حاشية الشهاب جـ ٥ ص ٢٥٤ .

^٤ - انظر الطاهر بن عاشور جـ ١٣ ص ١٩٤ .

^٥ - ابن عطية جـ ١٠ ص ٦٤ .

بالعقاب . ولا يمنع وجود التهديد من حصول العفو برحمته والله تعالى أعلم.

وهناك مقابلة للجزاء تتجسد في الأعمال القلبية ذاتها فيفي المرء ويغدر ويكفر ويشكر.

وتسليط الضوء على هذا الجانب يتناول الجزء الإنساني تجاه نعم الرب سبحانه وتعالى وابتلاءاته ، فإن الجزء الفطري للنفس السوية أن تشكر الله ما يؤتيها من النعم ، فإذا ما جاء الجزء مقابلاً للشكر وهو الكفران فإنه يشير إلى خلل في طبيعة النفس جعلها تنافي منطق العقل والفطرة السليمة ، يقول تعالى : -

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا
فَلَمَّا تَغَشَّهَا حَمَلٌ خَفِيًّا فَهَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا
لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا
جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

الأعراف ١٨٩ - ١٩٠ مكية .

وقد اختلف العلماء في المقصود من الآية ، هل هما آدم وحواء عليهما السلام ، أو ذريتهما ، أو قريش مما لا مجال للتفصيل فيه هنا ^١ . كما اختلفوا في كون المعاهدة نية فقط أو نيةً وقولاً ^٢ وعلى كلا القولين يظل منشؤها من النفس . وحسبنا أن نقف الآن عند طرفي المقابلة لنرى كيف كان العهد عند اشتداد الأمر " فلما أثقلت دعوا الله ربهما " ، مع الرب المحسن إليهما شديد التأكيد بالقسم والنون " لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين " (ووعدا بمقابلته بالشكر) ^٣ بصيغة اسم الفاعل التي تدل على رسوخهما في الصفة ، ثم يأتي الجزء بعد إيتاء الله تعالى لهما ما طلبا في قوله : " جعلنا له شركاء " مضاداً لما ينبغي وهو

^١ - انظر ابن جرير ج ٩ ص ٩٧ وما بعدها ، ابن عطية ج ٧ ص ٢٢٢ وما بعدها ، الرازي ج ١٥ ص ٨٥ وما بعدها ، القرطبي ج ٧ ص ٣٣٨ ، البقاعي ج ٨ ص ١٨٩ وما بعدها ، أبو السعود ج ٣ ص ٣٠٣ وما بعدها ، حاشية الشهاب ج ٤ ص ٢٤٤ ، الطاهر ج ٩ ص ٢١٠ وما بعدها .

^٢ - انظر الرازي ج ١٦ ص ١٣٩ ، القرطبي ج ٨ ص ٢١٠ في تفسير آية التوبة ٧٥ .

^٣ - أبو السعود ج ٣ ص ٣٠٣ في الكتاب الشكر ولعل الأصوب ما أثبت .

إشراك بالله مخل^١ (بالشكر في مقابلة نعمة الولد الصالح)^١ ، فهما قد وعدا بالشكر وأتيا بالشرك .

وقد لمج الدكتور محمد أبو موسى في تحول الشكر إلى شرك ملمحاً جليلاً حين قال : (وهذا التشابه اللفظي بين الشكر و الشرك له معنى جليل لأننا نلاحظ أن الذي حدث هو تقديم حرف الراء على حرف الكاف فصار الشكر شركاً وذلك للإشارة إلى أن أقل قدر من انحراف النفس عن وجه الله وهي متوجهة إلى الله يحوّل شكرها شركاً)^٢ .

ولنلاحظ أنهما قد أعقبا سرعة توجههما بالدعاء في قوله : " فلما أثقلت دعوا الله " سرعة التنكر والكفران في قوله : " فلما آتاها صالحاً جعلاً له شركاء " فحال الشدة أسرعاً بالدعاء وحال النعمة أسرعاً بالكفران وفي هذا شدة تباين بين طرفي المقابلة ، يزيده وضوحاً وقوع الاستجابة متضمنةً نفس المفعول الوارد في الدعاء وهو قوله : " آتاها صالحاً " ^٣ وتسبب كفرانها في قوله تعالى : " جعلاً له شركاء فيما آتاها " عن نفس الاستجابة ، ولم يقل (جعلاً له شركاً فيه لما تؤذن به الصلة من فساد ذلك الجعل وظلم جاعله ، وعدم استحقاق المفعول شريكاً لما جعل له ، وكفران نعمة ذلك الجاعل إذ شكر لمن لم يعطه وكفر من أعطاه وإخلاف الوعد المؤكد)^٤ فإن ملمح القوة في العهد بالشكر نجده يتخاذل ويضعف فيما قابلوا به هذه النعمة حتى استحال إلى شرك نتج من شكرهم لمن لم يعطهم وكفرهم لمن أعطاهم . ومن هنا ذهب بعض المفسرين إلى أن جملة الجواب وهو قوله : " جعلاً له شركاء فيما آتاها " أريد بها التعجيب^٥ والاستبعاد^٦ لما وقع منهم واقتضى

^١ - أبو السعود جـ ٣ ص ٣٠٤ .

^٢ - في تعليقه على الآية من خلال توجيهه للباحثة .

^٣ - ذكر فائدة الإجابة بنفس صيغة العهد البقاعي في تعليقه على آية التوبة (٧٦) في تكرار لفظ " من فضله " في العهد وفي الإجابة ، انظر جـ ٨ ص ٥٥٣ تفسير آية " ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون "

^٤ - الطاهر بن عاشور جـ ٩ ص ٢١٤ .

^٥ - انظر المصدر السابق ص ٢١٣ .

^٦ - انظر الرازي جـ ١٥ ص ٨٧ .

المقام توبيخهم (لأنه لما ذكر ما أنعم به عليهم من الخلق من نفس واحدة وتناسلهم وبخهم على جهلهم وإضافتهم تلك النعم إلى غير معطيها وإسنادها إلى من لا قدرة له على شيء)^١

وفي قوله تعالى :

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ
أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَّمِ ۗ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا
﴿٤٢﴾ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا
بِأَهْلِهِ ۗ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا
وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

فاطر ٤٢ - ٤٣ مكية .

نجد عهداً مؤكداً من مشركي مكة (بغاية ما يقدرون عليه من الأيمان)^٢ على إيمان ثابت قوي ، بل إنه أفضل من إيمان غيرهم إن جاءهم نذير من الله وهذا ما ينبغي ، فلما جاءهم النذير نقضوا عهدهم بل أتوا بأسوأ ما يكون وهو زيادة نفور من الحق ، فقد (أشهدوا الله على أنهم إن جاءهم رسول يكونوا أسبق من غيرهم اهتداءً فإذا هم لم يشموا رائحة الاهتداء)^٣ فإن العهد بإيتاء أفضل الإيمان المعصّد بالأيمان الأكيدة قوبل بأسوأ نقض له وهو زيادة النفور عن الحق . وقد جاء أسلوب (الاستثناء في قوله : " إلا نفوراً "

^١ - حاشية الشهاب ج ٤ ص ٢٤٤ .

^٢ - البقاعي ج ١٦ ص ٧٣ .

^٣ - الطاهر بن عاشور ج ٢٢ ص ٣٣٢ .

من تأكيد الشيء بما يشبه ضده) ^١ ، ليبين حدة هذه المقابلة وشدة سوئها بانبعثها عن غير أصلها لأن المفترض أن مجيء ما وعدوا الله بالإيمان به يعثهم على الإيمان ، ولكنهم قابلوه بزيادة النفور لاستكبارهم ومكرهم السيئ ، (وهو مكر ذميم لأنه مقابلة المتسبب في صلاحهم بإضمار ضره) ^٢ أي أنهم بالغوا في طلب الكبر على الحق مع ما كانوا عاهدوا به من الانقياد ، وبالغوا في إضمار السوء حتى كأنه جزء من حقيقة أمرهم - بما عبر عنه إضافة الصفة إلى الموصوف في قوله تعالى : " مكر السيئ " ^٣ ، سواء أريد به - مثل لفظ استكباراً - أن يكون عطفاً على النفور أو مفعولاً لأجله ^٤ . ومما يعضد الاستثناء في بيان شدة المناقضة المقابلة بين لفظ " أهدى " ولفظ " نفورا " فإن الهدى (ضد الضلال وهو الرشاد) ^٥ وتدور مادته على التمكن والاستقرار في طريق الإيمان ، والنفور (يدل على تحاف وتباعد) ^٦ ، فهو خروج وابتعاد عن هذا الإيمان ، فالمعاهدة كانت على الدخول في الحق والجزاء جاء نفوراً عنه (فتبين أنه لا عهد لهم مع ادعائهم أنهم أوفى الناس ولا صدق عندهم مع جزمهم بأنهم أصدق الخلق) ^٧ وفي قوله تعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَإِنِ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ

وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا

بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾

التوبة ٧٥ - ٧٦ مدنية .

تأكدت المعاهدة بذكر لفظها وبالقسم والنون المؤكدة . ولعل هذا التوكيد (لأنه

^١ - الطاهر بن عاشور ج ٢٢ ص ٣٣٢ .

^٢ - المصدر السابق ص ٣٣٤ .

^٣ - انظر المصدر السابق ص ٣٣٢ .

^٤ - انظر النيسابوري ج ٢٢ ص ١٠١ .

^٥ - ابن منظور ، لسان العرب ج ١٥ ص ٣٥٣ .

^٦ - ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ج ٥ ص ٤٥٩ .

^٧ - البقاعي ج ١٦ ص ٧٤ .

كاذب يظن أن الناس يكذبونه و هكذا كل كاذب)^١. ومع هذا الإحساس بكذبه، ومحاولة تأكيد صدق قوله ، نجد أن في التأكيد بهذا الأسلوب تكليفاً للنفس بقدر من الوفاء أشد من غيره فيشتد قبح الخلف في هذا العهد وعدم أداء شكره . ووقع هذا الخلف ممن عاهد الله بيبخلهم بما آتاهم الله من فضله و(إعراضهم عن عهدهم وعن شكر نعمة ربهم)^٢ واتضح شدة انحرافهم النفسي بشدة التقابل بين ما وعدوا به من الصدقة والصلاح ، وما أتوه من البخل والإعراض ، فهم قد سألوا الله " من فضله " ووعدوا إيتاء حقه، و " آتاهم من فضله " فبخلوا " وتولوا وهم معرضون " .

وإذا كان زمن إتيان العهد طويلاً لما اقتضاه توكيده من هذا الطول " لنصدقن ولنكونن من الصالحين " فإن زمن نقضه كان قصيراً " فلما آتاهم من فضله بخلوا به " ، ولم يكن بين زمن حصول الفضل وامتناعهم عن الوفاء إلا ما بين فعل الشرط وجوابه .

ومما تنزع النفس فيه إلى الخير التوبة فهي إقبال النفس إلى خالقها بعد بُعدها عنه حال ارتكاب المعصية (والتوبة لفظة يشترك فيها الرب والعبد . فإذا وصف بها العبد فالمعنى : رجع إلى ربه لأن كل عاص فهو في معنى الهارب من ربه فإذا تاب فقد رجع عن هربه إلى ربه فيقال : تاب إلى ربه والرب في هذه الحالة كالمعرض عن عبده وإذا وصف بها الرب تعالى فالمعنى : أنه رجع على عبده برحمته وفضله ، ولهذا السبب وقع الاختلاف في الصلة فقيل في العبد : تاب إلى ربه وفي الرب : على عبده)^٣ فهي من العبد عمل ومن الله للعبد جزاء . وقد ورد في سورة النساء ذكر للتوبة وجزائها لدى فريقين متقابلين من الناس فقال تعالى (معرفاً بوقت التوبة وشرطها مرغباً في تعجيلها مرهباً من تأخيرها)^٤ :

١ - البقاعي ج ٨ ص ٥٥٣ .

٢ - الطاهر بن عاشور ج ١٠ ص ٢٧٢ .

٣ - الرازي ج ٣ ص ٢٢ تفسير آية ٣٧ من سورة البقرة .

٤ - البقاعي ج ٥ ص ٢١٩ .

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْعَنَنْ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا



النساء ١٧ - ١٨ مدنية .

فإن قبول التوبة يكون على الله تفضلاً وكرماً بحكم الوعد^١، ممن يرتكبون الذنوب بجهالة وسفه ثم يتوبون من قريب فهؤلاء قد عادوا إلى ربهم في مدة حياتهم وقبل أن يغلبوا على عقولهم في ساعات الحشرجة الأخيرة عند الموت، وإن طال مكثهم في الذنوب بما أفاده حرف التراخي (ثم) (لأن الغالب أن الإنسان إذا ارتبك في حباتها^٢، لا يخلص إلا بعد عسر)^٣، فهم مع عسر خلاصهم من المعصية تابوا منها في زمن قريب أي قبل موتهم ولم يسوفوا، فنتج عن هذه التوبة القريبة أن تاب الله عليهم بقوله: " فأولئك يتوب الله عليهم " أي رجعوا عن الذنوب فرجع الله لهم إلى ما يحبونه من العفو عنهم والصفح عن ذنوبهم التي سلفت منهم^٤ ورزقهم إنابة إلى طاعته، وتقبل منهم أوبتهم إليه وتوبتهم التي أحدثوها من ذنوبهم^٥ وقيل (إلى ما كانوا فيه عنده^٦ من مكانة القرب قبل واقعة الذنب)^٧.

^١ - انظر ابن عطية ج ٤ ص ٥٢، الرازي ج ١٠ ص ٢، البقاعي ج ٥ ص ٢١٩، أبو السعود ج ٢ ص

١٥٦، حاشية الشهاب ج ٣ ص ١١٦ المتن والهامش، الطاهر بن عاشور ج ٤ ص ٢٧٨.

^٢ - أي المعصية.

^٣ - البقاعي ج ٥ ص ٢٢١.

^٤ - انظر ابن جرير ج ٤ ص ٢٠٢.

^٥ - انظر المصدر السابق ص ٢٠٥.

^٦ - في النسخة عندهم ولعل فيه تحريف.

^٧ - البقاعي ج ٥ ص ٢٢١.

ولما علم أن هناك فريقاً مقبولاً ذكر المقابل وهو المطرود^١، وهو من سوّف في التوبة ومن مات على الكفر (فليس لهذا عند الله تبارك وتعالى توبة)^٢. وقد سوى الله تعالى في الفريق المطرود بين المسوّف والكافر للمبالغة في عدم الاعتداد بتوبة المسوّف^٣. وقبول التوبة كما ذكر الرازي^٤ يكون بإعطاء الثواب العظيم، وبغفران الذنوب فعلى هذا يحرم الفريق المقابل وهو مرفوض التوبة من الثواب، كما يحرم من غفران الذنوب، ومن ثم يحق عليه العذاب. وقد اختلف العلماء فيمن يقع عليه العذاب الأليم في قوله "أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً"، فذهب بعضهم إلى أن المقصود به الفريقان^٥، وذهب آخرون إلى أن المقصود به فريق الذين يموتون وهم كفار^٦. ولعل في عدم النص على أن المراد بالعذاب هو الخلود في النار، ترجيحاً للقول بجواز كون العذاب لكلا الفريقين^٧. وعلى كل فقد تنبه الرازي إلى أن قوله "فأولئك يتوب الله عليهم" تأكيد لقبول التوبة بعد الإخبار بقبولها في قوله "إنما التوبة على الله..."^٨، وتنبّه النيسابوري إلى التوكيد في قوله: "أولئك أعتدنا لهم"، مقابل التوكيد في الوعد السابق فقال (الوعد نظير قوله: "فأولئك يتوب الله عليهم" في الوعد ليتبين أن الأمرين كائنان لا محالة)^٩، فكما أكد تعالى قبول توبة التائبين بذكر توبته عليهم، فقد أكد عدم قبول توبة الفريق المقابل بذكر إعداد العذاب لهم.

وهناك تقابل بين امتداد زمن العمل عند الفريقين تسبب عنه ما وقع لهما من الجزاء، فالأولون رجعوا من قريب سواء أريد بمن ابتداء الغاية^{١٠} على معنى أن مبتدأ توبتهم قريب من

^١ - انظر البقاعي ج ٥ ص ٢٢١.

^٢ - ابن جرير ج ٤ ص ٢٠٦، وانظر ابن عطية ج ٤ ص ٥٦، الرازي ج ١٠ ص ٦، البقاعي ج ٥ ص ٢٢٢، أبو السعود ج ٢ ص ١٥٧، الطاهر بن عاشور ج ٤ ص ٢٨٠.

^٣ - انظر حاشية الشهاب ج ٣ ص ١١٧ المتن والهوامش.

^٤ - انظر الرازي ج ١٠ ص ٣.

^٥ - انظر البقاعي ج ٥ ص ٢٢٢، أبو السعود ج ٢ ص ١٥٧.

^٦ - انظر ابن جرير ج ٤ ص ٢٠٧. الرازي ج ١٠ ص ٩.

^٧ - انظر ابن عطية ج ٤ ص ٥٦.

^٨ - انظر الرازي ج ١٠ ص ٥-٦.

^٩ - النيسابوري بمامش جامع البيان ج ٤ ص ٢١٩.

^{١٠} - انظر الرازي ج ١٠ ص ٥، الطاهر بن عاشور ج ٤ ص ٢٧٨.

المعصية ، أو التبعض على معنى بعض زمان قريب وهو ما قبل الموت ^١ . في حين امتد زمان عمل السيئات عند الفريق الآخر حتى حضور الموت في قوله " حتى إذا حضر أحدهم الموت " فلا جرم أن تجازى التوبة من قريب منهم إلى ربهم بالتوبة من الله عليهم بما يحبون، فهو جزاء موافق لعملهم ، في حين يجازى المعرضون عن الله تعالى بالإعراض عنهم ، والاعتناء بإعداد عذاب أليم لهم ، لا يدرك كنهه ولا يمكن الإحاطة بوصفه وهو ما دل عليه تنكيره وتنوينه في قوله : " عذاباً أليماً " ^٢ .

وإذا كانت المقابلة في آية النساء بين قبول التوبة وعدمه من قبل الله تعالى فهي في قوله تعالى :

وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾

التوبة ٣ مدنية .

مقابلة بين حصول التوبة والإعراض عنها ويتقابل جزاء التوبة وجزاء الإعراض عنها كما تقابل فعالهما، فقد وعدهم الله تعالى (مع شرط التوبة وتوعددهم مع شرط التولي) ^٣ فجزاء التوبة عن الكفر ^٤ ، أو عن الكفر والغدر ^٥ ، حصول الخير بعمومه وشموله لهم ، وجزاء التولي عن التوبة والإعراض العذاب الأليم لهم . وقد جاء الترغيب بلفظ (خير) نكرة منوئاً ليفيد

^١ - انظر الرازي جـ ١٠ ص ٥٥ ، أبو السعود جـ ٢ ص ١٥٦ ، حاشية الشهاب جـ ٣ ص ١١٧ المن والهامش .

^٢ - انظر أبو السعود جـ ٢ ص ١٥٧ .

^٣ - ابن عطية جـ ٨ ص ١٣٢ .

^٤ - انظر ابن جرير جـ ١٠ ص ٥٥ ، ابن عطية ٨ ص ١٣٢ ، الرازي جـ ١٥ ص ٢٢٣ ، الطاهر جـ ١٠ ص

^٥ - انظر البقاعي جـ ٨ ص ٣٧٨ ، أبو السعود جـ ٤ ص ٤٢ ، حاشية الشهاب جـ ٤ ص ٢٩٩ .

تفخيم أمره وتعظيم شأنه^١ فهو خير عظيم جليل يشمل الدنيا والآخرة ، فهم يفوزون بالأمان من الأعداء في الدنيا والسلامة في الدنيا والآخرة^٢ ، في حين عبر قوله " فاعلموا أنكم غير معجزى الله " القائم مقام معلوله وهو إيقاع العذاب الشديد عن (وعيد عظيم لأن هذا الكلام يدل على كونه تعالى قادراً على إنزال أشد العذاب بهم)^٣ ، وزيد في ترهيبهم بالنص على العذاب في قوله " وبشر الذين كفروا بعذاب أليم " سواء أريد به عذاب الآخرة^٤ ، أو الدنيا والآخرة^٥ ، أو الدنيا فقط^٦ ، مع ما في الإعراض عنهم في قوله " وبشر الذين كفروا " من التحقير لهم^٧ ، وما في لفظ البشارة من التهكم بهم^٨ ، وما في تنكير لفظ العذاب الموصوف بالأليم من تهويل شأنه^٩ . وقد لمح البقاعي في صيغة التفعّل في قوله " توليتهم " عامل الجهد في تكليف أنفسهم (خلاف ما تشتهي من التوبة موافقة للفطرة الأولى)^{١٠} ، ولمح الطاهر (معنى الاستمرار أي إن دمتم على الشرك فاعلموا أنكم غير مفلتين من قدرة الله)^{١١} ، وهذا الجهد وهذا الاستمرار هو الذي أدى إلى شدة العذاب وامتداد زمانه من الدنيا إلى الآخرة ، وهذا مقابل لسرعة تحقق الخير لهم عند توبتهم بما دلت عليه جملة الجواب " فهو خير لكم " ، لاتصالها بالفاء التعقيبية السببية وعدم انفصال فعل الشرط عن جوابه بفواصل والله تعالى أعلم .

^١ - انظر شروح التلخيص ج ٢ ص ٩١ في الإشارة إلى فائدة التنكير ، أما التنوين فيذكر دلالاته أبو السعود في أكثر من موضع ومنه الموضع السابق في آية النساء ج ٢ ص ١٥٧ ، ويذكره في بعض المواضع أيضاً محيي الدين زادة وقد سبق في هذا البحث وروده .

^٢ - انظر البقاعي ج ٨ ص ٣٧٨ ، الطاهر بن عاشور ج ١٠ ص ١١١ .

^٣ - الرازي ج ١٥ ص ٢٢٣ .

^٤ - انظر الرازي ج ١٥ ص ٢٢٣ ، حاشية الشهاب ج ٤ ص ٢٩٩ المتن والهامش .

^٥ - انظر البقاعي ج ٨ ص ٣٧٩ .

^٦ - انظر الطاهر بن عاشور ج ١٠ ص ١١١ .

^٧ - انظر البقاعي ج ٨ ص ٣٧٩ .

^٨ - انظر الرازي ج ١٥ ص ٢٢٣ ، البقاعي ج ٨ ص ٣٧٩ ، أبو السعود ج ٤ ص ٤٢ ، الطاهر بن عاشور ج ١٠ ص ١١١ .

^٩ - انظر شروح التلخيص ج ٢ ص ٩١ .

^{١٠} - البقاعي ج ٨ ص ٣٧٨ .

^{١١} - الطاهر بن عاشور ج ١٠ ص ١١١ .

وجاء جزاء حصول التوبة مقابلًا لجزاء الإعراض عنها في موضع آخر من السورة وهو قوله :

وَهُمْ أَوْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ
فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

التوبة ٧٤ مدنية .

فالآية نزلت في التوبة عن الكفر الذي أوقع فيه النيل من مبلغ الرسالة محمد صلى الله عليه وسلم سواء كان المراد الجلاس بن سويد ، أو عبد الله بن أبي بن سلول^١ ، فجاءت صياغة جزاء التوبة مرغبة فيها حيث جاء فعل الكون في قوله " فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ " مؤذنًا بتحقيق الخير في جانب التوبة^٢ (ولما كان المقام جديرًا بأن يشتد تشوُّف السامع إلى معرفة حالهم فيه ، حذف نون الكون اختصاراً تنبيهاً على ذلك فقال " يَكْ " أي ذلك خيراً لهم من إصرارهم)^٣ فقد عجل هذا الحذف بالبشارة بما يسرّ ولعله سبب توبة الجلاس التي رويت عنه^٤ .

ويقابل هذا التعجيل بالخير - بما أفاده حذف نون فعل الكون وشرطية الجملة - التعجيل بوقوع العذاب بما أفادته شرطية الجملة " وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ " . وبينما تختصر جملة الثواب بلفظ الخير المنكر كل ما سيلقونه من خيري الدنيا ، والآخرة على حال من العظمة والفخامة لا يمكن الإحاطة بوصفها ، وفي هذا تكريم لهم وتعظيم لشأنهم ، تفصّل في المقابل جملة العقاب في عذابهم بما يفيد إهانتهم وتحويل شأن عذابهم ، فقد نصت الآيات على لفظ العذاب وأكدته بالمفعول المطلق الموصوف بالإيلام بصيغة المبالغة في قوله : " يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا " ، ونصت على امتداد زمن العذاب في الدنيا والآخرة ، وزادت في نكايته بنفسي

^١ - انظر ابن جرير جـ ١٠ ص ١٢٧ - ١٢٨ .

^٢ - انظر الطاهر بن عاشور جـ ١٠ ص ٢٧١ .

^٣ - البقاعي جـ ٨ ص ٥٥٠ .

^٤ - انظر ابن جرير جـ ١٠ ص ١٣٠ .

وجود شفيع لهم في قوله : " وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير " فهو عذاب لا يدرك وصفه - بما أفاده التنكير والتنوين ^١ - إلا بما فيه من الألم العظيم المستمر عليهم في الدنيا والآخرة كما استمروا على الإعراض بما أفادته صيغة المضارع (يتولوا) ^٢ . وهو عذاب حتمي لا يمنع شفيع ولا نصير في الدنيا بالنص وفي الآخرة من باب أولى ^٣ . وهكذا يجتمع لهم عذاب الخوف والذل والخذلان مع عذاب النيران ، كما يجتمع لمقابلتهم في خيرية الثواب الأمن والكرامة مع الاستقرار في أعالي الجنان .

وإذا كانت التوبة من نوازع النفس الحسنة على اختلاف المتاب منه ، فإن الخيانة من نوازعها السيئة على اختلاف أوجه ما نقضت ، فهي (إبطال ونقض ما وقع عليه تعاقد من دون إعلان بذلك النقض قال تعالى : " وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء " والخيانة ضد الوفاء قال الزمخشري " وأصل معنى الخون النقص كما أن أصل الوفاء التمام ثم استعمل الخون في ضد الوفاء " ... وتشمل الخيانة كل معصية خفية) ^٤ . والحرب أحد لوازم خيانة العهود وقد جاء ذكر الخيانة مراداً به لازمها في قوله تعالى :

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
 الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾
 وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ
 اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا
 مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ * وَإِنْ
 جَنَّحُوا لِلْإِسْلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

^١ - انظر شروح التلخيص جـ ٢ ص ٩١ ، وقد سبقت الإشارة إلى أن ما في التلخيص عائد على التنكير فقط .

^٢ - انظر أبو السعود جـ ٤ ص ٨٥ .

^٣ - انظر حاشية الشهاب جـ ٤ ص ٣٤٦ .

^٤ - الطاهر جـ ٩ ص ٣٢٢ . تفسير آية الأنفال (٢٧)

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ
الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

الأنفال ٥٨ - ٦٢ مدنية .

فلم يأتِ الوفاء مقابل الخيانة، وإنما أتى السلم المقابل للازمها وهو الحرب . ولعل هذا ما قصده ابن جرير حين ربط تفسير قوله : " وإن جنحوا " بقوله : " وإما تخافن " حيث قال في تفسير آية الجنوح (وإما تخافن من قوم خيانة وغدرًا فانبد إليهم على سواء وآذتهم بالحرب وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وإن مالوا إلى مسالمتك ومشاركتك إما بالدخول في الإسلام وإما بإعطاء الجزية وإما بموادعة ونحو ذلك من أسباب السلم والصلح فاجنح لها يقول : فمل إليها وابذل لهم ما مالوا إليه من ذلك وسألوكه)^١ ، ويؤيده قول الطاهر في نفس الآية (فهذا مقابل قوله : " وإما تخافن من قوم خيانة فانبد إليهم على سواء " فإن نبذ العهد نبذ لحال السلم)^٢ فنبذ حال السلم هو الحرب وهي المقابلة للجنوح للسلم .

ونستطيع أن نلاحظ عنصري الترهيب والترغيب بوضوح في تركيب الآيات ، فإن في لفظ النبذ قوة وشدة^٣ تناسب قوة وشدة الضرر الناتج عن نقض العهد ، مقابل ملمح المطاوعة التي حققتها المشاكلة في الفعلين (جنحوا ، فاجنح) . ويبرز لفظ السواء في قوله : " على سواء " ملمح الوضوح حيث مثلت الحال (بحال الماشي على طريق جادة لا التواء فيها)^٤ ، مقابلاً للملمح الخفاء في الخيانة لأنها - كما سبق أن ذكر - أمر خفي .

ويتأكد التخويف من نبذ العهد بذكر قدرة الله على الانتقام منهم في قوله : " ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إثمهم لا يعجزون " ، وبالأمر بإعداد القوة في قوله : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة " ، في حين يتأكد الترغيب في الجنوح للسلم بالتوكل على الله في قوله :

^١ - ابن جرير جـ ١٠ ص ٢٤ .

^٢ - الطاهر جـ ١٠ ص ٥٩ .

^٣ - انظر ابن عطية جـ ٨ ص ٩٦ .

^٤ - الطاهر جـ ١٠ ص ٥٢ .

"وتوكل على الله" فهو (أمر في ضمنه وعد) ^١ ، وذكر نصر الله له وكفايته لخداعهم له في قوله: "وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله" (وهذا وعد محض) ^٢ للمؤمنين وتهديد للكافرين وقد أشار د. محمد الخضري إلى أن جمع لفظي (السميع، والعليم) في هذه الآية فيه تهديد للكافرين و (طمأنة للمؤمنين بأن الله راد كيد أعدائهم إن هم أضمرُوا السوء في دعوتهم إلى السلم، يكشف أمرهم ويأخذهم بمكرهم) ^٣. ومما يلحظ في هذا الصدد أن في لفظ "النبد" احتقاراً - لا ينافي ملمح القوة السابق - واستهانة بهم كما استهانوا بالعهد، مقابل ما في الجنوح من إقبال واهتمام يناسب إقبالهم على السلم في نشاط وطلب حاسم حيث أن (التعبير باللام دون (إلى) لا يخلو عن إيماء إلى التهالك على ذلك ليتحقق صدق الميل) ^٤ ولعل هذا ما سوَّغ مجيء الفعل جنحوا دون طلبوا (لأنهم قد يظهرون الميل إلى السلم كيداً) ^٥.

هذا ومما يُنتبه إليه مجيء جزاء خوف الخيانة حرباً في حين جاء جزاء المخادعة في قوله "وإن يريدوا أن يخدعوك" كفاية الله لرسوله صلى الله عليه وسلم. وذلك (لأن هذه المخادعة محمولة على أمور خفية تدل على الغل والنفاق وذلك الخوف محمول على أمارة قوية تدل على كونهم قاصدين للشر وإثارة الفتنة) ^٦.

وإذا كان مقابل الخيانة في الآية السابقة السلم المقابل للازمها وهو الحرب لأن الآيات تتحدث عن القتال فإن مقابل الخيانة في قوله:

^١ - ابن عطية ج ٨ ص ١٠٥ .

^٢ - المصدر السابق .

^٣ - د. محمد الأمين الخضري ، من أسرار المغايرة ص ٤٤ .

^٤ - البقاعي ج ٨ ص ٣١٦ .

^٥ - الطاهر ج ١٠ ص ٥٩ .

^٦ - النيسابوري بهامش جامع البيان ج ١٠ ص ١٩ .

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن
يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ
وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ
خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

﴿٧١﴾

الأنفال ٧٠ - ٧١ مدنية .

هنا إضمار الخير ، لأن الآيات تتحدث عن شيء (يتعلق بحال سرائر بعض الأسرى)^١ .
ولعل السبب في اختلاف مقابلات الخيانة هو اتساع معناها ليشمل نقض العهود مع الله ومع
الناس وإضمار الغدر والمكر والخداع بإظهار غير ما يبطنون^٢ .

وقد جاء جزاء الخير الذي يعلمه الله من الأسرى من (خلوص إيمان وصحة نية)^٣
شاملاً للإسلام والطاعة والعزم على نصرته الرسول صلى الله عليه وسلم والتوبة عن محاربهته^٤
؛ إيتاء خير أفضل منه ، مقابل إمكان المؤمنين من هؤلاء الأسرى ليقعوا بهم ما شاءوا من
العقوبة إن هم خانوا عهدهم معهم سواء بالكفر أو بالمحاربة . ويتقابل تحقق الثواب في قوله
" يؤتكم خيراً " بعلمه تعالى بصدق نياتهم بما بينه قوله " في قلوبكم " ، مع التهديد بالعقاب
في حال الخيانة في قوله " فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم " . وفي هذا تتضح سعة رحمته
تعالى - على غرار ما سبق في قوله : " ولئن كفرتم إن عذابي لشديد " - فمع قوة التهديد
في التذكير بسبق الإمكان منهم في معركة بدر وما يحمله اللفظ من عدم انفكاك المتمكن منه
من العقاب خاصة مع حذف مفعوله في قوله : " أمكنك منهم " الذي يفيد شدة اتصال

^١ - الطاهر ج ١٠ ص ٨٠ .

^٢ - انظر ابن جرير ج ١٠ ص ٣٦ ، ابن عطية ج ٨ ص ١١٨ ، الرازي ج ١٥ ص ٢٠٦ ، البقاعي ج ٨ ص
٣٣٥ ، أبو السعود ج ٤ ص ٣٧ ، حاشية الشهاب ج ٤ ص ٢٩٤ المتن والهامش ، الطاهر ج ١٠ ص ٨١

^٣ - أبو السعود ج ٤ ص ٣٧ .

^٤ - انظر الرازي ج ١٥ ص ٢٠٥ .

الفعل بمتعلقه ^١ ؛ يظل المعنى إخبارياً بما يفيد إمكان الوقوع وليس تحقيقاً له . ولعل هذا المكان لفظ "يريدوا" المفيد لمعنى القصد والنية - دون الجزم بتحقيق وقوع الفعل - مما يناسبه التلويح بالعقاب . وتتضح المقابلة بهذا أكثر حيث إن إرادة الخير حققت لهم ما هو أفضل منه مع مغفرة الله ورضوانه وإرادة الخيانة لوّحت لهم فقط بالعقاب .

(والنكث كالنقض للحبل قال تعالى: "ولا تكونوا كالتّي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً" وغلب النكث في معنى النقض المعنوي كإبطال العهد) ^٢ فهو نقض للعهد كالخيانة ولكن اشتقاقه من نقض الحبل يجعل بينه وبين الخيانة - المشتقة من النقص - فرقاً قد يكون زيادة في السوء لأن الناكث للحبل يحيل قوته ضعفاً، في حين أن الخيانة إنقاص لتمام الأمر . وقد ورد نقض العهد بلفظ النكث في سياق بيعة الصحابة للرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام والطاعة في صلح الحديبية ، ولعل في إثارة هذا اللفظ ترغيباً عنه مع تقديم ذكره مقروناً بجزائه على ذكر الوفاء يقول تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۗ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

الفتح ١٠ مدنية .

فإن ضرر الناكث لبيعته عائدٌ عليه بالعقاب لا على غيره - بما أفاده الحصر بإثما- مقابل حصول أجر الموفى لعهد مع الله له . وقد أفاد حرف الاستعلاء (على) شدة وتمكن الضرر من الناكث ^٣ كما أفاد التعبير بالمضارع بقوله : " ينكث " (أن من فعل النكث فهو في كل

^١ - انظر الطاهر جـ ١٠ ص ٨٢ - ٨٣ .

^٢ - انظر الطاهر جـ ٢٦ ص ١٥٩ - ١٦٠ .

^٣ - انظر المصدر السابق ص ١٦٠ .

لحظة ناكثاً نكثاً جديداً) ^١ ، ومن ثم قد يُفهم تجدد حدوث الضرر ، وفي هذا ترهيب شديد من النكث يقابله الترغيب في الوفاء بتوكيد جزائه بالسجين وإسناده الله تعالى في قوله : " فسيؤتيه " ووصف أجره بالعظيم (والعظيم في حق الله تعالى إشارة إلى كماله في صفاته) ^٢ وتنكيره وتنوينه ، مما يفيد أنه أجرٌ لا يسع العقول شرح وصفه ^٣ .

وقد جاء المقصود من الخيانة في باب المعاملات - غير ما سبق من خيانة العهد في الحرب وفي الأيمان - الخيانة في الأموال يقول تعالى :

﴿ وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنٌ إِن تَأْمَنَهُ بِيَقِينٍ يُؤَدِّهِ
إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنٌ إِن تَأْمَنَهُ بِيَدِينٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ
قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّةِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى
اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ

اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ
ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ

وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

آل عمران ٧٥ - ٧٧ مدنية .

فهذه الآيات تشير إلى انقسام أهل الكتاب قسمين (بعضهم أهل الأمانة وبعضهم أهل

^١ - البقاعي ج ١٨ ص ٢٩٧ .

^٢ - الرازي ج ٢٨ ص ٨٧ .

^٣ - انظر البقاعي ج ١٨ ص ٢٩٨ .

الخيانة)^١ والآية في ذم الفريق الثاني^٢ وإنما ذكر الفريق الآخر مقدماً قضاءً لحق إنصافه^٣ . وقد جعلت الآيات أداء الأمانة في جانب الكثير ، والخيانة في جانب القليل تحقيقاً للمبالغة في وصف كل فريق ، لأن الأمانة المؤداة في الكثير - مع ميل النفوس إلى حب المال وحرصها عليه - أمانة عظيمة الشأن والخيانة في القليل من المال دليل على خبث نفس الخائن وطمعها في الحقير من المتاع .

وبعد إبراز هذا التباين البعيد - بما ذكر من شدة أمانة أحدهم وشدة خيانة الآخر - بين الطرفين (استأنف بشارة الأول ونذارة الثاني على وجه عام لهم ولغيرهم لتحريم الخيانة في كل شرع في حق كل أحد منهما)^٤ فلأمين منهم الموفي وعده مع الله ومع الناس جزاء لا يبلغه الوصف بما عبرت عنه جملة " فإن الله يحب المتقين " القائمة مقام معلولها ، وهو إيتاء الثواب من الله^٥ وما ظنك بجزاء من الله ذي الجلال والإكرام مقرونًا برضا الله عن عبده ! فهو ثواب يحمل مع النعيم الجسدي كل معاني التكريم والإعزاز . ويتضح ما في هذا الثواب من التعمم والتكريم بالنظر إلى مقابله وهو قوله " أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم " . فإن هذا العقاب المتمثل في عدم حصولهم على الثواب في قوله : " لا خلاق لهم " ، وعدم تكليم الله تعالى لهم ، ولا نظره إليهم في قوله : " ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم " مقتاً لهم^٦ ، واستهانة بهم^٧ ، وغضباً عليهم^٨ ، وعدم تطهيره لهم من الذنوب في قوله : " ولا يزكيهم " مع حصول الأليم من العذاب لهم ، يقابل الثواب المتسبب عن حب الله لفريق الأمانة في قوله : " إن الله يحب المتقين " فلهم من

^١ - الرازي ج ٨ ص ١٠٠ ، وانظر ابن جرير ج ٣ ص ٢٢٥ ، ابن عطية ج ٣ ص ١٣٠ ، البقاعي ج ٤ ص ٤٦٠ ، الطاهر بن عاشور ج ٣ ص ٢٨٥ .

^٢ - انظر ابن عطية ج ٣ ص ١٣٠ ، و الطاهر بن عاشور ج ٣ ص ٢٨٥ .

^٣ - انظر الطاهر ج ٣ ص ٢٨٥ .

^٤ - البقاعي ج ٤ ص ٤٦٢ .

^٥ - انظر الرازي ج ٨ ص ١٨ ، في معنى حب الله لعباده في تفسير آية رقم (٣١) آل عمران .

^٦ - انظر ابن جرير ج ٣ ص ٢٢٩ .

^٧ - انظر البقاعي ج ٤ ص ٤٦٣ .

^٨ - انظر ابن عطية ج ٣ ص ١٣٥ ، الرازي ج ٨ ص ١٠٥ ، البقاعي ج ٤ ص ٤٦٣ ، الطاهر بن عاشور ج ٣ ص ٢٩٠ .

النعيم أوفره ومن التكريم والإعزاز أعلاه ومن أنواع الملاذ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ولنلاحظ أن جزاء القوم جاء موافقاً لجنس أعمالهم فهؤلاء زهدوا فيما عند الله باستبدالهم إياه بمتاع زائل حقير في قوله : " إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً " فكان جزاؤهم حرمانهم تماماً مما عند الله متمثلاً في قوله : " لا خلاق لهم " كما أنهم لم يفوا بعهود الله ولم يولوها ما تستحق من الحفظ لها والعمل بها وفي هذا استهانة بها فجاء عدم تكليم الله لهم ونظره إليهم في قوله : " لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم " استهانة بهم . ولما منعوا أنفسهم من التطهير من الذنوب منعهم الله التوفيق لذلك و من الثواب المترتب عليه . وفي قوله

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ

الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ

إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ

سَلَقُواكُمْ بِالْسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ

أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

الأحزاب ١٨ - ١٩ مدنية .

نجد تقابلاً بين نزعتين لنفوس المنافقين تمثل جزاءها للمؤمنين في حالي الخوف والأمن فهي حال الخوف تلجأ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليحميها ، وحال الأمن تؤذيه وأصحابه بلسانها الحاد الذرب . وفي هذه المفارقة العجيبة يتضح سوء دواخل المنافقين ، لأن المعتاد أن المعتصم بشخص ليحميه يجازيه بالإحسان إليه فإذا ما قابل إحسان الحامي بأذى - سواء كان أذى العيب والتنقص^١ أو المطالبة بالغنيمة^٢ - دل ذلك على خبث هذه النفوس

^١ - انظر ابن عطية ج ١٣ ص ٥٩ ، القرطبي ج ١٤ ص ١٥٤ ، الطاهر ج ٢١ ص ٢٩٨ .

^٢ - انظر ابن جرير ج ٢١ ص ٩٠ ، الزمخشري ج ٣ ص ٢٥٥ ، ابن عطية ج ١٣ ص ٥٩ ، الرازي ج ٢٥ ص ٢٠٢ ، القرطبي ج ١٤ ص ١٥٤ ، أبو السعود ج ٧ ص ٩٦ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ١٦٥ المتن والهامش .

وانحراف سلوكها ومخالفته للفترة السوية .

وتأتي عبارة " أشحة عليكم " قبل المقابلة وعبارة " أشحة على الخير " بعدها ، لتبرز حدة هذه المفارقة العجيبة . فهم في أول أمرهم - حال الرخاء - بخلاء بالمساعدة للمؤمنين ثم يلوذون بهم وقت الشدة طلباً للعون الذي منعوهم إياه ، فإذا انقضت تلك الشدة آذوهم بألسنتهم وعادوا إلى ما كانوا عليه من الشح وإن كان أعتى وأشد هذه المرة لأنه شح بالخير على الكل وليس على المؤمنين فقط ، فهم جناء بخلاء . وارتباط هذه الأمور ببعضها من حيث إن (البخل شبيه الجبن فلما ذكر البخل بين سببه وهو الجبن والذي يدل عليه هو أن الجبان يبخل بماله ولا ينفقه في سبيل الله ، لأنه لا يتوقع الظفر فلا يرجو الغنيمة فيقول هذا إنفاق لا بدل له فيتوقف فيه ، وأما الشجاع فيتقن الظفر والاعتنام فيهن عليه إخراج المال في القتال طمعاً فيما هو أضعاف ذلك وأما بالنفس والبدن فكذلك)^١ .

وتتعاقد عناصر كل تركيب ليتباين أشد التباين مع مقابله . فقد ذكر المفسرون أن لفظ " أشحة " على غير القياس الصرفي وقياسها (أشحاء)^٢ . ولو قال قائل بأن الحكمة البلاغية من إثارة لفظ أشحة على أشحاء وهو أقل منه في الحروف بيان شدة بخلهم لازدادت صورة هذا البخل وضوحاً وكان هناك توافقاً وتلاؤماً بين المعنى واللفظ .

كما تنبه الطاهر إلى أن تعديّة الشح في قوله : " أشحة عليكم " إلى الشخص المنسوع (لما في الشح من معنى الاعتداء)^٣ ، وهذا ملمح جيد فيه زيادة إبراز سوءهم . وقد نستطيع - بناءً عليه - أن نرى في تعديّة الشح في قوله : " أشحة على الخير " إلى المبخول به بحرف الجر على معنى التمكّن والتسلط .

ونعود لأول الآية لنرى أن شدة البخل ، والاعتداء المتمثل في استعلاء شح المنافقين على المؤمنين أعقبه خور وضعف تمثل في لوأذهم بالرسول صلى الله عليه وسلم حالة الخوف الشديد ، ويئنه تشبيه دوران أعينهم بدوران عيني المغشي عليه من الموت . فقوله : (" كالذي يغشى عليه من الموت " أضفى على هذا الدوران الدائب اللاهث وصف

^١ - الرازي ج ٢٥ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

^٢ - انظر حاشية الشهاب ج ٧ ص ١٦٥ ، الأكرسي ج ٢١ ص ١٦٤ ، الطاهر ج ٢١ ص ٢٩٥ .

^٣ - الطاهر ج ٢١ ص ٢٩٦ .

الضعف والتخاذل والفتور فليس هذا الدوران والدأب من العيون أمانة الحيوية والحياة وإنما هو مظهر الموت والاستسلام) ^١ وحين يستحيل هذا الضعف والخور في حال زوال الخوف إلى جرأة ووقاحة بإيذائهم المسلمين بألسنتهم ، تبرز حدة المقابلة بالمفارقة بين موقفهم - قبل وبعد الخوف - أولاً ، كما تبرز حدة المفارقة بين الجزاء المفترض والجزاء الواقع منهم ثانياً . ويحمل قوله " سلقوكم بألسنة حداد " كل ما يمكن تصوره من الأذى الذي يشبه حدة الطعن والتمزيق والتقطيع سواء كانت الاستعارة في فعل سلقوكم ^٢ أو في لفظ ألسنة ^٣ .

وقد رأى سيد قطب رحمه الله أن هذه الصورة (مضحكة تثير السخرية من هذا الصنف الجبان الذي تنطق أوصاله وجوارحه في لحظة الخوف بالجن المرتعش الخوار ، وأشد إثارة للسخرية صورهم بعد أن يذهب الخوف ويجيء الأمن " فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد" فخرجوا من الجحور وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش وانتفخت أوداجهم بالعظمة ونفشوا بعد الانزواء وأدعوا في غير حياء ما شاء لهم الادعاء من البلاء في القتال والفضل في الأعمال والشجاعة والاستبسال) ^٤ ومع هذا الوصف الكاشف المقابل بين موقفهم في الحالين مما لم يفصله على هذا المنوال غيره مما اطلعت عليه من كتب التفسير ، فعمل الأوضح في الصورة عنصر التعجب لا السخرية ، لأن وجود هذا الصنف المستحل لنفسه مالا يستحق من اللواذ بالرسول صلى الله عليه وسلم المفتخر بما لا يفعل ، يثير العجب منه بل النقمة عليه فهو صنف صفيق لا إيمان يدفعه إلى خير ولا حياء يردعه عن شر .

ولعل سيد قطب رحمه الله لمح الاستهزاء في لواذ الجبان بعدوه حال الشدة فإذا ما اكتمل طرفي المقابلة ورأيناهم حال الرخاء يتناولون على المحسن إليهم ويؤذونه استحال الاستهزاء عجباً منهم وحنقاً عليهم لصفاتهم وجرأتهم على من استكانوا إليه قبل قليل .

^١ - د . محمد أبو موسى ، من أسرار التعبير القرآني ص ١٣٩ .

^٢ - انظر الزمخشري ج ٥ ص ٢٥٥ ، أبو السعود ج ٧ ص ٩٦ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ١٦٥ المتن والهامش .

^٣ - انظر ابن عطية ج ١٣ ص ٥٩ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ١٦٥ ، الألويسي ج ٢١ ص ١٦٥ .

^٤ - سيد قطب ، في ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٨٤٠ .

وفي الآية وجه آخر ذهب إليه الزمخشري وهو أن يكون معنى الشح في قوله : " أشحة عليكم " أنهم (أضناء بكم يترففون عليكم كما يفعل الرجل بالذاب عنه المناضل دونه عند الخوف)^١ وحين يأتي الخوف ينظرون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم (حذراً وخوراً ولوإذا)^٢ به . وإذا ذهب الخوف (نقلوا ذلك الشح وتلك الضنة والرفرفة عليكم إلى الخير وهو المال والغنيمة ونسوا تلك الحالة الأولى واجترعوا عليكم وضربوكم بألسنتهم)^٣ فهم يضمنون بالمؤمنين - كما يفعل المرء بمن يجب - وهم كارهون لهم رغبة في الحصول على حمايتهم من الأعداء وليكونوا جبهة تدفع عنهم الأسواء . وهذا نوع من المفارقة أعجب من سابقه فهم يحرصون على بقاء ما يكرهون رعاية لمصلحتهم و (ليس ذلك إلا لونا من الصراع الذي تضطرم به هذه القلوب المريضة وضرباً من الأنانية والخوف على الذات يدفعها إلى حب ما تكره والحرص على ما ترجو ذهابه)^٤ ، فإذا ذهب خوفها أعرضت عن هذا الأمر واتجهت إلى غيره وهو الغنيمة ، فداء الشح يرافقها منذ البداية حتى النهاية ولكنه يفترق في توجهه بين الطرفين . ومن هذه المفارقة يبرز جانب المقابلة في الجزاء فهي تحرص على الرسول صلى الله عليه وسلم ملجأ ومأوى حال الشدة ، وتزهده في حال الرخاء منصرفاً بجرصها إلى أمر آخر وهو الغنيمة ، فهم يترددون تردداً سريعاً خاطفاً في مواقفهم تجاه المؤمنين يكرهونهم إخوة ، ويجبون بقاءهم ، ولا يكادون يستمرون في هذه الرغبة حتى تنقلب إلى عداوة وبغض يترجمها إطلاقهم ألسنتهم بالسوء على المسلمين . ووجه آخر قال به القرطبي وهو أن الخوف من الرسول صلى الله عليه وسلم^٥ ففيه مقابلة بين ضعفهم وتخاذلهم أمام الرسول حال مجيء الخوف وجرأتهم وتسلطهم عليه حال ذهابه .

وقد أشار الدكتور أبو موسى إلى أهمية لفظي " المجيء " و " الذهاب " في الصورة ، فقال عن الأول : (وقوله : " فإذا جاء الخوف " فيه تصوير الخوف في صورة هول ورعب مجسد تكون منه حركة ومجيء وهكذا يكون وقعه في النفوس المنافقة الفزعة الخاوية التي

^١ - الزمخشري جـ ٣ ص ٢٥٥ .

^٢ - المصدر السابق .

^٣ - المصدر السابق ، وجاءت الرفرفة بالقاف والصواب ما أثبتنا .

^٤ - د . أبو موسى ، أسرار التعبير القرآني ، ص ١٣٥ .

^٥ - انظر القرطبي جـ ١٤ ص ١٥٣ .

تحسب كل صيحة عليها) ^١ وقال : ملتصقاً الربط بين الأول والثاني (وله موقع آخر من الحسن هو مقابلته لقوله : " فإذا ذهب الخوف " وهكذا يريك المنافقين بين حالين متباينين في مدى هذين الطرفين مجيء الخوف وذهابه) ^٢ ، فهاتان الاستعارتان توضحان وتجسدان حال الشدة وحال الرخاء توضيحاً وتجسيداً ينعكس على حال الطرفين ، فنرى المفارقة بين الحالين أشد والمقابلة بين الجزأين - الواجب والواقع - أوضح .

وقد ذهب ابن عطية ^٣ إلى أن النظر في قوله " ينظرون إليك " مصانعة ، وذهب هو وآخرون ^٤ إلى أن السلق في قوله : " سلقوكم " مصانعة . وظاهر الآيات في وصف حقيقة دواخلهم وذم سلوكهم ولو أريد وصف الظاهر - المحتمل لكونه مصانعة - فقط لُنصّ عليه ، أو ذكرت قرينة دالة . وعلى فرض صحة الاحتمال فستكون الآيات غير داخلة في نطاق المقابلة في الجزاء . وكذلك ما ذهب إليه الطاهر بن عاشور من أن النظر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تفرساً (في ماذا يصنع ولسان حالهم يقول : ألسنا قد قلنا لكم إنكم لا قبل لكم بقتال الأحزاب فارجعوا) ^٥ و سلقهم لوماً له (على التعرض لخطر العدو وعدم الانصياع إلى إشارتهم على المسلمين بمسألة المشركين) ^٦ فلا تقابل بين اللوم المتضمن في نظر المتفرس وفي الأذى باللسان وإنما هو إكمال لصورة نفاقهم وحقدهم على المؤمنين .

و في سورة المجادلة في قوله تعالى :

^١ - د . أبو موسى ، من أسرار التعبير القرآني ، ص ١٣٧ .

^٢ - المرجع السابق ص ١٣٨ .

^٣ - انظر ابن عطية جـ ١٣ ص ٥٩ .

^٤ - انظر ابن جرير جـ ٢١ ص ٩٠ ، ابن عطية جـ ١٣ ص ٥٩ ، الألويسي جـ ٢١ ص ١٦٥ .

^٥ - الطاهر جـ ٢١ ص ٢٩٧ .

^٦ - المصدر السابق جـ ٢١ ص ٢٩٨ .

* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ
 وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا
 إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ
 اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ نُّغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ
 شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ
 جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ
 ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ
 الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي
 الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا
 تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ
 أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

المجادلة ١٤ - ٢٢ مدنية .

نجد المقابلة بين من يوالون الذين غضب الله عليهم في كل صور الموالاتة والذين
 يعادونهم . و في ذكر التولي في قوله : " الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم " مقابل نفسي

الموادّة في قوله : " لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله " إشارة إلى أن الأولين جرّوا أنفسهم إلى مرحلة الولاية لمن غضب الله عليه ، في حين أن الآخرين وهم المؤمنون قد حموا أنفسهم حتى من مجرد الموادّة لهم فضلاً عن موالاتهم وفي هذا تنويه بشأنهم .

ويتفرع عن ذكر الفريق الأول مقابلة بين ذلهم وعز المؤمنين فيقول تعالى : " إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز " . وقد جاء طرفا المقابلة حاملين لعنصر القوة والتوكيد فإن قوله : " في الأذلين " يفيد - كما ذهب الشهاب - أنهم (معدودون منهم وهذا أبلغ)^١ ووضح ذلك الطاهر بقوله : (ومفاد حرف الظرفية أنهم كائنون في زمرة القوم الموصوفين بأنهم أذلون ، أي شديدو المذلة ليتصورهم السامع في كل جماعة يرى أنهم أذلون فيكون هذا النظم أبلغ من أن يقال : أولئك هم الأذلون)^٢ ، كما جاء قوله : " لأغلبن " مؤكداً (لما لهم من ظن الغلب بالكثرة والقوة)^٣ ففي الطرف الأول مبالغة في الذل للمعادين لله ورسوله ، يقابلها مبالغة في عزة وغلبة الله تعالى ورسوله .

ويتأكد ذل الكافرين بعز المؤمنين المذكور في قوله : " لا تجد قوماً ... " . ومع أن المفسرين قد رتبوا ارتباط الجمل بعضها ببعض ، فلعل هذا لا ينافي ارتباطها من جانب آخر هو جانب المقابلة فإن جزاء تولى من غضب الله عليه جاء في أربعة نقاط :

أولاً : قوله : " أعد الله لهم عذاباً شديداً " .

ثانياً : قوله : " فلهم عذاب مهين " .

ثالثاً : قوله : " لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً " .

رابعاً قوله : " أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " .

ونتج عن هذا قوله تعالى : " أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون " ويقابل هذا الجزاء جزاء الذين يمتنعون عن موادة أعداء الله وهو في أربعة نقاط :

أولاً : قوله : " أولئك كتب في قلوبهم الإيمان " .

١ - حاشية الشهاب جـ ٨ ص ١٧٤ .

٢ - الطاهر جـ ٢٨ ص ٥٦ .

٣ - البقاعي جـ ١٩ ص ٣٩٥ .

ثانياً : قوله : " وأيدهم بروح منه " .

ثالثاً : قوله : " ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها " .

رابعاً : قوله : " رضي الله عنهم ورضوا عنه " .

ونتج عن هذا قوله : " أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون "

فإن كون المنافقين من أصحاب النار يقابله خلود المؤمنين صادقي الإيمان في الجنة .
ولعل إعداد العذاب الشديد في قوله : " أعد الله لهم عذاباً شديداً " الذي نتج عن عدم كتابة الإيمان في قلوبهم ، يقابل إثبات الإيمان في قلوب المؤمنين في قوله : " أولئك كتب في قلوبهم الإيمان " . ومن كتب الله تعالى في قلبه الإيمان فلا يُمحي أبداً ومن ثم أكرم بالثواب . كما أن الإهانة في قوله : " فلهم عذاب مهين " للمنافقين ، تقابل التكريم في رضا الله عن المؤمنين في قوله : " رضي الله عنهم " ، ورضاهم عنه في قوله " ورضوا عنه " يقابله عدم رضا المنافقين عن عذابهم المهين . وقد يقع عدم غناء الأموال والأولاد عن المنافقين شيئاً الذي يعني عدم تأييدهم ومن ثم وقوعهم في العذاب ، مقابلاً لتأييد الله تعالى للمؤمنين بروح منه . وقد قيل: في معنى الروح إنه البرهان والنور والهدى^١ وقيل : إنه القرآن^٢ ، وقيل : إنه النصر^٣ .

ويأتي قوله : " أولئك حزب الله ... " في مقابل قوله : " أولئك حزب الشيطان ... " ^٤ من حيث معية الله تعالى للأولين بتوفيقه وهدايته وكرامته ، واقتران خطوات الشيطان بخطوات الفريق الآخر يستدرجهم إلى ما يغضب الله ويعينهم عليه ويعددهم عن مرضي الله تعالى .

وقد تنبه بعض المفسرين إلى عناصر التوكيد وأسبابه في هاتين الجملتين ، ومنهم الطاهر حيث قال تعليقاً على الجملة الأولى في سياق الآيات : (فكان مقتضى الظاهر أن يقال فإن حزب الشيطان هم الخاسرون ولذلك عدل عن ذلك إلى حرف الاستفتاح تنبيهاً على أهمية مضمونها وأنه مما يحق العناية باستحضاره في الأذهان مبالغة في التحذير من الاندماج فيهم

^١ - انظر ابن جرير جـ ٢٨ ص ١٨ ، حاشية الشهاب جـ ٨ ص ١٧٤ المتن والهامش .

^٢ - انظر ابن عطية جـ ١٥ ص ٤٥٨ ، حاشية الشهاب جـ ٨ ص ١٧٤ المتن والهامش .

^٣ - انظر الرازي جـ ٢٩ ص ٢٧٧ ، حاشية الشهاب جـ ٨ ص ١٧٤ المتن والهامش .

^٤ - انظر الرازي جـ ٢٩ ص ٢٧٧ .

والتلبس بمثل أحوالهم المذكورة آنفاً . وزيد هذا التحذير اهتماماً بتأكيد الخير بحرف إن وبصيغة القصر ... وضمير الفصل أفاد القصر وهو قصر ادعائي للمبالغة في مقدار خسراهم وأنه لا خسران أشد منه)^١ . وقال تعليقاً على الثانية : (وقوله : " أولئك حزب الله " إلى آخره كالقول في " أولئك حزب الشيطان " . وحرف التنبية يحصل منه تنبيه المسلمين إلى فضلهم وتنبية من يسمع ذلك من المنافقين إلى ما حبا الله به المسلمين من خير الدنيا والآخرة)^٢ .

هذا وقد لحظت ظاهرة ما في آيات المقابلة في جزاء نوازع النفس لم أجد أحداً من المفسرين قد توقف عندها ووضع عناصرها ، وهي أن الجزاء جاء فيها مجملاً غير مفصل ، فإذا استطعنا القول بأن هذا الإجمال مرتبط بكون نوازع النفوس خفية داخلها لا يعلمها إلا الله مما يجعل الإشارة إلى الثواب والعقاب إجمالاً متلائماً مع هذا الخفاء فسيكون من الممكن أن نجد ما يؤيد هذا في إشارات بعض المفسرين إلى أخذ كل إنسان من جزائه بقدر ما في نفسه من الخير أو الشر ، فقد أشار ابن عطية في آية آل عمران : " بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين إن الذين يشتركون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم " آل عمران ٧٦ - ٧٧ مدنية ، إلى أن (كل أحد يأخذ من وعيد الآية على قدر جريمته)^٣ فإجمال الثواب في نحو قوله : " فإنما يشكر لنفسه " لقمان ١٢ . وقوله : " فإن يتوبوا يك خيراً لهم " التوبة ٧٤ . وإجمال العقاب في نحو قوله : " أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً " النساء ١٨ ، وقوله : " أعد الله لهم عذاباً شديداً " المجادلة ١٥ يحمل في طياته كثيراً من تفاصيل كلا النوعين الثواب والعقاب ويتحقق لكل محسن أو مسيء منهم بقدر ما أتى من النية والفعل ، والله تعالى أعلم .

^١ - الطاهر ج ٢٨ ص ٥٥ ، وانظر البقاعي ج ١٩ ص ٣٩٤ ، أبو السعود ج ٨ ص ٢٢٣ .

^٢ - الطاهر بن عاشور ج ٢٨ ص ٦١ ، وانظر البقاعي ج ١٩ ص ٤٠٠ ، أبو السعود ج ٨ ص ٢٢٤ .

^٣ - ابن عطية ج ٣ ص ١٣٤ .

الباب الثاني

المقابلة في وصف جزاء الإيمان والكفر مقترنين بالعمل

حين تأملت الآيات الكريمة التي تتحدث عن جزاء الإيمان مع العمل وجدتها في موضوعنا تنقسم ثلاثة أقسام . قسم يذكر الإيمان مع العمل الصالح وقسم يذكر الإيمان مع أنواع العمل الصالح كالصلاة - والزكاة ونحوها ، وقسم يذكر ما يدل على الإيمان والعمل مثل الإيمان مع التقوى ، وإيتاء الكتب يوم القيامة ، والمجيء بالحسنة ، والموازين ، والشقاوة والسعادة وما شابه ذلك .

ووجدت الجزاء في كل قسم على ضربين ، ضرب يذكر فيه نوع الجزاء وهو الجنة وأنواع نعيمها ، وضرب يذكر الجزاء فيه بألفاظ مجملة نحو (أجر ، رزق ، مغفرة) أو يشار فيه لنوع الجزاء بإجمال نحو قوله تعالى : " أن لهم أجراً حسناً " الكهف ٢ ، وقوله " لهم أجرٌ غير ممنون " الانشقاق ٢٥ وما شابه ذلك . وتأتي بعض الجزاءات الخاصة نحو قوله : " فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات " الفرقان ٧٠ ، وقوله " ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا " النور ٥٥ ، وما شابه ذلك فقسمت الباب إلى ثلاثة فصول على النحو التالي :

الفصل الأول : المقابلة في وصف ما ذكر فيه الإيمان مع العمل الصالح مقابلاً لوصف جزاء الكفر مع سيئ الأعمال .

المبحث الأول : الجزاء المفصل : نحو ذكر الجنة وما فيها .
المبحث الثاني : الجزاء المجمل .

الفصل الثاني : المقابلة في وصف جزاء ما ذكر فيه الإيمان مع نوع العمل مقابلاً لوصف جزاء الكفر مع سيئ الأعمال .

المبحث الأول : الجزاء المفصل .
المبحث الثاني : الجزاء المجمل .

الفصل الثالث : المقابلة في وصف جزاء ما دل على جمع الإيمان مع العمل مقابلاً لوصف جزاء ما دل على الكفر مع سيئ الأعمال .

المبحث الأول : الجزاء المفصل .
المبحث الثاني : الجزاء المجمل .

الفصل الأول

وصف جزاء ما قرن فيه الإيمان مع العمل

الصالح مقابلاً بجزاء الكفر مع سيئ

الأعمال

المبحث الاول : الجزء المفصل

لعل مما يلحظ في جانب الجزء المفصل أن الجنات توصف غالباً بكونها تجري من تحتها الأنهار. وقد سبق أن ذكرت قول الإسكافي عند الحديث عن آية آل عمران^١ في الحكمة من وجود حرف الجر (من) في قوله : " من تحتها الأنهار " أن الجنات التي مبادئ الأنهار من تحتها تكون أشرف ، ثم ذكرت في آية المائدة والحديد أن أغلب المواطن التي ذكرت تجري الأنهار من تحت جناحتها ذكر فيها الإيمان مع العمل^٢ مما يبين أن جنات العاملين أعلى من جنات غيرهم . وتأتي آيات هذا الباب تأييداً لهذا القول فقد جاء ذكر الجنات التي تجري من تحتها الأنهار جزء للإيمان مع العمل مقابلاً لجزاء الكفر والمعاصي في سبعة وعشرين موضعاً^٣ ، منها أربعة عشر موضعاً قرن فيها إلى ذكر الجنة ذكر أنواع نعيمها الأخرى مثل اللباس والرزق والأزواج وسترد قريباً بإذن الله . ومنها ثلاثة عشر موضعاً اقتصر فيها على ذكر الجنات التي تجري من تحتها الأنهار ومنها في هذا الفصل - الإيمان مع العمل الصالح - سبعة مواضع وهي - حسب ترتيب النزول - كالآتي :

قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ
وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾

سورة البروج ١٠ - ١١ مكية .

^١ - انظر الفصل الأول من الباب الأول عند دراسة آل عمران ١٩٦

^٢ - انظر الفصل الأول من الباب الأول عند دراسة آية المائدة .

^٣ - البقرة ٢٥ / آل عمران آية ١٥ ، ١٣٦ ، ١٩٥ / النساء ١٣ ، ٥٧ ، ١٢٢ / المائدة ١٢ / الأعراف ٩٣ / التوبة ٧٢ ، ٨٩ / يونس ٩ / إبراهيم ٢٣ / النحل ٣١ / الكهف ٣١ / طه ٧٦ / الحج ١٤ ، ٢٣ / العنكبوت ٥٨ / الزمر ٢٠ / محمد ١٢ / الفتح ١٧ / الصف ١٢ / التغابن ٩ / الطلاق ١١ / البروج ١١ / البينة ٨ .

فالمؤمنون عاملو الصالحات يتنعمون ببرد و ظلال و ثمار الجنات التي تجري من تحتها
 الأنهار ، و الكافرون الذين أحرقوا عباد الله المؤمنين في الأخدود يتعذبون بنار الحريق جزاءً
 وفاقاً لعملهم فهناك غاية البرد و النعيم مقابل شدة الحرارة هنا والعذاب الأليم .
 وقوله تعالى :

إِنَّهُ وَمَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ
 ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ
 الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
 وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

سورة طه ٧٤ - ٧٦ مكية .

فمن يأت ربه مجرماً قد قطع ما كان بينه و بين ربه من عهود و صلوات ^١ ، له
 جهنم يتقلب في صنوف عذابها لا يقضى عليه فيستريح و لا يجيا في راحة و من يأت و قد
 وفى بعهوده فأمن به و أتى بفروض طاعته فإن له جنات عدن يتنعم بما فيها خالداً لا يحول
 و لا يزول فالجرح خالد في النار و المؤمن خالد في الجنة .
 وقوله تعالى :

يَعِدُّهُمْ وَيَمْتَتِيهِمْ^ط وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾
 أُولَٰئِكَ مَا أَوْنَهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا
 ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ
 اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

سورة النساء ١٢٠ - ١٢٢ مدنية .

^١ - انظر البقاعى جـ ١٢ ص ٣١٤ .

فقد قوبل وعد الشيطان الغرور الكاذب بوعد الله الصادق ، و قوبل تحقق دخول الكافرين النار مأوى و ملجأ بما يفيد من شدة التعذيب ، بما يفيد وعد الله للمؤمنين عاملي الصالحات بدخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار من غاية النعيم .
وقوله تعالى :

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ
الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾

محمد ١٢ مدنية

و هنا مقابلة بين حُسن حال المؤمنين و مآلهم و سوء حال الكافرين و مآلهم فالؤمنون يحيون في طاعة الله و هذا يحقق لهم الكرامة و السعادة في الدنيا و يدخلهم بهم في الآخرة جنته و الكافرون يحيون حياة الأنعام لا عزة لهم و لا كرامة و إنما هو متاع بهيمي ثم تكون النار مثواهم يوم القيامة .
وقوله تعالى :

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا
حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا
وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا
اللَّهَ يَتَّوَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا
﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾

الطلاق ٨ - ١١ مدنية

و ستأتي دراستها في آخر البحث .
وقوله تعالى :

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۗ
وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ
هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا
لَا يَنْفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضُرُّهُ
أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾

الحج ١١ - ١٤ مدنية .

وقوله تعالى :

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۗ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ
وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ۗ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۗ وَيَبْسُ
الْمَصِيرُ ﴿٢﴾

التغابن ٩ - ١٠ مدنية .

و ستأتي دراستها لاحقاً .

وباقى المواضع ضمن الفصلين الآخرين .

وقد درج المفسرون على تفسير من تحتها بقولهم (من تحت أشجارها)^١ ، أو من تحت قصورها وغرفها^٢ ، ولكن الإمام ابن كثير قد ذكر أن معنى من تحتها (أي تتخرق في أكنافها وأرجائها وجوانبها وتحت أشجارها وقصورها)^٣ ، كما أن الإمام البقاعي ذكر في معاني قوله (من تحتها) عدة أقوال فتارة يجعل حرف الجر (من) دالاً على التبويض ، وتارة على قرب منال المياه وتارة على ري أرضها وأحياناً يجمع بين سببين من هذه الأسباب . فمن المواضع التي ذكر فيها معنى التبويض آية التغابن حيث قال (ولما كان عموم الماء لجميع الأرض غير ممدوح بين أنه في خلالها على أحسن الأحوال فقال من تحتها)^٤ ، ومن المواضع التي ذكر فيها القرب آية البروج حيث قال : (وقرب منالها بالجار فقال من تحتها أي تحت غرفها وأسرتها وجميع أماكنها)^٥ ، ومن المواطن التي جعله فيها دالاً على الري قوله في آية النساء : (أي أن أرضها في غاية الري كل موضع منها صالح لأن تجري منه نهر)^٦ .

ومما جمع فيه بين سببين قوله في آية النساء جامعاً بين القرب والتبويض (وقرب وبعض بقوله من تحتها الأنهار أي لري أرضها فحيث ما أجرى منها نهر جرى)^٧ .
ومما ذكر فيه القرب والري آية الطلاق حيث قال : (وبين دوام ريبها بقوله تجري وبين انكشاف كثير من أرضها بقوله من تحتها أي تحت غرفها الأنهار أو هو كناية عن أن أرضها في غاية الري بحيث أن ساكنها يجري في أي موضع أراد نهر)^٨ ، وأشار إلى

^١ - انظر على سبيل المثال ابن جرير ج ١٦ ص ١٤٣ ، ج ١٧ ص ٩٥ - ج ٢٦ ص ٣٠ ، ج ٢٨ ص ٩٨ .

^٢ - انظر على سبيل المثال ابن عطية ج ١٠ ص ٧٩ ، ٨٠ .

^٣ - ابن كثير ج ٤ ص ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، وانظر ج ٢ ص ٣١٩ .

^٤ - البقاعي ج ٢٠ ص ١٢١ ، وانظر البقاعي آية التحريم ٨ ج ٢٠ ص ٢٠١ وآية المائدة ٨٥ ج ٦ ص ٢٧١ .

^٥ - البقاعي ج ٢١ ص ٣٦٠ ، وانظر آية الحديد ١٢ ج ١٩ ص ٢٧٢ .

^٦ - البقاعي ج ٥ ص ٣٠٧ ، وانظر آية آل عمران ١٩٨ ج ٥ ص ١٦٥ ، آية الحج ١٤ ج ١٣ ص ٢١ ، التوبة آية ٧٢ ج ٨ ص ٥٤٥ .

^٧ - البقاعي ج ٥ ص ٤٠٩ وانظر آية البينة ٨ ج ٢٢ ص ١٩٧ وآية الفتح ٥ ص ١٨ ص ٢٨٨ .

^٨ - البقاعي ج ٢٠ ص ١٧٠ ، وانظر آية محمد ١٢ ج ١٨ ص ٢١٤ ، آية الصف ١٢ ج ٢٠ ص ٣٧ ، آية المائدة ١٢ ج ٦ ص

التبعيض والري في آية إبراهيم حين قال: (وبين أن الماء غير عام لجميع أرضها بإدخال
الجار فقال من تحتها الأنهار فهي لا تزال ريا لا يسقط ورقها ولا ثمرها فداخلها لا يبغي بها
بدلاً)^١.

وأشار الإمام البقاعي في الموطن الذي نزع منه حرف الجر في آية التوبة إلى ري الجنات
وكثرة مائها فقال (ونبه على عموم ريبها وكثرة مائها بنزع الجار على قراءة الجماعة
فقال تحتها الأنهار أي هي كثيرة المياه فكل موضع أردته نبع منه ماء فجرى منه نهر)^٢

للتوفيق بين أقوال البقاعي وقول الإسكافي السابق الذكر في سبب وجود حرف
الجر (من) قد يمكن القول بأنها جنات تكون مبادئ الأنهار منها ومن ميزاتها ري أرضها
بحيث يمكن جري الأنهار من أي مكان فيها و من ميزاتها قرب هذه الأنهار من مساكن
وقصور ساكنيها . ولعل في هذا دليلاً على الرفع لأن الإسكافي قد لحظ كون الجنات التي
مبادئ الأنهار منها أشرف فإذا علم أن النهر قريب من المساكن والقصور دل ذلك على
رفعة أصحابها . ومن الممكن أن نجد في قول البقاعي في تفسير آية الأعراف التي سترد قريباً
(وأشار إلى علوهم بقوله تحتهم الأنهار)^٣ إشارة إلى نحو هذا المعنى .

ومن المواضع التي قوبلت فيها الجنات التي تجري من تحتها الأنهار مقترنة بأنواع
نعيم أخرى بالنار وما فيها من صنوف العذاب ما جاء في سورة الأعراف في سياق طويل
ذكر في أوله تلاعن الأمم الكافرة وخصومتها وفي آخره مناظرات أصحاب الجنة وأصحاب
النار يقول تعالى بعد ذكر تلاعن الأمم الكافرة :

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ

وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي

الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ

نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

الاعراف ٤٠ - ٤١ مكية .

١ - البقاعي ج ١٠ ص ٤٠٩ .

٢ - البقاعي ج ٩ ص ٨٠٧ .

٣ - البقاعي ج ٧ ص ٤٠٢ .

فإن جزاء من يكذب بآيات الله ويصد ويترفع عنها أن تصد عنه أبواب السماء ، سواء أريد به صدها عن أعماله ودعائه في حياته ، أو عن روحه بعد الموت ^١ ، وأن لا يدخل الجنة أبداً . وقد جاء تعليق دخول الجنة بمحال ، وهو دخول الجمل في ثقب الإبرة ليفيد وجوب كون (دخولهم الجنة مأیوساً منه قطعاً) ^٢ وذلك أن ثقب الإبرة مثل في ضيق المسلك و الجمل عظيم الجرم فلما استحال حدوث الشرط وهو مرور ما هو مثل في عظم الجرم فيما هو مثل في ضيق المسلك دل ذلك على استحالة حدوث متعلقه ، وأفاد حرف الغاية دوام انتفاء الدخول أي تأييده (فقد جعل لانتفاء دخولهم الجنة امتداداً مستمراً إذ جعل غايته شيئاً مستحيلاً ، وهو أن يلج الجمل في سم الخياط أي لو كانت لانتفاء دخولهم الجنة غاية لكانت غايته ولوج الجمل - وهو البعير - في سم الخياط وهو أمر لا يكون أبداً) ^٣ وفي هذا إيلاء نفسي شديد لهم بحرمانهم من الجنة يعقبه إيلاء حسي دل عليه قوله : " لهم من جهنم مهاد " ^٤ . وفي قوله تعالى عن أصحاب الفريق المقابل " أولئك أصحاب الجنة " (تأيس آخر للمشركين بحيث قويت نصية حرمانهم من الجنة ونعيمها) ^٥ وفي النار يكون لهم من جهنم التي تلقى داخلها بالتجهم ^٦ وتغلظ عليهم بالعذاب ^٧ ، فرش وأغطية فيمتهدون النار ويتلحفون بالنار ، وهذا في معنى إحاطة العذاب بهم من كل مكان ^٨ .

^١ - انظر ابن جرير ج ٨ ص ١٢٨ ، ١٢٩ الزمخشري ج ٢ ص ٧٨ ابن عطية ج ٧ ص ٥٩ ، الرازي ج ١٤ ص ٧٦ ، القرطبي ج ٧ ص ٢٠٦ ، البقاعي ج ٧ ص ٣٩٩ ، أبو السعود ج ٣ ص ٢٢٧ حاشية الشهاب ج ٤ ص ١٦٩ ، المتن والهامش ، الألووسي ج ٨ ص ١١٨ ، الطاهر ج ٨ ص ١٢٦ .

^٢ - الرازي ج ١٤ ص ٧٧ ، وانظر القرطبي ج ٧ ص ٢٠٦ أبو حيان ج ٤ ص ٣٠٠ ، البقاعي ج ٧ ص ٤٠٠ ، أبو السعود ج ٣ ص ٢٢٧ ، حاشية الشهاب ج ٤ ص ١٦٩ ، المتن والهامش الألووسي ج ٨ ص ١١٨ .

^٣ - الطاهر بن عاشور ج ٨ القسم الثاني ص ١٢٧ .

^٤ - انظر الرازي ج ١٤ ص ٧٧ .

^٥ - الطاهر بن عاشور ج ٨ ص ١٣٠ .

^٦ - هذا المعنى لجهنم ذكره الإمام البقاعي مراراً ، انظر على سبيل المثال آية الزمر ج ١٦ ص ٥٦٤ آية ص ج ١٦ ص ٤٠٥ ، آية الطور ج ١٩ ص ١٠ .

^٧ - انظر الرازي ج ١٤ ص ٧٨ .

^٨ - انظر الرازي ج ١٤ ص ٧٨ ، أبو حيان ج ٤ ص ٣٠٠ ، الألووسي ج ٨ ص ١١٩ ، وقد شبهها بقوله تعالى " لهم من فوقهم ظليل من النار ومن تحتهم ظلل " .

ولم أجد أحداً من المفسرين الذين اطلعت على كتبهم^١ من وقف عند قوله (فوقهم) إلا البقاعي حين قال : (وصرح في هذا بالفوقية لأن الغاشية ربما كانت عن يمين أو شمال أو كانت بمعنى مجرد الوصول والإدراك)^٢ . وقال في آية الدخان " ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم " (" فوق رأسه" ليكون المصبوب محيطاً بجميع جسمه)^٣ وقال في آية العنكبوت " يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم " (" من فوقهم " ولما أفهم ذلك الإحاطة بما هو أدنى من جهة الفوق صرح به فقال " ومن تحت أرجلهم ")^٤ ، وعليه ففي النص على الفوقية دليل على إحاطة العذاب بالكفرة ومن ثم شدة عذابهم ، مع ما في لفظ المهاد - كما سبق ذكره في آية آل عمران - من وصول العذاب إلى كل أجزاء جسمه الملاصق للنار من أسفل . ولا يغيب عن الذهن ما أفاده تنكير وتنوين لفظي (مهاد ، وغواش) من التفخيم والتهويل من شأن هذا العذاب^٥ . وفي التعليق على هذا الجزء المهول يقول الألوسي : (ولا يخفى على المتأمل في لطائف القرآن العظيم ما في إعداد المهاد والغواشي لهؤلاء المستكبرين عن الآيات ومنعهم من العروج إلى الملكوت وتقييد عدم دخولهم الجنة بدخول البعير بخرق الإبرة من اللطافة فليتأمل)^٦ فهل يستطيع المتأمل أن يفهم من قوله " ما في إعداد المهاد والغواشي لهؤلاء المستكبرين " أن هناك رابطة بين إحاطة العذاب وإزالة الكبر الذي أحدثوه ، فإن من كانت النار فراشه وغطاءه فهو بلا شك من الصاغرين^٧ ؟ ، أو أن ذنب الاستكبار ذنب عظيم يناسبه عظيم العذاب ، ويتأيد هذا بقول أبي السعود في تفسير قوله تعالى : " كذلك نجزي الظالمين " بأنه ذكر

١ - جامع البيان ، الكشاف ، المحرر الوجيز ، التفسير الكبير ، البحر المحيط ، تفسير القرآن العظيم ، نظم الدرر ، تفسير أبي السعود ، حاشية الشهاب ، روح المعاني ، التحرير والتنوير .

٢ - البقاعي جـ ٧ ص ٤٠٠ .

٣ - البقاعي جـ ١٨ ص ٤٥ .

٤ - البقاعي جـ ١٤ ص ٤٦٤ .

٥ - انظر أبو السعود جـ ٣ ص ٢٢٨ ، الألوسي جـ ٨ ص ١١٩ ، وقد ذكر أن التنوين للتفخيم ولم يذكر التنكير ولكنه مرّ بنا مراراً في سياقات أخرى .

٦ - الألوسي جـ ٨ ص ١١٩ .

٧ - أشار محيي الدين زادة إلى نحو هذا في تعليقه على البيضاوي في تفسير قوله (أحاط بهم سرادقها) حين قال : (فإن الأغنياء الذين يتفخرون في الدنيا تحيط بهم النار من اللباس والطعام والشراب وغير ذلك كما قال " سرايلهم من قطران " وقال " ليس لهم طعام إلا من ضريح " وقال في حق شراهم " يغاثوا بماء كالمهل " والله أعلم) انظر حاشية محيي الدين زادة جـ ٣ ص ٢٥٩ .

(الظلم مع التعذيب بالنار للتنبيه على أنه أعظم الجرائم والجرائر)^١ . وهل يستطيع المتأمل أن يفهم من قوله (ومنعهم من العروج ...) أن ثمة رابطة بين منعهم أنفسهم عن سبيل الله ومنع الله لهم عن العروج للمقام الأسنى ؟ ، ومن قوله : (تقييد عدم دخولهم ...) أن الاستكبار وهو طلب الكبر سبب في هذا التقييد فكأن هؤلاء المستكبرين استعصوا على الحق برؤيتهم أنفسهم أكبر منه فجاءت صورة الجمل المستعصية على الدخول في ثقب الإبرة لتمثل حالهم وعدم جدارتهم لدخول الجنة فهم كالجمل الذي يستحيل دخوله ثقب الإبرة ؟

أو هل يستطيع أن يفهم أن تقييد دخولهم الجنة بدخول البعير بخرم الإبرة مناسب لمنعهم الهدى والنور أن يدخل إلى قلوبهم منعاً باتاً ، فكما استحال دخوله إلى قلوبهم استحال دخولهم الجنة ؟ أياً كان قصده فإن المهم أن آية الأعراف قد صرحت بأن جزاء المكذبين بآيات الله والمستكبرين عنها هو استحالة دخولهم الجنة وصليهم بأنواع العذاب . وقد (أعقب الإنذار والوعيد للمكذبين بالبشارة و الوعد للمؤمنين المصدقين على عادة القرآن في تعقيب أحد الغرضين بالآخر)^٢ فقال تعالى :

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

الأعراف ٤٢ - ٤٣ مكية

^١ - أبو السعود ج ٣ ص ٢٢٨ .

^٢ - الطاهر بن عاشور ج ٨ ص ١٢٩ ، وانظر البقاعي ج ٧ ص ٤٠١ حاشية الشهاب ج ٤ ص ١٦٩ المتن والهامش .

بالتأمل في جزاء الفريقين يمكننا أن نرى في عدم فتح أبواب السماء للمكذابين في قوله : " لا تفتح لهم أبواب السماء " طرداً لهم وتشريداً يقابل صحبة المؤمنين الجنة وخلودهم في قوله " أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون " ، ونرى في تعليق دخول المكذبين الجنة بالمحال في قوله " ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط " قطعاً لرجائهم يقابله ما تحكيه الصحبة للجنة والخلود فيها للمؤمنين من يسر تحقق الأمر ودوام استقرارهم فيها . فبينما يبعث الأول على الفزع والخوف ، يبعث الآخر على الطمأنينة والثقة في رحمة الله ، فهؤلاء المؤمنون الذين عملوا الصالحات هم أهل الجنة وساكنوها وملازموها لا يتحولون عنها ولا يموتون فيها ، يتقبلون في نعيمها بلا غل ولا حسد ولا عداوة ولا غيرها من آفات النفس بما أفاده قوله : " ونزعنا ما في صدورهم من غل " فهم لا يحقدون ولا يحسدون^١ ولا يتمنون درجات غيرهم من أهل الجنة^٢ ، بل هم في سرور دائم متعاطفين متوادين . ولعل في الجيء بلفظ الغل وهو ما تغلغل في النفس من العداوة^٣ دلالة على نزع كل ما دونه ، وفي إدخال الجار (من) عليه مبالغة في التطهير من الأحقاد^٤ . وقد جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا ييصقون فيها ولا يمتخطون و لا يتغوَّطون آنتهم فيها الذهب أمشاطهم من الذهب والفضة وجمامهم الألوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يُرى مُخُّ سوقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلبٌ واحد يسبحون الله بُكرةً وعشيا^٥ ثم إنهم ينعمون ببرد الظاهر متمثلاً في الظلال بعد أن نعموا ببرد الباطن ، متمثلاً

١ - انظر ابن جرير ج ٨ ص ١٣٣ ، الزمخشري ج ٢ ص ٧٩ ، ابن عطية ج ٧ ص ٦٢ ، الرازي ج ١٤ ص ٨٠ ، القرطبي ج ٧ ص ٢٠٨ ، أبو حيان ج ٤ ص ٣٠١ ، البقاعي ج ٧ ص ٤٠٢ ، أبو السعود ج ٣ ص ٢٢٨ ، الشهاب ج ٤ ص ١٦٩ ، ١٧٠ ، الألويسي ج ٨ ص ١٢٠ ، الطاهر ج ٨ ص ١٣١ .

٢ - انظر ابن جرير ج ٨ ص ١٣٣ ، الرازي ج ١٤ ص ٨٠ ، القرطبي ج ٧ ص ٢٠٨ ، أبو حيان ج ٤ ص ٣٠١ ، البقاعي ج ٧ ص ٤٠٢ ، الشهاب ج ٤ ص ١٧٠ ، الألويسي ج ٨ ص ١٢٠ .

٣ - انظر ابن عطية ج ٧ ص ٦٢ ، الرازي ج ١٤ ص ٧٩ ، القرطبي ج ٧ ص ٢٠٨ ، البقاعي ج ٧ ص ٤٠٢ .

٤ - قد تكون المبالغة من معنى ابتداء الغاية ، أو من معنى الجنس . انظر أبو الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي ت ٣٨٤ هـ ، كتاب معاني الحروف تحقيق د . عبد الفتاح إسماعيل شلي ، مكتبة الطالب الجامعي : مكة المكرمة ، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م ص ٩٧ .

٥ - صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق حديث ٣٠٠٦ برواية أخرى رقم ٣٠٠٧ ، ٣٠١٤ ، صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها حديث رقم ٥٠٦٥ سنن الترمذي ٢٤٦٠ / مسند أحمد باقي مسند المكثرين حديث رقم ٧٨٥١ موسوعة الحديث الشريف / وجاء في اللسان ج ١ ص ٢٦٧ (في صفة أهل الجنة مجامهم الألوة أي بخورهم العود) .

في الماء الذي ذكر في قوله تعالى " تجري من تحتهم الأنهار " (فعرف أنه يكون عنه الرياض والأشجار وكل ما به حسن الدار)^١ ، وهنا انطلقت ألسنة المؤمنين متلذذة^٢ بالثناء والشكر لله تعالى على هدايتهم للجنة و إنجائهم مما فيه المكذبون من النار حيث قالوا " الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون " ، وفي هذا النداء تكريم وإسعاد، وفي قوله (تلکم) إشارة إلى علو منزلتها كما ذهب أبو السعود^٣ ، وقد جاء في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً فذلك قول الله عز وجل ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون " ^٤.

واستمراراً في الاغتراب بحالهم وتحسيراً للكافرين يتوجهون إليهم بقولهم " أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم " ، ثم يفصل هذا الحوار إعلام آخر في قوله تعالى : " فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين " فإن هذه اللعنة منع وحرمان للمكذبين من رحمة الله يؤيد ما سبق من تأييد عدم دخولهم الجنة ، وعدم دخولهم الجنة يقابل استقرار المؤمنين في الجنة في قوله : " هم فيها خالدون " فاستمرار نفي دخول المكذبين الجنة يقابل استمرار بقاء المؤمنين فيها . وبينما يجتمع لأهل النار حرارة الباطن وهو الغل والحقد حين يتلاعنون ويتبرعون من بعضهم ، مع حرارة الظاهر حين تحيط النيران بهم من جميع جهاتهم كما عبر عنه قوله " لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش " فتسود وجوههم وتنضج جلودهم و يذيب الحميم لحومهم وأمعاءهم

^١ - البقاعي جـ ٧ ص ٤٠٢ .

^٢ - ذكر الشهاب جـ ٤ ص ١٧٠ معلقاً على البيضاوي في تفسير الآية أن قولهم ذلك لإظهار السرور والفرح لا للتعبد والتقرب لأن الجنة ليست دار تكليف وانظر الألويسي جـ ٨ ص ١٢١ .

^٣ - انظر أبو السعود جـ ٣ ص ٢٢٩ ، البقاعي جـ ٧ ص ٤٠٣ وذكر أبو السعود وغيره قولاً آخر وهو أن البعد في اسم الإشارة لأنهم وعدوا بها في الدنيا أو رأوها من مكان بعيد انظر ابن عطية جـ ٧ ص ٦٣ ، الرازي جـ ١٤ ص ٨١ ، القرطبي جـ ٧ ص ٢٠٨ ، حاشية الشهاب جـ ٤ ص ١٧٠ المتن والهامش .

^٤ - صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها حديث رقم ٥٠٦٩ ، سنن الترمذي ، كتاب تفسير القرآن حديث رقم ٣١٦٩ ، مسند أحمد ، باقي مسند المكثرين حديث رقم ١١٤٦٩ موسوعة الحديث الشريف .

وَألسنة اللهب ترفعهم وتخفضهم ؛ ينعم المؤمنون ببرد الباطن بنزع الغل^١ ، وبرد الظاهر بإحاطة الجنة بهم حيث تظلمهم أشجارها وتطعمهم ثمارها ويتلذذون بشرب أنهارها من خمر وعسل ولبن وماء . وتأتي عبارات المؤمنين بحمد ربهم وذكر رحمته بهم ببعثه الأنبياء على سبيل التلذذ والفرح ، في حين تأتي إجابة الكفرة حين سئلوا عن صدق وعد الله لهم مختصرة موجزة تدل على تحسرهم وتندمهم^٢ ، فحديث أهل الجنة يدل على النعيم لأنه حديث تلذذ وسرور ، وحديث أهل النار يدل على العذاب لأنه بإيجازه واختصاره يحكي شدة إبلاسهم وتخزيمهم وكرههم .

وينادى المؤمنون بما يسعدهم وهو ما ورد به الحديث في تفسير قوله " ونودوا أن تلکم الجنة " حيث إن لهم صحة تامة وشباباً دائماً ونعيماً لا ينقطع ، في حين ينادى الكفرة بما يسوؤهم ويشقيهم " فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الكافرين " وبيّن قوله :

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كَلِمًا يَسِيمُهُمْ وَيَنَادُوا
 أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِمَ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ
 ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا
 تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَيَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا
 يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ
 تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ

أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَيَنَادَى
 أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا

^١ - ذكر الرازي هذه المقابلة مسندة إلى صاحب الكشاف ولم أجد لها في الكشاف انظر الرازي جـ ١٤ ص ٨٠ الألويسي جـ ٨ ص ١٢٠ ، الطاهر جـ ٨ ص ١٣١ .

^٢ - وردت الإشارة إلى مثل هذا لدى الطاهر بن عاشور جـ ٢٤ ص ٧١ عند تفسير آية الزمر " ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين " .

رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
 دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا
 لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

الأعراف ٤٦ - ٥١

توالى عبارات التوبيخ والتقرير والإعلام بالعذاب على الكفرة في نحو " أن قد وجدنا ما وعدنا ... " ، ونحو " ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون " ، ورد أهل الجنة عليهم حين طلبوا منهم إفاضة الماء والرزق عليهم بقولهم: " إن الله حرهما على الكافرين " وقوله تعالى عنهم " فاليوم ننسأهم " في حين تتوالى على أهل الجنة عبارات التكريم نحو قوله " سلام عليكم " وقوله " لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون " .

هذا ومما يلحظ في هذا السياق تفصيل العذاب أكثر من النعيم ولعل لاتصاله بقصة آدم عليه السلام وحواء مع إبليس ، وقضية إرسال الرسل في قوله : " يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " ٣٥ ، ٣٦ الأعراف ، وما تبع ذلك من قضية تلاعن الأمم الكافرة في النار تعلقاً بهذا التفصيل .

وقفة عند وراثة الجنة :

كنت قد ذكرت في الفصل الأول من الباب الأول أن حرف الجر الباء حين يقترن بالثواب يفيد المقابلة أي مقابلة العمل بالثواب من الله تفضلاً وليس وجوباً ، وذكرت هناك توفيق ابن قيم الجوزية بين وجود الباء في آيات الثواب وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لن يدخل أحدكم الجنة بعمله " .

ويأتي لفظ الوراثة - كما فسرها المفسرون - تأييداً لهذا المعنى فقد جاءت في آيات

الأعراف التي نحن بصدد دراستها في قوله تعالى : " ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما

كنتم تعملون " الأعراف ٤٣ . وفي قوله تعالى : " إن الأرض يرثها عبادي الصالحون " الأنبياء ١٠٥ مكية - فيمن ذهب إلى أنها أرض الجنة ^١ - ، وقوله : " الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون " المؤمنون ١١ ، وقوله : " وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء " الزمر ٧٤ وقوله : " تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً " مريم ٦٣ ، وقوله : " وتلك الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون " الزخرف ٧٢ ، وقوله : " واجعلني من ورثة جنة النعيم " الشعراء ٨٥ .

فإن وراثته الجنة في هذه الآيات تعني أن الله سبحانه وتعالى قد أعطاهم إياها دون تعب أو كد ، و أنها بمحض الفضل منه سبحانه ، سواء أريد بها إفضاؤها إليهم كما يُفضي المال إلى وارثه ^٢ ، أو وراثتهم إياها من أهل النار ^٣ يقول الشهاب في تعليقه على الوراثة هنا في آية الأعراف إنها (تنجيز للوعد بإثابة المطيع لا بالاستحقاق والاستيجاب بل هو بمحض فضله تعالى كالإرث) ^٤ ، فقد جعل الشهاب لفظ الوراثة ذاته دليلاً على التفضل من الله سبحانه وتعالى .

أما ابن عطية فقد ذكر في الآية نفسها أن دخول الجنة بمجرد (رحمة الله والقسم فيها على قدر العمل (و أورثتم) مشيرة إلى الأقسام ^٥) . فجعل معنى الوراثة هو ما يلقاه المرء من درجات الثواب عند الله بناءً على ما قدمه من عمل ، فهي تعني ما أورثه العمل لصاحبه من الثواب ، وهذا ما عناه محيي الدين زادة في تفسير قوله تعالى في آية الزمر " الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض " حيث قال : (أورثنا الجنة من قولهم أورث العمل الفلاني لفلان أمر كذا ، تشبيهاً له لحصوله بعد ذهاب العمل بالوراثة وللعمل بالمورث ولتخليف العمل إياه بالإيراث واشتق منه أورثنا وأسند الإيراث إليه تعالى لأنه هو

^١ - انظر على سبيل المثال الرازي جـ ٢٢ ص ٢٢٩ .

^٢ - انظر على سبيل المثال الزمخشري جـ ٢ ص ٥١٦ و جـ ٣ ص ٤١١ . الرازي جـ ٢١ ص ٢٣٧ و جـ ١٤ ص ٨١ .

^٣ - انظر على سبيل المثال ابن جرير جـ ١٦ ص ٧٧ ، ابن عطية جـ ١٤ ص ١٠٨ .

^٤ - حاشية الشهاب جـ ٤ ص ١٧٠ .

^٥ - الأقسام " وردت هكذا في النص ولعل الأقرب أن تكون " الأقسام " وجعل الهمزة فوق الألف خطأ مطبعي .

^٦ - ابن عطية جـ ٧ ص ٦٣ ، وانظر القرطبي جـ ٧ ص ٢٠٨ .

الموفق لإتيانه ^١ فقد صرح الإمام محيي الدين بترتب الثواب على العمل كترتب الورثة على وجود المورث . وجعل معنى الفضل مستفاداً من إسناد الإيراث لله .

ومن السور التي ذكر فيها جزاء الإيمان مع العمل سورة الكهف يقول تعالى :
وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ
إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا
بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ
أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا
﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ
فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ
وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ
مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

الكهف ٢٩ - ٣١ مكية

فالأيات تصوّر إحاطة النار بالظالمين في قوله : " أحاط بهم سرادقها " ، سواء أريد بالسُّرادق الحائط حول الفسطاط ^٢ ، أو الفسطاط نفسه ^٣ وإن كان الثاني أبلغ في تصوير العذاب ، لأن إحاطة الفسطاط أشمل من إحاطة ما يدار حوله من نار أو دخان أو غير

^١ - حاشية محيي الدين زادة ج ٤ ص ٢١٧ ، وانظر أبو السعود ج ٧ ص ٢٦٤ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ٣٥٥ المتن والهامش ، الألوسي ج ٢٤ ص ٣٥ .

^٢ - انظر ابن جرير ج ١٥ ص ١٥٧ ، الزمخشري ج ٢ ص ٤٨٢ ، ابن عطية ج ١٠ ص ٣٩٥ ، الرازي ج ٢١ ص ١٢٠ ، البقاعي ج ١٢ ص ٥٣ ، الطاهر ج ١٥ ص ٣٠٨ .

^٣ - انظر حاشية الشهاب ج ٦ ص ٩٧ ص ٩٨ المتن والهامش ، الطاهر ج ١٥ ص ٣٠٨ .

ذلك مما ذهب إليه المفسرون . و لعل في قول ابن رجب الحنبلي بعد أن ذكر معنى إطباق النار على أهلها في قوله : "إنها عليهم مؤصدة " الهمزة ٨ . و " عليهم نار مؤصدة " البلد ٢٠ بأن (إحاطة السرادق بهم قريب من المعنى المذكور في غلق الأبواب وهو شبه قول من قال إنه حائط لا باب له)^١ ؛ تأييداً لكون معنى السرادق هو الفسطاط^٢ ، وذهب الطاهر إلى أن (شأن السرادق يكون في بيوت أهل الترف فإثباته لدار العذاب استعارة تمكينية)^٣ . هذا العذاب والحر الشديد يدفعهم إلى طلب الماء ليطفئوا حر جوفهم وحرارة أبدانهم^٤ ، فيأتي الغوث بسائل شديد الحرارة منتن الريح يشوي وجوههم حين يدنونه منها ويقطع أمعاءهم حين يشربونه وقد ورد بذلك حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : (" ويسقى من ماء صديد يتجرعه " قال يقرب إلى فيه فيكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره يقول الله " وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ويقول " وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب ")^٥ وانظر كيف جاءت الإغاثة في قوله : " وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل " بما لا يُغيث تمكماً بهم (يجعل خلاف ما يُرجى مكانه)^٦ .

وجرياً على طريقة البقاعي وغيره من العلماء الذين يبحثون عن المناسبة بين الذنب والجزاء^٧ ، فقد لحظت تناسباً بين عمل هؤلاء و جزائهم فكان الظالمين الذين كانوا يضعون الأشياء في غير موضعها^٨ عُقبوا بوضعهم في غير المكان الذي كانوا يرجونه ، وقوبلت استغاثتهم بغير ما تستحق من الإكرام ، بل وجدوا الأمور على غير ما يحبونه كما كانوا يضعونها في غير ما يحبه الله .

^١ - أبو الفرج زين الدين عبد الرحمن أحمد ابن رجب الحنبلي ت ٧٩٥ هـ التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار . مراجعة وتعليق محمد حسن الحمصي - دار الرشيد دمشق بيروت الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ص ٩١ .

^٢ - هذا مع أن ابن رجب قد ذكر في معنى السرادق في نفس الصفحة أنه كل ما أحاط بالشيء كالحائط . انظر المصدر المذكور .

^٣ - الطاهر جـ ١٥ ص ٣٠٨ .

^٤ - انظر البقاعي جـ ١٢ ص ٥٣ ، ابن رجب التخويف من النار ص ٩١ .

^٥ - سنن الترمذي ، كتاب صفة جهنم حديث رقم (٢٥٠٦) وقال هذا حديث غريب .

^٦ - حاشية الشهاب جـ ٦ ص ٩٨ ، وانظر الرازي جـ ٢١ ص ١٢٠ ، البقاعي جـ ١٢ ص ٥٣ ، حاشية محيي الدين زادة جـ ٣ ص ٢٥٩ .

^٧ - أشار البقاعي في أكثر من موضع إلى أن جهنم تلقى الكافرين بالنجهم لما تجهموا به أولياء الله .

^٨ - أشار البقاعي إلى أن معنى الظلم وضع الشيء في غير موضعه في أكثر من موضع انظر على سبيل المثال جـ ٦ ص ١٨٧ آية المائدة ٥١ .

وتقف الآيات هنا لتترك النفس تقدر مبلغ ما سيلقونه من صنوف العذاب بين إطباق النار المغلقة عليهم ، و اشتواء جلودهم وذوبان أمعائهم بجر ذلك المهل فهم كما قال عنهم أحد السلف : (ألبسوا النضيج من النحاس ، ومنعوا خروج الأنفاس ، فالأنفاس في أجوافهم تتردد ، والنيران على أبدانهم توقد ، قد أطبقت عليهم الأبواب ، وغضب عليهم رب الأرباب)^١ ، لثني بذكر السعداء الذين آمنوا وعملوا الصالحات^٢ لتواجه ما في طبيعة النفس البشرية من تشوّف إلى معرفة أصداد الأشياء المذكورة لها وهو ما أشار إليه الطاهر حين جعل مراعاة هذه الطبيعة البشرية أحد أسباب وجود المقابلة فقد قال في تفسير قوله تعالى : " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً " (جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً مراعى فيه حال السامعين من المؤمنين فإنهم حين يسمعون ما أعدّ للمشركين تشوّف نفوسهم إلى معرفة ما أعد للذين آمنوا ونبذوا الشرك فأعلموا أن عملهم مرعيٌّ عند ربهم. وجرّياً على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد والترهيب بالترغيب)^٣.

فالآيات ترينا المؤمنين على عكس ما فيه أولئك من الحر والتعذيب في " جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار " ، فكوفهم في جنات يشير إلى طيب و برودة المكان ، وجرى الأنهار دليل على حصول الزرع والثمر وكثافة الظلال - كما سبق أن ذكر في آية الأعراف^٤ - وجرّئها من تحتهم أي تحت منازلهم وقصورهم وبين أيديهم^٥ (أحسن في النزهة والفرجة) ،^٦ مع ما فيه من الإشارة إلى علوهم^٧ .

وقبل كل هذا هي جنات عدن التي روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال عنها : " لما خلق الله جنة عدن خلق فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على

^١ - ابن رجب ، التخويف من النار ص ٩٠ .

^٢ - انظر ابن كثير ج ٤ ص ٣٨٥ ، وانظر الرازي ج ٢١ ص ١٢١ ، حاشية محيي الدين زادة ج ٣ ص ٢٦٠ .

^٣ - الطاهر ج ١٥ ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

^٤ - انظر ص ٢٥٠ من هذا الفصل ، وانظر البقاعي ج ١٠ ص ٣٥٤ .

^٥ - انظر جرير ج ١٥ ص ١٥٩ ، ابن عطية ج ١٠ ص ٣٩٨ وآية يونس (٩) ج ١١ ص ٦٤ ، ابن عطية ج ٩ ص ١٤ ،

الرازي ج ١٧ ص ٤٣ ، القرطبي ج ٨ ص ٣١٢ ، البقاعي ج ٩ ص ٧٩ ، أبو السعود ج ٤ ص ١٢٤ ، الشهاب ج ٥ ص ٩ .

^٦ - القرطبي ج ٨ ص ٣١٢ في تفسير آية يونس .

^٧ - ذكر ذلك البقاعي في قوله (من تحتهم الأنهار) الأعراف ٤٤ انظر البقاعي ج ٧ ص ٤٠٢ .

قلب بشر ثم قال لها : تكلمي ، فقالت : " قد أفلح المؤمنون " ^١ وروي عن ابن عباس أنه قال : " هي قصبة الجنة وسقفها عرش الرحمن وهي المدينة التي فيها الرسل والأنبياء والشهداء و أئمة الهدى وسائر الجنات حولها وفيها عين التسنيم وفيها قصور الدر والياقوت والذهب فتهب ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كئيبان المسك الأذفر " ^٢ وقوله جنات بلفظ الجمع لأن كل موضع منها صالح لأن يكون جنة ^٣ ، ويكرم المؤمنون عاملو الصالحات بالتحلي بأنواع الحلبي المختلفة ابتداءً من الأساور إلى ما لا يعلمه إلا الله وقد يدخل في ذلك التيجان بما أفاده معنى الابتداء في حرف الجر (من) ^٤ ، وما أورده

^١ - ذكره ابن قيم الجوزية في حادي الأرواح ص ٢٠٠ عن رواية الطبراني ووردت في الموسوعة الذهبية في المعجم الكبير ج ١١ ص ١٤٨ رقم (١١٤٣٩) .

^٢ - ذكره الرازي ج ١٦ ص ١٣٣ وذكر في نفس الصفحة أن في جنات عدن قولين : أحدهما أنه اسم لموضع معين في الجنة ، والآخر : أنه اسم لكل الجنات ، ويفهم من كتاب حادي الأرواح هذين القولين فإن ابن القيم قد ذكر ص ٧٩ أنها اسم لجملة الجنان وروى في ص ٨٢ و ٨٥ و ٨٦ و ١٥٠ و ١٣٥ و ١٤٤ و ٢٠٠ و ٢٢٢ و ٢٨٤ أحاديث وأقولاً ثبت أن عدن اسم لموضع معين في الجنة . وذكر القرطبي ج ١٠ ص ٣٦٩ كلا القولين ونحن نذكر ما جاء فيها من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ونعلق عليها دون أن نجزم برأي لأن علم ذلك عند الله سبحانه وتعالى :

جاء في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن حديث رقم (٤٣٠٦) عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال (قال صلى الله عليه وسلم لنا أتاني الليلة أتبان فابتعثاني فانتبهنا إلى مدينة مبنية ببلن ذهب وبلن فضة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ وشطر كأقبح ما أنت راءٍ قالوا لهم اذهبوا فقعوا في ذلك النهر فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة قالوا لي : هذه جنة عدن وهذا منزلك ، قالوا أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم ، ومثله حديث رقم (٦٥٢٥) من كتاب التعبير وحديث رقم (١٩٢٣٦) مسند أحمد ، مسند البصريين ، وأورد البخاري أيضاً في كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار عن أبي سعيد (قال النبي صلى الله عليه وسلم أول طعام يأكله أهل الجنة زيادة كبد حوت ، عدن خلد عدنت بأرض : أقمّت ، ومنه المعدن) ، ومثله ما جاء في كتاب التفسير في سورة براءة وهذا يوحى بأن المراد بجنة عدن كل الجنات ولكن البخاري أورد في كتاب تفسير القرآن حديث رقم (٤٥٠٠) عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن) ومثله حديث رقم (٤٥٠١) في كتاب تفسير القرآن ورقم (٦٨٩٠) في كتاب التوحيد وعند مسلم في كتاب الإيمان رقم (٢٦٥) (وسنن الترمذي في كتاب صفة الجنة حديث رقم (٢٤٥١) وسنن ابن ماجة في كتاب المقدمة حديث رقم (١٨٢) وجاء في مسند أحمد ، مسند الكوفيين حديث رقم (١٨٨٥١) بلفظ في جنات عدن وورد في نفس الموضع حديث رقم (١٨٨٩٨) عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (جنان الفردوس أربع ثنات من ذهب حليتهما وآتيتهما وما فيهما ، وثنان من فضة آتيتهما وحليتهما وما فيهما ، وليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن وهذه الأنهار تشخب من جنة عدن ثم تصدع بعد ذلك أنهاراً) ومثله ما جاء في سنن الدارمي كتاب الرقاق (١ - ٢٧) بذكر لفظ جنات الفردوس في أول الحديث مما يوحى أن جنة عدن غيرها وقد تشير عبارة " الأنهار تشخب من جنة عدن ثم تصدع بعد ذلك أنهاراً " إلى أن جنة عدن أعلى من جنات الفردوس لأن جنات الفردوس منها تفجر أنهار الجنة .

^٣ - انظر القرطبي ج ١٠ ص ٣٩٦ ، الألويسي ج ١٥ ص ٢٧٠ .

^٤ - انظر الزمخشري ج ٢ ص ٤٨٣ ، النيسابوري ج ١٥ ص ١٤٨ ، حاشية الشهاب ج ٦ ص ٩٩ المسنن والهامش ، الألويسي ج ١٥ ص ٢٧٠ ، الطاهر ج ١٥ ص ٣١٢ .

ابن قيم الجوزية من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قوله عز وجل : " جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب " فقال : أن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب ^١ .

وفي تنكير لفظ الأساور إشارة إلى بلوغها في الحسن مبلغاً لا يمكن الإحاطة به ^٢ ، كما يلبس هؤلاء ثياب السندس والإستبرق وهو رقيق الديباج وصفيقه .

أما ألوان هذه الثياب فقد ذكر منها الخضرة (لأنها أحسن الألوان والنفس تنبسط لها أكثر من غيرها) ^٣ ولأن (اللون الأخضر أعدل الألوان وأنفعها عند البصر وكان من شعار الملوك) ^٤ ولا يعني هذا عدم وجود غيره من الألوان ^٥ . ولعل اللون الأخضر خاص بالسندس دون الإستبرق لوروده هنا وفي آية الإنسان " عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق " متصلاً بالسندس . وقد ألمح إلى هذا الألووسي حين قال في آية الإنسان (ولم

^١ - ابن قيم الجوزية حادي الأرواح ص ١٥١ ، ١٥٢ عن ابن وهب ، وفي الكتاب أن عليهم و الأصوب إن لأنه بعد القول وورد في سنن الترمذي ، كتاب صفة الجنة رقم ٢٤٨٦ ، وقال هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث رشتين وقد ورد في الحديث الشريف إشارات إلى أنواع التيجان وأعمال أصحابها فقد ورد في سنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قطعة من حديث (٣٠٦١) أنه (قال يدعي أحدهم فيعطى كتابه يمينه ويمد له في جسمه ستون ذراعاً ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون اللهم اتنا بهذا وبارك لنا في هذا حتى يأتيهم فيقول أبشروا لكل رجل منكم مثل هذا) وورد ذكر تاج الكرامة في حلية قارئ القرآن في سنن الترمذي ، كتاب فضائل القرآن حديث رقم ٢٨٣٩ وفي سنن الدارمي ، كتاب فضائل القرآن أحاديث رقم (٣١٧٧) ، (٣١٧٨) ، (٣١٧٩) وورد ذكر تاج الوقار للمجاهد وإن الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها في سنن الترمذي كتاب فضائل الجهاد حديث رقم (١٥٨٦) وفي مسند الإمام أحمد ، مسند الشاميين رقم (١٦٥٥٣) وباقي مسند الأنصار رقم (٣٢٥٧) وورد ذكر تاج الملك لمن زوج الله تعالى في سنن أبي داود كتاب الأدب حديث (٤١٤٧) ولوالدي قارئ القرآن المتوفين على الطاعة في سنن الدارمي كتاب فضائل القرآن حديث رقم (٣٢٣٥) وذكر تاج آخر لهما ضوءه أحسن من ضوء الشمس في سنن أبي داود كتاب الصلاة حديث رقم (١٢٤١) ومسند أحمد ، مسند المكيين حديث رقم (١٥٠٩) .

^٢ - انظر الزمخشري ج ٢ ص ٤٨٣ ، حاشية الشهاب ج ٦ ص ٩٩ المتن والهامش ، الألووسي ج ١٥ ص ٢٧٠ .

^٣ - أبو حيان ج ٦ ص ١١٧ وانظر الألووسي ج ١٥ ص ٢٧١ ، ابن قيم الجوزية ، حادي الأرواح ص ١٤٦ .

^٤ - الطاهر ج ١٥ ص ٣١٢ .

^٥ - قلت ذلك لما رد به الشهاب ج ٦ ص ٩٩ على قول البيضاوي (لأن الخضرة أحسن الألوان وأكثرها طراوة) حيث قال الشهاب (قوله لأن الخضرة ... الخ) ليس في النظم ما يدل على حصر لباسهم فيما ذكر فيكون وجه تخصيصه ما ذكر ويحتمل الاختصاص به وإن كان فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين لأنهم لا يريدون غيره . والطراوة الظاهر أن المراد بها كونه أكثر بهجة كالنبات الخضر ، وما ذكره الألووسي ج ١٥ ص ٢٧١ من أن (الظاهر أن لباسهم غير منحصر فيما ذكر إذ لهم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وأخرج ابن أبي حاتم عن سليم بن عامر أن الرجل يكسى في الساعة الواحدة سبعين ثوباً وأن أذناها مثل شقيق النعمان ، وقيل يحتمل الانحصار ... لجواز أنهم لا يشتهون ولا تلذ أعينهم سوى ذلك من الألوان) ، و ما أورده ابن قيم الجوزية ص ١٥٠ عن ثياب أهل الجنة مما رواه ابن أبي الدنيا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى فتفتح له أكمامها فيأخذ من أي ذلك شاء أبيض وإن شاء أحمر وإن شاء أخضر وإن شاء أصفر وإن شاء أسود مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن .

يذكر لون هذا الإستبرق وأشار ناصر الدين إلى أنه الخضرة ، فحضر وإن توسط بين المعطوف والمعطوف عليه فهو لهما وعلى كل حال هذه الثياب لباس لهم وربما تشعر الآية بأن تحتها ثياباً أخرى)^١ ، وقريب منه ما ذكره الطاهر في نفس الآية حين قال (فأما السندس ... والظاهر أنه لا يكون إلا أخضر اللون لقول يزيد بن حذاق العبدي يصف مرعى فرسه :

وداويتها حتى شتت حبشية كأن عليها سندساً و سدوساً

أي في أرض شديدة الخضرة كلون الحبشي . وفي اللسان : السدوس الطيلسان الأخضر . و لقول أبي تمام يرثي محمد بن حميد النبھاني الطوسي :

تردى ثياب الموت حمراً فما أتى لها الليل إلا وهي من سندس خضر

... والمعنى : أن فوقهم ثياباً من الصنفين يلبسون هذا وذاك جمعاً بين محاسن كليهما ، وهي أفخر لباس الملوك وأهل الثروة . ولون الأخضر أمتع للعين وكان من شعار الملوك ... والظاهر أن السندس كان لا يصبغ إلا أخضر اللون)^٢ . وقد ذكر الزمخشري أنه جمع بينهما (جمعاً بين النوعين)^٣ ، ولعله يقصد شمول كل ما بينهما من طبقات الحرير وأنواعه . وقد نستطيع أن نجد تأييداً لهذا فيما ذهب إليه الرازي في الحكمة من الجمع بين النخل والرمان في قوله " فيهما فاكهة ونخل ورمان " ^٤ الرحمن ٦٨ والجمع بين السدر والطلح في قوله : " وسدر مخضود وطلح منضود " ^٥ الواقعة ٢٨ - ٢٩ . من أن كلاً من الطرفين يجمع صفات مقابلة للآخر ، فذكرهما دليل على دخول كل ما بينهما في المعنى المراد .

^١ - الألو سي جـ ٢٩ ص ١٦٢ .

^٢ - الطاهر جـ ٢٩ ص ٣٩٩ .

^٣ - الزمخشري جـ ٢ ص ٤٨٣ . وأورد الشهاب جـ ٦ ص ٩٩ قول البيضاوي بأنه (جمع بين النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين) ومثله الألو سي جـ ١٥ ص ٢٧٢ .

^٤ - ذكر الرازي الحكمة من ذلك جـ ٢٩ ص ١٣٤ حين قال (فهما كالضدين والإشارة إلى الطرفين تتناول الإشارة إلى ما بينهما) .

^٥ - ذكر ذلك جـ ٢٩ ص ١٣٦ حين قال (فوُجعت الإشارة إلى الطرفين جامعة لجميع الأشجار نظراً إلى أوراقها ... ونظيره في الذكر النخل والرمان عند القصد إلى ذكر الثمار)

والتحلي بالأساور من شعار الملوك^١ وهو يدل على الفراغ وكونها من الذهب يدل على عدم الحاجة^٢ وقد جاء في الصحيحين قول الرسول صلى الله عليه وسلم (تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الضوء)^٣ وفي الحكمة من تقدم التحلية على اللباس ذهب بعض المفسرين إلى أن (الحلي في النفس أعظم وإلى القلب أحب وفي القيمة أغلى وفي العين أحلى)^٤ ، وفي بنائها للمفعول مقابل بناء فعل اللبس للفاعل إشعاراً (بأنهم يُكرمون بذلك ولا يتعاطون ذلك بأنفسهم ... وأسند اللباس إليهم لأن الإنسان يتعاطى ذلك بنفسه خصوصاً لو كان بادي العورة)^٥ وبعد ذكر التحلي واللباس يأتي الاتكاء وهو من جلسات الملوك وأهل الترف والمنعمين^٦ ، وهو اتكاء على الأرائك وهي السرر في الحجال^٧ وهي أفخم وأشد اتصالاً بالملك .

وبعد التأمل فيما أعده الله لكل فريق من جزاء تمايز صورتها فالنار تحيط بالكفرة من كل الجهات فتشوى وجوههم وتذيب جلودهم ، و العطش يلهب أجوافهم فيسقون المهل الذي يسقط جلود وجوههم ويقطع أمعاءهم^٨ ، في حين تحرق الجنات بالمؤمنين عاملي الصالحات فتتعم ظواهرهم ويردها وتجري من تحتهم الأنهار فتتعم بواطنهم بريها^٩ .

^١ - انظر البقاعي جـ ١٢ ص ٥٥ وفي آية الإنسان جـ ٢٩ ص ١٥٠ ، والطاهر أيضاً جـ ٢٩ ص ٤٠٠ .

^٢ - ذكر الرازي في تفسير آية فاطر (٣٣) جـ ٢٦ ص ٢٧ هذا المعنى .

^٣ - صحيح مسلم كتاب الطهارة حديث رقم (٣٦٨) سنن النسائي كتاب الطهارة حديث رقم ١٤٩ مسند أحمد ، مسند باقي المكثرين حديث رقم (٨٤٨٥) موسوعة الحديث الشريف .

^٤ - أبو حيان جـ ٦ ص ١١٧ وانظر الألويسي جـ ١٥ ص ٢٧٢ .

^٥ - أبو حيان جـ ٦ ص ١١٧ وجعل البقاعي جـ ١٢ ص ٥٥ الحكمة من ذلك أن (القصد وجود التحلية وهي لعزتها إنما يؤتى بها من الغيب فضلاً من الله تعالى) وقريب منه ما ذهب إليه الطاهر جـ ١٥ ص ٣١٢ حين قال إنهم (يجدون أنفسهم محلين بتكويين الله) ، أما الرازي جـ ٢١ ص ١٢٢ والنيسابوري جـ ١٥ ص ١٤٩ فقد ذهب إلى أن اللباس إشارة إلى ما استوجبه بعملهم و التحلي إشارة إلى ما تفضل الله به عليهم وفي هذا كما قيل (نزعاً اعتزالية) ، انظر الشهاب جـ ٦ ص ٩٩ .

^٦ - انظر الزمخشري جـ ٢ ص ٤٨٣ ، البقاعي جـ ١٢ ص ٥٥ ، الشهاب جـ ٦ ص ٩٩ الطاهر ، جـ ١٥ ص ٣١٤ .

^٧ - انظر الرازي جـ ٢١ ص ١٢٢ ، القرطبي جـ ١٠ ص ٣٩٨ ، ابن كثير جـ ٤ ص ٣٨٥ ، حيث قال (وهي السرير تحت الحجلة ، والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالبشخانة ، والله أعلم) وانظر البقاعي جـ ١٢ ص ٥٥ ، والطاهر جـ ١٥ ص ٣١٤ حيث قال (والحجلة : قبة من ثياب تكون في البيت تجلس فيها المرأة أو تنام ... وذلك من شعار أهل الترف) وابن قيم الجوزية حادي الأرواح ص ١٥٦ ، ١٧٥ .

^٨ - ورد في ذلك حديث غريب في سنن الترمذي ، كتاب صفة جهنم حديث رقم (٢٥٠٦) ، وفي مسند أحمد ، باقي مسند الأنصار حديث رقم (٢١٢٥٤) ، وحديث آخر في سنن الترمذي كتاب صفة جهنم حديث رقم (٢٥٠٧) ومسند أحمد ، باقي مسند المكثرين (١١٢٤٤) موسوعة الحديث الشريف .

^٩ - انظر أبو حيان جـ ٦ ص ١١٦ .

والسرادق أثبت للكفرة تهكماً^١ ، في حين أثبتت الجنات للمؤمنين تكريماً، وموطن الكافرين متوسط النيران كما أفاده قوله " أحاط بهم سرادقها " فهم (لا مخلص لهم منها ولا فرجة يتفرجون بالنظر إلى ما وراءها من غير النار بل هي محيطـة بهم من كل الجوانب)^٢ ، في حين أن موطن المؤمنين جنات عدن وهي كما قيل عنها (سرّة الجنة أي وسطها وسائر الجنات محدقة بها)^٣ وهي كما روي فيها عن الرسول صلى الله عليه وسلم (إن الله بنى جنات عدن بيده وبنّاؤها لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، وجعل ملاطها المسك الأذفر ، وترابها الزعفران وحبها اللؤلؤ ، ثم قال لها تكلمي فقالت : قد أفلح المؤمنون فقالت الملائكة : طوبى لك منزل الملوك)^٤ ، فهذه الجنان مقامها عالٍ وريحها طيب في مقابل سفول مقام النيران وخبث وفتن ریح اشتواء اللحوم والأبدان فيها ، وريح المهل والصديد والغساق وغيرها . ويعذب الكفرة تهكماً^٥ حين يغاثون بعد احتراقهم بالمهل ، لأنهم تهكموا بالحق وعذبوا أهله ، في حين يُعلى من شأن المؤمنين الذين أعلوا شأن الحق بما يُسبغ عليهم من نعيم الملك من الأساور والحلي وثياب الحرير والاتكاء على الأرائك .

ويتهكم بالكفرة أيضاً حين يثبت لهم مرتفقاً^٦ ، في قوله : " وساءت مرتفقاً " في حين يكرم المؤمنون عاملو الصالحات بهذا المرتفق في قوله : " وحسنت مرتفقاً " ويتمايز حال المرتفقين حين يوضع ثانيهما مقابل أولهما^٧ فقد قيل في الأول " بئس الشراب وساءت مرتفقاً " فذم شرابه وذمّ حاله ، وقيل في الثاني " نعم الثواب وحسنت مرتفقاً " فمدح ما فيه من نعيم ومدح حاله . ومع إجمال ما في الجملتين من أحوال بما دلت عليه أفعال الذم والمدح (بئس ، ساءت ، نعم ، حسنت) فإنها قد دلت على تباين أحوال الفريقين .

١ - انظر الطاهر جـ ١٥ ص ٣٠٨ .

٢ - الرازي جـ ٢١ ص ١٢٠ .

٣ - القرطبي جـ ١٠ ص ٣٩٦ .

٤ - ذكره ابن قيم الجوزية ، حادي الأرواح ص ١٠٥ عن أبي الشيخ وذكر رواية أخرى قريبة عن ابن أبي الدنيا ص ٨٦ .

٥ - انظر الزمخشري جـ ٢ ص ٤٨٢ ، ابن عطية جـ ١٠ ص ٣٩٦ ، الرازي جـ ٢١ ص ١٢٠ ، البقاعي جـ ١٢ ص ٥٣ ، حاشية

الشهاب جـ ٦ ص ٩٨ المتن والهامش ، محيي الدين زادة جـ ٣ ص ٢٥٩ ، الطاهر جـ ١٥ ص ٣٠٨ .

٦ - انظر الشهاب جـ ٦ ص ٩٨ ، حاشية محيي الدين زادة جـ ٣ ص ٢٦٠ ، الألوسي جـ ١٥ ص ٢٦٩ ، الطاهر جـ ١٥ ص ٣٠٩

٧ - أشار للمقابلة الرازي جـ ٢١ ص ١٢٢ ، ابن كثير جـ ٤ ص ٣٨٦ ، الطاهر جـ ١٥ ص ٣١٤ .

وقد يمكن لحظ أن مقابلة الشراب المذموم في قوله : " بئس الشراب " بالثواب في قوله : " نعم الثواب " هي من قبيل مقابلة الشيء بلازم مقابله فإن الشراب لازم العقاب المقابل للثواب وإلا ما ساغت مقابله به .

وتأتي التحلية واللباس جزاء للذين آمنوا وعملوا الصالحات في سورة الحج في قوله تعالى :

﴿ هَذَا نِ حَصْمَانِ اَحْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ط فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْمِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا ارَادُوا اَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ اِنَّ اللّٰهَ يُدْخِلُ الَّذِيْنَ اٰمَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ اَسْوَدٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ط وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوًا اِلَى الطَّيِّبِ مِنْ الْقَوْلِ وَهُدُوًا اِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

الحج ١٩ - ٢٤ مدنية

فالأيات تتحدث عن جزاء فريقى الإيمان والكفر بعد ذكر تفرقهما بين مطيع وعاصٍ^١ وذكر الفصل بينهما في قوله : " إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين و النصارى و المجوس و الذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض و الشمس والقمر و النجوم و الجبال والشجر و الدواب و كثير من الناس و كثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما

^١ - انظر ابن جرير جـ ١٧ ص ١٠٠ ابن كثير جـ ٤ ص ٦٢٥ البقاعي جـ ١٣ ص ٢٨ ، أبو السعود جـ ٦ ص ١٠١ ، الطاهر جـ ١٧ ص ٢٢٨ .

له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء " ١٧ - ١٨ ، ولعل البدء بفريق الكفرة أولاً أبلغ في الردع بعد ذكر الخصومة وقال البقاعي (بدأ بالترهيب لأن الإنسان إليه أحوج)^١ فهؤلاء الكفرة تقطع لهم ثياب من نار مهولة (ويجوز أن تظاهر على كل واحد منهم تلك النيران كالثياب المظاهرة على اللابس بعضها فوق بعض)^٢ ، فتذيب جلودهم وأجسادهم ويمتد العذاب شوطاً آخر حين يصب فوق رؤوسهم الحميم الذي ورد فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلب ما في جوفه حتى يبرق من قدميه)^٣ ، ولعل الحكمة من مجيء قوله تعالى : " يصب من فوق رؤوسهم الحميم " دون " عذاب الحميم " الوارد في آية الدخان ، هو أن المذكور قبله هنا من تقطيع الثياب من النار وبعده من مقامع من الحديد قد وضح العذاب وشموله ، بخلاف آية الدخان التي لم يذكر فيها ذلك فجاء جعل المصبوب هو العذاب توضيحاً لما لم يذكر . وقد قدم لفظ البطن على الأمعاء قيل : لبيان أن (تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظاهر)^٤ ، وقيل (لمراعاة الفواصل أو للإشعار بغاية شدة الحرارة بإيهام أن تأثيرها في الباطن أقدم من تأثيرها في الظاهر مع أن ملابستها على العكس)^٥ ، وأضيف قول آخر وهو (أن التأثير في الظاهر ظاهر غني عن البيان وإنما ذكر للإشارة إلى تساويهما ولذا قدم الباطن لأنه المقصود الأهم)^٦ وردّ د . الخضري القول بمراعاة الفواصل وذهب إلى (أن ترتيب الألفاظ جاء على وفق ترتيب المعاني دون مخالفة للأصل لأن الحميم يُصب من فوق الرأس فينفذ منها إلى البطن و يبدأ في صهرها حتى ينتهي إلى الجلد)^٧ . ويضاف إلى عذابهم بالصهر بحرارة الحميم، القمع بالحديد في قوله تعالى : " ولهم مقامع من حديد " وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لو أن مقمعاً من حديد وضع في

١ - البقاعي ج ١٣ ص ٢٩ .

٢ - الزمخشري ج ٣ ص ٩ ، وقد ألمح هذا البقاعي ج ١٣ ص ٢٩ ، و البيضاوي والشهاب في حاشية الشهاب ج ٦ ص ٢٨٩ المسنن والهامش ، والألوسي ج ١٧ ص ١٣٤ .

٣ - مسند أحمد ، باقي مسند المكثرين ، حديث رقم (٨٥٠٩) ، سنن الترمذي كتاب صفة جهنم حديث رقم (٢٥٠٥) برواية (الحميم) بدل الجمجمة وإضافة (وهو الصهر ثم يعاد كما كان) موسوعة الحديث الشريف .

٤ - الزمخشري ج ٣ ص ٩ ، وانظر الرازي ج ٢٣ ص ٢٢ ، أبو حيان ج ٦ ص ٣٣٤ ، البقاعي ج ١٣ ص ٣٠ .

٥ - أبو السعود ج ٦ ص ١٠١ ، وانظر حاشية الشهاب ج ٦ ص ٢٨٩ المتن والهامش .

٦ - حاشية الشهاب ج ٦ ص ٢٨٩ .

٧ - د . الخضري ، من أسرار المغايرة ص ٢٧ .

الأرض فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض " ^١ وحين تشتد بهم الغموم والكروب بين رفع السنة النيران وخفضها لهم كما روي عن الحسن ^٢ فيحاولون الخروج منها ، يعادون في النار زيادة في (التمكن والاستقرار) ^٣ ، وفي هذا عذاب نفسي عظيم يردفه عذاب نفسي آخر هو عذاب الإهانة بأن يقال لهم " ذوقوا عذاب الحريق " وهو (الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك) ^٤ . وقد أشرت في موضع سابق إلى أن الذوق يدل من بعض وجوهه على أن هذا المذاق قدر ضئيلٌ تتبعه مقادير أكبر ^٥ ، ومن هنا يمكن القول بأن العبارة الأخيرة تفتح باباً لتصوير أنواع كثيرة من عذابات أهل الكفر في النار - أعاذنا الله منها - التي ذكرت في مواضع أخرى من القرآن نحو السحب على الوجوه في النار ونضج الجلود وسلاسل وأغلال النيران وغير ذلك كثير .

أما المؤمنون فإن الله تعالى يكرمهم بإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار وهي جنات عالية كثيفة الظلال غزيرة الأنهار طيبة الهواء مشرقة الضياء يحلون فيها بأنواع الحلبيّ المختلفة من أساور من ذهب ومن لؤلؤ على اختلاف المفسرين في المقصود منهما ، فقد ذهب بعضهم إلى أن المعنى يحلون فيها من أساور ويحلون لؤلؤاً فيكون اللؤلؤ - على قراءة النصب - ^٦ في غير الأساور ولعله في التيجان . وقد ورد قول كعب الأحبار (إن في الجنة ملكاً لو شئت أن أسميه لسमितه يصوغ لأهل الجنة الحلبي منذ خلقه الله إلى يوم القيامة لو أبرز قلب منها - أي سوار منها - لرد شعاع الشمس كما ترد الشمس نور القمر) ^٧ ، وذهب آخرون - على قراءة الخفض ^٨ لكلمة لؤلؤ - إلى معنى : يحلون فيها من أساور من ذهب ومن لؤلؤ .

^١ - مسند أحمد ، باقي مسند المكثرين حديث رقم (١٠٨٠٣) موسوعة الحديث الشريف .

^٢ - انظر الزمخشري ج ٣ ص ٩ ، الرازي ج ٢٣ ص ٢٢ ، البقاعي ج ١٣ ص ٣٠ .

^٣ - الشهاب ج ٦ ص ٢٩٠ .

^٤ - الزمخشري ج ٣ ص ٩ ، وانظر الرازي ج ٢٣ ص ٢٢ ، أبو السعود ج ٦ ص ١٠٢ .

^٥ - انظر الحديث عن آية الدخان .

^٦ - انظر ابن جرير ج ١٧ ص ١٠١ الزمخشري ج ٣ ص ١٠ ، البقاعي ج ١٣ ص ٣١ ، أبو السعود ج ٦ ص ١٠٢ ، حاشية

الشهاب ج ٦ ص ٢٩٠ المتن والهامش ، الطاهر ج ١٧ ص ٢٣٢ .

^٧ - أورده ابن كثير ج ٤ ص ٦٢٧ ولم يسنده ، والألوسي في تفسير آية الكهف ج ١٥ ص ٢٧٠ عن أبي الشيخ مع مجموعة من

الأحاديث حول حلي أهل الجنة .

^٨ - انظر ابن جرير ج ١٧ ص ١٠٢ ابن كثير ج ٤ ص ٦٢٧ حيث عقب بقوله (في أيديهم) مما يدل على أنه مع قراءة الخفض ،

الألوسي ج ١٧ ص ١٣٦ .

وقد تحدث أبو السعود و البيضاوي والشهاب والألوسي عن تباين جملي التحلية واللباس في الفعلية والاسمية في قوله : " يجلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير " وذهبوا إلى أن السبب في أنه لم يقل ويلبسون هو (للإيذان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غني عن البيان إذ لا يمكن عراؤهم عنه وإنما المحتاج إلى البيان أن لباسهم ماذا بخلاف الأساور واللؤلؤ فإنها ليست من اللوازم الضرورية فجعل بيان تحليتهم بما مقصوداً بالذات)^١، فلعل أبا السعود قد رأى في دلالة الفعل المضارع تجسيدا واستحضارا لحال التحلية في حين رأى في الجملة الاسمية دلالة التحقق والثبوت وبقي بيان لباسهم مم هو ؟ وقد ذكر هو^٢ ومن تبعه^٣ أن هذا السبب ذاته قد يكون الباعث إلى تقدم التحلية على اللباس .

أما دلالة البناء للمفعول فلم يتعرضوا لها هنا ولعل ذلك اكتفاء بما في آية الكهف وهو أنه قد يكون نوعاً من التكريم يتم لهم بواسطة غيرهم كما هي عادة الملوك^٤ ، أو أنهم يجدون أنفسهم محلين بتكوين الله^٥ ، وهذا غاية النعيم المادي الذي يكتمل بنعيمهم الروحي في هدايتهم إلى الطيب من القول ، وإلى طريق الجنة على اختلاف المفسرين في المراد بهما . فقد ذهبوا في معنى الطيب من القول إلى أنه في الدنيا قول (لا إله إلا الله)^٦ ، أو القرآن^٧ ، أو قولهم في الجنة " الحمد لله الذي صدقنا وعده "^٨ ، أو قيل الملائكة لهم سلاماً^٩ و ذهبوا في الهداية إلى صراط الحميد إلى أنه الإسلام^{١٠} ، أو

^١ - أبو السعود ج ٦ ص ١٠٢ ، وانظر الألوسي ج ١٧ ص ١٣٦ .

^٢ - انظر المصدر السابق .

^٣ - انظر الألوسي في تفسير آية الحج ج ١٧ ص ١٣٦ وآية فاطر ج ٢٢ ص ١٩٩ .

^٤ - انظر الألوسي ج ١٥ ص ٢٧٢ .

^٥ - انظر الطاهر ج ١٥ ص ٣١٢ .

^٦ - انظر ابن جرير ج ١٧ ص ١٠٢ ، الرازي ج ٢٣ ص ٢٢ .

^٧ - انظر الرازي ج ٢٣ ص ٢٢ .

^٨ - انظر الزمخشري ج ٣ ص ١٠ ، أبو السعود ج ٦ ص ١٠٢ ، البيضاوي بhamش حاشية الشهاب ج ٦ ص ٢٩٠ ، الطاهر ج ١٧ ص ٢٣٤ .

^٩ - انظر ابن كثير ج ٤ ص ٦٢٧ ، الطاهر ج ١٧ ص ٢٣٤ .

^{١٠} - انظر ابن جرير ج ١٧ ص ١٠٢ ، ابن كثير ج ٤ ص ٦٢٧ ، أبو السعود ج ٦ ص ١٠٢ ، الشهاب ج ٦ ص ٢٩١ ، الألوسي ج ١٧ ص ١٣٧ ، الطاهر ج ١٧ ص ٢٣٥ .

طريق الجنة^١ ، أو المكان الذي يحمدون فيه ربهم^٢ ، أو المكان الذي يحمد فيه سلوكهم ومعاشرتهم^٣ .

وأول عناصر المقابلة التي تلقانا في الآيات هو إغفال ذكر الكفرة والتركيز على عذابهم في نحو (قُطعت ، يصب ، لهم مقامع ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) مع ما في تشديد فعلي (قُطعت ، ويصب) من تصوير معنى الشدة ، في مقابل إسناد إدخال المؤمنين الجنة إلى الله تعالى (إحماداً لحال المؤمنين وتعظيماً لشأنهم)^٤ ، وإسناد التحلية واللباس والهداية لهم .

كما تتجلى أيضاً (في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم)^٥ بثياب المؤمنين الذين عملوا الصالحات المصنوعة من الحرير استبرقه وسندسه . فثياب النار تتظاهر على الكفرة فتحرق جلودهم وتؤذي لحومهم - نعوذ بالله منها - مقابل ثياب الحرير التي تتظاهر بنعومتها على أبحاث وأجساد الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وبينما نرى هؤلاء الكفرة تتساقط جلودهم وتذوب أجسادهم من صب الحميم نرى المؤمنين ينعمون باستقرار في جنات تحيط بهم من كل مكان ، تجري من تحتهم الأنهار . وقد نبه البقاعي إلى أن هذا (مقابلة ما يجري من فوق رؤوس أهل النار)^٦ ، فكأنه يشير إلى علو المؤمنين فوق الأنهار مقابل علو العذاب على الكفرة . ثم رأى البقاعي نفسه جانباً آخر للمقابلة حين جعل التحلية بالأساور واللؤلؤ (في مقابلة ما يزال من بواطن الكفرة وظواهرهم)^٧ فلعله قصد أن زوال الجلود واللحوم من شدة العذاب يقابل كمال التنعم بالتحلي لزيادة الثواب .

أما قوله : " كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها " فقد جعله الطاهر مقابلاً لقوله تعالى " يدخل الذين آمنوا^٨ فلعله أراد مقابلة السبب في هروبهم من النار وهو لقيامهم العذاب الشديد بالسبب في دخول أولئك الجنة وهو تنعيم الله تعالى لهم بذلك .

^١ - انظر الزمخشري ج ٣ ص ١٠ ، أبو السعود ج ٦ ص ١٠٢ ، الشهاب ج ٦ ص ٢٩١ ، الألوسي ج ١٧ ص ١٣٧ .

^٢ - انظر ابن كثير ج ٤ ص ٦٢٧ .

^٣ - انظر الألوسي ج ١٧ ص ١٣٧ .

^٤ - البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ج ٦ ص ٢٩٠ .

^٥ - ابن كثير ج ٤ ص ٦٢٧ ، وانظر البقاعي ج ١٣ ص ٣١ ، والطاهر ج ١٧ ص ٢٣١ .

^٦ - البقاعي ج ١٣ ص ٣١ .

^٧ - البقاعي ج ١٣ ص ٣١ ، وتبعه الطاهر ج ١٧ ص ٢٣١ .

^٨ - انظر الطاهر ج ١٧ ص ٢٣١ .

ويمكن أن يقال إن في قوله: " كلما أرادوا " غمّاً وكرهاً يقابل أنس المؤمنين وبهجتهم في الجنة ، فيفرّ هؤلاء من العذاب مقابل هداية المؤمنين إلى الجنة . ويخاطب هؤلاء الكفار بمهانة في قوله: " ذوقوا عذاب الحريق " مقابل ما يكرم به المؤمنون من سماع الكلام الطيب أو تكلمهم به ^١ ، نحو التسبيح والتحميد الذي ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم يلهمون كما يلهمون النفس ^٢ ، فهو نوع من النعيم بالتلذذ بذكر الله . هذا وقد علق الطاهر على قوله " وهدوا إلى صراط الحميد " قائلاً: (ولم يسبق مقابل لمضمون هذه الجملة بالنسبة لأحوال الكافرين وسيجيء ذكر مقابلها في قوله: " إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله إلى صراط الحميد في الدنيا وهو دين الإسلام ... " إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه و الباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم " هذا مقابل قوله " وهدوا إلى صراط الحميد " بالنسبة إلى أحوال المشركين ... فموقع هذه الجملة الاستئناف البياني والمعنى كما كان سبب استحقاق المؤمنين ذلك النعيم اتباعهم صراط الله كذلك كان سبب استحقاق المشركين ذلك العذاب كفرهم وصدّهم عن سبيل الله) ^٣ فالذي سوّغ المقابلة بين جملة " هدوا إلى صراط الحميد " وقوله " إن الذين كفروا ... " كما ذهب الطاهر جعل الصراط المقصود في الدنيا ، فقبول بالكفر والصد عن سبيل الله فيها أيضاً ولو قلنا بغير ذلك لما أمكن إلا على تكلف .

بين فاطر والكهف والإنسان والحج :

قبل أن نترك هذا الموضوع يجدر بنا أن نقف قليلاً عند تشابه آيات سورتي الكهف والحج السابق ذكرهما مع آيات سورتين أُخريين سبقت دراسة إحداهما وهي فاطر وسترد دراسة الأخرى في الفصل الثاني من هذا الباب فقد وردت التحلية في هذه المواضع الأربعة

^١ - انظر ابن كثير ج ٤ ص ٦٢٧ ، الطاهر ج ١٧ ص ٢٣٤ .

^٢ - ورد في صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها حديث رقم (٥٠٦٦) عن جابر قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول (أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون قالوا فما بال الطعام قال : شجاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس) وأيضاً حديث رقم (٥٠٦٧) وفي مسند أحمد ، باقي مسند المكثرين حديث رقم (١٤٢٤٢) و (١٤٢٨٧) و (١٤٥٨٥) وفي سنن الدارمي كتاب الرقاق حديث رقم (٢٧٠٦) موسوعة الحديث الشريف .

^٣ - الطاهر ج ١٧ ص ٢٣٥ .

في القرآن على الترتيب التالي - حسب النزول - قال تعالى : " جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير " فاطر آية ٣٣ ، سورة رقم ٤٣ مكية . قال تعالى : " أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفعاً " الكهف آية ٣١ سورة ٦٩ مكية ، وقال تعالى : " إن الله يدخل الذين آمنوا و عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير " الحج ٢٣ سورة رقم ١٠٣ مدنية ، وقال تعالى : " عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً " الإنسان آية ٢١ سورة رقم ٩٨ مدنية .

و أول ما نلاحظ في هذه الآيات هو تشابه آية فاطر والكهف والحج في تقديم التحلية على اللباس وتأخرها عنه في الإنسان . وقد أشار الطاهر إلى الحكمة من ذلك في تفسيره لآية الكهف فقال : (وقدّم ذكر الحلّي على اللباس هنا لأن ذلك وقع صفة للجنات ابتداءً وكانت مظاهر الحلّي أجهج للجنات فقد ذكر الحلّي وأخّر اللباس ، لأن اللباس أشد اتصالاً بأصحاب الجنة لا بمظاهر الجنة وعكس ذلك في سورة الإنسان في قوله : " عاليهم ثياب سندس " ، لأن الكلام هناك جرى على صفات أصحاب الجنة)^١ . وفي تقديم التحلية على اللباس تفاوت المفسرون بين قائل بأن التقديم (لأن الحلّي في النفس أعظم وإلى القلب أحب وفي القيمة أغلى وفي العين أحلى)^٢ . وآخر بأن التحلية مقصودة لذاتها^٣ وجعل الذهاب إلى هذا القول قصد التحلية سبباً في بنائها للمفعول^٤ ، في حين ذهب آخرون إلى أن البناء للمجهول للدلالة على أن غير المؤمنين هو الذي يحليهم على عادة الملوك^٥ .

أما أنواع التحلية فإن اختلاف المفسرين في معنى حرف الجر (من) في قوله : " من أساور " ، واختلاف القراء في قراءة " لؤلؤ " بين النصب والخفض قد جعل هناك عدة

^١ - الطاهر جـ ١٥ ص ٣١٤ .

^٢ - أبو حيان جـ ٦ ص ١١٧ ، في تفسير آية الكهف ، وانظر الألويسي جـ ١٥ ص ٢٧٢ .

^٣ - ذكر ذلك أبو السعود في تفسير آية الحج جـ ٥ ص ١٠٢ ، والألويسي جـ ١٧ ص ١٣٦ وذكره في آية فاطر ، انظر أبو السعود

جـ ٧ ص ١٥٣ ، والألويسي جـ ٢٢ ص ١٩٩ .

^٤ - انظر المصادر السابقة .

^٥ - ذكر ذلك أبو حيان جـ ٦ ص ١١٧ في تفسيره لآية الكهف وتبعه الألويسي جـ ١٥ ص ٢٧٢ .

احتمالات ، فقد ذهب الزمخشري في آية الكهف إلى أن (من) في قوله : " من أساور " معناها الابتداء^١ ، وذكر في آية فاطر أنها للتبعيض^٢ ، في حين سكت عنها في آية الحج والإنسان ، ولا أجد فرقاً بين موضعها في آية الكهف وفي آية فاطر إلا إضافة لفظ اللؤلؤ في فاطر وهنا يظهر احتمال أن يكون قد جعلها ابتدائية في الكهف لتشمل غير الذهب من لؤلؤ ونحوه .

ولكن الألوسي قد ذهب في آية الحج المشابهة لآية فاطر إلى أن معناها الابتداء . فإذا صح الاحتمال المذكور عن الزمخشري كان قصد الألوسي الابتداء من الذهب واللؤلؤ فيشمل التحلي حلية الذهب واللؤلؤ وأنواعاً أخرى من الجواهر . أما على الأقوال التي تجعل (من) للتبعيض ، أو زائدة ، فلا دلالة فيها على دخول غيرها وإنما تشير إلى أن ما يزين به هؤلاء المؤمنين بعضاً مما هو موجود من الأنواع المذكورة في الجنة .

وأما قراءة (لؤلؤ) فقد يحتمل على قراءة النصب أنه في غير السوار وعلى قراءة الخفض أن السوار من ذهب ولؤلؤ .

ويتأيد القول الأول بأحاديث أوردها المفسرون في تفسير آية فاطر ، توحى بأن التحلي باللؤلؤ لا يقتصر على السوار ، فقد أورد ابن كثير حديثاً رواه ابن أبي حاتم جاء فيه أن أبا أمامة رضي الله عنه حدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم وذكر حلي أهل الجنة فقال : (مسورون بالذهب والفضة مكلفة بالدر و عليهم أكاليل من در وياقوت متواصلة و عليهم تاج كتاج الملوك شباب جردٌ مُردٌ مكحولون)^٣ ، وروى الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب)^٤ ، وقد يتأيد أيضاً بالحديث السابق ذكره عن حلية

١ - انظر الزمخشري جـ ٢ ص ٤٨٣ وتبعه أبو حيان جـ ٦ ص ١١٦ ، أبو السعود جـ ٥ ص ٢٢٠ ، حاشية الشهاب جـ ٩٨ ص ٩٩ المتن والهامش ، الألوسي جـ ١٥ ص ٢٧٠ .

٢ - انظر الزمخشري جـ ٣ ص ٣١٠ ، البيضاوي بهامش حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٢٢٧ .

٣ - انظر ابن كثير جـ ٥ ص ٥٨٧ . ولم أجد في موسوعة الحديث الشريف أو الموسوعة الذهبية .

٤ - سنن الترمذي ، كتاب صفة الجنة حديث رقم (٢٤٨٦) وذكر الألوسي جـ ٢٢ ص ١٩٩ أن الحاكم صححه ، والبيهقي عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا الآية فقال ...

المؤمن ، وأنها تبلغ حيث يبلغ الوضوء . ومن المعلوم أن الوضوء يشمل مواضع عديدة من مواضع الحلي كمواضع التيجان والأقراط وغيرها .

وقد ذكر بعض المفسرين في آية الكهف^١ ، وأغلبهم في آية الإنسان، التوفيق بين أن يكون للمسلم سوار من فضة وسوار من ذهب وسوار من لؤلؤ . فذكروا عند الحديث عن آية الكهف أنه يكون لكل واحد منهم ثلاثة أسورة^٢ ، وذهبوا في ذكر الذهب والفضة إلى أنه إما على المعاقبة^٣ ، أي يلبسون هذه مرة وتلك مرة أخرى ، أو على الجمع بينهما^٤ ، بأن يكون في يد كل مؤمن سواران ، أو على (التبويض بأن تكون أساور بعض ذهباً وبعض فضة)^٥ ، أو حسب استحسان كل إنسان ، لأن (الطباع مختلفة فرب إنسان يكون استحسانه لبياض الفضة فوق استحسانه لصفرة الذهب فالله تعالى يعطي كل أحد ما تكون رغبته فيه أتم ، وميله إليه أشد)^٦ ، أو تكون الفضة للرجل والذهب للمرأة^٧ أو أن أسورة الفضة للأبرار والذهب للمقربين^٨ أو أن أسورة الفضة للولدان والذهب للناس^٩ .

وقد ذكر البقاعي في الحكمة من تخصيص سورة الإنسان بالفضة أنه (لما كان مقصود هذه السورة ترهيب الإنسان الموبخ في سورة القيامة من الكفر ، وكان الإنسان أدنى أسنان المخاطبين في مراتب الخطاب ، اقتصر في الترغيب في شرف الآنية على الفضة دون الذهب المذكور في فاطر والحج ، المعبر فيهما بالناس فلعل هذا لصنف وذاك لصنف^{١٠} أعلى منه ، مع إمكان الجمع والمعاقبة ، وأما من هو أعلى من هذين الصنفين من الذين آمنوا ومن فوقهم ، فلهم فوق هذين الجوهرين من الجواهر مالا عين رأت ولا أذن

^١ - انظر القرطبي جـ ١٠ ص ٣٩٦ .

^٢ - انظر الرازي جـ ٢١ ص ١٢٢ ، القرطبي جـ ١٠ ص ٣٩٦ وذكر ذلك في الحديث عن آية الإنسان القرطبي جـ ١٩ ص ١٤٥ .

^٣ - انظر الزمخشري جـ ٤ ص ٢٠٠ ، الرازي جـ ٢٩ ص ٢٥٣ ، القرطبي جـ ١٩ ص ١٤٥ حاشية الشهاب جـ ٨ ص ٢٩١ المتن والهامش ، أبو السعود جـ ٩ ص ٧٥ ، الألويسي جـ ٢٩ ص ١٦٣ ، الطاهر جـ ٢٩ ص ٤٠٠ .

^٤ - انظر المصادر السابقة .

^٥ - الشهاب جـ ٨ ص ٢٩٢ وانظر أبو السعود جـ ٩ ص ٧٥ ، الألويسي جـ ٢٩ ص ١٦٣ .

^٦ - الرازي جـ ٣٠ ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

^٧ - انظر القرطبي جـ ١٩ ص ١٤٥ .

^٨ - انظر ابن كثير جـ ٧ ص ١٨٥ ، وأشار أبو السعود جـ ٩ ص ٧٥ إلى ارتباط ذلك بدرجات الأعمال .

^٩ - انظر الرازي جـ ٢٩ ص ٢٥٤ .

^{١٠} - في النص لصنف ولعله خطأ مطبعي و الصواب لصنف .

سمعت ولا خطر على قلب بشر) ^١ ، فهو يرى في دنو درجة الفضة عن الذهب دلالة على أن البشارة بها للإنسان عامة ، وليست مخصوصة بدرجة عالية من الإيمان ، وسبب عدم اختصاصها بتلك الدرجة العالية ، هو أن موضوع السورة في ترهيب الإنسان الكافر المذكور في سورة القيامة السابقة عليها في ترتيب المصحف ، فناسب الاقتصار في الترغيب على الفضة. وذكر الطاهر عند الحديث عن آية الكهف التي ذكر فيها الذهب أن (في الكلام اكتفاء أي من ذهب وفضة ، كما اكتفى في آية سورة الإنسان بذكر الفضة عن ذكر الذهب) ^٢ .

هذا وقد توقف عدد من المفسرين عند مسألة تحلي الرجال بالأساور فأشار الألويسي في آية الكهف إلى أن التساؤل بأن (لبس الرجال الأساور عيب في الدنيا فكيف يحلوها في الآخرة ؟ مندفع بأن كونه عيباً إنما هو بين قوم لم يعتادوه ، لا مطلقاً) ^٣ وأجاب الرازي عن السؤال عند حديثه عن آية الإنسان بأن (أهل الجنة جرد مرد شباب فلا يعد أن يحلوا ذهباً وفضة وإن كانوا رجالاً) ^٤ . ولكن البقاعي ذهب إلى حكمة أشبه بتكريم الثواب وأشد التثاماً مع غيرها من مظاهره ، كتحلّيتهم بواسطة غيرهم ، واتكائهم على الأرائك ، وارتدائهم الحرير الأخضر ، وهي أن الأساور من حلي ملوك الأرض . أشار إلى ذلك في تفسيره لآية الكهف إشارة موجزة ^٥ ، وضّحها في تفسيره لآية الإنسان حين جعل لذهبا تجمع إلى لذة الزينة (لذة اتساع الملك فإنها كناية عنه فإنه - كما قال الملوي - كان في الزمن القديم إذا ملك ملكاً أقاليم عظيمة كثيرة ، لبس سواراً وسمى الملك المسوّر لاتساع مملكته وعظمتها وكثرة أقاليمها . وإن لم تجمع أقاليم لم يسور) ^٦ ، وجعله الطاهر من شعار الملوك عموماً حين قال (ولا يلبسه الرجال إلا الملوك وقد ورد في الحديث ذكر سوارى كسرى ، والمعنى أن حال رجال أهل الجنة حال الملوك) ^٧ .

^١ - البقاعي جـ ٢١ ص ١٤٤ .

^٢ - الطاهر جـ ١٥ ص ٣١٢ .

^٣ - الألويسي جـ ١٥ ص ٢٧٠ ، ومثله ما جاء في تفسيره لآية الإنسان جـ ٢٩ ص ١٦٣ .

^٤ - الرازي جـ ٣٠ ص ٢٥٤ .

^٥ - انظر البقاعي جـ ١٢ ص ٥٥ .

^٦ - البقاعي جـ ٢١ ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

^٧ - الطاهر جـ ٢٩ ص ٤٠٠ .

هذا والملحوظ أن المواضع الأربعة قد أشارت إلى العمل نحو السبق بالخيرات في فاطر في قوله: "ومنهم سابق بالخيرات"، وفي الكهف "الذين آمنوا وعملوا الصالحات"، ومثلها الحج، وفي الإنسان فصل في ذكر هذه الأعمال نحو "يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً" فلعل هناك ارتباطاً بين ذكر التحلي بأنواع الحلبي، الدال على الفراغ والغنى، والأعمال التي كانوا يصرفون همهم إليها في الدنيا. هذا ومما لحظت أيضاً أن آيتي فاطر والحج التي ذكر فيها اللؤلؤ ضمن التحلي، ذكر فيها القول الطيب فقد جاء في فاطر: "وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب"، وجاء في الحج "وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد" فلعل هذا اللهج بالحمد في قوله "الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله" آية الأعراف السابق ذكرها الذي ورد أنه عند رؤية النعيم يدل بذكره هنا على أن لهؤلاء درجة أعلى من النعيم أشار إليها إضافة اللؤلؤ إلى التحلي ولا ياباه - إن صح هذا القول - كون المواضع الأربعة في ذكر الإيمان مع العمل لأن درجات الإيمان متفاوتة وكذلك الأعمال.

ومن المواضع التي قوبل فيها جزاء الإيمان والعمل الصالح بالكفر سورة يونس، حيث جاءت المقابلة بين فريق لا يؤمن باليوم الآخر، ولا بالثواب والعقاب، وينغمس في ملذات الدنيا وشهواتها على نحو ما جاء في قوله تعالى "من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها" هود ١٥ مكية^١، وفريق آخر آمن بالآيات التي غفل عنها الغافلون أو بكل ما يجب أن يؤمن به فيدخل في ذلك هذه الآيات وغيرها^٢ وحققوا إيمانهم بالعمل الصالح يقول تعالى:

^١ - أشار إلى التشابه مجاهد، فيما نقله عنه ابن جرير جـ ١١ ص ٦٣.

^٢ - انظر أبو السعود جـ ٤ ص ١٢٣.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَطْمَأَنُّوا
 بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَاؤُنْهْمُ
 النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِآيَاتِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ
 فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَانَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ
 فِيهَا سَلَامٌ وَأَخِرَ دَعْوَانَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

يونس (٧ - ١٠) مكية

فالفريق الأول قد غفل عن الآخرة بانشغاله باللذات العاجلة ، راکناً إلى الدنيا مقبلاً
 عليها مطمئناً بها ، و (الطمأنينة بالشيء هي زوال التحرك إلى غيره)^١ فهو فريق معطل
 القوى ، راکد الحركة . وزاد حرف الباء في تصوير شدة ملابسته لأحوال الدنيا ، ودوام
 مصاحبته لها وأنسه بها^٢ ، فجعل جزاؤه النار مثوى ومأوى لا يفارقه ، كما كان في الدنيا راکناً
 إلى زينتها وزخارفها^٣ ، والفريق الثاني قد أعمل قواه الروحية والجسدية ، الروحية بالإيمان بما
 يجب الإيمان به ، والجسدية بعمل الصالحات ، جاعلاً الدنيا مزرعة للآخرة ، فكان جزاؤه أن
 عوضه الله عما حرم نفسه إياه من نعمة الدنيا ، بجنات النعيم التي أفادت الإضافة أنه (ليس
 فيها من غيره)^٤ ، أي النعيم ، وأكرمه بنعمة الحياة السليمة من كل مكروه ، وأسعده بنعمة
 ذكره بالتسبيح والتحميد في قوله : " دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر
 دعواهم أن الحمد لله رب العالمين " .

فالإيمان قوة روحية تقابل الركود والتعطيل الروحي - إن صح التعبير - المتمثل في عدم
 توقع اليوم الآخر ومن ثم توقع حصول الثواب والعقاب . وفي عمل الصالحات حركة وجهد ،
 يقابلها السكون والركون للدنيا والمتمثل في الطمأنينة بها .

^١ - ابن عطية ج ٩ ص ١٣ .

^٢ - انظر أبو السعود ج ٤ ص ١٢٢ .

^٣ - ألمح إلى هذا أبو السعود ج ٤ ص ١٢٣ .

^٤ - البقاعي ج ٩ ص ٧٩ .

وبالتأمل في الآيات نستطيع أن نلمح تفصيلاً فيما أتاه الفريق الأول من الأعمال ،
مقابل الإجمال لدى الفريق الآخر ، في حين نرى الإجمال في جزاء الفريق الأول ، يقابل
التفصيل في جزاء الفريق الثاني . وإذا علمنا أن المقابلة من سنن القرآن ، وأن من أنواع البديع
الموجودة فيه ما يسمى بالاحتباك وهو (أن تذكر جملتان في كل متقابلان ويحذف من كل ضد
ما ذكر في الأخرى)^١ إذا علمنا هذا ، فمن الممكن أن نستدل على الجمل بالمفصل . ذكرت
الآيات عن الكفار إتيانهم بثلاثة أمور :

- ١- إنكار البعث والحساب .
 - ٢- الرضا بالحياة الدنيا من الآخرة والركون إليها .
 - ٣- الاعراض عن آيات الله الدالة على وجوده ووحدانيته .
- وجاء جزاؤهم أن (مأواهم النار) مصدرًا باسم الإشارة أولئك (لزيادة إحضار
صفتهم في أذهان السامعين ، ولما يؤذن به مجيء اسم الإشارة مبتدأ عقب أوصاف ، من التنبيه
على أن المشار إليه جدير بالخبر من أجل تلك الأوصاف)^٢ ، ومختماً بعبارة الجزاء (بما كانوا
يكسبون) ، في حين أجمل عمل المؤمنين بقوله تعالى : " الذين آمنوا وعملوا الصالحات " فقد
ذكر عنهم :

- ١- إيمانهم بما يجب الإيمان به .
 - ٢- عملهم الصالحات .
- وجاء جزاؤهم مفصلاً في عدة أمور :-
- ١- هدايتهم للجنة في الآخرة^٣ ، أو لسلك سبيلها في الدنيا^٤ .
 - ٢- تلذذهم بذكر الله المتمثل في قوله : " دعواهم فيها سبحانك اللهم "
 - ٣- حياتهم الطيبة السالمة من كل مكروه ، المتمثلة في التحية بالسلام ، " وتحتهم فيها
سلام " ، لأن (التحية مأخوذة من تمنى الحياة للإنسان والدعاء بها ... والسلام مأخوذ من

١ - السيوطي ، عقود الجمان ، ج ٢ ص ١٤٢

٢ - الطاهر ج ١١ ص ١٠٠ .

٣ - انظر ابن جرير ج ١١ ص ٦٣ ، ابن عطية ج ٩ ص ١٤ ، الرازي ج ١٧ ص ٤١ ، القرطبي ج ٨ ص ٣١٢ ، الشهاب ج ٥
ص ٨ .

٤ - انظر المصادر السابقة ، الطاهر بن عاشور ج ١١ ص ١٠١ .

السلامة) ^١ .

٤- رضاهم وسرورهم بما هم فيه من النعيم المتمثل في الحمد " وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العلمين " .

فالمؤمنون في جنات النعيم بسعتها وظلالها وغرفها وعلياتها التي تجري من تحتها الأنهار ^٢ ، ينتقلون فيها حيث شاءوا ، ويتمتعون بصنوف نعيمها ، مقابل احتباس الكفار في النار يصب عليهم فيها صنوف العذاب .

وإذا كان من تمام لذة المؤمنين تسيحهم الله تعالى و تنزيههم له عن السوء ^٣ ، وعن خُلف الوعد ^٤ ، فإن من تمام عذاب الكفرة ونكدهم ، اعترافهم بتقصيرهم ، وبصدق وعد الله لهم. فالمؤمنون حين يرون مظاهر عظمة الله ورحمته يسبحونه و ينزهونه عن كل شوائب النقص والعجز ، وعن الخلف في الوعد ، لأنهم رأوا ما وعدهم به حقاً . يفعلون هذا تليذاً وإلهاماً من الله كما يلهمون النفس في حين تنطلق ألسنة الكفار بعبارات التندم والتحسر ، والاعتراف على أنفسهم بالكفر ، حين يرون صدق وعد الله ، الذي حُرِّموا خيره بعنادهم واستكبارهم في نحو : " قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير " الملك ٩ ، ونحو " قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين " الزمر ٧١ ، ونحو " فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم " الأعراف ٤٤ .

أما تحية السلام سواء كانت بين المؤمنين بعضهم بعضاً ، أو من الله ، أو من الملائكة ، لهم فهي تفيد أن أهل النار لا يُحيون بالسلام ، وإنما يخاطبون خطاب توبيخ وتقريع نحو " ذوقوا مسّ سقر " القمر ٤٨ ونحو : " ذق إنك أنت العزيز الكريم " الدخان ٤٩ ، كما تفيد أنهم لا يحيون بعضهم بالسلام ، وإنما هي الخصومة بين الأتباع والمتبوعين ، وتلاومهم وتلاعنهم في نحو : " هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار ، قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار " (ص) ٥٩ - ٦٠ ، ونحو " وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء

^١ - ابن عطية ج ٩ ص ١٥ .

^٢ - انظر ابن عطية ج ٩ ص ١٤ ، الرازي ج ١٧ ص ٤٣ ، القرطبي ج ٨ ص ٣١٢ ، البقاعي ج ٩ ص ٧٩ أبو السعود ج ٤ ص ١٢٤ ، الشهاب ج ٥ ص ٩ ، الطاهر ج ١١ ص ١٠٢ .

^٣ - انظر ابن عطية ج ٩ ص ١٤ ، ١٥ ، الرازي ج ١٧ ص ٤٤ ، البقاعي ج ٩ ص ٨٠ .

^٤ - انظر أبو السعود ج ٤ ص ١٢٤ .

قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواءً علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص " إبراهيم ٢١ ، ونحو : " إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب " البقرة ١٦٦ . فأولئك في أمن ووثام وهؤلاء في نكد وخصام .

أما الحمد وهو تمام نعمة المؤمنين حين يتقبلون في نعيم الجنة ، المفيد حسن حالهم ، فهو يُنبئ ضمناً عن سوء حال الكافرين ، حين لا يحمدون الله ، لأنهم في حال مضادة لحال هؤلاء ، بل إنهم يصطرخون في النار حين يشتد عذابهم ، ويطلبون الخروج منها ، أو الموت فيها كي يستريحوا نحو ما جاء في قوله تعالى : " وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً... الآية " فاطر ٣٧ ، ونحو : " نادوا يا مالك ليقض علينا ربك " الزخرف ٧٧ ، فغاية النعيم دعت للحمد وغاية العذاب دعت للاصطراخ في النار وطلب انقطاع عذابها .

وهكذا نجد أحوال وأقوال فريق المؤمنين عاملي الصالحات تنبئ عن سعادة ورضا وأمن واستقرار ، في حين ينبئ كون النار مأوى الكافرين عن سوء أحوال وأقوال من غفل عن آيات الله وركن إلى الدنيا دون أن يستعد ليوم الحساب .

ويأتي قوله تعالى : " من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون " الذي ذكر المفسرون أنه يشبه آية يونس^١ ، في سورة هود التالية لسورة يونس نزولاً وفي ترتيب المصحف^٢ ، في سياق يعرض بعض ما للكفار من (عادات كثيرة وطرق مختلفة فمنها شدة حرصهم على الدنيا ورغبتهم في تحصيلها... ومنها أنهم كانوا ينكرون نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ويقدمون في معجزاته... ومنها أنهم كانوا يزعمون في الأصنام أنها شفعاؤهم عند الله)^٣ ، في مقابلة كون المؤمنين على بينة من ربهم ، يؤمنون به ويعملون الصالحات من أجل ثواب الآخرة متوجهين بها إلى الله وحده . يقول تعالى :

^١ - انظر ابن جرير جـ ١١ ص ٦٣ حول تفسير آية يونس : " إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها "

^٢ - بترتيب النزول يونس رقم ٥١ هود ، رقم ٥٢ ، بترتيب المصحف يونس رقم ١٠ هود رقم ١١ .

^٣ - الرازي جـ ١٧ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ
أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ
فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ
وَمِن قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ
وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ

إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن
أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ
هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ

﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي
الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ

مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ
 الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ
 أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
 هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾

١٥ - ٢٣ هود، مكية

فالفريق المذكور في قوله " من كان يريد الحياة الدنيا ... " قد ضلَّ رشده وفقد هداه
 فجعل الدنيا (وجهه ومقصده لا مقصد له غيرها)^١ ، فعمل فيها رجاء نفعها فقط دون نظر
 للآخرة ، يقابله فريق (يريد وجه الله تعالى بأعماله الصالحة)^٢ اهتدى للحق ، وتوجه على بينة
 من ربه إليه ، فعمل في الدنيا رغبة في الآخرة . وقد أشار تركيب الآية إلى البون الشاسع
 والتفاوت البعيد بين الفريقين^٣ ، بحذف المعادل في قوله : " أفمن كان على بينة من ربه " ^٤ .
 يقول الزمخشري : (" أفمن كان ... " معناه أمن كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بينة ؟
 أي لا يعقبونهم في المنزلة و لا يقاربونهم . يريد أن بين الفريقين تفاوتاً بعيداً و تبايناً بيناً)^٥
 فهزمة الإنكار دخلت على معطوف عليه مقدر ، تقديره : أفمن كان يريد الحياة الدنيا و زينتها
 كمن كان على بينة من ربه يعمل للآخرة و قد استفاد من هذا التوجيه ، و أضاف إليه أبو
 السعود حين قال : (وإيراد الفاء بعد الهزمة لإنكار ترتب توهم المماثلة على ما ذكر من
 صفتهم وعدد من هنتهم ، كأنه قيل أبعد ظهور حالهم في الدنيا والآخرة كما وصف ، يتوهم

^١ - ابن عطية ج ٩ ص ١١٨ .

^٢ - أبو حيان ج ٥ ص ٢١١ ، وقد أشار إلى هذه المقابلة ابن جرير ج ١٢ ص ١٢ ، الزمخشري ج ٢ ص ٢٦٢ ، ابن عطية ج ٩
 ص ١٢٤ ، الرازي ج ١٧ ص ٢٠٠ ، القرطبي ج ٩ ص ١٦ ، البقاعي ج ٩ ص ٢٥٣ ، أبو السعود ج ٤ ص ١٩٥ ، البيضاوي
 والشهاب في حاشية الشهاب ج ٥ ص ٨٤ المتن والهامش ، الألوسي ج ١٢ ص ٢٩ .

^٣ - انظر الزمخشري ج ٢ ص ٢٦٢ ، أبو السعود ج ٤ ص ١٩٥ ، حاشية الشهاب ج ٥ ص ٨٤ المتن والهامش ، الألوسي ج ١٢
 ص ٢٩ .

^٤ - انظر ذكر حذف المعادل في المواضع المذكورة في الهامش ما قبل السابق .

^٥ - الزمخشري ج ٢ ص ٢٦٢ ، وانظر البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ج ٥ ص ٨٤ .

المماثلة بينهم وبين من كان على أحسن ما يكون في العاجل والآجل ؟)^١ ، فهمة الإنكار للإنكار على من يظن إمكان مماثلة من أراد الحياة الدنيا ، وصرف همه إلى زخرفها ومتاعها لمن أراد وجه الله وعمل لآخرته . وجعله الشهاب أبلغ مما ذكر فيه الطرفان ، لهذا الحذف فقال : (والخبر محذوف للدلالة الفاء أي يعقبونهم أو يقربونهم ، والاستفهام للإنكار فيفيد أنه لا تقارب بينهم فضلاً عن التماثل ، فلذلك صار أبلغ من نحو قوله : " أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ")^٢ لأن الآية هنا ذكرت عدم المساواة ولم تذكر الفريق المقابل ، وهو من أراد الحياة الدنيا . ومعلوم أن الحذف في مثل هذه المواطن أبلغ من الذكر ، لأنه يجعل النفس تذهب في تقدير المحذوف وهو مدى بعد الطرف الثاني عن الأول كل مذهب .^٣

وبعد بيان هذا التفاوت العظيم بين الفريقين ، تعود الآيات إلى تصوير حال الكفرة وتذكر بعضاً من أعمالهم نحو افتراءهم على الله الكذب في قوله : " ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً " حيث ادّعوا له الولد ، وزعموا أن الأصنام شفعاؤهم عنده ، وغير ذلك من افتراءات ، ونحو ضلالهم وإضلالهم عن سبيل الله في قوله : " الذين يصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون " . يقول أبو السعود ، عقب تفسيره لهذه الآيات : (وهذه الآيات الكريمة كما ترى مقررة لما سبق من إنكار المماثلة بين من كان على بينة من ربه ، وبين من كان يريد الحياة الدنيا أبلغ تقرير)^٤ . ثم تعود الآيات - كما ذكر^٥ - لتكمل محاسن المؤمنين المذكورة في قوله تعالى : " أفمن كان على بينة من ربه " فيتميز ما بين الفريقين تمييزاً كاملاً ، فتذكر مقابل ضلال أولئك إيمان هؤلاء ، ومقابل إضلالهم عمل هؤلاء للصالحات . وإذا توجه أولئك إلى الدنيا بأعمالهم يرجون نفعها ، معرضين عن ربهم ، نافرين

^١ - أبو السعود ج ٤ ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

^٢ - الشهاب ج ٥ ص ٨٤ .

^٣ - انظر الخطابي ، بيان إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ص ٥٢ .

^٤ - أبو السعود ج ٤ ص ١٩٧ .

^٥ - انظر المصدر السابق .

عن المحسن إليهم غلظة و جلافة^١ ، فقد توجه هؤلاء بأعمالهم إلى ربهم^٢ ، منقطعين إليه^٣ مخلصين له^٤ ، بما أفاده استعمال حرف الغاية إلى بدلاً من اللام .

وإذا كانت هذه مقاصد واعتقادات وأعمال الفريقين فلا شك اختلف جزأؤهما . وقد أكد اسم الإشارة المبدوء به ذكر كل جزاء ، معنى استحقاق كل فريق لجزائه ، وأشار تكرراره في نحو : " أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار " و " أولئك يعرضون على ربهم ... " و " أولئك لم يكونوا معجزين " و " أولئك الذين خسروا أنفسهم " إلى جمع هذا الفريق خاصة بين كل هذه العقوبات ، وفي هذا تغليظ للوعيد والتهديد ، أعاذنا الله منه .

فأول عقوبة ترد في الآيات لمن أرادوا الدنيا بأعمالهم أن ليس لهم في الآخرة إلا النار (لأن همهم كانت مصروفة إلى الدنيا ، وأعمالهم مقصورة على تحصيلها)^٥ والجزء من جنس العمل . ويقابل هذا التخليد في النار^٦ خلود أهل الجنة في الجنة في قوله تعالى : " أصحاب الجنة " بما يفيد لفظ الصحبة من الملازمة لها ، و اللبث والاستقرار فيها^٧ ، ويتأيد خلود أهل النار في النار بقوله : " فالنار موعده " لما يفيد من تحقق الموعد ، لأن الله لا يخلف الميعاد^٨ ، ومن تحقق الأهلية والصحبة للنار ، كما أشار إليه القرطبي^٩ . كما يتأيد في المقابل خلود أهل الجنة في الجنة بقوله تعالى : " هم فيها خالدون " يقول الطاهر في تعليل ذلك (وجملة هم فيها خالدون في موقع البيان لجملة أصحاب الجنة ، لأن الخلود في المكان هو أحق الأحوال بإطلاق وصفه صاحب على الحالّ بذلك المكان ، إذ الأمكنة لا تقصد إلا لأجل الحلول فيها)^{١٠} أما التشهير

^١ - انظر البقاعي ج ٩ ص ٢٦٣ .

^٢ - انظر ابن جرير ج ١٢ ص ١٦ ، ابن عطية ج ٩ ص ١٢٩ ، القرطبي ج ٩ ص ٢١ .

^٣ - انظر البقاعي ج ٩ ص ٢٦٣ أبو السعود ج ٤ ص ١٩٨ .

^٤ - انظر البقاعي ج ٩ ص ٢٦٤ .

^٥ - أبو السعود ج ٤ ص ١٩٣ .

^٦ - انظر القرطبي ج ٩ ص ١٥ .

^٧ - انظر ابن جرير ج ١٢ ص ١٦ ، الرازي ج ١٧ ص ٢٠٩ ، الطاهر ج ١٢ ص ٤٠ .

^٨ - انظر حاشية الشهاب ج ٥ ص ٨٥ ، ٨٦ المتن والمهامش .

^٩ - انظر القرطبي ج ٩ ص ١٧ حيث ذكر أن معنى الآية أنه (من أهل النار) وأورد في الصفحة التالية حديثاً عن الرسول صلى الله عليه وسلم " والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار " .

^{١٠} - الطاهر ج ١٢ ص ٤٠ .

بالكافرين وفضحهم وإخزائهم في موقف العرض^١ في قوله: " أولئك يعرضون على ربهم " ثم لعنهم في قوله: " ألا لعنة الله على الظالمين " فلم أجد الآيات تنص على مقابله ولعلنا نستطيع على هدي من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النجوى التماس المقابل لهذا الإخزاء واللعن^٢.

(عن صفوان بن محرز المازني قال بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما آخذُ بيده إذ عرض رجل فقال : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله يدين المؤمن ، فيضع عليه كفه ويستره فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أي رب ، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال: سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطى كتاب حسناته . وأما الكافر والمنافقون فيقول الأشهاد " هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ")^٣.

فأولئك يفتضحون على رؤوس الأشهاد ، وهؤلاء يسترهم الله بستره ، وأولئك يبعدون عن الرحمة وهؤلاء في كنف الرحمن ، وشتان ما بين المقامين والحالين . وبينما يضاعف العذاب بسبب أنهم (كفروا بالله وبالبعث وبالنشور ... والأصوب أن يقال أنهم مع ضلالهم الشديد سعوا في الإضلال ومنع الناس عن الدين الحق)^٤ ، أو لأنهم " ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون "° ؛ ينعم المؤمنون بتضاعف صنوف النعيم وأنواعه عليهم ، بصحبتهم للجنة وخلودهم فيها . وقد دلّ قوله سبحانه " لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون " على أنهم قد بلغوا غاية الخسارة بما أفاده لفظ (الأخسرون) الملائم لكونهم ضلُّوا وأضلُّوا^٦ ، و يقابله دلالة

^١ - انظر الزمخشري ج ٢ ص ٢٦٣ ، ابن عطية ج ٩ ص ١٢٥ ، الرازي ج ١٧ ص ٢٠٤ ، أبو حيان ج ٥ ص ٢١٢ ، البقاعي ج ٩ ص ٢٥٥ ، أبو السعود ج ٤ ص ١٩٦ ، الشهاب ج ٥ ص ٨٦ ، الألوسي ج ١٢ ص ٣٠ ، ٣١ ، الطاهر ج ١٢ ص ٣٣ .

^٢ - انظر ابن جرير ج ١٢ ص ١٤ ، البقاعي ج ٩ ص ٢٥٦ ، الألوسي ج ١٢ ص ٣١ .

^٣ - صحيح البخاري ، كتاب المظالم والغضب حديث رقم ٢٢٦١ ، كتاب تفسير القرآن حديث رقم ٤٣١٧ ، كتاب الأدب حديث رقم ٥٦٠٩ ، كتاب حديث التوحيد رقم ٦٩٦٠ ، صحيح مسلم ، كتاب التوبة حديث رقم ٤٩٧٢ ، سنن ابن ماجه ، كتاب المقدمة حديث رقم ١٧٩ ، مسند أحمد ، مسند المكثرين من الصحابة حديث رقم ٥١٧٩ ، ٥٥٦٢ موسوعة الحديث الشريف .

^٤ - الرازي ج ١٧ ص ٢٠٦ ، وانظر أبو حيان ج ٥ ص ٢١٢ .

^٥ - انظر البقاعي ج ٩ ص ٢٥٧ ، أبو السعود ج ٤ ص ١٩٧ ، حاشية الشهاب ج ٥ ص ٧٨ المتن والهامش .

^٦ - انظر درة التنزيل ج ٢ ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ .

صحبة المؤمنين للجنة على أنهم (بلغوا أعلى درجات السعادة)^١ فمن كان صاحب الجنة كان حالاً فيها غير ظاعن ملازماً غير مفارق متمتعاً بمتاعها ملتذاً بلذاتها ، قد جمع له فيها تمام النعيم مع دوامه ، وغاية ما يرجى من النعيم حلوله وعدم انقطاعه ، في حين جمع لأولئك الكفرة بين فقدان النعيم ودوام العذاب ، فلا جرم كانوا أخسر الخاسرين.

وفي سورة إبراهيم التي جاء أكثرها (في بيان الكفرة وآلهم وبيان أن أكثر الخلق هالك معرض عما يأتيه من نعمة الهداية على أيدي الرسل ، الدعاة إلى من له جميع النعم للحياة الطيبة بسعادة الدارين)^٢ ، وذكر فيها شدة كفر وتعت مكذبي الرسل المتمثل في نحو قوله تعالى : " ألم يأتكم نأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب " إبراهيم ٩ ، ونحو قوله : " وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين " إبراهيم ١٣ ، امتد التهديد بعقاب هؤلاء الجبابرة المعاندين شوطاً طويلاً ، في الوقت الذي أوجز ذكر ثواب من خاف مقام الله ، فأمن وعمل الصالحات حيث جاءت الآيات

وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَائِهِ
 جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ
 وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۗ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ
 ﴿١٧﴾ مِّثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ
 فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۗ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ
 الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ

^١ - الطاهر جـ ١٢ ص ٣٩ .

^٢ - البقاعي جـ ١٠ ص ٤٢٢-٤٢٣ .

١٩
 ٢٠
 ٢١
 ٢٢

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ
 عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ
 لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ
 اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَدْنَا اللَّهَ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرٌ عَلَيْنَا
 أَمْ صَبْرٌ نَا مَا لَنَا مِنَ مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا
 قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ
 وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا
 تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي
 كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

إبراهيم ١٥ - ٢٢ مكية

في وصف العقاب ، وجاءت آية :

وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾

إبراهيم ٢٣ مكية

في وصف الثواب . وهو سياق موجز مقارنة بمقابله . يذكر دخول الجنات والخلود
 والتحية وقد اكتملت فيه شروط الثواب من حيث كونه (منفعة ، خالصة ، دائمة ، مقرونة
 بالتعظيم . فالمنفعة الخالصة إليها الإشارة بقوله تعالى " وأدخل الذين آمنوا ... " ، وكونها
 دائمة أشير إليه بقوله : " خالدين فيها " ، والتعظيم حصل من وجهين ، أحدهما : أن تلك
 المنافع إنما حصلت بإذن الله تعالى وأمره ، والثاني : قوله : " تحيتهم فيها سلام " ، لأن بعضهم

يُحيي بعضاً بهذه الكلمة ، والملائكة يحيونهم بها ... والرب الرحيم يحييهم أيضاً بهذه الكلمة (١ . وقد أشار أبو السعود إلى الحكمة من قوله " بإذن ربهم " ، بقوله (وفي التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم إظهار مزيد اللطف بهم) (٢ . ومع التقابل بين إحاطة النعيم بالمؤمنين في الجنات التي تجري من تحتها الأنهار ، متمثلاً في بردها وظلالها وشرابها وثمارها ، وإحاطة العذاب بالكفار ، متمثلاً في كونهم في جهنم ، وإتيان الموت إياهم من كل مكان بأنواع العذاب الشديد الذي لا ينتهي مداه ، بما دل عليه قوله : " وما هو بميت " وقوله : " ومن ورائه عذاب غليظ " ، ومع أن الخلود في الجنة يقابل عدم موت الكفرة في النار ، وسلام المؤمنين في الجنة الذي يفيد سلامتهم من كل أذى ومكروه ، يقابل كون (حال أهل الباطل في النار عطب وآلام) (٣ ، كما يقابل عذابهم الروحي المتمثل في خصومتهم مع أتباعهم ، وفي تحسير الشيطان لهم بتبرئه منهم (٤ ، مع كل هذا ، يظل سياق العذاب مفعماً بكثير من الدلالات ، فهؤلاء الكفرة يتلظون بحرّ جهنم ، فيطلبون الغوث فيغاثون بصديد شديد النتن والسوء . إنه صديد أهل النار الذي لا يستطيعون تجرعه إلا بجهد جهيد . ويكنى قوله : " ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت " عن شدة العذاب الذي قد نجده في آيات آخر ، نحو " يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر " القمر ٤٨ ، وقوله : " جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج " (ص ٥٦ - ٥٨ ، وقوله : " خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه " الحاقة ٣٠ - ٣٢ . ولا شك أن التعبير يحمل غير هذا كثير . ثم لا يقف العذاب عند هذا الحد ، بل يمتد شوطاً آخر حين يذكر بعده العذاب الغليظ في قوله : " ومن ورائه عذاب غليظ " ، فكأن مرحلة شدة العذاب التي كني عنها بإتيان الموت من كل مكان دون حدوثه في قوله : " ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت " ليست آخر ما يلقاه الكافرون ، بل يعقبه مرحلة أخرى أشد وأنكى ، لا يعلم مداها إلا الله بما دل عليه لفظ (ورائه) في قوله : " من ورائه عذاب

١ - الرازي ج ١٩ ، ص ١١٥ - ١١٦ .

٢ - أبو السعود ج ٥ ص ٤٣ ، وانظر الطاهر ج ١٣ ص ٢٢٢ .

٣ - البقاعي ج ١٠ ص ٤١٠ .

٤ - انظر ابن كثير ج ٤ ص ١١٩ ، والطاهر ج ١٣ ص ٢١٩ .

غليظ " من معنى الستر^١ (فإن التحذير بالمستور هو الأعلى في مقام التهديد من التحذير بالمشهود)^٢ وبيّن قوله تعالى : " مثل الذين كفروا برّهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرّون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد " مدى خسارهم ، بعدم نفع أعمالهم التي عملوها في الدنيا .

ثم ينتقل السياق نقلة أخرى حين يعرض تحاور الأتباع مع المتبوعين أملاً في شفاعتهم ، و تبرؤ الشيطان منهم جميعاً ، فيتبين خسارهم من جهة الشفعاء ، بعد أن تبين من جهة أنفسهم . وإذا ثبت خسارهم فقد استحقوا العقاب الذي وضحه قوله تعالى : " إن الظالمين لهم عذاب أليم " الواقع موقع التعليل لما تقدم^٣ ، وفيه تتبين شدة السطوة بالتوكيد بإن ، وتقدم الجار والمجرور الذي أفاد أنه (مكتوب لكل منهم مقداره ، لا يغني أحد منهم عن الآخر شيئاً ، بل كل مقصور على ما قدر له)^٤ .

وهكذا تتعاضد الآيات بوصف عذاب الكافر في جهنم ، وتجرحه الصديد ، وتقلبه في أنواع العذاب المميت دون أن يموت فيستريح ، وضروب عذاب غليظ آخر ، و العذاب النفسي بالخصومة بين الأتباع والمتبوعين ، وبينهم وبين الرأس الأكبر للضلال وهو الشيطان ، لتبين سوء حال الكفرة ، في حين تجمل آيات الثواب حسن حال المؤمنين بدخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار ، والخلود فيها ، والتحية بالسلام ، فتطوي كثيراً من التفاصيل المذكورة في آيات أخرى . ولعل هذا الإيجاز أكثر ملاءمة لسياق اشتد فيه غضب الله على المعرضين عن آياته ، المكذبين رسله الهادين إليه ، واشتد عقابه عليهم .

^١ - انظر ابن منظور ، لسان العرب جـ ١٥ ص ٣٨٩ - ٣٩٠ مادة (وري) و ، د . إبراهيم صلاح الهدهدك (وراء) مواضعها وأسرارها في نظم القرآن الكريم ، ضمن مجلة كلية اللغة العربية جامعة الأزهر ، العدد الثالث ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م ص ١٧١ ، ١٧٢ .

^٢ - د . إبراهيم صلاح الهدهدك (وراء) مواضعها وأسرارها ص ١٨٨ .

^٣ - انظر البقاعي جـ ١٠ ص ٤٠٨ ، الظاهر جـ ١٣ ص ٢٢٢ .

^٤ - البقاعي جـ ١٠ ص ٤٠٨ .

ذكر بعض مواضع الجنات :-

إذا كانت السور السابقة قد ذكرت الجنات التي تجري من تحتها الأنهار جزاءً للذين آمنوا وعملوا الصالحات مما يشير إلى أنها جنات أعلى من غيرها _ كما سبق أن ذكرنا _ فإن هناك بعض السور قد ذكرت أسماء مواضع الجنات فمن ذلك مثلاً روضات الجنات في سورة الشورى حيث يقول تعالى في سياق يعرض فيه بعضاً من جرائم الكافرين التي منها اتخاذهم غير الله شريكاً :

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ
الْفَصْلِ لَفُضِّى بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى
الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ
الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ
وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

٢١-٢٣ مكية وقيل آية ٢٣ مدنية^٢

فالتأمل في الآيات يتصور الظالمين - بما أفاده الفعل المضارع من استحضر الصورة في
الذهن^١ - في حالة من الرعب والخوف الشديد^٢، مما سيقع بهم من العذاب المحتوم بما دل عليه

^١ - انظر ص ١٣١ من الباب الأول من هذا البحث عند دراسة آية عمران (١٩٨) .

^٢ - جاء ذلك في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، وضع محمد فواد عبد الباقي المكتبة الإسلامية - استانبول -
١٩٨٤م ومصحف بخط السيد مصطفى نظيف الشهير بقدرغه لي طبع بتصريح من مشيخة الأزهر الشريف ومراقبة
البحوث والثقافة الإسلامية وتقريراً للجنة المختصة الصادر برقم (١٢٨) في ١٥ / ١ / ١٩٦٨م دار التراث العربي . هذا
وقد اعتمد عدد من المفسرين منهم ابن كثير ج ٦ ص ١٩٨ ، الشهاب ج ٧ ص ٤١٩ الطاهر ج ٢٥ ص ٨٤ ،
كون الآية مكية . وقد ذكر الخلاف في كونها مكية الطاهر ج ٢٥ ص ٢٣ وبأن السورة عند الجمهور مكية كلها .

قوله (وهو واقع بهم) حال كون المؤمنين العاملين في روضات الجنات ، منعمين بما يشاءون عند ربهم آمنين مما فيه أولئك من الخوف والإشفاق وقد لمح هذه المقابلة النفسية بين الأمن والخوف البقاعي حين قال : (مشفقين أي خائفين أشد الخوف ، كما هو حال من يحاسبه من هو أعلى منه وهو مقصر ... والذين آمنوا ... وعملوا الصالحات ... غير خائفين مما كسبوا ، لأنهم مأذون لهم في فعله ، وهو مغفور لهم ما فرطوا فيه)^٣ . كما بيّن الفرق بين الحالين ابن كثير حين قال (فأين هذا من هذا ؟ أي أين من هو في العرصات في الذل والهوان ، والخوف المحقق عليه بظلمه ، ممن هو في روضات الجنات ، فيما يشاء من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومناظر و مناكح وملاذ ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)^٤ . وهذه المقابلة في الجزاء تومئ إلى المقابلة في العمل . وقد نبه لهذا الطاهر حين قال (وهذا من تضاد شأني الفريقين في الآخرة على عكسه بما كانوا عليه في الدنيا المتقدم في قوله : " يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها " أي فالיום انقلب إشفاق المؤمنين اطمئنانا ، واطمئنان المشركين إشفاقاً . وشتان بين الاطمئنانين و الإشفاقين)^٥ . و روضات الجنات التي حلّ بها فريق الإيمان والعمل الصالح ، هي أفضل مواقع في الجنة وأنزهها^٦ ، لأن العرب - كما يقول ابن جرير - لا تسمى مواضع الأشجار فقط رياضاً وإنما يطلق لفظ الرياض على أجود المواضع زرعاً وأطيبها هواءً ،^٧ ومن هنا (عني جل ثناؤه بذلك الخبر عما هم فيه من السرور والنعيم)^٨ .

^١ - انظر الطاهر جـ ٢٥ ص ٧٨ .

^٢ - انظر ابن جرير جـ ٢٥ ص ١٤ ، الزمخشري جـ ٣ ص ٤٦٦ ، ابن كثير جـ ٦ ص ١٩٦ البقاعي جـ ١٧ ص ٢٩٣ ، الشهاب جـ ٧ ص ٤١٨ الألويسي جـ ٢٥ ص ٢٩ .

^٣ - البقاعي جـ ١٧ ص ٢٩٣ .

^٤ - ابن كثير جـ ٦ ص ١٩٦ .

^٥ - الطاهر جـ ٢٥ ص ٧٩ ، وانظر ابن عطية جـ ١٤ ص ٢١٦ ، أبو حيان جـ ٧ ص ٤٩٣ .

^٦ - انظر الزمخشري جـ ٣ ص ٤٦٦ ، ابن عطية جـ ١٤ ص ٢١٦ الرازي جـ ٢٧ ص ١٦٣ ، القرطبي جـ ١٦

ص ٢٠ ، أبو السعود جـ ٧ ص ٣٠ ، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٤١٨ المتن والهامش ، الألويسي جـ ٢٥ ص ٢٩ .

^٧ - يفهم هذا مما جاء في بعض الكتب والتفاسير انظر على سبيل المثال ، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي المعروف بابن سيده ت ٤٥٨ هـ ، المخصص ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت جـ ١٠ ص ١٣١

، ١٣٢ ، ابن عطية جـ ١٤ ص ٢١٦ ، القرطبي جـ ١٤ ص ١١ تفسير آية الروم رقم (١٥)

^٨ - ابن جرير جـ ٢٥ ص ١٤ .

وفي الآية دليل على فضل الإيمان المقترن بالعمل الصالح ، لأنه تعالى (خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات ، وهي البقاع الشريفة من الجنة ، فالبقاع التي دون تلك الروضات ، لا بد وأن تكون مخصوصة بمن كان دون أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات)^١ . ولعل تكرار قوله : " الذين آمنوا وعملوا الصالحات " في سياق الآيات موضع الدرس ثلاث مرات ، يؤيد هذا التفضيل لفريق الإيمان العامل . ويمتد النعيم شوطاً آخر بتحقيق ربهم لهم كل ما يتمنونه . وفي تعليق الظرف (عند ربهم) . بمتعلق الجار والجرور (لهم) دون الفعل " يشاءون"^٢ ، ما يُنبئ عن تمام النعمة أبلغ إنباء ، لأن في هذا التعليق من الشمول ما لا يفيد غيره فإنك (إذا قلت : لي عند فلان ما شئت كان أبلغ في حصول كل مطالبك منه ، من قولك لي ما شئت عند فلان ، بالنسبة إلى الطالب والمطلوب منه ، لأن الأول : يفيد أن جميع ما تشاؤه موجود مبذول لك منه ، والثاني : يفيد أن ما شئت عنده مبذول لك ، سواء كان منه أو من غيره ، لا جميع ما تشاؤه . مع ما في الأول من المبالغة في تحقيقه وثبوته يجعله كالحق اللازم في دفع فضله)^٣ ، فمفاد العبارة الأولى أن كل ما شئته متحقق مبذول لك عند فلان ، ومفاد الأخرى أن ما شئته عنده فقط لا جميع ما تشاؤه مبذول لك سواء منه ، أو من غيره ، فليس فيها ما في الأولى من العموم والشمول . فإذا كان المولي للفضل هو ذو الجلال والإكرام الذي بيده خزائن ملك السموات والأرض ، فقد تم بذلك تحقق كل المرادات . وفي الإشارة للجزاء بأداة البعد (ذلك) ، الدالة على بعده في المنزلة والشرف^٤ ، وقصر ذلك الثواب على صفة الفضل في قوله : " ذلك هو الفضل " مبالغةً في أعظمية الفضل^٥ ، مع وصف الفضل بالكبير من قِبَل الله تعالى ، مما يوحي بأنه فضل لا يقادر قدره ولا يدرك كنهه^٦ ؛ تعظيمٌ لهذا الجزاء ، وتثويه به ، يعقبه تعظيم آخر في قوله : " ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا

^١ - الرازي ج ٢٧ ص ١٦٣ .

^٢ - انظر الزمخشري ج ٣ ص ٤٦٦ ، أبو حيان ج ٧ ص ٤٩٣ ، أبو السعود ج ٧ ص ٣٠ ، الشهاب ج ٧ ص ٤١٨ ، الألويسي ج ٢٥ ص ٢٩ نقلاً عن صاحب الكشاف الطاهر ج ٢٥ ص ٧٩ .

^٣ - الشهاب ج ٧ ص ٤١٨ ولم يذكر أنه لصاحب الكشف وذكر ذلك الألويسي ج ٢٥ ص ٢٩ .

^٤ - انظر البقاعي ج ١٧ ص ٢٩٤ أبو السعود ج ٧ ص ٣٠ الألويسي ج ٢٥ ص ٢٩ الطاهر ج ٢٥ ص ٨٠ .

^٥ - انظر البقاعي ج ١٧ ص ٢٩٤ ، الشهاب ج ٧ ص ٤١٨ ، الألويسي ج ٢٥ ص ٢٩ ، الطاهر ج ٢٥ ص ٨٠ .

^٦ - انظر الرازي ج ٢٧ ص ١٦٤ ، القرطبي ج ١٦ ص ٢٠ ، البقاعي ج ١٧ ص ٢٩٤ ، أبو السعود ج ٧ ص ٣٠ ، حاشية

الشهاب ج ٧ ص ٤١٨ المن والهامش ، الألويسي ج ٢٥ ص ٢٩ ، الطاهر ج ٢٥ ص ٨٠ .

الصالحات " ، بذكر لفظ البشارة محذوفاً عائدها (به) تفخيماً لشأنه ^١ ، و(يجعلها بأداة البعد ، وبالوصف بالذي ، وذكر الاسم الأعظم ، والتعبير بلفظ العباد ، مع الإضافة إلى ضميره سبحانه) ^٢ ، فلا يخفى ما في تضافر معاني البعد في المنزلة والوصف بالاسم الموصول الدال على الشهرة ، وما في ذكر الاسم الأعظم وإضافة العباد إليه ، من تمكين لعظمة هذا الثواب .
ويأتي قوله (" ومن يقترف حسنة ... " تذييل لجملة " ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات " والمعنى : وكلما عمل مؤمن حسنة زدناه حسناً من ذلك الفضل الكبير) ^٣ ، وفيه زيادة ترغيب في عمل الصالحات بمضاعفة الثواب بقوله " نزد " وإسناده لضمير العظمة المؤكد لمعنى الفضل لدى صاحب الفضل على العالمين .

ولا يخفى ما في تقابل دلالاتي التنكير في (حسنة) من التحقير و (حسنا) من التعظيم من بيان مدى سعة رحمة الله فإن الإتيان بأي حسنة مهما صغرت ^٤ يقابله إحسان لا يدرك كنهه ولا يقادر قدره من الرحمن الرحيم بزيادة ثوابها ومضاعفته ، وهو ما أشار إليه قول البقاعي (" حسنة " أي ولو صغرت ... نزد على عظمتنا " له فيها حسنا " بما لا يدخل تحت الوهم) ^٥ .

وهكذا يقابل العذاب الأليم المعد للكافرين في النار ، نعيم المؤمنين في روضات الجنات ، كما يقابل خوف الكافرين من صنوف العذاب الواقع بهم لا محالة ، أمن المؤمنين واطمئنانهم في الجنة وبينما يتقلب الكفرة في صنوف العذاب الذي ينزل بهم وهم له كارهون ، يتقلب المؤمنون في ضروب النعيم على مقادير مشيئتهم ومشتهاهم .

وتتنقل الآيات انتقالاً إضرابياً آخر بعد قوله : " أم لهم شركاء ... " لتعرض جريمة أخرى من جرائم الكفرة الظالمين ، وهي ادعائهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم افترى على الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - الكذب ، وتهددهم بعقاب الله كما تلوح لهم بيوارق الأمل في العفو عند التوبة وتعرض لهم ثواب المؤمنين ترغيباً وعذاب الكافرين ترهيباً .

^١ - انظر البقاعي جـ ١٧ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

^٢ - البقاعي جـ ١٧ ص ٢٩٥ .

^٣ - الطاهر جـ ٢٥ ص ٨٤ .

^٤ - انظر البقاعي جـ ١٧ ص ٢٩٨ .

^٥ - المصدر السابق ص ٢٩٩ .

قال تعالى :

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ
اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾
وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا
تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ
مِّن فَضْلِهِ ؕ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

الشورى ٢٤ - ٢٦ مكية وقيل مدنية^١.

فالقُرآن يوبخ هؤلاء الكفرة على زعمهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مفترٍ وينفي ذلك عنه نفيًا قاطعًا بقوله تعالى : " فَإِن يَشَاءُ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ " ، سواءً أريد بذلك أنه لو شاء فعل ذلك عقوبة للرسول صلى الله عليه وسلم^٢ ، أو انكاراً لأن يكون الرسول قد فعل ذلك ، لأن من يفعله إنما يكون مختوماً على قلبه^٣ ، أو غير ذلك من أقوال المفسرين^٤ . ويبين أنه سبحانه إن يشأ يمحو الباطل ويحق الحق بكلماته ، وبينما يلوح قوله تعالى : " إنه عليم بذات الصدور " بالتهديد^٥ ، لأولئك الذين تقوّلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذوه ، يأتي في المقابل قوله : " وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات " ، ليرغبهم (رحمة منه لهم في التوبة)^٦ . وفي إثارة حرف الجر (عن) في قوله : " عن عباده " تأكيد للبعد بقبول توبته ، لأن تعدية الفعل بعن يجعله يفيد (معنى مجاوزة الشيء المقبول ، أو انفصاله عن معطيه

^١ - جاء في ذلك في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ، ومصحف بخط السيد مصطفى نظيف .

^٢ - انظر ابن جرير جـ ٢٥ ص ١٨ الزمخشري جـ ٣ ص ٤٦٨ ، ابن عطية جـ ١٤ ص ٢١٩ ، ٢٢٠ ، الرازي جـ ٢٧ ص ١٦٧ ، ١٦٨ القرطبي جـ ١٦ ص ٢٥ ، ابن كثير جـ ٦ ص ٢٠١ ، البقاعي جـ ١٧ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ أبو السعود جـ ٧ ص ٣٠ ، ٣١ ،

حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٤١٩ المتن والهامش ، الألوسي جـ ٢٥ ص ٣٤ ، ٣٥ ، الطاهر جـ ٢٥ ص ٨٦ .

^٣ - انظر المصادر السابقة .

^٤ - انظر المصادر السابقة .

^٥ - انظر ابن عطية جـ ١٤ ص ٢٢٠ .

^٦ - البقاعي جـ ١٧ ص ٣٠٥ .

وباذله ، وهو أشد مبالغة في معنى الفعل من تعديته بحرف (من) ، لأن فيه كناية عن احتباس الشيء المبذول عند المبذول إليه ، بحيث لا يرد على باذله ^١ ، فكأنه تعالى قد وعد عباده التائبين بقبول توبتهم قبولاً كلياً تاماً لا رجعة فيه ، وهذا من سعة رحمته بعباده . وقد أكد هذه الرحمة في قبوله توبة التائب بتجاوزه عما مضى من سيئاته ^٢ في قوله تعالى : " ويعفو عن السيئات " . (ولما رغب بالعفو زاد بالإكرام) ^٣ ، فقال تعالى : " ويستجيب الذين آمنوا ... " حيث ذكر استجابته للمستجيبين لأوامره من عباده ، وزيادته لهم من فضله فهم في خير ونعمة في الدارين . ثم ذكر تعالى نعمته على الكافرين بأن لهم عذاباً شديداً لا يدرك كنهه ولا يقادر قدره ، بما أفاده التنكير في لفظي (عذاب ، شديد) من التهويل و التفضيع . فحصل لهم بذلك الحرمان من الاستجابة ، والوقوع في العذاب ، مقابل استجابته للمؤمنين و حصولهم على الثواب ^٤ .

وقد نبّه الشهاب إلى المقابلة بين عناصر الجزائين بقوله (العذاب في مقابلة الثواب ، والشدة في مقابلة التفضل) ^٥ فعذاب الكفرة يقابل ثواب المؤمنين باستجابة الله لهم ، وشدة العذاب للكافرين تقابل زيادة فضله للمؤمنين من حيث إن في كل منهما معنى زيادة المقدار عن الحد المعتاد ^٦ .

وتعنف الآيات الواردة في ذكر البعث والجزاء في أواخر سورة الكهف فريق الكفرة ، وتشدد عليهم باللوم والتوبيخ ، والذم و التقرير ، مقابل الإشادة بجزاء فريق الإيمان والعمل الصالح - كما سيتضح فيما بعد - يقول تعالى :

^١ - الطاهر جـ ٢٥ ص ٨٩ ، وسبق إلى لمح هذا المعنى الزمخشري جـ ٣ ص ٤٦٨ حين أشار إلى معنى الإبانة في إثبات الحرف (عن) وتبعه في ذلك البيضاوي والشهاب في حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٤٢٠ المتن والهامش ، الألوسي جـ ٢٥ ص ٣٥ .

^٢ - انظر ابن كثير جـ ٦ ص ٢٠٣ ، البقاعي جـ ١٧ ص ٣٠٥ .

^٣ - البقاعي جـ ١٧ ص ٣٠٦ .

^٤ - انظر المصدر السابق ص ٣٠٧ حيث أشار إلى الاحتباك في الآية .

^٥ - الشهاب جـ ٧ ص ٤٢١ .

^٦ انظر ابن منظور لسان العرب جـ ٣ ص ٢٣٢ وما بعدها مادة (شدد) ، ص ١٩٨ وما بعدها مادة (زيد) ، وجـ ١١ ص ٥٢٤ وما بعدها مادة (فضل) .

* وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي
 الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ
 لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ
 ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ
 لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾

الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ
 أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
 وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾
 ذَلِكَ جَزَاءُ وَّهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا
 ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ
 الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾

الكهف ٩٩ - ١٠٨ مكية وقيل مدنية ^١.

وقد تكرر ذكر جهنم ثلاث مرات ، جزاء على أنواع جرائمهم وضروب مزاعمهم
 الباطلة . الأولى : بإبرازها للكافرين حتى تكون بمرأى منهم في قوله تعالى : " وعرضا جهنم
 يومئذ للكافرين عرضاً " ، وهذا من أنواع العقوبة (لما يتداخلهم من الغم العظيم) ^٢ حين

^١ - جاء ذلك في مصحف بخط السيد مصطفى نظيف ، وفي المعجم المفهرس أن ٩٩ - ١٠١ مدنية والباقي مكي . وذكر ابن عطية ج - ١٠ ص ٣٦١ أنها مكية باتفاق ، وهي مكية في البرهان ج - ١ ص ١٩٣ الذي اعتمد عليه في هذا البحث ، ولم يذكرها السيوطي في الاتقان في المختلف عليه .

^٢ - الرازي ج - ٢١ ص ١٧٣ ، وانظر ابن كثير ج - ٤ ص ٤٢٩ .

رؤيتها . وفي تنكير لفظ (عرضاً) تهويل لشأنها ^١ ، وفي العرض نفسه تهكم بهم (لأن العرض هو إظهار ما فيه رغبة وشهوة) ^٢ ، ثم يأتي قوله : " الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سماعاً " لبيان السبب الذي استوجبوا به العقوبة ^٣ ، واستحقوا أن تلقاهم جهنم بالتجهم والعبوس ^٤ ، وهو إعراضهم عن التبصر في آيات الله الدالة على وحدانيته ، والاستماع للحق المؤدي للإيمان وتجهمهم له ، وهذا نحو قوله تعالى : " ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون " هود ٢٠ مكية . الثانية : يجعلها نزلاً للكافرين في قوله : " إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً " عقب الإنكار عليهم ، وتوبيخهم ^٥ بظنهم نفع معبوديهم لهم من دون الله في قوله : " أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء " . وقد أوتر ذكرهم بقوله (الكافرين) دون ضميرهم (ذمّاً لهم ، وإشعاراً بأن ذلك الإعتاد بسبب كفرهم المتضمن لحسابهم الباطل) ^٦ . وهذه العقوبة الشديدة تتضمن أمرين : خيبة الرجاء فيما ظنوه ، مع حصول العذاب لهم . ولا يخفى ما أفاده لفظ الإعتاد من إحضار للعذاب ^٧ ، وإسناد الفعل إلى ضمير العظمة ^٨ ، ثم جعل جهنم بكل جبروتها وصنوف عذابها هي أول ما يلقونه (ولهم وراءها ما يحتقر بالنسبة إليه كما هو شأن ما بعد النزل بالنسبة إليه) ^٩ ؛ من تهويل وتفطيع لهذا العذاب ، وفي جعله نزلاً أيضاً - على التفسير القائل بأنه ما يقدم للضيف ^{١٠} - تهكم بهم ^{١١} ، يوضحه أبو السعود قائلاً : (وفيه تخطئة لهم في حسابهم ، وتهكم بهم حيث كان

^١ - انظر أبو السعود ج ٥ ص ٢٤٧ ، الطاهر ج ١٦ ص ٤٢ .

^٢ - الطاهر ج ١٦ ص ٤٢ .

^٣ - انظر الرازي ج ٢١ ص ١٧٣ ، أبو السعود ج ٥ ص ٢٤٧ ، الطاهر ج ١٦ ص ٤٢ .

^٤ - انظر البقاعي ج ١٢ ص ١٤٥ .

^٥ - انظر الرازي ج ٢١ ص ١٧٣ ، ابن كثير ج ٤ ص ٤٢٩ ، البقاعي ج ١٢ ص ١٤٦ ، الطاهر ج ١٦ ص ٤٤ .

^٦ - أبو السعود ج ٥ ص ٢٤٨ .

^٧ - انظر مادة (عدد) في اللسان ج ٣ ص ٢٨٤ .

^٨ - انظر الطاهر ج ١٦ ص ٤٥ .

^٩ - البقاعي ج ١٢ ص ١٤٦ .

^{١٠} - انظر الزمخشري ج ٢ ص ٥٠٠ ، الرازي ج ٢١ ص ١٧٤ ، البقاعي ج ١٢ ص ١٤٦ ، أبو السعود ج ٥ ص ٢٤٨ حاشية

الشهاب ج ٦ ص ١٣٨ المتن والهامش ، الطاهر بن عاشور ج ١٦ ص ٤٥ ، وذهب ابن جرير ج ١٦ ص ٢٦ ، ابن كثير ج ٤ ص ٤٢٩ إلى أنها بمعنى المنزل وذكر ابن عطية ج ١٠ ص ٤٥٥ ، الرازي ج ٢١ ص ١٧٤ ، أبو السعود ج ٥ ص ٢٨٤ احتمال الوجهين .

^{١١} - انظر الزمخشري ج ٢ ص ٥٠٠ ، الرازي ج ٢١ ص ١٧٤ ، حاشية الشهاب ج ٦ ص ١٣٨ المتن والهامش ، الطاهر ج ١٦

ص ٤٥ .

اتخاذهم إياهم أولياء من قبيل إعتاد العتاد ، وإعداد الزاد ليوم المعاد ، فكأنه قيل إننا أعتدنا لهم مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والذخر جهنم عدة ^١ ، فهناك تقابل وفاقي ^٢ بين عملهم في الدنيا وهو اتخاذهم الأولياء عدةً من دون الله ، وجزائهم في الآخرة ، وهو جعل جهنم عدةً لهم مكان أوليائهم المظنون بهم نفعاً . والثالثة : يجعلها جزاءهم المستحق على كفرهم بآيات الله واستهزائهم بها في قوله : " ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً " في سياق توبيخهم ^٣ بذنب آخر هو (ما صدر عنهم من الأعمال الحسنة في أنفسها ، وفي حسابهم أيضاً ، حيث كانوا معجبين بها ، واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة آثارها) ^٤ حيث يقول تعالى : " قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً " ، فهؤلاء القوم قد عملوا أعمالاً حسنة في الدنيا ، ولكنها بسبب كفرهم بالله واليوم الآخر فسدت وبطلت بالكلية ، فلم يبق لهم إلا السيئات ، ومن ثم دخول النار . وهكذا يبين القرآن تنفيراً ^٥ وترهيباً أن الكافرين بلغوا أقصى غايات العذاب ، في هذه الآيات الصارخة بالسخط عليهم المؤذنة بشديد العذاب ، وبلوغه مداه ، خاصة حين يعرفون أن جهنم هي أول ما سيلقونه ، ولهم ما هو أشد وأسوأ ، في مقابل بلوغ الغاية لدى فريق الإيمان والعمل الصالح ترغيباً في قوله : " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً " ، فمن المعلوم أن الفردوس أعلى درجات الجنة فقد جاء في بعض حديث أبي هريرة رضي الله عنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " إن في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة أراه فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار

^١ - أبو السعود جـ ٥ ص ٢٤٨ .

^٢ - ذكر العسكري في باب المقابلة أنها (إيراد الكلام ثم مقابله بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة فأما ما كان منها في المعنى فهو مقابلة الفعل بالفعل مثاله قول الله تعالى : " فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا " ... وقوله سبحانه : " نسوا الله فأنسيهم " ... فهذا مقابلة باللفظ والمعنى) أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري كتاب الصناعتين ص ٣٧١ .

^٣ - انظر أبو السعود جـ ٥ ص ٢٤٩ ، الطاهر جـ ١٦ ص ٤٦ .

^٤ - أبو السعود جـ ٥ ص ٢٤٩ .

^٥ - انظر البقاعي جـ ١٢ ص ١٤٩ .

الجنة " ^١ وهي التي قال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم (جنات الفردوس أربع، ثنتان من ذهب حليتهما وآنيتهما وما فيهما ، وثنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما وليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن ، وهذه الأثمار تشخب من جنة عدن ثم تصدع بعد ذلك أثماراً) ^٢ ، فهذه الجنان العالية المخبر عنها بلفظ الجمع للدلالة على سعتها ، وسهولة انتقال المؤمنين بينها ، منها ما هو مبني ومحلى بالذهب وآنيته وكل ما فيه ذهب ، ومنها ما هو مبني ومحلى بالفضة وآنيته وكل ما فيه فضة ، فهم يسكنون قصوراً وغرفاً من الذهب والفضة ، ويتكثرون على أرائك مصنوعة منهما مكللة بالدر والياقوت - كما سبق أن ذكر - وآنيتهم فيها منهما ، وطعامهم من فواكه الجنة ولحوم طيورها ، وشرايهم من أثمار الماء والعسل والخمر واللبن ، ثم إن هذه الجنة التي هذه صفتها ، هي أول ما يلقاه المؤمن من نعيم ربه ، بما دلّ عليه لفظ النزول ، ولهم بعد ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، خالدين فيها لا يحولون ولا يزولون . كما ينبئ قوله " لا ييغون عنها حولا " عن رضاهم التام بما حتى أنهم لا يريدون أدنى إرادة ^٣ التحول عنها ، وكل هذه الأمور تشير بلا شك إلى نعيم لا يدرك كنهه ولا يمكن وصفه .

وأول ما يلقانا من عناصر التقابل بين جزاء الفريقين ما نجده في لفظ النزول الذي يفيد أن المذكور أنموذج مما سيلقونه فيما بعد ، وهو ما يدل عليه في حق الكافرين أمثال قوله تعالى " لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش " الأعراف ٤١ ، وقوله : " فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى " طه ٧٤ ونحو قوله : " من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد " إبراهيم ١٦ ، وقوله : " وإن جهنم لمحيطة بالكافرين " التوبة ٤٩ ، وفي حق المؤمنين أمثال قوله تعالى : " إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ، هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكثون ، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولاً من رب رحيم " يس ٥٥ - ٥٨ ، ونحو : " جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا

^١ - صحيح البخاري ، كتاب الجهاد والسير حديث رقم ٢٥٨١ ، كتاب التوحيد حديث رقم ٦٨٧٣ ، سنن الترمذي ، كتاب صفة الجنة حديث رقم ٢٤٥٣ و ٢٤٥٤ دون ذكر أنها للمجاهدين ، كتاب تفسير القرآن حديث رقم ٣٠٩٨ ، سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد حديث رقم ٤٣٢٢ ، مسند أحمد ، باقي مسند المكثرين حديث ٨٠٦٧ ، ٨١١٩ ، مسند الأنصار رقم ٢١٠٧٣ ، باقي مسند الأنصار رقم ٢١٦٣٧ ، ٢١٦٧٦ موسوعة الحديث الشريف .

^٢ - مسند أحمد ، مسند الكوفيين حديث رقم ١٨٨٩٨ ، سنن الدارمي ، كتاب الرقاق ٢٧٠١ موسوعة الحديث الشريف .

^٣ - انظر البقاعي جـ ١٢ ص ١٤٩ .

الحزن ، إن ربنا لغفور شكور ، الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب " فاطر ٣٣ - ٣٥ ، ونحو " وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون " البقرة ٢٥ ، فكون جهنم للكفار بكل تجهمها وأغلالها و سعيها أول ما يلقونه الكفرة ثم يصلون ما هو أشد وأكثر تعذيباً ، مثل أكل الزقوم والغسلين وشرب الحميم وصبه على رؤوسهم ، ولبسهم ثياب النار واحتباسهم في سرادقها ، ويُزجون في مكان ضيق مع قرنائهم من الشياطين وأتباعهم من سائر الكفرة والضالين ، يقابله كون جنات الفردوس بارتفاعها وفضلها على سائر الجنات ، أول ما يلقاه المؤمنون عاملو الصالحات ، ثم يمتد النعيم بهم أشواطاً لا نهاية لها يتنعمون بأطيب المطاعم وألذ المشارب ، ويلبسون حلل الملك و تيجانهم، ويجلسون على الأرائك جلساتهم ، ويأنسون بصحبة الحور العين إلى غير ذلك مما لا يدركه وصف ولا يبلغه مقال . وهكذا تتضح شدة التباين بين النازلين ، ثم يتأكد هذا التباين بذكر الخلود في الجنة المفيد لدوام النعيم مع تمامه ، في مقابل تمام ودوام العذاب المستفاد من جعل جهنم جزاءهم في قوله "ذلك جزاؤهم جهنم" فلاجزاء لهم غيرها^١. وقد أشار البقاعي إلى أن قوله : " لا يبيغون عنها حولاً " (تعريض بالكفرة في أنهم يصطرخون في النار " ربنا أخرجنا منها " ، وذلك عكس ما كان في الدنيا من ركون الكفار إليها ومحبتهم في طول البقاء فيها، وعزوف المؤمنين عنها وشوقهم إلى ربهم بمفارقتها)^٢ فهناك تقابل (خلافي)^٣ بين حالي الفريقين في الآخرة ، يقابله تقابل (خلافي) آخر بين حالهما في الدنيا ، حيث أثر الكفار الركون إلى الدنيا ، في حين عزف عنها المؤمنون . وهذا لا يعارض حدوث تقابل وفاقي بين أعمال كل فريق وجزائه، فالراكون إلى الدنيا أطيل بقاؤهم في النار ، والمشتاقون إلى ربه المنقطعون إليه خُلدوا في نعيم الجنة . وفي قوله تعالى :

١ - انظر في طرق القصر: تعريف الجزأين ، السيوطي ، الإتيان جـ ٢ ص ٥١ .

٢ - البقاعي جـ ١٢ ص ١٥٠ .

٣ - أشار إلى المقابلة بين المتخالفين وليس الضدين عدد من البلاغيين ، انظر على سبيل المثال جـ ٢ ص ١٠ و ١٥ ، نجم الدين أحمد بن الأثير في جوهر الكنز ، الزركشي ، البرهان جـ ٣ ص ٤٥٨ ، السيوطي ، الإتيان جـ ٢ ص ٩٦ ، ابن معصوم المدني ، أنوار الربيع في أنواع البدع ، جـ ١ ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾

السجدة ١٨ - ٢٠ مكية وقيل مدنية^١

يأتي لفظ (جنات المأوى) جزاء للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، مقابلاً (النار) جزاءً للذين كفروا بالله . وقد اختلف المفسرون حول هذا اللفظ هل هو اسم لعامة الجنان ، أو اسم لموضع خاص فيها تأوي إليه أرواح الشهداء ، فذهب الأكثرون إلى القول الأول^٢ ، وذكر آخرون الثاني^٣ ، وعلل الشهاب ضعف هذا القول بقوله (الجمع وإضافة العام إليه لا تناسبه)^٤ فهو يرى أن إضافة لفظ (المأوى) وهو لفظ يدل على المعنى العام للإيواء إلى الجنات وهي جمع لا يناسبه أن يراد به موضع خاص .

وأياً ما كان الأمر ، فلعل من الملائم البحث عن مواضع التقابل بين الجزائين فالذين (تبوعوا الإيمان الذي هو أهل للإقامة فيه فلم ييغوا به بدلاً)^٥ ، جعل جزاؤهم جنات المأوى الكامل في معنى الاستقرار والراحة بما أفادته (أل) الجنسية^٦ ، والذين أبوا الإيواء إلى الإيمان وفسقوا عنه جعل جزاؤهم النار (التي لا صلاحية فيها للإيواء^٧ بوجه من الوجوه أصلاً)^٨ . وبالتأمل في صيغة الجزائين نجد أن هناك تقابلاً بين لفظ الجنات بما يدل عليه من السعة وانسراح الصدر والاستمتاع بسهولة التنقل بينها ، ولفظ النار الدال على أنها مكان واحد ليس فيه إلا

^١ - ذكر ذلك في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ومصحف بخط السيد مصطفى نظيف .

^٢ - انظر ابن جرير جـ ٢١ ص ٦٨ ، ابن كثير جـ ٥ ص ٤١٤ ، البقاعي جـ ١٥ ص ٢٥٩ ، أبو السعود جـ ٧ ص ٨٥ ، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ١٥٤ المتن والهامش ، الطاهر جـ ٢١ ص ٢٣٢ .

^٣ - انظر الزمخشري جـ ٣ ص ٢٤٤ ، أبو السعود جـ ٧ ص ٨٥ ، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ١٥٤ .

^٤ - حاشية الشهاب جـ ٧ ص ١٥٤ .

^٥ - البقاعي جـ ١٥ ص ٢٥٩ .

^٦ - انظر البقاعي جـ ١٥ ص ٢٥٩ أبو السعود جـ ٧ ص ٨٥ ، وذهب الطاهر جـ ٢١ ص ٢٣١ إلى أن الألف واللام للعهد .

^٧ - في الكتاب للأرواء وفي الهامش ذكر رواية (اللادواء) ولعل الصواب ما أثبت .

^٨ - البقاعي جـ ١٥ ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

العذاب^١ . وكون الجنات للمؤمنين في قوله : " لهم جنات المأوى " فيه تكريم لهم وتشريف ، يجعل الجنة التي خلقها الله للصالحين من عباده ملكاً دائماً لهم ، لا يحولون عنها ولا يزولون ، كما وضع ذلك الرازي حين قال (وقوله في حق المؤمنين) لهم (بلام التمليك زيادة إكرام ، لأن من قال لغيره اسكن هذه الدار يكون ذلك محمولاً على العارية وله استرداده ، وإذا قال هذه الدار لك يكون ذلك محمولاً على نسبة الملكية إليه وليس له استرداده بحكم قوله وكذلك في قوله (لهم جنات) ألا ترى أنه تعالى لما أسكن آدم الجنة وكان في علمه أنه يخرج منه قال : " اسكن أنت و زوجك الجنة " ولم يقل لكما الجنة ، وفي الآخرة لما لم يكن للمؤمنين خروج عنها قال " لكم الجنة " و " لهم جنات ")^٢ ، ويقابل هذا الإكرام اضطرار الكافرين إلى النار ، وهو المفهوم من كونها مأواهم الذي لا مأوى لهم غيره^٣ . وشتان ما بين كون الجنات المملوكة للمؤمنين ، مأوى لهم و إلقاء الكافرين إلى النار المفهوم من قوله (مأواهم النار) . وإذا كانت هذه الجنات بما فيها من نعيم بمثابة أول ما يقدم للضيف متمثلاً في قوله " نزلاً " مما يفيد أنهم سيحصلون فيها على ما هو أكمل وأعلى في درجات النعيم والرضا^٤ ، فإن الكفار في المقابل سيصلون بعد دخولهم النار بأنواع من العذاب الشديد غير المنقطع^٥ ، عبّر عنه قوله : " كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها " والذي صور فيه تقابل حربي (من ، في) شدة يأسهم من الخلاص حين يحاولون الهروب فلا يفلحون ، بل يعودون إلى حيث كانوا في العذاب الشديد ففيه (إشارة إلى أن الألم^٦ لا يسكن عنهم ، بل يرد عليهم في كل حال أمر مؤلم يجدد)^٧ .

^١ - ذكر أبو السعود جـ ٧ ص ٨٦ المقابلة بين اللفظين حين قال : (" فمأواهم " أي ملجؤهم ومنزلهم " النار " مكان جنات المأوى للمؤمنين) ، وجاء أيضاً في حاشية الشهاب جـ ٧ ص ١٥٤ المتن والهامش .

^٢ - الرازي جـ ٢٥ ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

^٣ - بما يدل عليه الحصر في تعريف الطرفين ، انظر السيوطي الإتيان جـ ٢ ص ٥١ .

^٤ - انظر الرازي جـ ٢٥ ص ١٨٢ ، ابن كثير جـ ٥ ص ٤١٤ ، البقاعي جـ ١٥ ص ٢٥٩ ، أبو السعود جـ ٧ ص ٨٦ ، الشهاب جـ ٧ ص ١٥٤ ، الطاهر جـ ٢١ ص ٢٣٢ . انظر حاشية الشهاب جـ ٧ ص ١٥٤ المتن والهامش .

^٥ - انظر حاشية الشهاب جـ ٧ ص ١٥٤ المتن والهامش .

^٦ - في الكتاب (الاله) ولعله خطأ مطبعي والأصوب الألم لأنه أكثر ملائمة للمعنى .

^٧ - الرازي جـ ٢٥ ص ١٨٣ .

ويشتد عليهم الأمر بالتقريع والإهانة^١ بأن يقال لهم : " ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون" ، لأنه تذكير لهم بذنبهم في حق خالقهم ، وفيه زيادة غيظ لهم^٢ ، حيث يقال لهم بعد محاولتهم المخففة في الهروب ، وفيه مزيد تأييس لهم وشماتة بحالهم .

هذا وقد ورد لفظ (النزل) في القرآن في ثمانية مواضع ثلاثة منها في العذاب^٣ ، وخمسة في النعيم^٤ . وقد ذكر الطاهر أن لكلمة النزل معنيين أحدهما : بمعنى ما يقدم للضيف ، والثاني : بمعنى مكان النزول^٥ مشيراً إلى اختلاف المفسرين في تفسير الكلمة . وقد وجدت الإمام ابن جرير يفسرها في آيات الثواب تارة بالريع والفضل^٦ للطعام ولعله يقصد به ما يقدم للضيف ، وتارة بالمكان^٧ ، في حين أنه في آيات العقاب فسرها بالمكان في موضعين^٨ ، وبالطعام في الثالث^٩ دون أن يشير إلى التهكم^{١٠} الذي لمح المفسرون^{١١} ولعل لتقدم ابن جرير واهتمامه بالمأثور شأناً في هذا ، حيث إن لفظ التهكم ظهر مؤخراً إذ نجده عند الزمخشري والبقاعي والبيضاوي والشهاب وأبي السعود والطاهر .

هذا بإيجاز ما اتضح لي من أوجه المقابلة بين الفريقين ، وباقي الآيات يأتي ضمن سياق ذكر فيه نوع العمل نحو الصلاة والانفاق في قوله : " إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خرّوا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً

١ - انظر ابن كثير ج ٥ ص ٤١٤ ، البقاعي ج ١٥ ص ٢٦٠ .

٢ - انظر أبو السعود ج ٧ ص ٨٦ .

٣ - آية الواقعة ٥٦ ، ٩٣ ، الكهف ١٠٢ .

٤ - آية الصافات ٦٢ ، فصلت ٣٢ ، الكهف ١٠٧ ، السجدة ١٩ ، آل عمران ١٩٨ .

٥ - انظر الطاهر ج ٢١ ص ٢٣٢ .

٦ - انظر ابن جرير ج ١٦ ص ٣١ تفسير آية الكهف ج ٢٣ ص ٤٠ تفسير آية الصافات .

٧ - انظر ابن جرير ج ٢١ ص ٦٨ تفسير آية السجدة ، ج ٢٤ ص ٧٤ تفسير آية فصلت ٣٢ . ج ٤ ص ١٤٥ تفسير آية آل عمران

١٩٨ .

٨ - انظر ابن جرير ج ١٦ ص ٢٦ ، تفسير آية الكهف ، ج ٢٧ ص ١١٣ تفسير آية الواقعة (٥٦) .

٩ - انظر ابن جرير ج ٢٧ ص ١٢٣ في تفسير آية الواقعة ٩٣ .

١٠ - بمراجعة عدد من المواضع التي عدّها بعض المفسرين والبلاغيين حكماً نحو قوله " فبشره بعذاب أليم" لقمان ٧ ، الجاثية ٨ وقوله " فبشرهم بعذاب أليم" آل عمران ٢١ ، التوبة ٣٤ ، الانشقاق ٢٤ ، وقوله " ذق إنك أنت العزيز الكريم" الدخان ٤٩ ، وقوله " إنك لأنت الحليم الرشيد" هود ٨٧ لم أجد ابن جرير أشار إليه إلا في تفسير الآية الأخيرة حيث قال (وأما قولهم : إنك ... فإنهم أعداء الله ، قالوا ذلك له استهزاءً به وإنما سفهوه وجعلوه بهذا الكلام) ج ١٢ ص ٦٢ .

١١ - انظر على سبيل المثال في تفسير آية الواقعة ٥٦ ، الزمخشري ج ٤ ص ٥٦ ، البقاعي ج ١٩ ص ٢١٨ ، حاشية الشهاب ج ٨ ص

١٥٠ المتن والهامش ، آية الكهف ١٠٢ أبو السعود ج ٥ ص ٢٤٨ ، حاشية الشهاب ج ٦ ص ١٣٨ المتن والهامش ، الطاهر ج ١٦

ص ٤٥ .

وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون " السجدة ١٥ - ١٦ مكية . وفي سورة الروم جاء ذكر الروضة أيضاً (وإنما خص جل ثناؤه ذكر الروضة في هذا الموضع ، لأنه لم يكن عند الطرفين / المؤمنون والكافرون / ١ أحسن منظراً ولا أطيب نشرأ من الرياض) ٢ يقول تعالى :

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذِ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

الروم ١٤ - ١٦ مكية .

هناك فريق آمن بالله وبذل عمره وطاقته في طاعته ، وفريق آخر غطى ما كشفته أنوار العقول من الدلالة على وجود الله ووحدانيته ٣ ، وكذب عناداً وأبى التصديق بما هو واضح وجلي وهو البعث والحساب ، فباعوا أنفسهم للدنيا وانغمسوا في ملذاتها ، فقد بعدت منزلته في الشر بما دل عليه التعبير باسم الإشارة للبعيد ٤ وكما تباينت أعمال الفريقين تباين جزاؤهما ، فالمؤمنون الصالحون في روضة عظيمة الشأن لا يدرك كنهها ولا يقادر قدرها - بما أفاده التنكير ٥ - مقابل كون الكافرين في عذاب تكتمل فيه كل معاني الألم والكرب والغم - بما أفادته (أل) الجنسية من معنى الكمال ٦ .

بل إن هناك تقابلاً بين الاسمية والفعلية في تركيب جملي الجزاء وضحه الرازي حين قال : (قال في الأول يجبرون بصيغة الفعل ، ولم يقل مجبورون ، وقال في الآخر محضرون بصيغة الاسم ، ولم يقل يحضرون ، لأن الفعل ينبىء عن التجدد ، والاسم لا يدل عليه فقوله (يجبرون) يعني يأتيهم في كل ساعة أمرٌ يسرون به ، وأما الكفار فهم إذا دخلوا العذاب يبقون فيه محضرين) ٧ . فقد دل فعل الوعد المضارع على تجدد حدوث كل ما يسرهم ، ومع تجدد

١ - (المؤمنون والكافرون) توضيح من الباحثة .

٢ - ابن جرير جـ ٢١ ص ١٩ .

٣ - انظر البقاعي جـ ١٥ ص ٥٩ .

٤ - انظر أبو السعود جـ ٧ ص ٥٤ .

٥ - انظر الزمخشري جـ ٣ ص ٢١٧ ، الرازي جـ ٢٥ ص ١٠٣ ، البقاعي جـ ١٥ ص ٥٨ ، أبو السعود جـ ٧ ص ٥٣ .

٦ - انظر البقاعي جـ ١٥ ص ٥٩ .

٧ - الرازي جـ ٢٥ ص ١٠٣ .

حصول السارّ يبلغ النعيم والسعادة مبلغاً عظيماً ، في حين أن ثبات الألم والهَم ، والكرب المستفاد من كون جملة الوعيد اسمية الطرفين ، ينبئ عن شقاء عظيم ، لأن في الحركة راحة تميل إليها النفوس والركود مما لا تحبه .

وعلى نهج البقاعي وغيره من المفسرين في الربط بين الجزاء والذنب لعننا نستطيع أن نلمح ارتباطاً بين شدة تكذيبهم وثباته - بما أفادته الباء من الإلصاق في قوله بآياتنا - وإحضارهم في العذاب الذي لا يغيبون عنه بدلالة لفظ الإحضار^١ ، واسمية طرفي الجملة .

وفي موضع من سورة البقرة يفصل النعيم بما لم يذكر من قبل يقول تعالى :

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ مِثْلِهِ
وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا
وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ النَّارِ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ
لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ
ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا
وَلَهُمْ فِيهَا أَنْهَارٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

البقرة ٢٣ - ٢٥ مدنية .

فقد ذكر فيما سبق من آيات وصف النعيم شمول الرزق لكل الثمار وعدم انقطاعها ، ولم يذكر تأثيره على نفوس المتنعمين ، وهو ما ذكر هنا بعد ذكر الجنات التي تجري من تحتها الأنهار بقوله : " كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل " وقد ذهب

^١ - انظر الزمخشري ج ٣ ص ٢١٧ ، الرازي ج ٢٥ ص ١٠٢ ، البقاعي ج ١٥ ص ٥٩ ، أبو السعود ج ٧ ص ٥٤ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ١١٦ المتن والهامش ، الطاهر ج ٢١ ص ٦٤ .

أغلب المفسرين إلى أن المقصود بقولهم (من قبل) أي في الدنيا ^١ ، وقيل إنه في الجنة ^٢ . وعلى كلا الرأيين يكون المراد بيان شدة تعجبهم وفرحهم حين يرون الرزق متشابهاً ، ثم يجدون بينه وبين ما يشبهه تفاوتاً عظيماً ^٣ . وعلى الرأي الأول تكون الحكمة كما ذكرها الزمخشري أن (الإنسان بالمألوف آنس وإلى المعهود أميل وإذا رأى ما لم يألفه نفر عنه طبعه وعافته نفسه ، ولأنه إذا ظفر بشيء من جنس ما سلف له به عهد ، وتقدم له معه إلف ، ورأى فيه مزية ظاهرة ، وفضيلة بينة ، وتفاوتاً بينه وبين ما عهد بليغاً ، أفرط ابتهاجه واغترباطه ، وطال استعجابه واستغرابه ، وتبين كنه النعمة فيه ، وتحقق مقدار الغبطة به . ولو كان جنساً لم يعهده، وإن كان فائتقاً حسب أن ذلك الجنس لا يكون إلا كذلك ، فلا يتبين موقع النعمة حق التبين . فحين أبصروا الرمان من رمان الدنيا ومبلغها في الحجم وأن الكبرى لا تفضل عن حد البطيخة الصغيرة ، ثم يبصرون رمانة الجنة تشيع السكّن ، و النبق من نبق الدنيا في حجم الفلّكة ثم يرون نبق الجنة كقلال هجر كما رأوا ظل الشجرة من شجر الدنيا وقدر امتداده ، ثم يرون الشجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، كان ذلك أبين للفضل وأظهر للمزية ، وأجلب للسرور ، وأزيد في التعجب من أن يفاجئوا ذلك الرمان وذلك النبق من غير عهد سابق بجنسهما) ^٤ واستبعد هذا أبو حيان ^٥ والظاهر ^٦ . ومما ذكر في الآية مما لم

^١ - انظر ابن جرير ج ١ ص ١٣٣ ، الزمخشري ج ١ ص ٢٥٩ ، الرازي ج ٢ ص ١٢٩ ، ابن كثير ج ١ ص ١٠٩ ، البقاعي

ج ١ ص ١٩٢ ، أبو السعود ج ١ ص ٦٩ ، حاشية الشهاب ج ٢ ص ٧٢ المتن والهامش ، الألوسي ج ١ ص ٢٠٤

^٢ - انظر الرازي ج ٢ ص ١٢٩ ، ابن كثير ج ١ ص ١٠٩ ، أبو السعود ج ١ ص ٦٩ ، حاشية الشهاب ج ٢ ص ٧٢ المتن

والهامش .

^٣ - انظر الزمخشري ج ١ ص ٢٦١ ، البقاعي ج ١ ص ١٩٣ ، أبو السعود ج ١ ص ٧٠ ، حاشية الشهاب ج ٢ ص ٧٣ المتن

والهامش ، الألوسي ج ١ ص ٢٠٣ الطاهر ج ١ ص ٣٥٦ .

^٤ - الزمخشري ج ١ ص ٢٦١ وانظر الرازي ج ٢ ص ١٢٩ ، البقاعي ج ١ ص ١٩٣ ، أبو السعود ج ١ ص ٦٩ ، حاشية الشهاب

ج ٢ ص ٧٢ المتن والهامش ، الألوسي ج ١ ص ٢٠٣ .

^٥ - انظر أبو حيان ج ١ ص ٢٥٩ حيث قال : (وليس في الآية ما يدل على ما اختاره الزمخشري ، والأظهر أن يكون المعنى ثبوت التشابه

له ولم يقيد التشابه بل أطلق ، فتقيده يحتاج إلى دليل) .

^٦ - انظر الطاهر ج ١ ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ حيث قال (وهو بعيد لاقتضائه أن يكون عموم كلما مراداً به خصوص الإتيان به في المرة الأولى

في الجنة ، ولأنه يقتضي اختلاف الطعم واختلاف الأشكال ، وهذا أضعف في التعجب ، ولأن من أهل الجنة من لا يعرف جميع أصناف

الثمار فيقتضي تحديد الأصناف بالنسبة إليه) . أما السبب الأول الذي ردّ به رأي الزمخشري فقد نصره ابن جرير ج ١ ص ١٣٣ ، وأما

الثاني فنأشئ من أن الطاهر قد اختار في معنى التشابه اتحاد الشكل واختلاف الطعم .

يُذكر سابقاً الأزواج المطهرة في قوله تعالى " ولهم فيها أزواج مطهرة " التي لم تذكر إلا في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم كلها مدنية ^١ .

وفي توحيد الصفة (مطهرة) ذهب البقاعي إلى أنهن (على خلق واحد لا نقص فيه) ^٢ ، كما ذهب في الحكمة من اختيار صيغة التفعيل إلى أن فيها (إماماً بأنه عمل فيه عمل ما يبلغ فيه بحيث لا مطمع في الزيادة) ^٣ وأكد ذلك بنقله عن الحرالي تعريف التطهير بأنه (تكرار إذهاب مجتنب بعد مجتنب عن الشيء) ^٤ فقد بينت صيغة التطهير أنهن قد بلغن في النقاء والعفة مبلغاً عظيماً ، زاده شرفاً بناؤها للمفعول (مطهرة) ، لأن في ذلك إشعاراً (بأن مطهراً طهرهن وليس ذلك إلا الله عز وجل المرید بعباده الصالحين أن يخولهم كل مزية فيما أعد لهم) ^٥ ، ولو قيل متطهرة لأفهم أنهن تطهرن من قبل أنفسهن . فهؤلاء المؤمنون عاملو الصالحات قد أكرموا ^٦ بدخول جنات تجري من تحتها الأنهار ، ينعمون ببردها وظلالها ، ويسعدون بتجدد النعم فيها المتمثل في قوله " كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل " ويكتمل أنسهم بحسن الجار بعد أن اكتمل بحسن الدار ، فيوهبون أزواجاً مطهرة من كل أذى وقدر ^٧ و مأثم ^٨ ثم يكتمل النعيم بإزالة خوف زواله بتبشيرهم بخلودهم فيه ، (وإنما رغب الله جل ثناؤه بهذه الآية عباده في الإيمان ، وحضهم على عبادته ، بما أخبرهم أنه أعد له لأهل طاعته والإيمان به عنده ، كما حذرهم في الآية التي قبلها ، بما أخبر من إعداد ما أعد لأهل الكفر به الجاعلين معه الآلهة والأنداد من عقابه عن إشراك غيره معه ، والتعرض

^١ - آل عمران (١٥) ، النساء (٥٧) .

^٢ - البقاعي ج ١ ص ١٩٦ .

^٣ - المصدر السابق .

^٤ - المصدر السابق .

^٥ - الزمخشري ج ١ ص ٢٦٢ ، وانظر الرازي ج ٢ ص ١٣٠ ، أبو حيان ج ١ ص ٢٦٠ ، أبو السعود ج ١ ص ٧٠ ، حاشية الشهاب ج ٢ ص ٧٦ المتن والهامش ، الألويسي ج ١ ص ٢٠٥ .

^٦ - سبق أن أشير إلى معنى الإكرام في قوله " لهم جنات " عند دراسة آية السجدة انظر ص ٢٩٨ من هذا الفصل وانظر الرازي ج ٢ ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

^٧ - انظر ابن جرير ج ١ ص ١٣٦ ، الزمخشري ج ١ ص ٢٦٢ ، ابن عطية ج ١ ص ١٥٠ ، الرازي ج ٢ ص ١٣٠ ، ابن كثير ج ١ ص ١١١ ، أبو السعود ج ١ ص ٧٠ ، حاشية الشهاب ج ٢ ص ٧٥ المتن والهامش ، الألويسي ج ١ ص ٢٠٥ ، الطاهر ج ١ ص ٣٥٧ .

^٨ - انظر ابن جرير ج ١ ص ١٣٧ ، ابن عطية ج ١ ص ١٥٠ ، ابن كثير ، ج ١ ص ١١٠ .

لعقوبته بركوب معصيته وترك طاعته) ^١ ، ففي قوله (التعرض لعقوبته بركوب معصيته) إشارة إلى الإيجاز البديع في قوله تعالى : " فاتقوا النار " جواباً للشرط " فإن لم تفعلوا " حيث كان التقدير - كما أشار إليه الزمخشري ^٢ ومن تبعه - فإن لم تستطيعوا أن تعارضوا القرآن ، فاتركوا العناد وآمنوا ، واحذروا إن لم تؤمنوا عذاب النار المعد لأمثالكم . فأقيم قوله : " فاتقوا النار " مقام ترك العناد ^٣ ، أو الإيمان بالله ^٤ . ومع أن المحصلة واحدة فقد قيل إن في تقدير ترك العناد تهويلاً لشأن العناد ، (لأنه إذا ثبت اتقاء النار بترك العناد فقد أقيم العناد مقام النار كما في قوله تعالى " فما أصبرهم على النار " ، لأن معناه ما أكثر عصيانهم ، وهو من أبلغ الكلام كما قال المرزوقي رحمه الله وفيه تصريح بالوعيد وأنهم يستحقون النار ويعاقبون بها ، لتمردهم مع ما فيه من الإيجاز) ^٥ . وقد أعقب هذا التهويل تهويل آخر بذكر صفة النار بأن " وقودها الناس والحجارة " (تربية لما قصد من التخويف والزجر عن العناد) ^٦ . فهذه النار متميزة عن غيرها بأن غيرها توقد بالحطب ونحوه ، ثم يحرق فيها ما يراد حرقه ، أما هذه فإنها توقد بما يراد حرقه ^٧ ، فتكون أشد حرارة وأشد تعذيباً (لأن النار أشد فعلها في وقودها ، لأن بتوسطه تفعل فيما سواه ، فإذا كان وقودها محرقتها كانت فيه أشد عملاً لتقويها به عليه) ^٨ أعادنا الله برحمته . وقد قيل في تعريف لفظ النار إنه لسبق معرفته من آية التحريم " ناراً وقودها الناس والحجارة " ^٩ وفيه نظر ^{١٠} ، أو من أهل الكتاب ^{١١} ولعل الأقرب منهما ما ذهب إليه البقاعي

^١ - ابن جرير ج ١ ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

^٢ - انظر الزمخشري ج ١ ص ٢٤٩ .

^٣ - انظر الكشاف ج ١ ص ٢٥٠ ، الرازي ج ٢ ص ١٢١ ، أبو حيان ج ١ ص ٢٤٩ ، أبو السعود ج ١ ص ٦٧ .

^٤ - انظر ابن عطية ج ١ ص ١٤٥ ، حاشية الشهاب ج ٢ ص ٥٠ المتن والهامش ، الألوسي ج ١ ص ١٩٨ ، الطاهر ج ١ ص ٣٤٤ .

^٥ - حاشية الشهاب ج ٢ ص ٥٠ .

^٦ - السيد الشريف علي بن محمد الحسيني الجرجاني ، حاشية السيد الشريف ضمن كتاب الكشاف ج ١ ص ٢٥٠ .

^٧ - انظر الزمخشري ج ١ ص ٢٥١ ، الرازي ج ٢ ص ١٢١ ، أبو حيان ج ١ ص ٢٥٠ .

^٨ - البقاعي ج ١ ص ١٨٧ ذكر المحقق في هامش الصفحة أن الأظهر أن تكون (لأنها بتوسطه) .

^٩ - انظر الزمخشري ج ١ ص ٢٥١ الرازي ج ٢ ص ١٢١ ، أبو حيان ج ١ ص ٢٤٩ ، البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ج ٢ ص ٥٣ ، أبو السعود ج ١ ص ٦٧ ، الألوسي ج ١ ص ١٩٩ ، الطاهر ج ١ ص ٣٤٥ .

^{١٠} - رفض القول بسبق آية التحريم ، آية البقرة ، لأن سورة التحريم مدنية بالإجماع ، ابن المنير في كتاب الإنصاف ضمن كتاب الكشاف ج ١ ص ٢٤٩ ، والشهاب في حاشيته ج ٢ ص ٥٤ ، وأشار إلى أن في كونها مكية نظر الألوسي ج ١ ص ١٩٩ .

^{١١} - انظر الزمخشري ج ١ ص ٢٥٠ ، الرازي ج ٢ ص ١٢١ ، أبو حيان ج ١ ص ٢٤٩ ، البيضاوي ضمن حاشية الشهاب ج ٢ ص ٥٣ ، أبو السعود ج ١ ص ٦٧ ، الألوسي ج ١ ص ١٩٩ ، الطاهر ج ١ ص ٣٤٥ .

من أن (أخبار القرآن بعد ثبوت أنه من عند الله ، معلومة مقطوع بها ، فهو من باب تنزيل الجاهل منزلة العالم تنبيهاً ، على أن ما جهله لم يجهله أحد)^١ ، خاصة وأن ما نزل من القرآن المكي قد تحدث كثيراً عن النار وصفاتها وعذاب أهلها فيها . ولا يخفى ما في تقديم الناس على الحجارة من التخويف والتهديد^٢ .

أما الحجارة فقد اختلف المفسرون في حقيقتها ، فذهب بعضهم إلى أنها حجارة الكبريت وذكروا في ذلك آثاراً صحيحة^٣ وعللوا ذلك بأنها (تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب : سرعة الاتقاد ، وتنن الرائحة ، وكثرة الدخان ، وشدة الالتصاق بالأبدان ، وقوة حرها إذا حميت)^٤ في حين ذهب آخرون إلى أنها الأصنام^٥ (جعلها الله عذابهم فقرههم بها محماة في نار جهنم إبلاغاً في إيلاهم وإغراقاً في تحسيرهم^٦)^٧ فمع شدة عذاب الأحجار الموقدة ، يدخل على الكافرين من الغم والمهانة والحسرة بسبب رؤيتها معهم في النار ما لا يعلم مداه إلا الله ، لظنهم في شفاعتها أنها تنفعهم ، فإذا هي لا تملك لهم شفاعاة ولا نفعاً لهم سوى الضرر فتزداد حسراتهم وندمهم على ما فات دون إمكان تلافيه من عبادتهم لها . وفي قوله: " أعدت للكافرين " تهويل وتخويف لقلوب المخاطبين وهم الكفار ، لاستقلاله بالخبرية وفيه تعريض بأن النار أعدت ابتداءً لهم^٨ .

و) لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال ، عطف بذكر^٩ حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله ، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم

١ - البقاعي ج ١ ص ١٨٥ ، وانظر الطاهر ج ١ ص ٣٤٥ .

٢ - انظر أبو حيان ج ١ ص ٢٥٠ الألويسي ج ١ ص ١٩٩ .

٣ - انظر ابن جرير ج ١ ص ١٣١ ، ابن عطية ج ١ ص ١٤٦ ، أبو حيان ج ١ ص ٢٥٠ ، ابن كثير ج ١ ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، عن ابن مسعود وابن عباس وابن جريج وغيرهم ، الشهاب ج ٢ ص ٥٣ ، الألويسي ج ١ ص ١٩٨ ، والأخيران نضا على صحة الآثار الواردة في ذلك ، وعلل الشهاب بأن (التفسير الوارد عن الصحابي فيما يتعلق بأمر الآخرة له حكم الرفع بإجماع المحدثين) .

٤ - ابن عطية ج ١ ص ١٤٦ وانظر ابن جرير ج ١ ص ١٣١ ، القرطبي ج ١ ص ٢٣٥ ، أبو حيان ج ١ ص ٢٥٠ ، ابن كثير ج ١ ص ١٠٧ ، حاشية الشهاب ج ٢ ص ٥٣ ، الألويسي ج ١ ص ١٨ .

٥ - انظر الزمخشري ج ١ ص ٢٥٢ ، الرازي ج ٢ ص ١٢٢ ، القرطبي ج ١ ص ٢٣٥ ، أبو حيان ج ١ ص ٢٥٠ ، أبو السعود ج ١ ص ٦٨ ، الطاهر ج ١ ص ٣٤٥ .

٦ - في النسخة "تحيرهم" وفي الإنصاف في هامش الصفحة "تحسيرهم" وهو أكثر ملاءمة للمعنى وفي حاشية الشهاب ج ٢ ص ٥٣ المتن والهامش تحسّرهم .

٧ - الزمخشري ج ١ ص ٢٥٢ وانظر الرازي ج ٢ ص ١٢٢ ، البقاعي ج ١ ص ١٨٥ ، الطاهر ج ١ ص ٣٤٥ .

٨ - انظر الطاهر ج ١ ص ٣٤٥ .

٩ - في الكتاب يذكر (بالياء) ، ولعل الأنسب للنص (بذكر) بلباء الموحدة .

الصالحة وهذا معنى تسمية القرآن مثاني على أصح أقوال العلماء ^١ ، وبيان الحال هو ما سوَّغ عطف الإنشاء في قوله " وبشر " على الخبر، وهو قوله " أعدت للكافرين " ، حيث أن المراد عطف قصة عقاب الكافرين على قصة ثواب المؤمنين أو حال هؤلاء على حال أولئك وليس جملة على جملة ^٢ .

فالكفار يهددون - إن لم يؤمنوا - بعقوبة النار التي سوف تتقد فتحرقهم وتبالغ في إتلافهم ، يأكلون فيها الزقوم والغسلين ، ويشربون الحميم والغساق ، في حين أن المؤمنين يبشرون ويرغبون في جنات عظيمة الشأن ^٣ ، ظليلة باردة تجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار ، ويأتيهم رزقهم فيها من كل الثمرات بما دل عليه قوله " كلما رزقوا منها من ثمرة " ، لأن (تعليق الرزق بمحله وتعقيبه بثمره منكرة ، يقتضي عمومها لكل ما فيها ، كما قال تعالى : " ولهم فيها من كل الثمرات ") ^٤ ، مع تجدد لذته في كل مرة مما يفيد استمرار تنعمهم بهذا الرزق .

ولعل من الممكن استدلالاً من نحو قوله تعالى " إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون " الأنبياء ٩٨ ، أن نلمح مقابلة بين إهانة الكافرين بقرنهم مع أصنامهم في النار مما يزيد غمهم وتحسرهم ، و إكرام المؤمنين بصحبتهم لأزواج مطهرة مما يؤنسهم ويسعدهم.

فهذه النار التي يهدد الكافرون بشدة اتقادها وحرارتها وصنوف عذابها ، تقابل الجنة التي يبشر المؤمنون بظلالها وأثمارها وثمارها وضروب لذاتها. وهذا كرب أهل النار المتمثل في اقتراهم بأصنامهم بما دل عليه أمثال قوله تعالى : إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم " ، يقابل أنس أهل الجنة بصحبة الأزواج المطهرة من كل أذى وقدر ومكروه .
ومن مواضع ذكر الأزواج المطهرة ما جاء في سورة النساء قال تعالى :

^١ - ابن كثير ج ١ ص ١٠٩ وسيأتي قول الرازي بأن اقتران الوعد بالوعيد على سبيل الأغلب وللإشارة إلى المقابلة : انظر الزمخشري ج ١ ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، البقاعي ج ١ ص ١٨٩ ، أبو السعود ج ١ ص ٦٨ ، حاشية الشهاب ج ٢ ص ٥٧ المتن والهاش ، الألوسي ج ١ ص ٢٠٠ ، الطاهر ج ١ ص ٣٥٢ .

^٢ - انظر الزمخشري ج ١ ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، الرازي ج ٢ ص ١٢٦ ، أبو السعود ج ١ ص ٦٨ ، حاشية الشهاب ج ٢ ص ٥٧ - ٥٨ المتن والهاش ، الألوسي ج ١ ص ٢٠٠ ، الطاهر ج ١ ص ٣٥٠ .

^٣ - انظر الشهاب ج ٢ ص ٦٥ .

^٤ - الشهاب ج ٢ ص ٧٠ .

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَيْنَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ
 إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ
 آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمًا تَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنِهِمْ
 جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۗ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ
 مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلِيلًا ﴿٥٧﴾

النساء ٥٤ - ٥٧ مدنية

أول ما يلقانا في هذه الآيات التهديد والوعيد^١ في قوله " وكفى بجهنم سعيراً " (فهذا
 كناية عن شدة العذاب والعقوبة)^٢ . ثم تبدأ الآيات في تفصيل العذاب بذكر صلي النار في
 قوله : " إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً " . وفي التعبير بأداتي التوكيد إن ، وسوف ،
 والتعبير بنون العظمة في قوله : " نصليهم " ، وتكثير لفظ " ناراً " الدال على التهويل^٣ ، من
 تفضيع شأن العذاب والتخويف منه ما لا يخفى . ولا يقف الأمر عند الصلي الذي يفهم
 دخولهم النار (دخولاً يحيط بجميع أجزائهم وأجزاءهم)^٤ ، مما يؤكد المعنى الذي سبق أن
 ذكرته عن الزمخشري في معنى الصلي^٥ وهو إحاطة النار بهم من كل مكان ففيه زيادة على

^١ - انظر الطاهر جـ ٥ ص ٨٩ .

^٢ - ابن عطية جـ ٤ ص ١٥٤ ، وانظر أبو حيان جـ ٣ ص ٢٨٥ .

^٣ - انظر أبو السعود جـ ٢ ص ١٩١ ، الألوسي جـ ٥ ص ٥٨ .

^٤ - ابن كثير جـ ٢ ص ٣١٨ .

^٥ - انظر ص ٥٤ من الباب الأول في هذا البحث ، الزمخشري جـ ٤ ص ٢٤٦ في تفسير آية الغاشية رقم (٤) .

الدخول ، لأنه (بمنزلة شويته بالنار) ^١ ، وإنما يتجدد العذاب ويدوم بتبديل جلودهم كلما احترقت بإعادتها من جديد ^٢ لتعاود الاحتراق مرة أخرى أعادنا الله منها .

والجلود يومها تكون على غير هيئتها الأولى لمزيد من العذاب فهي تزيد عن جلود الدنيا أضعافاً مضاعفة ، وقد روي في ذلك آثار منها ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد ، وغلظ جلده مسيرة ثلاث " ^٣ وما رواه أحمد عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يعظم أهل النار في النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبع مائة عام وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً وإن ضرسه مثل أحد " ^٤ .

ولعل في ذكر تبديل الجلود خاصة ، أنها من أكثر المواطن في الجسم شعوراً بألم الاحتراق، إذا تعادها فقد الجسد الإحساس به ^٥ ، وهذا ما ألمح إليه أبو السعود حين قال (ولعل السر في تبديل الجلود مع قدرته تعالى على إبقاء إدراك العذاب وذوقه بحاله مع الاحتراق ، ومع إبقاء أبدانهم على حالها ، مصونة عن الاحتراق ، أن النفس ربما تتوهم زوال الإدراك بالاحتراق ، ولا تستبعد كل الاستبعاد أن تكون مصونة عن التألم والعذاب بصيانة بدنها عن الاحتراق) ^٦ ، وهذا ما حسن استعارة الذوق للعذاب هنا إذ ليس المراد بيان قلته (بل لبيان أن إحساسهم بالعذاب في كل مرة كإحساس الذائق بالمذوق حيث أنه لا يدخله نقصان لدوام الملابس ^٧ ، أو للإشعار بمرارة العذاب مع إيلامه ، أو للتنبية على شدة تأثيره من حيث إن

^١ - الرازي جـ ١٠ ص ١٣٤ ، وانظر ابن جرير جـ ٥ ص ٩٠ ، الطاهر جـ ٥ ص ٨٩ .

^٢ - أحد الأقوال في معاني التبديل ، ورجحه عدد من المفسرين منهم ابن جرير جـ ٥ ص ٩١ ، أبو حيان جـ ٣ ص ٢٨٥ ، ابن كثير جـ ٢ ص ٣١٩ ، البقاعي جـ ٥ ص ٣٠٥ ، أبو السعود جـ ٢ ص ١٩١ ، الألوسي جـ ٥ ص ٥٨ .

^٣ - صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها حديث رقم (٩٠٩٠) موسوعة الحديث الشريف .

^٤ - مسند أحمد ، مسند المكثرين عن الصحابة حديث رقم (٤٥٦٩) موسوعة الحديث الشريف .

^٥ - ثبت هذا علمياً . فقد ذكر في كتاب الجراحة العامة لمبايء الجراحة فوزي الشامي وآخرون - وزارة الصحة الجمهورية العربية السورية الفصل الخامس الحروق - الأذيات الحرارية ص ١٦٢ تقدير عمق الجرح حيث قيل (أما حرق الدرجة الثالثة فينجم غالباً عن اللهب ، أو التماس مع أشياء ساخنة يكون لونه أيضاً وسطحه جافاً ويعطي مظهر الجلد المدبوغ ... الألم هنا قليل بسبب احتراق النهايات العصبية لذلك تعتمد على الإحساس الجلدي كعلامة للدلالة على عمق الأذية وللتمييز بين الدرجة الثانية والثالثة نشد الأشعار ((الشعر)) في مكان الحرق فإذا اقتلعت بسهولة وبدون ألم كان الحرق من الدرجة الثالثة) وانظر كتاب شوارتز لمبايء الجراحة ترجمة وإعداد ماجد النون وآخرون الناشر دار المعاجم للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع - دمشق الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م ص ١٥١ .

^٦ - أبو السعود جـ ٢ ص ١٩٢ ، وذكره أبو حيان هنا جـ ٣ ص ٢٨٦ ، وذكره الرازي جـ ٢٥ ص ١٨٣ في تفسير آية السجدة

(٢٠) .

^٧ - ذكر هذا الوجه الأول الرازي جـ ١٠ ص ١٣٥ .

القوة الذائقة أشد الحواس تأثراً^١ ، أو على سرايته للباطن^٢ . وتزداد الشدة التي ينبيء عنها لفظ الذوق بصياغته في صورة الفعل المضارع المفيد للتجدد والدوام ، وهو ما جعل بعض المفسرين يفسرون قوله " ليدوقوا العذاب " بقولهم (ليدوم لهم ذوقه ولا ينقطع كقولك للعزيز أعزك الله أي أدامك على عزك وزادك فيه)^٣ هذا مع ما في النضج والتبديل من تأيس لهم ، وتجديد حزن على حزن^٤ . ويأتي قوله تعالى " والذين آمنوا وعملوا الصالحات ... " الآية . على (عادة الله تعالى في هذا الكتاب الكريم بأن الوعد والوعيد يتلازمان في الذكر على سبيل الأغلب)^٥ ، فالمؤمنون الصالحون يبشرون بدخول جنات عظيمة الشأن بما أفاده التنكير في لفظ جنات تجري من تحت أشجارها وغرفها وقصورها أنهار الماء واللبن والخمر والعسل ، وهذا وصف لحسن هذه الدار ، يعقبه بيان لحسن حالهم فيها بذكر خلودهم الأبدي ، ثم يكتمل نعيمهم بذكر أنسهم بصحبة الأزواج المطهرة من كل أذى ومكروه .

وقد ذكر في آية النساء هنا ذكر لفظ أبداً مع (الخلود) . ومراجعة كتاب درة التنزيل وغرّة التأويل ، و ملاك التأويل ، لم أجد آية النساء من الآيات التي ذكرها صاحبنا الكتابين فيما ذكر فيه لفظ أبداً مع الخلود^٦ ، فقد ذكر الإسكافي الحكمة من حذف لفظ (أبداً) حين تحدث عن آية المائدة " هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ... " الآية ١١٩ ، وقال (إنما حذف عن أولى الآيتين اللتين في براءة^٧ وآخر آية في سورة المجادلة^٨ لأنه ذكر قبل الآية التي في سورة براءة " وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون " ، وبعد الآية التي في آخر سورة المجادلة " رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون " ،

١ - قال أبو حيان ج ٣ ص ٢٨٦ (وأتى بلفظ الذوق المشعر بالإحساس الأول وهو ألم) .

٢ - أبو السعود ج ٢ ص ١٩١ ، ١٩٢ ، وانظر الألوسي ج ٥ ص ٥٩ .

٣ - الزمخشري ج ١ ص ٥٣٤ ، وانظر الرازي ج ١٠ ص ١٣٥ ، البقاعي ج ٥ ص ٣٠٦ ، أبو السعود ج ٢ ص ١٩١ ، الألوسي ج ٥ ص ٥٩ . وقد ذهب أبو السعود إلى أن هذا التفسير مبني على جعل جملة (ليدوقوا العذاب) صفة ل (ناراً) على حذف العائد أي كلما نضجت فيها خلودهم فمعنى قوله تعالى " ليدوقوا العذاب " ليدوم ذوقه ولا ينقطع .

٤ - انظر الألوسي ج ٥ ص ٦٠ .

٥ - الرازي ج ١٠ ص ١٣٦ ، وانظر في التنبيه إلى المقابلة ابن عطية ج ٤ ص ١٥٥ أبو حيان ج ٣ ص ٢٨٦ ، البقاعي ج ٥ ص ٣٠٦ ، أبو السعود ج ٢ ص ١٩٢ ، الألوسي ج ٥ ص ٦٠ .

٦ - انظر الإسكافي درة التنزيل ج ١ ص ٢٩١ ، ونسخة دار الآفاق ص ١٠٣ ، الغرناطي ملاك التأويل ج ١ ص ١٩٧ وما بعدها .

٧ - قوله " أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ٨٩ " .

٨ - قوله " أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون " ٢٢ .

فلأن في خالد بن خالد ما يدل على التأيد ثم وقد نزل منزلته أخبار هي في مدحهم ، وهي قوله: " رضي الله عنهم ورضوا عنه " فلما تظاهرت هذه الأخبار التي هي ثناء من الله جل ذكره عليهم ومدح لهم وطال الكلام بها فاستغنى بذكر خالد بن خالد عن ذكر قوله أبداً وحسن حذفه ولم يحسن في المواضع الأخر التي لم تتظاهر فيها مثل عدة هذه الأخبار الموجبة لهم دار الخلد ودوام النعيم)^١ . أما الغرناطي فقد تحدث عن الحكمة من وجود اللفظ في بعض الآيات دون بعض ، أثناء حديثه عن آية النساء " ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ... " الآية حيث قال (وأما آية المائدة^٢ وثانية براءة^٣ فلما بنيتا عليه من الإطباب ، ولما حمل فيهما على جمع التأيد والرضا حسبما تقدم في السؤال قبل هذا^٤ وأما آية الطلاق^٥ ، فوجه ذكر التأيد فيها ما تكرر في هذه السورة من غايات أبينها قوله تعالى " قد جعل الله لكل شيء قدراً " فلما أشارت - أي السور - إلى غايات ونهايات ناسب ذلك التعريف بأن خلود الجنة متأبد لا انقضاء له ... وأما آية براءة فإنها كما تقدم ختام حال الفريقين^٦ فاقتضت الاستيفاء)^٧ .

وبالتأمل فيما ذكرناه نجد أنهما يرتبطان ذكر لفظ (أبداً) بمقامات الإطباب في القرآن مثل آية المائدة " لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالد بن خالد فيها أبداً " ١١٩ ، وآية براءة " وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالد بن خالد فيها أبداً " ١١ ، فقد جعلها الغرناطي في مقابلة تقدير غايات ونهايات كل شيء حيث بينت أن خلود الجنة متأبد لا انقضاء له .

^١ - الإسكافي ، درة التنزيل ص ١٠٣ ، والنص في النسخة المحققة أنصر مما هو عليه هنا ويبدو أن فيه سقطاً .

^٢ - قوله " هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالد بن خالد فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم " ١١٩ .

^٣ - قوله " والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالد بن خالد فيها أبداً ذلك الفوز العظيم " ١٠٠ .

^٤ - جاء في إجابته عن السؤال الثاني (ما وجه اجتماع الرضى والتأيد في الآية الثانية من المائدة وثانية براءة وآية البرية... أما آية المائدة فقد قال تعالى فيها " هذا ينفع الصادقين صدقهم " وورد التصديق بعيسى عليه السلام فوسمهم فيها بالصدق وهو أسنى حالات الإيمان ... وأما الآية الثانية من سورة براءة ففيها " والسابقون ... " وسبقية هؤلاء رضوان الله عليهم وما عرف من حالهم وأهم صفوة المحسنين من هؤلاء الأمة معلوم ملحق لهم بنمط الأعلى من الصادقين من أتباع الرسل فلما كان المشار إليهم في الآيتين هم الأسوة والقدوة لمن سواهم ناسب حالهم الإطباب بذكر الرضا والتأيد) ، ج ١ ص ١٩٧ .

^٥ - قوله " ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالد بن خالد فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً " ١١ .

^٦ - يقول : (وأما آية البرية فإنها على مقتضى الترتيب الثابت - آخر آية ذكر فيها حال المؤمنين في الجزاء الأخروي ، معقباً به ذكر جزاء من كان في طرف من حالهم ، من مستوجبي النار على التأيد ، فكانت هذه الآية مظنة استيفاء للحال) ج ١ ص ١٩٧ .

^٧ - ج ١ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

أما في المواضع التي أشادت بذكر أصحاب الجنة فقد استغنى عن لفظ أبداً . وعلى هدى من هذا القول نستطيع أن نعلل وجود أبداً هنا بأن المقام مقام إطناب . ويؤنس إليه الإطناب في وصف الجنة بذكر الظل الظليل بعد الجنة وهو من لوازمها . والمقام مقام إشادة وتكريم لمن آمن بما أنزل على آل إبراهيم من الكتاب والحكمة والملك العظيم .

ويُختم وصف الثواب بذكر دخول الظل الظليل (لا على أنه غير الإدخال الأول بالذات بل بالعنوان كما في قوله تعالى : " ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ")^١ فلعل أبا السعود أراد أن أفراد الظل الظليل بالذكر لاستقلاله بالمدح إعظماً لشأنه كما أفردت نجاة هود عليه السلام ومن معه من العذاب الغليظ في قوله : " ونجيناهم من عذاب غليظ " ، للامتنان عليهم بوصف ما نجوا منه خاصة بعد ذكر نجاتهم عامة فهو من عطف الخاص على العام .

وتأكيد معنى الظل بالظليل ، لبيان أنه (ما كان فينا لاجوب فيه ودائماً لا تنسخه الشمس وسجسجاً لا حر فيه ولا برد ، وليس ذلك إلا ظل الجنة)^٢ وفسره ابن جرير بالمدود^٣ وروى في ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة وقرأوا إن شئتم وظل ممدود ولقاب قوسين أحدكم في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس وتغرب " .^٤ وقال باحتمال كل وجه ابن عطية^٥ . وذهب الرازي إلى أن الظل عند العرب (أعظم أسباب الراحة ولهذا المعنى جعله كناية عن الراحة قال عليه الصلاة والسلام السلطان ظل الله في الأرض ، فإذا كان الظل عبارة عن الراحة كان الظليل كناية عن المبالغة العظيمة في الراحة)^٦ وذكر البيضاوي والألوسي أنه دليل على (النعمة التامة الدائمة)^٧ .

^١ - أبو السعود ج ٢ ص ١٩٢ .

^٢ - الزمخشري ج ١ ص ٥٣٥ .

^٣ - انظر ابن جرير ج ٥ ص ٩١ .

^٤ - صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق حديث رقم ٣٠١٣ ، كتاب تفسير القرآن حديث رقم ٤٥٠٢ ، سنن الترمذي كتاب تفسير حديث رقم ٣٢١٤ ، ٣٢١٥ ، سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد حديث رقم ٤٣٢٦ ، مسند أحمد ، باقي مسند المكثرين حديث رقم ٩٢٧٤ ، ٩٨٦٩ ، ١٢٢١٦ ، سنن الدارمي ، كتاب الرقاق حديث رقم ٢٧١٦ موسوعة الحديث الشريف .

^٥ - انظر ابن عطية ج ٤ ص ١٥٦ ، ١٥٥ .

^٦ - الرازي ج ١٠ ص ١٣٧ .

^٧ - البيضاوي بامش حاشية الشهاب ج ٣ ص ١٤٧ ، وانظر الألوسي ج ٥ ص ٦٠ .

وحيث نبحث عن عناصر المقابلة بين الجزأين ، نجد أن جملة الوعيد قد جاءت مؤكدة بـ(إن) بخلاف جملة الوعد الذي خلت منه ، كما أكد الوعيد بسوف التي تفيد تحققه (وإن طال معه الإمهال)^١ ، في حين أكد الوعد بحرف السين المشعر بقرب زمان تحققه . وقد علل هذا أبو حيان بقوله (وجاءت جملة الكفار مؤكدة بإن على سبيل تحقيق الوعيد المؤكد ، ولم يحتج إلى ذلك في جملة المؤمنين ، وأتى فيها بالسين المشعرة بقصر مدة التنفيس على سبيل تقريب الخير من المؤمن وتبشير به)^٢ ، ولعله أرجع خلو جملة الوعد من التوكيد بـ(إن) إلى حال المؤمنين المخاطبين بالآية ، وهو ثقتهم في وقوع أخبار الله تعالى . كما أرجع العلة في التعبير بحرف السين إلى التعجيل لهم بما يسرهم وهو معنى (تقريب الخير للمؤمن) أي قربه منه على وجه البشارة ، أما البقاعي فقد أرجعه إلى أمور أخرى حين قال (وربما أفهم التنفيس لهم بالسين دون سوف - كما في الكافرين - أنهم أقصر الأمم مدة أو أنهم أقصرهم أعماراً إراحة لهم من دار الكدر إلى محل الصفاء ، وأنهم يدخلون الجنة قبل جميع الفرق الناجية من أهل الموقف)^٣ . ومن عناصر المقابلة الخفية نوعاً ما مقابلة جملة " نصليهم ناراً " بجملة " سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار " فالصلي كما سبق أن ذكر دخول النار دخولاً يحيط بالمرء من جميع جوانبه ، وفي ذكر النار مع فعل الصلي الدال أساساً على الاحتراق زيادة توكيد ، في حين يدخل الله تعالى المؤمنين الجنات التي تجري من تحتها الأنهار ، فأولئك البعداء البغضاء يحترقون بحر النار المحيطة بهم بشق الطرق ، من ثياب النار المذكورة في قوله " قطعت لهم ثياب من نار " ، والعطش وأكل الزقوم وشرب الحميم وصبه على رؤوسهم ، وهؤلاء المؤمنون الصالحون ينعمون بتوسطهم الجنات ببرد الجنة ، وظلالها والشرب من أنهارها والتلذذ بأنواع ثمارها جعلنا الله في زمرةم وأعادنا من مصير مقابليهم . وبما أفاده الظرف (كلما) من الإخبار عن (دوام عقوبتهم ونكالهم)^٤ أفاد مقابله في قوله " خالددين فيها أبداً " دوام ثوابهم وإكرامهم . كما قوبل تأكيد العذاب مكرراً ذكر موضعه من أجسادهم^٥ في قوله

^١ - البقاعي جـ ٥ ص ٣٠٥ .

^٢ - أبو حيان جـ ٣ ص ٢٨٦ .

^٣ - البقاعي جـ ٥ ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

^٤ - ابن كثير جـ ٢ ص ٣١٨ .

^٥ - انظر أبو حيان جـ ٣ ص ٢٨٧ .

"نضجت جلودهم" ، "بدلناهم جلوداً" ، بتأكيد النعيم بتكرار ذكر إدخالهم الجنة^١ في قوله "سندخلهم جنات" ، "وندخلهم ظلاً ظليلاً" . وهكذا جوزي فريق الكفر بصلي النار دائماً وأبداً مقابلة بمجازاة فريق الإيمان والعمل الصالح بالبقاء في الجنة دائماً وأبداً . ولا يخفى ما في تقابل القهر والشدّة في فعل العقاب بالتعبير بـ (نون العظمة) على قراءة الجمهور ، مع الرحمة واللين في التعبير بها في فعل الثواب ، كما لا تخفى المقابلة في طريقة وقوع الجزاء ففي الصلي تحقير مقابل ما في الإدخال من التكريم والتشريف .

بين البقرة والنساء :

ورد ذكر الأزواج المطهرة في القرآن الكريم جزاء للمؤمنين ثلاث مرات ، اثنتان منها هنا ، والثالثة في آل عمران في قوله تعالى :

﴿ قُلْ أُوْنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

آل عمران ١٥ مدنية .

وهي بين الآيتين المذكورتين نزولاً^٢ ، ولم يصرح فيها بعقوبة مقابل الثواب ، فقد جاءت عقب قوله :

^١ - انظر ابو حيان جـ ٣ ص ٢٨٧ ، أبو السعود جـ ٢ ص ١٩٢ .

^٢ - أرقام السور حسب ترتيب النزول : البقرة ٧٨ ، آل عمران ٨٩ - النساء ٩٢ .

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ
مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ
ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ

الْمَثَابِ ١٤

آل عمران ١٤ مدنية.

فهي خارج دائرة موضوع البحث ، ولكننا نستطيع من تشابه الجزاء مع آيتي البقرة والنساء أن نستدل على أن درجة التقوى فيها عالية ، لأن هذين الموضوعين جمعا مع تقوى الشرك عمل الصالحات وقد يقع التقابل بين ما في الدنيا من متاع حقير زائل وما عند الله تعالى من الثواب العظيم الدائم . أما آيتا البقرة والنساء المذكورتان فان بينهما نقاط التقاء ونقاط افتراق .

يقول تعالى : " وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون " البقرة ٢٥ ويقول تعالى : " والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظللاً ظليلاً " النساء ٥٧

أما عناصر الالتقاء فهي : -

١- جنات تجري من تحتها الأنهار .

٢- لهم فيها أزواج مطهرة .

٣- الخلود في قوله " وهم فيها خالدون " و " خالدين فيها " .

ومع هذا الالتقاء في النوع فقد تفاوت ترتيبها في الذكر ، ففي آية البقرة ذكرت الجنات ثم الأزواج ثم الخلود ، وفي آية النساء ذكرت الجنات ثم الخلود ثم الأزواج . وذكر أغلب المفسرين^١ أن الحكمة في آية البقرة من ذكر الخلود آخرأ ، خوف المؤمن من الانقطاع

^١ - انظر الرازي ج ٢ ص ١٣١ ، أبو حيان ج ١ ص ٢٦١ ، ابن كثير ج ١ ص ١١١ ، البقاعي ج ١ ص ١٩٧ ، أبو السعود ج ١ ص ١٧ ، حاشية الشهاب ج ٢ ص ٧٩ المتن والهامش ، الألوسي ج ١ ص ٢٠٥ ، الطاهر ج ١ ص ٣٥٧ .

عن النعيم ، وذكر البقاعي^١ في آية النساء أن الحكمة من ذكر النساء آخرًا ، بعد ذكر ما تهواه النفوس من استمرار الإقامة بالجنة ، هو أن الدار لا يكمل حسنها إلا بحسن الجار ، فكان ذكر الخلود متصلًا بحسن الدار ، وجاء ذكر حسن الجار بعده .

ومع هذا يظل السؤال قائمًا وهو: لم عوجل المؤمنون بنعمة الأنس بالأزواج المطهرة في آية البقرة و عوجلوا بنعمة الخلود في آية النساء ؟

هل لذكر قصة آدم وزوجه بعد هذه الآية بقليل علاقة بتقديم ذكر الأزواج في البقرة ؟ ولذكر دوام عذاب الكافرين بتبديل جلودهم في النار علاقة بتقديم مقابله وهو خلود المؤمنين في الجنة ؟ أو أن ذكر الأزواج في آية البقرة جاء إتماماً لصورة النعيم المتمثل في الجنات والثمرات ، ثم ذكر الخلود ليواجه ما قد يعتر بهم من خوف الانقطاع ، في حين جاء ذكر الخلود أولاً في آية النساء تعجلاً بما يسره وهو خلودهم في رحمة الله ، مقابل لعن الكافرين المذكور في قوله " ولكن لعنهم الله بكفرهم " وقوله " أولئك الذين لعنهم الله " ؟

ولعل مجيء جملة الخلود في آية البقرة " هم فيها خالدون " اسمية في حين جاء لفظ الخلود في النساء حالاً مما يؤيد هذا وهو أن الخلود في آية البقرة جاء خبراً مستقلاً بالفائدة فأتى بعد استكمال صورة النعيم ، في حين جاء اللفظ في آية النساء حالاً لهيئة المؤمنين في الجنة فكان موضعه المناسب بعد ذكرهم .

أما عناصر الافتراق فهي : -

١- ذكر الثمرات في آية البقرة والظل الظليل في آية النساء .

٢- إضافة لفظ أبداً في آية النساء ، دون آية البقرة .

ولم أجد أحداً من المفسرين الذين اطلعت على كتبهم قد أشار إلى الحكمة من وجود هذه الفروق ولا أعرف إذا كان بالإمكان القول بأن لذكر نعمة الثمرات المذكورة قبل آية البقرة في قوله : " الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون " البقرة ٢٢؛ شأنًا في ذكر هذه النعمة بوجه يليق بنعيم الآخرة ، وهو المتمثل في قوله " كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا ، قالوا هذا الذي رزقنا من قبل " الدال على أنها ثمرات تختلف وتفضل ثمرات الدنيا ، التي يجدون فيها

١ - انظر البقاعي ج ٥ ص ٣٠٧ .

متعتهم في الدنيا - هذا مالا يستطيع أن يؤكد باحثٌ مثلي ، وحسبه الإشارة إلى وجه الاختلاف .

أما الظل الظليل فقد أشار أبو السعود كما سبق أن ذكر من أن الحكمة من أفراده بالذكر بعد ذكر الجنات التنويه بشأنه - كما وصل إليه فهمي - وتبقى الحكمة من ذكره هنا في آية النساء . وقد ذكر الطاهر أن آية النساء اقتضت (من نعيم الآخرة على لذة الجنات والأزواج الصالحات ، لأنهما أحب اللذات المتعارفة للسامعين ، فالزوجة الصالحة آنس شيء للإنسان ، والجنات محل النعيم وحسن النظر وقوله " ندخلهم ظلاً ظليلاً " هو من تمام محاسن الجنات ، لأن الظل إنما يكون مع الشمس ، وذلك جمال الجنات ولذة التنعم برؤية النور مع انتفاء حره)^١ .

والمأمل في سياق آيات النساء يجده قد ذكر كثيراً من الوصايا والأوامر الشرعية وذم تاركها والخارج عنها^٢ . ومن هنا ، فقد يستطيع الباحث ربط هذا الاستظلال للمؤمنين بالجنة باستظلالهم بشرع الله في الدنيا ، أو لعله مما يناسب شدة الاحتراق في النار المتمثلة في إحاطتها بالكافرين وتبديل الجلود مرة بعد مرة حيث قوبل به دخول الجنة ، ودخول الظل الظليل .

ولعل الدوام المستفاد من لفظ (كلما) في جانب العقاب ، هو ما سوّغ لذكر لفظ التأييد في جانب الثواب الذي سبق أن ذكرت إشارة الإسكافي والغرناطي إلى ورودها في سياقات الإطناب، واستدللت لقولهما بما في ذكر الظل الظليل بعد ذكر الجنة وهو من لوازمها من قصد الإطناب . فذكر لفظ التأييد مناسب للإطناب الموجود في الآية ، وأضيف هنا أن في لفظ التأييد المفيد للدوام مقابلة معنوية لمعنى الدوام المتمثل في قوله : " كلما نضجت جلودهم

^١ - الطاهر ج ٥ ص ٩٠ .

^٢ - في الآيات التي تبدأ من قوله تعالى " وعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً " ٣٦ وتنتهي بقوله " ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجنت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً أولئك الذين لعنهم الله ومن لعن الله فلن تجد له نصيراً " ٥١ - ٥٢ .

بدلناهم جلوداً غيرها " فالكفار باقون في العذاب أبداً بدلالة الظرف^١ ، والمؤمنون باقون في
النعيم أبداً بصريح لفظ التأيد .

^١ - انظر ابن هشام ، معني اللبيب ص ٢٦٦ .

المبحث الثاني : الجزء المجمل

الجزء المجمل هو الذي يذكر ألفاظاً عامة تدل على الثواب أو العقاب ، ثم توصف بما يلائمها من أوصاف .

ففي جانب الثواب يأتي لفظ الأجر والرزق ، ثم يوصف بأنه كبير ، أو كريم ، أو حسن ، أو عظيم ، أو ممنون ، (وإذا قال الله تعالى أجرٌ عظيم وأجرٌ كريم وأجرٌ كبير فمن ذا الذي يقدر قدره) ^١ . وفي جانب العقاب تأتي ألفاظ نحو العذاب والويل والحية وضلال الأعمال وما شابه ذلك من كون أصحاب العقاب هم أصحاب الجحيم ، أو عدم حب الله لهم ، كما سيأتي إن شاء الله . وأغلب ما جاء فيه الثواب مجملاً جاء فيه العقاب كذلك .

يقول الله تعالى :

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

فاطر ٧ مكية .

وردت هذه الآية بعد ذكر عداوة الشيطان للإنسان وتولي الكفار له وتخزيمهم معه ، ولعل هذا ما سوَّغ البداية بذكر العقاب قبل الثواب ، فجاءت آية الجزء في صورة (استئناف ابتدائي يفيد مفاد الفذلكة والاستنتاج مما تقدم . وهذا الاستئناف يومئ إلى أن الذين كفروا هم حزب الشيطان لأنه لما ذكر أن حزبه من أصحاب السعير ، وحكم هنا بأن الذين كفروا لهم عذاب ، شديد علم أن الذين كفروا من أصحاب السعير ، إذ هو العذاب الشديد ، فعلم أنهم حزب الشيطان بطريقة قياس مطوي ، فالذين كفروا هم حزب الشيطان ، لعكوفهم على متابعته وإن

^١ - القرطبي ، ج ٦ ص ١١٠

لم يعلنوا ذلك لاقتناعه منهم بملازمة ما يملية عليهم) ^١ ويقابله ضمناً كون الذين آمنوا وعملوا الصالحات من حزب الله لإيمانهم به واتباعهم لشرعه.

وأول ما يلفت النظر في الآية أن جملها اسمية . وللجملة الاسمية خاصية الثبات والدوام ^٢. ولعل هذا الثبات قد أغنى عن توكيد الجملة فأرسلت هكذا لتُظهر حقيقة لا تقبل الجدل .

وقد يعود عدم توكيد جملة العقاب إلى يقين الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الخبر ، أو لما سبق أن ذكر من كون الكفار أصحاب السعير ، أو تنزيل الكافر الجاهل منزلة العالم لكون عقاب حزب الشيطان مما يُعلم بالبديهة ، ومجيء الثواب دون توكيد لثقة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في صدق وعد الله .

وبالتأمل في جملي الجزاء نجد صياغة خاصة تناسب مع المعنى الذي يُراد تثبيته ، فتكثير ألفاظ الجزاء في قوله "عذاب شديد" "ومغفرة وأجر كبير" يفيد أنه عذاب لا يعرف مداه ولا استطاع الصبر عليه وذلك عذاب النار ^٣ وقد ذكر الرازي أن في الآية دلالة على تأييد العذاب فقال: (والإنسان إذا كان عاقلاً يختار العذاب المنقطع اليسير دفعا للعذاب الشديد المؤبد) ^٤ .

وذهب أبو السعود إلى أن معنى ("عذاب شديد" لا يُقادرُ قدره مديد لا يبلغ مداه) ^٥ ، فكأن الرازي وأبا السعود قد وجَّها الشدة التي وُصف بها العذاب إلى معنى التأييد ، في حين يجعل الألوسي التأييد مستفاداً من تنكير العذاب يقول (ولعل تنكير عذاب لتعظيمه بحسب المدة فكأنه قيل لهم عذاب دائم شديد) ^٦ . أمّا تنكير المغفرة والأجر العظيم ، فللدلالة على أنها (مغفرة عظيمة وأجر كبير لا غاية لهما) ^٧ والأجر الكبير الجنة ^٨ . أما الجار والمجرور (لهم) الذي يفيد الملكية فقد سبقت الإشارة إلى معنى التكريم فيه الذي ذكره الرازي حين تحدث عن

^١ - الطاهر جـ ٢٢ ص ٢٦٢ .

^٢ - انظر شروح التلخيص جـ ٢ ص ٢٠٠، ١٩ .

^٣ - انظر ابن جرير جـ ٢٢ ص ٧٨ .

^٤ - الرازي جـ ٢٦ ص ٥ .

^٥ - أبو السعود جـ ٧ ص ١٤٤ .

^٦ - الألوسي جـ ٢٢ ص ١٦٨ .

^٧ - أبو السعود جـ ٧ ص ١٤٤ وانظر الألوسي جـ ٢٢ ص ١٦٨ .

^٨ - انظر ابن جرير جـ ٢٢ ص ٧٨ ، القرطبي جـ ١٤ ص ٣٢٤ .

آية السجدة "فلهم جنات المأوى" آية ١٩^١ فإذا ما تقدمت هذه الملكية كما في الآية هنا دلّت على الرضا والحنو في جانب المؤمنين ، مقابل التعنيف والترهيب في جانب العقاب .

وقد تحدّث عن دلالة تقديم الجار والمجرور في جملة الجزاء سواء اتصل بضمير أو اسم ، الدكتور صباح دراز في كتابه (من الإعجاز البلاغي) حين جعل هذا التقديم (تبشيراً ورضاً وحنوً وترغيباً . قال تعالى " وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار... وقد تلحظ في هذا التقديم سبب الجزاء والتمهيد له إذا كان المجرور اسماً ظاهراً نحو : المتقين أو آمنوا أو أحسنوا ، وإذا كان ضميراً قدّم على الأسلوب ما يشير إلى الجزاء ويمهّد له نحو : و بشر... وقد تكرر هذا التعبير الفخم تعقباً على أعمال المؤمنين " فلهم أجرهم عند ربهم " ، " فله أجره عند ربه " وأساليب هذا اللون تبت مشاعر الهناءة والأمن والشوق والرضا وهو يفيض على النفس قوة تحركها إلى العمل والتحمس له ، فتصبح الحياة حافلة مليئة ، وفي المقابل نجد تقديم العصاة مجروراً مسنداً قبل سيئ الجزاء عنفاً ورهبةً وتحس كأن الأسلوب يلطمهم ويفجؤهم ويزلزل أعماقهم " لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش " والأسلوب غالباً ما ينقلهم إلى الآخرة ويخبر عن واقع معاش ويعدد الجزاء الرعيب يسوقه مساق الجزاء الطيب ، ويستعمل بعض ألفاظه تحسيراً وتهكماً قال تعالى " لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل " ... ودائماً في أساليب المجازاة بالشر ترتفع حرارة الكلمات وتعلو النبرة الغاضبة تمسك بالأنفاس ، تقدّم أهل الجزاء كشفاً لهم على مسرح الخيال ، ثم تتوارد عليهم ضروب العقاب في موجات يبلغ التأثير بها مداه^٢ وقد ذكرت النص على طوله ليضيء مواطن بلاغية هامة في نصوص الجزاء . أولها : أن في تقديم ما يشير إلى الاستحقاق للجزاء الكريم تعجلاً بما يسر ، وكذلك تقديم ما يمهد للجزاء الكريم نحو لفظ البشارة . وفي النص بيان لأثر هذا الأسلوب النفسي وانعكاسه على العمل ، من حيث بث مشاعر الهناءة والأمن في النفس ، والتشويق إلى هذا الجزاء مما يحرك القوى العملية في الإنسان ، فتصبح الحياة حافلة بالخير نابضة بالحركة البناءة. كما لمح الدكتور دراز دلالة هذا التقديم في الجزاء المقابل وهو العقاب ، فذكر عنصر المفاجأة الذي أفاده التقديم ، وشدة وقع الجزاء عليهم الذي شبهه باللطم والزلزلة ، كما أشار

^١ - انظر ص ٢٩٨ من هذا البحث .

^٢ - د. صباح دراز ، من الإعجاز البلاغي ص ١١٣-١١٤ .

النص إلى ارتفاع نبرة أساليب المجازاة بالشر ، وشدة وطأتهما عليهم ، في موجات متتالية متنامية إلى أبعد مدى .

وعودة إلى الآيات موضع الدراسة لنجد أن الذين كفروا استحقوا عذاباً لا يستطيع ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات استحقوا غفران ذنوبهم ، وحصولهم على أجر كبير لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

فحين يسمع الكفار قوله "لهم" يتشوفون إلى ملكية التكريم ، فيلطمهم ويفجؤهم فيفجعهم قوله : "عذاب شديد" الذي يفيد أن عذاباً لا يُطاق ولا يحتمل ، سيكون خاصاً بهم مقتصراً عليهم ، وعلى أمثالهم ولا يرجى الخلاص منه ، لأنه مسبب عن كفرهم الذي وجه الموصول وصلته في قوله "الذين كفروا" إلى بناء الخبر عليه ^١ ، فإذا بلغ الألم أشده والتخويف مبلغه جاء ذكر جزاء الفريق المقابل ليث الأمن والطمأنينة في قلوب المؤمنين ، ويزيد في كرب الكافرين . وقلت يزيد في كرب الكافرين استثناساً بما جاء سابقاً في آية النساء من أن في ثواب المؤمنين مساءة للكافرين^٢ ، وزيادة في غيظهم^٣ ، وما سيأتي في سورة الإسراء التالية من أن إخبار المؤمنين بعقاب أعدائهم مما يسرهم ويسعدهم .

ومقابلة الشدة في وصف العذاب بالكبر في وصف الأجر مقابلة خلافية ، فقد وُصف كل جزاء بما يناسبه ، فالعذاب والبأس وما شابههما إنما يوصفان بما يلائم أثرهما من الشدة أو الضعف ، في حين أن الثواب والأجر يمكن أن يوصف من حيث مقداره ومن حيث طبيعته ومن حيث أثره ، وفي هذه الآية وُصف الأجر "بالكبير" لبيان رفعة قدره واتساع مقداره إلى ما لا نهاية .

ويأتي لفظ البشارة ، الذي تحدث عن أثره في التمهيد للجزء الدكتور دراز في النص السابق ، مقابلاً للإنذار بالعذاب في سورة الإسراء .

^١ - انظر شروح التلخيص جـ ١ ص ٣٠٧ وما بعدها .

^٢ - انظر أبو السعود جـ ٢ ص ١٩٢ تفسير آية النساء ٥٧ ، والألوسي جـ ٥ ص ٦٠ نفس الآية .

^٣ - انظر الطاهر جـ ٥ ص ٩٠ آية النساء ٥٧ .

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
 الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
 أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١١﴾

الإسراء ٩ ، ١٠ - مكة

في هذه الآية تقدم ذكر البشارة على النذارة ولعل هذا لاتصاله بذكر القرآن وهداياته
 للسبيل القويم وقد تكون هذه المناسبة هي التي سوغت مجيء الفعل "يبشر" مضارعاً ، مما يفيد
 التجدد والاستمرار لمعناه طالما وجد هذا القرآن وتُلى وتدبر معناه . وجاءت جملة الثواب اسمية
 كسابقها ومؤكدة بـ "إن" لتوكيد صدق بشارة القرآن ، في مقابل توكيد النذارة بصيغة
 الفعل الماضي تحقيقاً لوقوعه ، فالتبشير هنا بالأجر الكبير الذي روى ابن جرير عن ابن جريج
 أنه (الجنة وكل شيء في القرآن : أجر كبير أجر كريم ورزق كريم فهو الجنة) ^١ ، يقابله النذارة
 المفهومة من قوله " أعتدنا لهم عذاباً أليماً " وقد ذكر الزمخشري أن في جملة العقاب بشارة
 أخرى للمؤمنين ، بعذاب أعدائهم ^٢ ، لأن في عقوبتهم مسرة لأهل الإيمان ، وذكر أبو السعود
 أن قوله تعالى : " أعتدنا لهم عذاباً أليماً " (هو أبلغ في الزجر لما أن إتيان العذاب من حيث لا
 يحتسب أفضع وأفجع) ^٣ ، ولعله أخذ معنى إتيان العذاب من حيث لا يحتسب من فعل الإعتاد ،
 لأن ما يعتده المرء لنفسه أو لغيره مما يصعب الاطلاع عليه ، أو لعل هذه الدلالة من تنكير
 لفظي العذاب وصفته ، في حين رأى البقاعي في التعبير بالعتاد (تمكماً بهم فقال تعالى " أعتدنا"
 أي أحضرنا وهياناً ما هو في غاية الطيب والنفاسة والملاءمة على سبيل الوعد الصادق الذي لا
 يتخلف بوجه ، وهو مع ذلك منظور إليه لعظمتنا... ولما استشرف الأعداء إلى هذا الوعد
 استشراف المغتبط المسرور أتاها في تفسيره بما خلع قلوبهم على طريقة (تحية بينهم ضرب
 وجيع) وسرّ قلوب الأولياء سروراً عظيماً فقال تعالى "عذاباً أليماً" ، فإنه لا بشرى لذوي

^١ - ابن جرير جـ ١٥ ص ٣٧ ، وانظر ابن عطية جـ ١٠ ص ٢٦٥ .

^٢ - انظر الزمخشري جـ ٢ ص ٤٤٠ ، ابن عطية جـ ١٠ ص ٢٦٦ ، البقاعي جـ ١١ ص ٣٨١ ، أبو السعود جـ ٥ ص ١٥٨ ، حاشية
 الشهاب جـ ٦ ص ١٣ في المتن والهامش ، الطاهر جـ ١٥ ص ٤١ .

^٣ - أبو السعود جـ ٥ ص ١٥٨ .

الهمم أعلى ولا أسر من الانتقام من مخالفيهم) ^١ ، فالقرآن يبشر المؤمنين الراسخين في الإيمان ^٢ ، الذين يتجدد منهم عمل الصالحات ويستمر ، بإكرام الله تعالى لهم بأجر كبير ، لا يُقادر قدره ولا يُدرك كنهه ، بما أفاده تنكير لفظ الثواب وصفته ، مقابل إعلام الذين لا يؤمنون بالآخرة فلا يعملون الصالحات أنه تعالى قد أحضر وهياً لهم بوعد الصادق أمراً ما يستشرفون له ظناً منهم أنه مما يسر ، فحين يأتي هذا الموعود به تنخلع قلوبهم لأنه عذاب أليم موجه لا قبل لهم به .

وعوجل المؤمنون بما يسرهم بلفظ البشارة ، وأخّر ذكر إعداد العذاب عن ذكر أصحابه وقدّم المسند في جملته (أعتدنا لهم...) فتعاضدت دلالة التهكم في فعل " الإعتاد " ، مع دلالة تقديم المسند الذي يعقبه ماسماه الدكتور دراز في النص السابق الذكر (لطمًا وزلزلة) ، في الوصول بوصف العذاب إلى غايته .

ويأتي ذكر نذارة وبشارة الكتاب الكريم في سورة الكهف في قوله تعالى

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۗ
 قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
 الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾

الكهف ٢٠١ مكية .

وقد بدأ في الآيات بذكر النذارة ، وذكر الرازي أن الحكمة من ذلك أهمية دفع الضرر على إيصال النفع ^٣ . وهذه الحكمة لا تتناسب مع مجيء البشارة أولاً في آية الإسراء ، ولعل لذكر النذارة ارتباطاً بنفي العوج عن القرآن ، فناسب البدء بوعيد المنحرفين عنه وجملتنا الجزاء "لينذر" ، ويبشر" فعليتان تفيدان التجدد والاستمرار وتُناسبان بقاء القرآن الأبدي - كما سبق أن ذكر- وحُذف المفعول الأول وهو "الذين كفروا" لجملة العقاب ، قيل للاقتصار على المُنذَرِ به،

^١ - البقاعي ج ١١ ص ٣٨٢ .

^٢ - انظر البقاعي ج ١١ ص ٣٨١ .

^٣ - انظر الرازي ج ٢١ ص ٧٦ ، البقاعي ج ١٢ ص ٦ .

لأنه الغرض الأهم^١ ، وقيل للعموم^٢ ، وقيل لظهوره بدلالة القرينة وبدلالة مقابله عليه^٣ ، في حين ذكر المفعول الأول لجملة الثواب وهو "المؤمنين الذين يعملون الصالحات" بصيغة اسم الفاعل التي تدل على الرسوخ في صفة الإيمان^٤ ، والوصف بالاسم الموصول الدال على أنهم معروفون بهذه الصفة^٥ وهي عمل الصالحات ، فكان حذف المفعول الأول تحويلاً للمفعول الثاني المختصر عليه بالذكر في جملة العقاب ، مقابلاً لذكر المفعول الأول في جملة الثواب المفيد للمدح وبيان الرضى عن الفريق المقابل . وقوبل لفظ البأس الذي يدور حول معاني العذاب الشديد والمشقة والكرهية والحزن^٦ ، الموصوف بالشدة وكونه من عند الله الذي لا يعذب عباده أحد ولا يوثق وثاقه أحد^٧ ؛ بجملة ثواب المؤمنين الاسمية المؤكدة في قوله "أن لهم أجراً حسناً" فهو أجر يكرمون به من عند الله لا يقادر قدره ولا يدرك مدى حسنه ، كما أن البأس الشديد من لدنه لا يستطيع معرفة مداه ولا يمكن القدرة عليه بما أفاده تنكير ألفاظ الجزاءين .

واستثناساً بقول ابن عطية إن (البأس الشديد عذاب الآخرة ويحتمل أن يندرج معه في النذارة عذاب الدنيا ببدر وغيرها)^٨ ، وإن (الأجر الحسن نعيم الجنة ويتقدمه خير الدنيا)^٩ ، نستطيع أن نقول إن المنذرين بهذا الكتاب قوم شديدي العناد للحق الذي وضحت دلائله فاستحقوا أن يشتد بأس الله عليهم في الدنيا والآخرة ، والمبشرين به قوم مؤمنون قضوا حياتهم في جهد التكاليف فأوتوا جزاءً حسناً في الدنيا وفي الآخرة ثم زيدوا إحساناً بالخلود فيه ، فهو نحو قوله تعالى: "من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون" النحل آية ٩٧

^١ - انظر الرمخشري جـ ٢ ص ٤٧٢ ، البيضاوي بهامش حاشية الشهاب جـ ٦ ص ٧٣ ، البقاعي جـ ١٢ ص ٦ ، الطاهر جـ ١٥ ص ٢٤٩

^٢ - انظر البقاعي جـ ١٢ ص ٦ ، الطاهر جـ ١٥ ص ٢٤٨ .

^٣ - انظر أبو السعود جـ ٥ ص ٢٠٣ ، حاشية الشهاب جـ ٦ ص ٧٣ المتن والهامش الطاهر جـ ١٥ ص ٢٤٩ .

^٤ - انظر البقاعي جـ ١٢ ص ٧ .

^٥ - انظر شروح التلخيص جـ ١ ص ٣٠٢، ٣٠٣ .

^٦ - انظر ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة جـ ١ ص ٣٢٨ ، محمد بن عبد الله الجبائي ت ٦٧٢ هـ ، إكمال الإعلام بتلخيص الكلام ، رواية محمد أبي الفتح الحنبلي ، تحقيق سعد بن حمدان الغامدي ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، مكة المكرمة ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي الطبعة الأولى ١٤٠٤-١٩٨٤ م جـ ١ ص ٥٧ ، ابن منظور ، لسان العرب جـ ٦ ص ٢٠ مادة بأس .

^٧ - انظر ابن كثير جـ ٤ ص ٣٦٥ .

^٨ - ابن عطية جـ ١٠ ص ٣٦٢ .

^٩ - المصدر السابق ص ٣٦٣ .

بين الأجر الكبير والأجر الحسن :

ورد وصف الأجر بالكبر في خمسة مواضع^١ وقد لحظت أن ثلاثة منها قُرِنَ فيها الأجر الكبير بالمغفرة ، ووصف الأجر بالحسن في موضعين^٢ لم تذكر فيهما المغفرة . كما لحظت ورود لفظ البأس في هذين الموضعين^٣ . فهل الوصف بالحسن يُفهِمُ ضِمْنَا خَلُو الأجر من شوائب الذنوب وما يعترى المرء من الخجل والانكسار بسببها ؟ أو لذكر البأس الذي تدور معانيه حول الشدة والكرهة والحزن دخلٌ في وصف الثواب بالحسن ؟ لا يستطيع باحث أن يجزم بشيء من هذا وإنما هي ملحوظات قد تنير الطريق إلى فهم دلالة الألفاظ القرآنية .

بين سورتي الإسراء والكهف :

قد لحظت أن بين آيتي الإسراء والكهف مع تشابههما في بشارة الكتاب ونذارته ثمة اختلافًا.

آية الإسراء " إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا " جاءت في سياق الحديث عن بني إسرائيل وإفسادهم في الأرض ثم عودتهم إلى الإفساد مرة أخرى ، وآية الكهف جاءت ضمن سياق يقص (بالحق أخبار قوم قد فضلوا في أزمانهم)^٤ وهم أهل الكهف الذين آمنوا بربهم وفاقوا قومهم لشركهم .

ولعل اختلاف هذين السياقين هو الذي أدى إلى اختلاف نظم الآيتين ، ففي آية الإسراء صرَّح بذكر الفريق الذي لا يؤمن بالآخرة ، وجاء جزاؤهم في قوله " أعتدنا لهم " مسنداً إلى ضمير العظمة ، في حين حُذِفَ ذكر الفريق الذي لم يؤمن في آية الكهف وجيء بكلمة البأس التي تعني الشدة دون أن تنص على العذاب الأخروي . ويؤنس إلى هذا ما ذكره الشهاب في

١ - قال تعالى " أولئك لهم مغفرة وأجر كبير " هود آية ١١ ، " والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير " فاطر آية ٧ ، " فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير " الحديد ٧ ، " إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير " الملك ١٢ ، " يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً " الإسراء ٩ .

٢ - " ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا " الكهف ٢
" فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا " الفتح ١٦

٣ - " فيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا " الكهف ٢
" قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلوهم أو يسلمون " الفتح ١٦

٤ - البقاعي ج ١٢ ص ١

تعقيبه على تفسير البيضاوي لهذه الآية (ليس في كلامه ما يدل على أنه أشد العذاب)^١ .
فهذا يدل على أن المنذر به ليس أشد العذاب وإن كان شديداً في ذاته . وقد جعل الجزاء من
قبل الله تعالى دون إسناده إلى ضمير العظمة .

أما الثواب فقد جاء هنا "أجرًا كبيراً" وفي آية الكهف "أجرًا حسناً" وزيد عليه بقوله
"ماكثين فيه أبداً" عدم التحول والانقطاع ، ولم يُذكر ذلك في سورة الإسراء ، هذا مع لحظ
دلالة الظرفية في قوله "فيه" على التمكن منه وإحاطة الحسن بهم من كل مكان ، وقد نُبّه إلى
هذا الطاهر حين قال: (والمكث الاستقرار في المكان شُبّه ما لهم من اللذات والملازمات بالظرف
الذي يستقر فيه حاله ، للدلالة على أن الأجر الحسن كالمحيط بهم لا يفارقهم طرفة عين ، فليس
قوله "أبداً" بتأكيدٍ لمعنى "ماكثين" بل أُفيد بمجموعها الإحاطة والدوام)^٢ .

ومن صفات الأجر التي وردت في القرآن : الأجر غير الممنون ، يقول تعالى :

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا

إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا لَهُ وَيُؤْتُوا مِمَّنْ رَزَقُوا وَلا يُوَدُّوا الزَّكَاةَ وَهُمْ

بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾

فصلت ٦-٨ مكية .

جاءت جملة الجزاء عقب الأمر بتوحيد الله وتوجيه العبادة إليه واستغفاره ، وبدئت جملة
العقاب بذكر الويل . وقد قيل في معناه إنه العذاب الشديد والهلاك والشر وما يسيل من
صديد أهل النار وجبل من النار وقيل واد في جهنم^٣ ، وروي في هذا الأخير حديث عن أبي

^١ - الشهاب ج٦ ص ٧٣ .

^٢ - الطاهر ج١٥ ص ٢٥٠ .

^٣ - انظر في تفسير سورة البقرة آية ٧٩ ، ابن جرير ج١ ص ٢٩٩-٣٠٠ ، الرازي ج٣ ص ١٤٠ ، ابن كثير ج١ ص ٢٠٥ ، أبو
السعود ج١ ص ١٢٠ ، الشهاب ج٢ ص ١٩٠ .

سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره" ^١ ، وقد جعله البقاعي شاملاً لهلاك الدنيا والآخرة حين قال: (ويل أي هلاك ثابت عظيم في كل حال من أحوال الدنيا والآخرة) ^٢ . ونقل الرازي عن القاضي قوله: (ويل: يتضمن نهاية الوعيد والتهديد، فهذا القدر لا شبهة فيه سواء كان الويل عبارة عن وادٍ في جهنم أو عن العذاب العظيم) ^٣ ، ومع ما في اللفظ من معاني الشدة والعذاب، فقد جاء نكرة يفيد التهويل وابتدئ بها (لأن فيها معنى الدعاء) ^٤ . فإذا كان الدعاء من الله عز وجل فقد دل على نهاية الغضب والسخط .

وقد قرُن منع الزكاة بالإشراك بالله (لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله وهو شقيق روحه ، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونُصُوع طَوِيَّتِهِ) ^٥ ، وقيل لأن في عدم إيتاء الزكاة التي تدخل ضمن تعظيم أمر الله بالإحسان إلى خلقه ، تقصيراً في تعظيمهم لأمر الله ^٦ ، لأن (الشفقة على خلق الله قرينة التعظيم لأمر الله) ^٧ ، وقرُن أيضاً بالكفر بالآخرة ، لأنه علّة لعدم الإنفاق من حيث كونه مستغرقاً في طلب اللذات ^٨ ، هذا على معنى زكاة المال . وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الزكاة هنا زكاة النفس أي التوحيد والطاعة ^٩ .

^١ - صحيح ابن حبان جـ ١٦ ص ٥٠٨ رقم ٧٤٦٧، مسند أحمد جـ ٣ ص ٧٥ رقم ١٧٣٠ ، مسند أبي يعلى جـ ٢ ص ٥٢٣ رقم ١٣٨٣ ، مسند عبد بن حميد ص ٢٨٩ رقم ٩٢٤ ورواه الترمذي في سننه جـ ٥ ص ٣٢٠ رقم ٣١٦٤ وقال حديث غريب . الموسوعة الذهبية للحديث النبوي الشريف.

^٢ - البقاعي جـ ٢١ ص ٣١١ تفسير آية المطففين .

^٣ - الرازي جـ ٣ ص ١٤٠ .

^٤ - نقل هذا عن بعض النحاة ابن كثير جـ ١ ص ٢٠٥ وذكره البيضاوي بhamش حاشية الشهاب جـ ٢ ص ١٩٠ في تفسير آية البقرة ٧٩ ، وأبو السعود جـ ٩ ص ١٢٤ والألوسي جـ ٣٠ ص ٦٨ في تفسير آية المطففين .

^٥ - الزمخشري جـ ٣ ص ٤٤٣ ، وانظر أبو حيان جـ ٧ ص ٤٦٤ .

^٦ - انظر الرازي جـ ٢٧ ص ٩٩ ، البقاعي جـ ١٧ ص ١٤٦ ، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٣٨٨ المتن والhamش ، الألوسي جـ ٢٤ ص ٩٨ ، الطاهر جـ ٢٤ ص ٢٣٩ .

^٧ - النيسابوري بhamش جامع البيان جـ ٢٤ ص ٦٢ .

^٨ - انظر الرازي جـ ٢٧ ص ٩٩ ، القرطبي جـ ١٥ ص ٣٤٠ ، البقاعي جـ ١٧ ص ١٤٦ ، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٣٨٨ المتن والhamش ، الألوسي جـ ٢٤ ص ٩٨ .

^٩ - انظر ابن جرير جـ ٢٤ ص ٦٠ ، ابن عطية جـ ١٤ ص ١٦٤ ، الرازي جـ ٢٧ ص ٩٩ ، القرطبي جـ ١٥ ص ٣٤٠ ، ابن كثير جـ ٦ ص ١٦٢ ، أبو حيان جـ ٧ ص ٤٦٤ ، أبو السعود جـ ٧ ص ٣ ، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٣٨٨ المتن والhamش .

ثم يأتي قوله "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون" مقابلاً لعقاب المشركين الممتنعين عن تأدية الزكاة والكافرين بالآخرة ، في صورة استئناف بياني ناشئ عن الوعيد المقابل، فكأن (سائلاً يقول : فإن اتعظوا وارتدعوا فماذا يكون جزاؤهم ؟ فأفيد ذلك وهو أنهم حينئذ يكونون من زمرة الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون وفي هذا تنويه بشأن المؤمنين ، وتقدم "لهم" للاهتمام بهم)^١ . أما الأجر غير الممنون فقد ذهب المفسرون في تأويله إلى عدة أقوال فقيل غير منقوص وقيل غير محسوب ، وقيل غير ممنون عليهم^٢ ، وقيل غير مقطوع^٣ ، وقد جمع الرازي بينها جميعاً في تفسيره للآية المشابهة لها في الانشقاق فقال : (وفي معنى غير ممنون وجوه أحدها أن ذلك الثواب يصل إليهم بلا من ولا أذى وثانيها من غير انقطاع وثالثها من غير تنغيص ورابعها من غير نقصان والأولى أن يُحمل اللفظ على الكل لأن من شرط الثواب حصول الكل فكأنه تعالى وعدهم بأجر خالص من الشوائب دائم لا انقطاع فيه ولا نقص ولا بخس وهذا نهاية الوعد فصار ذلك ترغيباً في العبادات)^٤ ، فقد جعل كل معاني صفة الأجر ثابتة له لأنه عطاء الله عز وجل فلا يكون فيه تنغيص ولا تكدير ولا نقص وليس له انقطاع وهذا هو الأولى في وصف الأجر بأنه غير ممنون وقد أشار إلى هذا المعنى في آية فصلت التي نحن بصدد دراستها ابن عطية حين قال (وصفه بعدم المن والأذى من حيث هو من جهة الله تعالى فهو شريف لا من فيه وأعطيات البشر هي التي يدخلها المن)^٥ والطاهر حين قال (وذلك كناية عن كونهم أعطوه شكراً لهم على ما أسلفوه من عمل صالح فإن الله غفور شكور يعني أن الإنعام عليهم في الجنة ترافقه الكرامة والثناء فلا يحسون بحجل العطاء ، وهو من قبيل قوله تعالى "لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى" فأجرهم بمنزلة الشيء المملوك لهم الذي لم يعطه إياهم أحد وذلك تفضل من الله)^٦ ، فقد أشار الطاهر إلى أن تسمية ما يُعطوه أجر فيه تفضل من الله عليهم لأنهم لم يستحقوه بعملهم بل برحمة الله وإنما ذكرت ملكيته لهم من باب

^١ - الطاهر جـ ٢٤٠ ص ٢٤٠ .

^٢ - انظر ابن جرير جـ ٢٤٠ ص ٦١ ، ابن عطية جـ ١٤ ص ١٦٥ ، القرطبي جـ ١٥ ص ٣٤١-٣٤٢ ، أبو حيان جـ ٧ ص ٤٦٤ .

^٣ - انظر الزمخشري جـ ٣ ص ٤٤٣ ، ابن عطية جـ ١٤ ص ١٦٥ ، الرازي جـ ٢٧ ص ١٠٠ ، القرطبي جـ ١٥ ص ٣٤١ ، البيضاوي بمأش حاشية الشهاب جـ ٧ ص ٣٣٨ ، أبو حيان جـ ٧ ص ٤٦٤ ، ابن كثير جـ ٦ ص ١٦٢ ، البقاعي جـ ١٧ ص ١٤٨ ، أبو السعود جـ ٧ ص ٤ .

^٤ - الرازي جـ ٣١ ص ١١٢ تفسير آية الانشقاق رقم ٢٥ .

^٥ - ابن عطية جـ ١٤ ص ١٦٥ وانظر أبو حيان جـ ٧ ص ٤٦٤ .

^٦ - الطاهر جـ ٢٤١ ص ٢٤١ .

التفضل والتكريم . وفي وصفه بعدم المن إشعار بتمام الكرامة لهم ، لأنهم يُعطوه مصحوباً بالثناء ، فلا يشعرون بخجل العطاء كما هو معروف في عطايا البشر . ولأن بعض العلماء قد عدّوا عدم المن بالأجر (لأنه إنما يُمن التفضل فأما الأجر فحق أدائه)^١ ، فقد ردّ عليهم بعض الأئمة هذا التفسير بأن الله تعالى المنّة (على أهل الجنة قال الله تبارك وتعالى " بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان " وقال أهل الجنة " فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم " وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إلا أن يتغمديني الله برحمة منه وفضل ")^٢ فإن أهل الجنة إنما دخلوها بفضل الله وبرحمته لا بأعمالهم فله تعالى المنّة عليهم بذلك ، وهو ما قصد إليه ابن كثير حين استشهد بالآيتين وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم . وبالتأمل في الجزاءين نجد أن لفظ العقاب وهو (ويلٌ) قد جاء نكرة مفيدة للتهويل^٣ بكل ما يعنيه لفظ الويل من العذاب والهلاك والحزن^٤ والتحسر^٥ مقابل تنكير لفظ الأجر الذي يفيد أنه أجر عظيم لا يُدرك كنهه ولا يُقادر قدره^٦ غير ناقص ولا مقطوع خالٍ من شوائب التنغيص والتكدير . وتبدأ جملة العقاب بذكره في حين يتقدم ذكر المؤمنين لثوابهم . ولعل المشركين قد عوجلوا بالويل والثبور بعد تقرير وحدانية الله لبيان أن من يُكذب بهذا الدليل الواضح ويرفض الاستقامة والاستغفار ، يستحق التعجيل بما يسوؤه ، في مقابل التعجيل للمؤمنين في جملة الثواب بما يسرهم وهو جعل أجرهم بمنزلة الشيء المملوك لهم حتى لا تشوب هذا العطاء شائبة التحول والزوال ، هذا مع صياغة جملة الثواب في صورة استئناف بياني لتقرير شدة التباين بين الفريقين .

وذكر الأجر غير الممنون في موضع آخر جزاءً للذين آمنوا وعملوا الصالحات وهو قوله

تعالى :

^١ - الزمخشري جـ ٣ ص ٤٤٤ وانظر الرازي جـ ٢٧ ص ١٠٠ .

^٢ - ابن كثير جـ ٦ ص ١٦٢ ، وانظر أبو حيان جـ ٧ ص ٤٦٤ حين رد على قول الزمخشري المفهم أن هذا الأجر حق له (وفيه دسيسة الاعتزال) في تفسير آية فصلت ، وانظر ابن كثير جـ ٧ ص ٢٥١ تفسير آية الانشقاق ٢٥ .

^٣ - انظر البقاعي جـ ٢١ ص ٣١١ تفسير آية المطففين رقم ١ .

^٤ - انظر ابن عطية جـ ١٤ ص ٤٤٣ ، أبو حيان جـ ٧ ص ٤٦٤ تفسير آية فصلت ٦ ، وانظر الرازي جـ ٣ ص ١٤٠ ، ابن كثير جـ ١ ص ٢٠٥ ، أبو السعود جـ ١ ص ١٢ آية البقرة ٧٩ ، وانظر الألوسي جـ ٣٠ ص ٦٨ آية المطففين رقم ١ .

^٥ - انظر حاشية الشهاب جـ ٢ ص ١٩٠ المتن والهامش تفسير آية البقرة ٧٩ .

^٦ - انظر البقاعي جـ ١٧ ص ١٤٨ .

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

الانشقاق ٢٢-٢٥ مكية .

فآليات تصف إعراض الكافرين عن الإيمان ، لأن (من سحيتهم التكذيب والعناد
والمخالفة للحق)^١ كما يقول ابن كثير . ولعله استفاد هذا المعنى من صيغة الفعل المضارع
يكذبون مخبراً به عن الاسم الموصول الذي يفيد أنهم معروفون بما أخبر به عنهم^٢ ، فهؤلاء
القوم الذين يرون دلائل الوجدانية ثم يأتون بما يخالف هذه الرؤية يستحقون أن يُجازوا بما
يخالف هواهم وقد جاء التهكم^٣ بهم في قوله تعالى " فبشرهم بعذاب أليم " ، معلماً بنهاية
غضب الله عليهم^٤ ، بابتدائه ابتداءً مطمعاً بلفظ البشارة لينتهي بهم انتهاءً مؤيساً وهو وقوع
عذاب أليم لا يُستطاع تحمله . ويأتي في المقابل سواءً كان الاستثناء متصلاً^٥ أو منقطعاً^٦ جزاء
الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهو تكريمهم بثواب عظيم^٧ لا تكدير فيه ولا انقطاع ، فهو
مناسب لعملهم المتواصل في الطاعات وفي هذا الثواب زيادة في حزن فريق الكفار^٨ .

وقد توقف بعض المفسرين عند خلو جملة الثواب من حرف العطف الفاء الذي جاء في
شبيحتها آية التين في قوله "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون" آية رقم ٦
مكية . فقال النيسابوري (بني الكلام هاهنا على الاستئناف فلم يحتج إلى الفاء وعلى التعقيب

^١ - ابن كثير جـ ٧ ص ٢٥١ .

^٢ - انظر شروح التلخيص جـ ١ ص ٣٠٢، ٣٠٣ .

^٣ - انظر البقاعي جـ ٢١ ص ٣٥٠ ، حاشية الشهاب جـ ٨ ص ٣٤١ المتن والهامش ، الألوسي جـ ٣٠ ص ٨٤ ، الطاهر جـ ٣٠ ص ٢٣٤ .

^٤ - انظر البقاعي جـ ٢١ ص ٣٥٠ .

^٥ - انظر ابن جرير جـ ٣٠ ص ٨٠ ، الرازي جـ ٣١ ص ١١٢ ، النيسابوري جـ ٣٠ ص ٥٧ ، البقاعي جـ ٢١ ص ٣٥٠ ، أبو السعود

جـ ٩ ص ١٣٤ ، حاشية الشهاب جـ ٨ ص ٣٤١ المتن والهامش ، الألوسي جـ ٣٠ ص ٨٤ ، الطاهر جـ ٣٠ ص ٢٣٤ .

^٦ - انظر الزمخشري جـ ٤ ص ٢٣٦ ، القرطبي جـ ١٩ ص ٢٨٠ ، ابن كثير جـ ٧ ص ٢٥١ ، النيسابوري جـ ٣٠ ص ٥٧ ، أبو السعود

جـ ٩ ص ١٣٤ ، حاشية الشهاب جـ ٨ ص ٣٤١ المتن والهامش ، الألوسي جـ ٣٠ ص ٨٤ ، الطاهر جـ ٣٠ ص ٢٣٥ .

^٧ - انظر الرازي جـ ٣١ ص ١١٢ ، البقاعي جـ ٢١ ص ٣٥١ ، الألوسي جـ ٣٠ ص ٨٤ .

^٨ - انظر الطاهر جـ ٣٠ ص ٢٣٥ .

في التين فأورد الفاء والاستئناف أجمع مقدمة ^١ وقال أبو السعود عن الجملة (استئنافٌ مقرر لما أفاده الاستثناء من انتفاء العذاب عنهم ومبين لكيفيته ومقارنته للثواب العظيم)^٢ فالنيسابوري وأبو السعود والألوسي قد جعلوا في الاستئناف بالجملة تقريراً لاستثناء المؤمنين من العذاب ، من حيث بيانه لانتفاء العذاب عنهم وحصول الأجر العظيم لهم .

أما البقاعي فقد قال (ولما تقدم أن من حوسب عُذْب وأن الناجي إنما يكون حسابه عرضاً عُلم أنه ليس للأعمال دخل في الحقيقة في الأجر وإنما المدار كما قال النبي صلى الله عليه وسلم على التغمذ بالرحمة حتى في تسمية النعيم أجراً ، أسقط الفاء المؤذنة بالسبب تنبيهاً على ذلك بخلاف ما في سورة التين لما يأتي من اقتضاء سياقها للفاء)^٣ وقال في آية التين : (ولما كان السياق لمُدح المؤمنين حَسُن أن يعد أعمالهم التي تفضل عليهم بها سبباً كما منَّ عليهم به من الثواب فقال : (فلهم) أي فتسبب عن ذلك أن كان لهم في الدارين على ما وفقوا له مما يرضيه سبحانه وتعالى " أجرٌ " أي عظيم جداً)^٤ فالبقاعي استدل بحذف الفاء على إثبات تغمذ الله لعباده المؤمنين بالرحمة في دخولهم الجنة . ولعل هذا الملمح يُفيد في فهم الآيات السابقة التي جاءت فيها جملة الثواب غير مقترنة بالفاء مثل آية فاطر "والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير" وآية فصلت التي ذكر فيها البقاعي نفس السبب وهو رحمة الله بعباده^٥ وإنما جاءت الفاء في آية التين تنويهاً بشأن المؤمنين ومدحاً لهم وقد لحظت أن بعض المفسرين يستجيزون في سياقات المدح والثناء ما لا يستجيزونه في غيره وهذا كما سيأتي قريباً في آية المائة .

وقبل أن ننتقل إلى الآيات التالية في الدراسة يجدر التنبيه إلى أمر ما خاص بوصف الأجر أنه غير ممنون فقد ورد هذا التعبير في أربعة مواضع اثنان منها السابقان والثالث آية التين " إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون" والرابع آية القلم " وإن لك لأجراً غير ممنون " رقم ٣ مكية . فقد جاء في المواضع الأربعة وصف الأجر بأنه غير ناقص ولا مقطوع جزاءً

^١ - النيسابوري بهامش جامع البيان جـ ٣٠ ص ٥٧ .

^٢ - أبو السعود جـ ٩ ص ١٣٤ وانظر الألوسي جـ ٣٠ ص ٨٤ .

^٣ - البقاعي جـ ٢١ ص ٣٥٠ .

^٤ - البقاعي جـ ٢٢ ص ١٤٦ .

^٥ - انظر البقاعي جـ ١٧ ص ١٤٨ .

للذين آمنوا وعملوا الصالحات . نُصَّ على تحقق الإيمان والعمل في ثلاث منها وفُهم ضمناً من الرابعة لأن المثاب بهذا الأجر هو الرسول صلى الله عليه وسلم أفضل المؤمنين العاملين . فقد يكون عدم الانقطاع في الثواب وعدم تنغيصه وتكديره مما يُلائم قضاء هؤلاء حياتهم في العمل بموجبات الإيمان والطاعة .

وجاء وصف الثواب بلفظ مجمل في قوله تعالى

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١﴾

المائدة ٩-١٠ مدنية

فللذين آمنوا وعملوا الصالحات وعدٌ من الله تعالى بأن يغفر لهم ويأجرهم أجراً عظيماً ، وفي إثبات الوعد مسندا إلى لفظ الجلالة توكيداً لوقوعه لأنه صادر ممن لا يتأتى الخلف في وعده ، وهذا ما ذكره الرازي حين قال : (فإن قيل : لم أخبر عن هذا الوعد مع أنه لو أخبر بالموعود به كان ذلك أقوى ؟ قلنا : بل الإخبار عن كون هذا الوعد وعد الله أقوى وذلك لأنه أضاف هذا الوعد إلى الله تعالى فقال : وعد الله ... لأن دخول الخلف إنما يكون إمّا للجهل حيث ينسى وعده ، وإمّا للعجز حيث لا يقدر على الوفاء بوعده وإمّا للبخل حيث يمنعه البخل عن الوفاء بالوعد وإمّا للحاجة ، فإذا كان الإله هو الذي يكون منزهاً عن كل هذه الوجوه كان دخول الخلف في وعده محالاً ، فكان الإخبار عن هذا الوعد أوكد وأقوى من نفس الإخبار عن الموعود به وأيضا فلأن هذا الوعد يصل إليه قبل الموت فيفيده السرور عند سكرات الموت فتسهل بسببه تلك الشدائد وبعد الموت يسهل عليه بسببه البقاء في ظلمة القبر وفي عرصة القيامة عند مشاهدة تلك الأهوال^١ فقد استمد الوعد تأكيده وقوته من إسناده إلى من تنزهه عن صوارف الوفاء بالوعد وهي : - الجهل والعجز والبخل والحاجة ، وهذا التوكيد يكون سببا في تخفيف سكرات الموت على المؤمن وتسهيل بقائه في القبر وثباته في عرصات القيامة . أمّا

^١ - الرازي ج ١١ ص ١٨٢٤١٨١ .

جملة الثواب وهي قوله "لهم مغفرة وأجر عظيم" فقد بينت هذا الوعد وفَسَّرته ، فالمؤمنون عاملو الصالحات "لهم مغفرة وأجر عظيم (لا يدخل تفاوت درجاته تحت الحصر)^١ . والاستحقاق في قوله : "لهم مغفرة وأجر عظيم" لا يناله المؤمنون (بأعمالهم بل برحمة منه وفضل، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم وهو تعالى الذي جعلها أسباباً إلى نيل رحمته وفضله وعفوه ورضوانه ، فالكل منه وله فله الحمد والمنة)^٢ فإن من فضل الله ورحمته على عباده أن جعل العمل سبباً ظاهرياً لنيل رحمته ودخول جنته فهو كالعنوان للمطيعين ، في حين أن السبب الأساسي هو التعمد بالرحمة . وقد سبق في دراسة آية الانشقاق أن ذكر رأي البقاعي الذي جعل سقوط الفاء في قوله "لهم أجر غير ممنون" إنما يدل على قيام الأمر على التعمد بالرحمة ، وذكر الإسكافي هنا في آية المائة حين قارن بينها وبين آية الفتح "وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا" (٢٩) ، أن السبب في مجيء جملة المفعول في المائة (جملة اسمية) وفي الفتح (مفرداً) أن (الأولى خطاب لقوم حثهم على توخي العدل فيما يحكمون به وهو أعم من حث الصحابة الذين ذكرهم في آخر سورة الفتح وأثنى عليهم بالشدّة على الكفار والرحمة للمؤمنين وملازمة الركوع والسجود وابتغاء رضوان الله ... فخصّ هؤلاء بصريح المغفرة وذكر أنه وعدهم ذلك وقال في الآية الأولى " وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات " فكان إخباراً عن وعده إياهم ثم أتى بخبر ثانٍ فقال " لهم مغفرة " على معنى إن وافوا بذلك ولم يخطئوا بالسيئات فجوز منهم هذا ولم يعلق المغفرة بوعد فيعديه إليها ، وفي الآية الثانية حقق المغفرة لهم وعدى الفعل إليها وكان كالحكم بأنهم يوافقون الآخرة بأعمالهم الصالحة ، وقد وعدهم الله تعالى عنها المغفرة والأجر العظيم فلاق بكل آية ما خصّت به)^٣ فقد ردّ الإسكافي السبب في وقوع فعل الوعد على جملة مستقلة قامت مقام المفعول الثاني^٤ في آية المائة إلى إلماحها إلى معنى الشرط أي أن هذا الوعد لهم إن وافوا على الإيمان والعمل لأن الآية تخاطب مَنْ تدعوهم إلى العدل في حين أن آية الفتح تخاطب صفوة المؤمنين فكان احتمال موافقتهم على الإيمان والعمل الصالح أكبر فأوقع الفعل على المفعول

^١ - البقاعي جـ ٦ ص ٤٤ .

^٢ - ابن كثير جـ ٢ ص ٥٢٢ .

^٣ - الإسكافي درة التنزيل جـ ١ ص ٢٦٥-٢٦٦ ، وأشار المحقق في الهامش إلى أن هذين الرأيين المذكوران عند الزجاج .

^٤ - انظر ابن جرير جـ ٦ ص ٩٢ ، الزمخشري جـ ١ ص ٥٩٨-٥٩٩ ، القرطبي جـ ٦ ص ١١٠ ، أبو حيان جـ ٣ ص ٤٥٥ ، حاشية الشهاب جـ ٣ ص ٢٢٣ المتن والهامش ، الطاهر جـ ٦ ص ١٣٦ .

مباشرة . ومن الممكن أن يقال إن استقلال جملة الثواب ترغيب في فضل الله الذي لا يُنال إلا برحمته لمن وافى على طاعته .

(ولما قدّم الوعد ، لأنه في سورة "الذين آمنوا" أتبعه الوعيد لأضدادهم وهو أعظم وعهد لأحبابه المؤمنين أيضا)^١ ، فذكر عقاب الذين كفروا وكذبوا بآياته ، وهو التأييد في الجحيم بما أفاده لفظ الصحبة من كون هؤلاء الكفرة (أهل النار الذين يخلدون فيها ولا يخرجون منها أبدا)^٢ . فلفظ الصحبة (يفيد الحصر والمصاحبة تقتضي الملازمة كما يقال أصحاب الصحراء أي الملازمون لها)^٣ وأشار إليهم باسم الإشارة بيانا لاستحقاقهم هذا الجزاء ، وما في أولئك من معنى البعد إنما لبيان بُعدهم في الشر ومن الرحمة^٤ .

هذا وقد جعل البقاعي في ذكر العقاب مقابل الثواب إتماما لوعد المؤمنين ، لأن في عقوبة أعدائهم إسعاداً لهم وهو ما صرح به البيضاوي حين قال : (من عادته تعالى أن يُتبع حال أحد الفريقين حال الآخر وفاءً بحق الدعوة وفيه مزيد وعد للمؤمنين وتطبيب لقلوبهم)^٥ . وبالتأمل في آيتي الجزاء نجد اختلافهما بالفعلية والاسمية فجاءت جملة الوعد فعلية وجملة الوعيد اسمية ، وقد ذكر أبو حيان الحكمة من ذلك فقال : (لما ذكر ما لمن آمن ذكر ما لمن كفر ، وفي المؤمنين جاءت الجملة فعلية متضمنة الوعد بالماضي الذي هو دليل على الوقوع فأنفسهم متشوفة^٦ لما وعدوا به متشوقة إليه مبتهجة طول الحياة بهذا الوعد الصادق وفي الكافرين جاءت الجملة اسمية دالة على ثبوت هذا الحكم لهم وأنهم أصحاب النار فهم دائمون في عذاب إذ حتم لهم أنهم أصحاب الجحيم ولم يأت بصورة الوعيد فكان يكون الرجاء لهم في ذلك)^٧ ففي جعل الوعد فعلاً ماضياً تحقيق لوقوعه ، فتتشوف نفوس المؤمنين له وتتشوق إليه مبتهجة به طول الحياة ومجيء جملة العقاب اسمية يفيد ثبوت حكمها للكافرين المكذبين وهو دوام صحبتهم

^١ - البقاعي ج ٦ ص ٤٤ .

^٢ - ابن جرير ج ٦ ص ٩٢ .

^٣ - الرازي ج ١١ ص ١٨٢ ، انظر البقاعي ج ٦ ص ٤٥ ، أبو السعود ج ٣ ص ١٢ ، الطاهر ج ٦ ص ١٣٦ .

^٤ - انظر البقاعي ج ٦ ص ٤٥ .

^٥ - البيضاوي بامش حاشية الشهاب ج ٣ ص ٢٢٣ ، وانظر الألوسي ج ٦ ص ٨٤ .

^٦ - في البحر المحيط متشوقة بالقاف ولعله خطأ مطبعي .

^٧ - أبو حيان ج ٣ ص ٤٥٥ ، وانظر الألوسي ج ٦ ص ٨٤ .

للنار وعذابهم فيها ولو قيل أوعدهم لرجوا أن يعفو عنهم لأن الكريم إذا وعد وفى وإذا أوعد
أمكن إسقاطه لو عيده بكرمه ورحمته وقد قيل :

وإنني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدى^١

أمّا جملتا الثواب والعقاب نفسيهما وهي قوله "لهم مغفرة وأجر عظيم" وقوله "أولئك
أصحاب الجحيم" فقد جاءت اسميتين داليتين على الثبوت والدوام^٢ مع اختلاف صياغتهما فقد
جاء في الأولى لفظ الملكية لهم دالا على الرحمة والفضل مقابل لفظ الاستحقاق "أولئك" في
الثانية دالا على العدل والحكمة ، وإذا دلت الأولى على ثبوت المغفرة والأجر العظيم ودوامه
فقد دلت الصحبة للجحيم على ثبوت العذاب لهم ودوامهم فيه ، ففريق الإيمان والعمل الصالح
أسقطت عنهم السيئات وأثبت لهم الثواب مما أفهم في المقابل أن فريق الكفر والعناد لم يُغفر لهم
فأحاطت بهم خطاياهم فدخلوا النار دخولا أبديا أعادنا الله منه . فالمؤمنون ملازمون للثواب
بدلالة الملكية وأضدادهم ملازمون للعقاب بدلالة الصحبة وشتان ما بين التكرم في ملكية
الثواب والإذلال والتعذيب في صحبة العذاب .

وكما ورد الثواب بلفظ الأجر موصوفا بالكبر والحسن والعظمة والكرم مقصودا به الجنة ،
فقد ورد لفظ الرزق موصوفا بالكرم في عدة مواضع منها ما ورد في قوله تعالى

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ^ط قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَذَابٌ

الْغَيْبِ^ط لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ

مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ^ط أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ^ط وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ

سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ^ط أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ آيَاتِنَا^ط ﴿٥﴾

سبأ ٣-٥ مكية .

^١ - ذكره الشهاب ج ٨ ص ٩ في تفسير آية ٢٩ من سورة ق .

^٢ - نص على هذه الحكمة في آية الثواب الطاهر انظر ج ٦ ص ١٣٦ .

فقد جاء الجزاء هنا علة لقوله " لتَأْتِيَنَّكُمْ " ^١ وقيل : لقوله " لا يعزب عنه " ^٢ ، وقيل : للعامل " في كتاب مبین " ^٣ فعلى الأول يكون التقدير أن مجيء الساعة إنما يكون للمجازاة وعلى الثاني أن سعة علم الله تعالى من أجل أن يجزي كلا بعمله وعلى الثالث يكون المعنى أن كل ما في الكون مثبت في الكتاب ليجازى كل بعمله ، ثم استؤنف ذكر الثواب بقوله : " أولئك لهم مغفرة ورزق كريم " أمّا المغفرة فهي إسقاط للسيئات كما سبق وأمّا الرزق الكريم فقد قيل فيه (ومن الرزق الكريم نعيم الجنة ، قال المتكلمون أما كونه رزقا كريما فهو إشارة إلى كون تلك المنافع خالصة دائمة مقرونة بالإكرام والتعظيم ومجموع ذلك هو حدُّ الثواب ... قال الواحدي: قال أهل اللغة الكريم اسم جامع لكل ما يُحمد ويُستحسن والكريم الحمود فيما يحتاج إليه والله تعالى موصوف بأنه كريم والقرآن موصوف بأنه كريم قال تعالى " إني أُلقي إليّ كتاب كريم " وقال : " من كل زوج كريم " وقال " ويدخلكم مدخلا كريما " وقال " وقل لهما قولا كريما " ، فالرزق الكريم هو الشريف الفاضل الحسن ، وقال هشام بن عروة يعني ما أعد الله لهم في الجنة من لذيذ المأكل والمشرب وهناء العيش) ^٤ وقيل أيضا (الرزق اسم لما يرزق أي يُعطى للانتفاع به ووصفه بكريم بمعنى النفيس فهو وصف حقيقي للرزق وفعله كَرُم بضم العين ، والكرم في كل شيء الصفات الحمودة في صنفه أو نوعه ... وتصح إرادته هنا على أن وصف الرزق به مجاز عقلي أي كريم رازقه فإن الكريم يرزق بوفرة وبغير حساب) ^٥ وذكر الرازي في آية سبأ هنا أن (الرزق الكريم من العمل الصالح وهو مناسب فإن من عمل لسيد كريم عملا فعند فراغه من العمل لابد من أن يُنعم عليه إنعاما ويطعمه طعاما ، ووصف الرزق بالكريم قد ذكرنا أنه بمعنى ذي كرم أو مُكرم أو لأنه يأتي من غير طلب بخلاف رزق الدنيا فإنه ما لم يُطلب ويُتسبب فيه لا يأتي) ^٦ . فحاصل ما ذكر أن الرزق الكريم هو الكريم في ذاته

^١ - انظر ابن عطية جـ ١٣ ص ١٠٩ ، القرطبي جـ ١٤ ص ٢٦١ ، أبو السعود جـ ٧ ص ١٢١ ، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ١٩٠ المتن والهامش ، الألويسي جـ ٢٢ ص ١٠٧ ، الطاهر جـ ٢٢ ص ١٤٢ .

^٢ - انظر ابن عطية جـ ١٣ ص ١٠٩ ، الرازي جـ ٢٥ ص ٢٤١ ، أبو حيان جـ ٧ ص ٢٤٩ .

^٣ - انظر ابن جرير جـ ٢٢ ص ٤٣ ، البقاعي جـ ١٥ ص ٢٤٧ .

^٤ - الرازي جـ ١٥ ص ١٢٤ تفسير آية الأنفال رقم (٤) في الكتاب بالأكرام والصواب ما أثبت .

^٥ - الطاهر جـ ٩ ص ٢٦٣ تفسير آية الأنفال رقم (٤) .

^٦ - الرازي جـ ٢٥ ص ٢٤١ .

والمكرم لصاحبه فليس في تحصيله تعب وليس في الانتفاع به من^١ لأنه رزق تشریف من الله ، وأعطيات الله كلها تشریف وإكرام ، وقد أجاز الطاهر في آية الأنفال أن يكون من ضمن معاني كرم الرزق غزارته وسعته لأن رازقه هو الله الكريم .

وكما رأى بعض المفسرين أن استقلال جملة الموعود به عن الوعد في آية المائدة أبلغ لإفادته حصول الوعد ، وثبوت تحقق المغفرة والثواب فقد رأى هنا بعضهم نفس الحكمة في استقلال جملة الثواب عن فعل المجازاة ، يقول الرازي (قوله " أولئك لهم مغفرة ورزق كريم") يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون لهم ذلك جزاءً فيوصله إليهم لقوله ليجزي الذين آمنوا ، وثانيهما: أن يكون ذلك لهم والله يجزيهم بشيء آخر ، لأن قوله " أولئك لهم" جملة تامة اسمية وقوله تعالى : " ليجزي الذين آمنوا " جملة فعلية مستقلة ، وهذا أبلغ في البشارة من قول القائل : ليجزي الذين آمنوا رزقا)^٢ فكأن للمؤمنين جزاءً من الله لا يُعلم قدره ، و " لهم مغفرة ورزق كريم " .

أما الفريق الآخر وهم الذين كفروا وسعوا في إبطال آيات الله^٣ وصد^٤ عبادته عن عبادته فلهم عذاب فظيع منكر (من رجز: أي شيء كله اضطراب فهو موجب لعظيم النكد والانزعاج فهو أسوأ العذاب " أليم" أي بليغ الألم)^٥ . وقد قوبل الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالذين سعوا في آيات الله بالمعاجزة ، لأن هذا يعني أنهم كذبوا بالله وعملوا السيئات فلا يسعى في إبطال آيات الله إلا كافر ، والكافر الساعي في الآيات مشتغل بعمل السيئات^٦ .

ولعلّ اختلاف الجملتين بالفعلية والاسمية حيث جاءت جملة المجازاة بالثواب فعلية وجملة العقاب اسمية لنفس الحكمة الواردة في آية المائدة السابقة مع اختلاف دلالة الفعل المضارع هنا

^١ - انظر البقاعي جـ ١٥ ص ٤٤٨ ، أبو السعود جـ ٧ ص ١٢٢ حاشية الشهاب جـ ٧ ص ١٩٠ المتن الهامش ، الألوسي جـ ٢٢ ص ١٠٧ .

^٢ - الرازي جـ ٢٥ ص ٢٤١ .

^٣ - انظر ابن جرير جـ ٢٢ ص ٤٣ ، ابن عطية جـ ١٣ ص ١٠٩ ، الرازي جـ ٢٥ ص ٢٤٢ ، القرطبي جـ ١٤ ص ٢٦١ ، أبو حيان جـ ٧ ص ٢٤٩ ، ابن كثير جـ ٥ ص ٥٣٠ ، البقاعي جـ ١٥ ص ٤٤٨ ، أبو السعود جـ ٧ ص ١٢٢ ، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ١٩٠ المتن والهامش ، الألوسي جـ ٢٢ ص ١٠٧ ، الطاهر جـ ٢٢ ص ١٤٢ .

^٤ - انظر ابن عطية جـ ١٣ ص ١٠٩ ، أبو حيان جـ ٧ ص ١٢٢ ، أبو السعود جـ ٧ ص ١٢٢ ، حاشية الشهاب جـ ٧ ص ١٩٠ المتن

والهامش ، الألوسي جـ ٢٢ ص ١٠٧ ، الطاهر جـ ٢٢ ص ١٤٢ .

^٥ - البقاعي جـ ١٥ ص ٤٤٨ .

^٦ - انظر الرازي جـ ٢٥ ص ٢٤٢ ، الطاهر جـ ٢٢ ص ١٤٣ .

- عن الماضي هناك - الذي قد يفيد استحضر صورة المجازة^١ أو تجدد حدوث المجازة في الدنيا والآخرة^٢ وعلى هذا تفيد جملة الثواب التجدد مقابل إفادة جملة العقاب الثبات والدوام ، ففي الأولى مزيد إسعاد وفي الثانية زيادة في التحسير بقطع رجائهم .

وإذا اختلفت جملتا الجزاء بالفعلية والاسمية فإن جمليتي وصف الثواب والعقاب ذاتهما تشابهتا في الاسمية الدالة على ثبوت ودوام جزاء كل فريق ، كما اتفقتا في الابتداء باسم الإشارة الدال على أن المشار إليه يستحق ما بعد اسم الإشارة بسبب ما ذكر قبلها ثم في التعبير باسم الإشارة للبعيد ، وتقدم المسند المجرور على المسند إليه ، وتنكير المسند إليه وصفته .

ومع هذا التشابه الظاهري فهناك بون شاسع بين دلالتى الجملتين ، فالأولون أشير إليهم بأداة البعد لبيان بُعد منزلتهم في الشرف والفضل^٣ ، والآخرون أشير إليهم بما لبيان بُعد منزلتهم في الشر والسوء^٤ .

وإذا أفاد تقدم المسند في الثواب إسعاد المؤمنين بتكريم الله لهم بملكية الثواب فقد أفاد تقديمه في العقاب إشقاء الكافرين بذكر استحقاقهم للعذاب الأليم . وللمؤمنين سترٌ وتجاوز عن ذنوبهم ورزقٌ نفيس شريف يعيش هنيئاً في الآخرة لا تعب في تحصيله ولا منٌ يلحق معطاه ، وللكفار المعاجزين في المقابل عذاب بالغ الإيلام يعيش مضطرب موجب لعظيم النكد والانزعاج . فأولئك ينعمون في أحسن أنواع النعيم وأنفسها وأفضلها بما دل عليه وصف الرزق من الكرم ، بعد سقوط سيئاتهم عنهم فهُمْ لا يخشون التذكير بها كما سبق أن ذكر^٥ وهؤلاء أي الكفرة يتقلبون في عذاب من أسوأ وأشد أنواع العذاب وهو الرجز الذي أصله (الاضطراب ... فقله تعالى : "عذابٌ من رجز أليم" فالرجز هاهنا كالزلزلة)^٦ . ومع شدة التباين بين هذين الطرفين بما يفيد أنه تعالى يُنعم (السعداء من المؤمنين ويعذب الأشقياء من

١ - انظر شروح التلخيص جـ ٢ ص ٨٨، ٨٩ عن الحديث عن دلالة المضارع في قوله تعالى : "ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم" و "ربما يود الذين كفروا".

٢ - انظر شروح التلخيص جـ ٢ ص ١٩ .

٣ - انظر أبو السعود جـ ٧ ص ١٢٢ .

٤ - انظر الألويسي جـ ٢٢ ص ١٠٧ .

٥ - انظر على سبيل المثال في الفصل الأول من الباب الأول من هذا البحث عند الحديث عن آية محمد رقم (١٥).

٦ - الرغب الأصبهاني ، المفردات ، ص ٢٧٤ .

الكافرين) ^١ نجد في الآيات إشارة إلى سعة رحمة الله وسبقها لغضبه فقد ذكر في جانب المؤمنين أن (لهم مغفرة ورزق كريم" ولم يقله بمن التبعية فلم يقل (لهم نصيب من رزق) ولا (رزق من جنس كريم) وقال هاهنا " لهم عذابٌ من رجز أليم" بلفظة صالحة للتبعيض وكل ذلك إشارة إلى سعة الرحمة وقلة الغضب بالنسبة إليها) ^٢ فقد ذهب الرازي إلى أن وصف الرزق بالكريم تميز له عما ليس بكريم كالزقوم والحميم ^٣.

وبمراجعة المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وجدتُ أن الرزق لم يثبت لغير الله ولم يوصف بغير الحُسن والكرم مما يفيد أن إطلاق لفظ الرزق في القرآن لا يكون إلا للعتاء الطيب سواءً كان في الدنيا أو في الآخرة .

ومن المواطن التي ورد فيها لفظ الرزق سورة الحج قال تعالى

قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا

مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

الحج ٤٩-٥١ مدنية

فقد طلب الكفار من الرسول صلى الله عليه وسلم التعجيل بالعذاب فأمره الله تعالى أن يخبرهم أن مهمته مقصورة على النذارة من العذاب وأما تقديمه أو تأخيره فليس ذلك له . وفي تقديم الجار والمجرور في قوله "إنما أنا لكم نذير" إيماءً إلى أنهم مقدمون على شر عظيم فلذلك استحقوا النذارة ^٤ . وقد (وصف نذارته وبشارته ولم يجر للبشارة ذكر ولما ذكرت النذارة على عمل عُلِمَ أن البشارة على خلافه فقال والذين آمنوا) ^٥ وفي هذا إشارة إلى اقتران البشارة

^١ - ابن كثير ج٥ ص ٥٣٠ .

^٢ - الرازي ج٥ ص ٢٤٢ .

^٣ - انظر المصدر السابق .

^٤ - انظر الطاهر ج١٧ ص ٢٩٤ .

^٥ - ابن جرير ج١٧ ص ١٣٠ .

بالندارة في الكتاب الكريم لأنه يستدل على إحداها بوجود الأخرى . وقد طوي ذكر البشارة لأن المقام للتخويف ، ولأن الندارة هي مقصود الدعوة الأعظم لعظم مسؤوليتها وقلة المستطيعين حملها^١ ثم بُدئ بالبشارة ، وقد قيل في الحكمة من البدء بها أن المشركين هم المقصودون بالحديث وإنما ذكر الثواب للمؤمنين زيادةً في غيظ الكافرين وإيذائهم^٢ . وهو ما ذكره الزمخشري حين قال (الحديث مسوق إلى المشركين ... وإنما أقحم المؤمنون وثوابهم ليغاظوا^٣)^٤ . وقد فسّر المفسرون الرزق الكريم بما يشابهه سابقه ففسّر ابن عطية كرمه بنفسي المدام عنه^٥ وابن جرير وابن كثير بالحسن^٦ وأبو السعود والبيضاوي والشهاب بجيازة الكمال في الصفات^٧ ، وجمع بينها كلها الرازي^٨ ولكن البقاعي رأى في البشارة بالرزق في هذا الموطن ارتباطاً بموضوع الآيات فقال : (ولما كان هذا أول الإذن في القتال الموجب لمنابذة الكفار ومهاجرة الأهل والأموال والديار وكان ذلك - مع كونه في غاية الشدة - موجباً للفقر عادة قال محققاً له ومنبهاً على أنه سبب الرزق "ورزق" أي في الدنيا بالغنائم وغيرها والآخرة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)^٩ فالذين تركوا الكفر واختاروا الإيمان جوزوا بمغفرة ذنوبهم التي لا ينجو منها أحد (لأنه لن يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره)^{١٠} ولأنهم قضوا حياتهم في الطاعات ومراضي الله تعالى فقد جوزوا بعطاء دائم عزيز جليل من الرزاق الكريم في الدنيا بالغنائم وغيرها وفي الآخرة بالجنة ونعيمها ويقابل هؤلاء الذين استحبوا الكفر على الإيمان وقرنوه بسبيء الأعمال وهو السعي في الآيات تحدياً لقدرة الله عز

١ - انظر البقاعي جـ ١٣ ص ٦٧ .

٢ - انظر الرازي جـ ٢٣ ص ٤٧ ، أبو حيان جـ ٦ ص ٣٥١ ، أبو السعود جـ ٦ ص ١١٢ ، حاشية الشهاب جـ ٦ ص ٣٠٤ المتن والهامش ، الألوسي جـ ١٧ ص ١٧١ .

٣ - في الكتاب (ليغافلوا) ولكنها وردت في كل التفسير التي تأخذ عادة عن الزمخشري (ليغاظوا) وهو الأنسب بالمعنى ، فلعله تحريف في النسخة الأصلية . انظر الرازي جـ ٢٣ ص ٤٧ ، أبو حيان جـ ٦ ص ٣٥١ ، أبو السعود جـ ٦ ص ١١٢ ، حاشية الشهاب جـ ٦ ص ٣٠٤ المتن والهامش ، الألوسي جـ ١٧ ص ١٧١ .

٤ - الزمخشري جـ ٣ ص ١٨ .

٥ - انظر ابن عطية جـ ١١ ص ٢١٠ .

٦ - انظر ابن جرير جـ ١٧ ص ١٣٠ ، ابن كثير جـ ٤ ص ٦٥٤ .

٧ - انظر أبو السعود جـ ٦ ص ١١٣ ، حاشية الشهاب جـ ٦ ص ٣٠٤ المتن والهامش .

٨ - انظر الرازي جـ ٢٣ ص ٤٧ .

٩ - البقاعي جـ ١٣ ص ٦٧-٦٨ .

١٠ - البقاعي جـ ١٣ ص ٦٧ ، وانظر البقاعي جـ ١٥ ص ٤٤٨ ، أبو السعود جـ ٧ ص ١٢٢ ، الألوسي جـ ٢٢ ص ١٠٧ في تفسير آية سبأ (٤) .

وجل فحوزوا بإسلامهم للعذاب إسلام الصاحب لصاحبه فلا ينفكون عنه أبداً وقد ذكر الشهاب في قوله تعالى: "إنما أنا لكم نذير مبين" أن (عدم ذكر المنذر به للتعميم فيه فيشمل عذاب الدارين)^١ أي أن النذارة تشمل عذاب الدنيا والآخرة وعلى هذا تكون مقابلة ثواب الدارين بالعقاب في الدارين .

وقد لحظت أن المغفرة ترتبط بالثواب إذا جاءت عقب أوامر ونواه^٢ مما يحتمل الطاعة والعصيان فتكون المغفرة للمؤمنين الصالحين ، أو بعد ذكر الكفر والمعاصي^٣ كما لحظت أن المجازاة بالرزق الكريم أتت في سور ذكر فيها الإنعام على العباد بالرزق كالمطر وغيره ، ففي سورة سبأ ذكر رزق الله لعباده^٤ وبسطه الرزق لمن يشاء^٥ وفي الأنفال كان الحديث عن الغنائم^٦ وهي رزق الله لعباده وذكر المطر الذي أنزله الله أمانةً منه^٧ ، وفي سورة الحج ذكر نزول المطر^٨ وذكر الرزق الحسن^٩ .

في أوصاف الجزاء :

من ألفاظ الجزاء التي وردت في هذا الفصل الأجر والرزق وقد جاء الأجر في القرآن موصوفاً بالكبر في خمسة مواضع^{١٠} وبالحسن في موضعين^{١١} والعظمة ثمانية عشر موضعاً^{١٢} وبالكرم في أربعة مواضع^{١٣} ، وبعدم المن في أربعة مواضع^{١٤} .

^١ - حاشية الشهاب ج ٦ ص ٣٠٤ .

^٢ - الأنفال آية (٤) ، المائدة (٩) ، الحجرات (٣) ، الأحزاب (٣٥) .

^٣ - الأنفال آية (٧٤) ، الحج (٥٠) ، النور (٢٦) ، سبأ (٤) ، يس (١١) ، هود (١١) ، فاطر (٧) ، الملك (١٢) .

^٤ - آية (١٥) ، (٢٤) .

^٥ - آية (٣٩) .

^٦ - آية (١) ، (٤١) .

^٧ - آية (١١) .

^٨ - آية رقم (٥) ، (٦٣) .

^٩ - آية رقم (٥٨) .

^{١٠} - هود (١١) ، فاطر (٧) ، الحديد (٧) ، الملك (١٢) ، الإسراء (٩) .

^{١١} - الكهف (٢) ، الفتح (١٦) .

^{١٢} - آل عمران (١٧٢) ، (١٧٩) ، المائدة (٩) ، الأنفال (٢٨) ، التوبة (٢٢) ، الحجرات (٣) ، التغابن (١٥) ، النساء (٤٠) ، (٦٧) ،

(٧٤) ، (٩٥) ، (١١٤) ، (١٤٦) ، (١٦٢) الأحزاب (٢٩) ، (٣٥) ، الفتح (٥) ، (٢٩) .

^{١٣} - يس (١١) ، الحديد (١١) ، (١٨) ، الأحزاب (٤٤) .

^{١٤} - فصلت (٨) ، القلم (٣) ، الانشقاق (٢٥) ، التين (٦) .

ووصف الرزق بالحسن في أربعة مواضع^١ وبالكرم في ستة مواضع^٢.

وقد ذكر النيسابوري في آية الإسراء أنه سبحانه قال: ("أجرأ كبيراً" وفي أول الكهف "أجرأ حسناً" رعاية للفاصلة ، وإلا فالأجر الكبير والأجر الحسن كلاهما الجنة)^٣ ولعل هذا القول على التسامح ، وإلا فإن وصف الأجر بالحسن يختلف عن وصفه بالكبر ، ووصفه بالكرم أو العظمة .

وبالتأمل في هذه الصفات في كلام المفسرين نجد تأكيداً للخلاف فقد فُسر الأجر الكبير بأنه (يعني ثواباً عظيماً وجزاءً جزيلاً)^٤ وأنه الربح الأكبر والنفع الأعظم^٥ وأنه كبير (بحسب الذات وبحسب التضعيف عشر مرات فصاعداً)^٦ وفسر الأجر الحسن بأنه (نعيم الجنة)^٧ وأنه (مثوبة عند الله جميلة)^٨ وأنه (الجنة وما فيها من المثوبات الحسنى)^٩ أما الأجر الكريم فقد فُسر بأنه أجر للمؤمن (يأتيه من غير طلبه بخلاف الدنيا فإنه يطلب الرزق ألف مرة ولا يأتيه إلا بقدر)^{١٠} وشبيهه وصف الرزق بالكرم الدال على نفاسته - كما سبق ذكره عند دراسة آية سبأ - .

أما الأجر العظيم فقد فُسر بأنه (العظيم من خير غير محدود مبلغه ولا يُعرف منتهاه غيره تعالى ذكره)^{١١} وأنه (لا تعرف كنهه أفهام الخلق)^{١٢} وأنه (لا يدخل تفاوت درجاته تحت الحصر)^{١٣}. أما الأجر غير الممنون فقد مر ذكره عند الحديث عن موضعي سورتي فصلت والانشقاق وذكر أنه غير المقطوع أو الناقص وليس فيه تنغيص ولا تكدير بوجه من الوجوه .

١ - هود (٨٨) ، النحل (٦٧) ، (٧٥) ، الحج (٥٨).

٢ - الأنفال (٤) ، (٧٤) ، الحج (٥٠) ، النور (٢٦) ، سبأ (٤) ، الأحزاب (٣١).

٣ - النيسابوري يلمش جامع البيان جـ ١٥ ص ١٢ .

٤ - ابن جرير جـ ١٥ ص ٣٧ .

٥ - انظر الرازي جـ ٢٠ ص ١٦١ .

٦ - أبو السعود جـ ٥ ص ١٥٨ في تفسير آية الإسراء رقم (٩).

٧ - ابن عطية جـ ١٠ ص ٣٦٣ .

٨ - ابن كثير جـ ٤ ص ٣٦٥ .

٩ - أبو السعود جـ ٥ ص ٢٠٣ في تفسير آية الكهف رقم (٢).

١٠ - الرازي جـ ٢٥ ص ٢١٦ في تفسير آية الأحزاب رقم (٤٤).

١١ - ابن جرير جـ ٦ ص ٩٢ .

١٢ - القرطبي جـ ٦ ص ١١٠ .

١٣ - البقاعي جـ ٦ ص ٤٤ .

ووصف الرزق بالكرم والحسن قريب من وصف الأجر وبالتأمل في كل ما ذكر نجد أن الوصف بالكبير ينظر إلى مقدار الجزاء من حيث المضاعفة ووصفه بالحسن ينظر إلى طبيعته من حيث جماله وسعادة الإنسان به أما وصف الأجر بالكرم فناظر إلى نفاسته في ذاته وإكرامه لمعطاه . ويأتي الوصف بالعظمة ملائماً لارتفاع درجته إلى حد لا يمكن تصوره .

وقد لحظت أن الوصف بالكبر والعظمة جاء مع غير الأجر كالضلال والفساد والعذاب أما الوصف بالكرم والحسن فلم يأت إلا في الأجر والرزق وما شابههما من خير المعاني والأشياء . كما لحظت أن الرزق لم يأت في القرآن إلا فيما هو من عند الله وما هو خير وحسن في ذاته وذكر هذه الملحوظة عن لفظ الأجر د/ صباح دراز في كتابه من الإعجاز البلاغي في القرآن^١ .

بقي في هذا الفصل سؤال وهو ما الحكمة من بجيء ألفاظ الجزاء مجملة في هذه المواضع ومفصلة في غيرها ؟ هل لإيجاز السياق ؟ أو لأن البشارة والندارة أتت عرضاً ضمن الحديث عن قضايا أخرى ؟ أو لاستثارة الذهن وتحريكه نحو ما تخفيه هذه العبارات الموجزة من عظيم المعاني ؟ أو للتشويق إلى معرفة الجزاء الموصوف بصفات الحسن والكبر والعظمة والكرم والتحذير والتنفير مما يوصف بأوصاف الشدة والإيلام نحو (عذاب شديد) (عذاب أليم) (بأساً شديداً) ؟

^١ - انظر ص ٤٢ .